

الْكِتَابُ الْأَوَّلُ

في الفضائل وصالح الأخلاق والمثل العليا
التي يجمل بكل من ينشد السعادة في
الدارين أن يجهد جهده في التحلي بها

[وهذا الكتاب مكسور على خمسة عشر بابا بينها]

[جميعا لئمة نسب وقرابة]

الباب الأول

في البرِّ والتقوى

البرُّ وألوانه

قال علاؤنا ما خلاصته: إِنَّ أَسْلَ مَعْنَى الْبِرِّ: السَّعَة ، ومنه البرُّ - بفتح الباء - مقابل البحر ، ثم اشتُقَّ منه البرُّ بمعنى التوسع في فعل الخير ، وكُلَّ فَعْلٍ مَرَضِيٌّ ... وهكذا أطاؤه على التوسع في الإحسان إلى الناس ، وهو بُابُ البرِّ ؛ وعلى صِلَةِ الرَّحْمِ ، وهي مُنَوَانُ الْبِرِّ ؛ وعلى التقوى ، وهي جَمَاعُ الْبِرِّ^(١) ، قال تعالى : وَالكَانَ الْبِرُّ مِنْ اتَّقَى ، وقال كبيد :

• وَمَا الْبِرُّ إِلَّا مُضْمَرَاتٌ مِنْ التَّقَى •

وَوَرَدَ الْبِرُّ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَفِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ وَفِي شِعْرِ الْعَرَبِ مُقَابِلًا الْإِنْتِمِ - وَالْإِنْتِمِ : الشَّرُّ وَكُلُّ فَعْلٍ غَيْرِ مَرَضِيٍّ بِمَا يُؤْتِمُّ - قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِنْتِمِ وَالْعُدْوَانِ . وَاقْتِرَانَهُ بِالتَّقْوَى يُدُلُّ عَلَى أَنَّ الْبِرَّ بِسَبِيلِ مَنْ التَّقْوَى ، وَرُوي أَنَّ سَائِلًا سَأَلَ الْمُصْطَفَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ عَنِ الْبِرِّ وَالْإِنْتِمِ ، فَقَالَ : الْبِرُّ مَا سَكَنْتُ إِلَيْهِ نَفْسُكَ وَاطْمَأَنَّ بِه قَلْبُكَ ، وَالْإِنْتِمُ مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ وَتَرَدَّدَ فِي صَدْرِكَ ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ ، أَوْ كَمَا قَالَ . د حَاكَ فِي نَفْسِكَ : أَيْ أَتَرَ فِيهَا وَرَسَخَ وَحَزَّ

(١) ولان البر يتطابق على كل أولئك ، قال الإمام البيضاوي : البر ثلاثة : بر في

عبادة الله ، وبر في مراعاة الأقارب ، وبر في معاملة الأجانب

وَقَدَحَ ، وقوله : وإن أفتاك الناس : أى وإن جعلوا لك فيه رُخصةً وجوازاً ،
وقال زُهَيْرُ بْنُ أَبِي سُلَيْمٍ :

وَالْإِثْمُ مِنْ شَرِّ مَا يَصَالُ بِهِ وَالسِّرُّ كَالْعَيْثِ نَبْتُهُ أَمْرٌ

« ما يصال به : ما يُفتخر به ، وأمرٌ : كثيرٌ مبارك ، ومن أسماء الله البرّ -
بفتح الباء - ومعناه الواسع الخبير ، وقوله تعالى : لَن تَنَالُوا البرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا
تُحِبُّونَ ، فمعناه : لن تنالوا برَّ الله ، أى لن تنالوا خَيْرِي الدنيا والآخرة حتى
تنفقوا مما تحبون ، أما خير الدنيا فهو ما يسره الله للعبد من الهدى والنعمة ،
وأما خير الآخرة فهو الفوز بالنعيم الدائم فى الجنة ، أو تقول : لن تنالوا
حقيقة البرّ - أى الخير - حتى تنفقوا مما تحبون ... والأبرار : الأخيار ، جمع برّ ،
وقد قولت كلمة الأبرار بالفُجَارِ فى قوله تعالى : إن الأبرارَ لنى نعيم . وإن
الفُجَارَ لنى جحيم - والفجار : الذين ينبعثون فى الشرور والآثام - وحج
مُبرور : مقبول يجازى بالبر ، أى الثواب ، أى خير الآخرة ؛ وبرّ فى يمينه
أى صدق ، أى كان خيراً فيه بهذا الصدق .

« وبعد » فكل ما أوردوه من معانى البرّ فى الخیر مرّده ...



ولهم فى البرِّ مُطلقاً ، أى الخیر غير مقيد بلون من ألوانه ، عبقریات وذخائر ،
فمن ذلك قول الحُطَيْبَةِ :

وَمَنْ يَفْعَلِ الخَيْرَ لَا يَعدَمُ جَوَازِيَهُ لَا يَذْهَبُ العُرْفُ بَيْنَ الله وَالنَّاسِ

« جَوَازِيَهُ : جمع جازية اسم مصدر للجزاء ، كالعاقبة ، أى لا يعدم جزاء عليه ،

قال أبو عمرو بن العلاء : لم يقل العرب بيتاً قط أصدق من بيت الحطيبية
هذا ، فقيل له : فقول طرفة بن العبد :

سَتُبَدِي لَكَ الْآيَامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدْ

فقال : مَنْ يَأْتِيكَ بِهَا يَمَنْ زَوَّدَتْ أَكْثَرَ ، وليس بيت بما قالته الشعراء إلا وفيه مطعن ، إلا قول الخطيئة هذا . ويروى أن كعباً الحِمْيَرِيَّ - المشهور بكعب الأجر - لما سمع هذا البيت قال : والذي نفسى بيده : إن هذا البيت لمكتوب في التوراة ، ... وقال عبيد بن الأبرص :
والخَيْرُ يَبْقَى وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ بِهِ وَالشَّرُّ أَخْبَثُ مَا أَوْعَيْتَ مِنْ زَادٍ
« يقال : أوعيت الزاد والمتاع : إذا جعلته في الوعاء ،
وقال أبو العتاهية :

لَيَعْلَمَنَّ النَّاسُ أَنَّ التَّقَى وَالْبِرَّ كَانَا خَيْرَ مَا يُذْخَرُ

وقبله قال الأخطل - ورواه المبرّد في الكامل للخليل بن أحمد واضع علم العروض - :

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال
روى صاحب الأغاني : أن هشام بن عبد الملك لما سمع الأخطل وهو يقول هذا البيت قال : هنياً لك أبا مالك هذا الإسلام ا فقال الأخطل :
يا أمير المؤمنين ، ما زلت مُسْلِماً في ديني ؛ وقبل هذا البيت في ديوان الأخطل :
والناس همهم الحياة وما أرى طول الحياة يزيد غير خبال
« الخبال : الفساد ، أو هو لون من الجنون ، ...

وقال أحمد شوقي في نهج البردة : - وهذه الآيات يصح أن تذكر في باب التقوى وفي باب الدنيا وفي الزهد ، كما يصح أن تذكر في هذا الموضع - :

يَانْفَسُ دُنْيَاكَ تُخْفِي كُلَّ بُكْيَةٍ وَإِنْ بَدَأَكَ مِنْهَا حُسْنٌ مُبْتَمِرٍ
نُضِي بَقَوَاكِ فَاهَاً كَمَا ضَحِكَتْ كَمَا يُفَضُّ أَذَى الرَّقْشَاءِ بِاللَّتْرِمْ
لَا تُحْنِلِي بِجَنَاهَا أَوْ جِنَايَتِهَا الْمَوْتُ بِالزَّهْرِ يَثُلُ الْمَوْتُ بِالْفَعْمِ

صَلَحُ أَمْرِكَ لِلْأَخْلَاقِ دَرْجَعُهُ فَقَوِّمِ النَّفْسَ بِالْأَخْلَاقِ تَسْتَقِيمُ
وَالنَّفْسُ مِنْ خَيْرِهَا فِي خَيْرِ عَاقِبَةٍ وَالنَّفْسُ مِنْ شَرِّهَا فِي مَرَاتِعِ وَخَمٍ
« المبتسم: يريد الابتسام، أو موضع الابتسام، وهو الثغر. والرقشاء
من الحيات: المُنْقَطَّة بالسواد والبياض. وأذى الرقشاء: سُئِمَهَا. والثرم:
كسر السن من أصلها. والجنى: ما يُجْنَى من الشجرة ويقطف من ثمرها؛
يقول في هذا البيت: إن سعادة الدنيا وشقاءها بمنزلة سواء، وكلاهما ألمٌ
غير أن أحد الألمين ينزل بساحة النفس سافراً غير مُتَكْرٍ - وهو جنابتها
أى آلامها - والآخر - وهو جناها أى لذاتها - يتسرب إليها من أبواب
غفلتها فيتجمل ويخُلب حتى ينال منها، إذ أن من ورائه السَّمُّ ناقعا، فثلهما في
ذلك مثل الموت بالفحم والموت بالزهر، كلاهما موت، وإن كان هذا من
أثر الاختناق بأرج الزهر، وذلك من دَخْن الفحم. والمرتع: من رعت
الماشية: أكلت ماشاءت، والمرتع: مكان الرتوع، والوخم: الردىء البوىء،
وقال المعرى:

وَلْتَفْعَلِ النَّفْسُ الْجَمِيلَ لِأَنَّهُ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ لِأَجْلِ ثَوَابِهَا
« يقول المعرى: إن فعل كل ما هو جميلٌ خيرٌ وأحسن من فعل
ماليس بجميل، ولو لم يجن المرء من وراء الجميل وفعله إلا أنه خير وأحسن
وأسمى وأرفع؛ لكان في ذلك الغناء كله، أما فعلُ الجميل ونُصِبَ عينِ فاعله
ذلك الثواب الذى سيجازى به، فإن هذا إسفاف بالإنسانية إلى الحضيض
الأوهد، ويُعدُّ من الأعمال التى يرفهها الله إلى أسفل، وجملة القول: إنه غير
لائق بالكمال والمثل الأعلى، أليس من كان هذا شأنهم إنما يتاجرون الله الذى
يعلم السرّ وأخفى، والذى هو جميل يحب الجمال! وسترى فى باب التقوى

كثيرا من عقوباتهم في هذا المعنى - منى فمل الخير حبا في الخير، وولوعا بالحق والجمال والمثالية الكامنة فيه .



ومما روى لنا من أحاديث سيدنا رسول الله في هذا الباب قوله صلوات الله عليه : رأيت الجنة والنار فلم أر مثل الخير والشر . . . قال ابن الأثير في النهاية : أى لم أر مثلهما لا يُمَيِّزُ بينهما فَيُبَالِغُ في طلب الجنة والهرب من النار . . . أقول : ولعل الأظهر أن يكون المعنى : لم أر شيئا يكون وُصْلَةً إلى دخول الجنة مثل الخير ، ولم أر شيئا يكون سبباً في دخول النار مثل الشر^(١) . . هذا ، وإن أبى المُلْحِدُونَ وأشباه الملحدين إلا أن يُؤوِّلُوا الجنة بأنها الهناءُ وِعِبْطَةُ الروح التي يَشْعُرُ بها الأخير البررة ويرأحون لها في هذه الحياة ، والنازَ بأنها السَّمَاءُ التي يُعَانِيهَا الأشرار الفجرة ، ويتسعر ليهيها في أحناء ضلوعهم ، فهم وما يختارون ويَحْلُولِي لهم ، إذ أن هذا - أى سعادة الخير في الدنيا وسماوة الشرير فيها - حق وصحيح في ذاته ، وإن لم يك مراداً لاندياء الله ورسله بالجنة والنار ، حين يريدون الجنة والنار بمعناها المعروف ، على أن الإسلام على ذلك يمتد بالسعادة والسماوة في الدنيا كما أنه يعتد بهما فيما بعد الموت . . . وفي الحديث أيضا : خَيْرُكُمْ من يُرْجَى خَيْرُهُ وَيُؤْمَنُ شَرُّهُ ، وَشَرُّكُمْ من لا يُرْجَى خَيْرُهُ ولا يُؤْمَنُ شَرُّهُ . . . وقال صلوات الله عليه :

(١) ورد هذا الحديث عن أنس بن مالك هكذا : صلى لنا النبي صلى الله عليه وسلم ثم رقى المنبر ، فأشار يده إلى قبة المسجد وقال : لقد رأيت الآن منذ صليت لكم الجنة والنار ممثلين في قبة هذا الجدار فلم أر كاليوم في الخير والشر . . الجامع الصغير ،

خير الناس خيرهم لنفسه « ومعناه : إذا جاملَ الناسَ جاملوه وإذا أحسن إليهم كفاؤه بمثله » وأما الحديث : خيركم خيركم لأهله ؛ فهو حث على صلة الرحم ، وسيأتي ... ومما يُؤثرُ من أحاديث سيدنا رسول الله في هذا الباب قوله صلوات الله عليه : شرُّ الناس من خافه الناس اتقاءً شره « ومثل هذا القول تبكيت للشرير؛ وأنه وإن ظفر بما يظفر به من أغراض هذه الدنيا فهو خاسرٌ دائمٌ » وكان من دعاء سيدنا رسول الله : إن الخيرَ بيدك والشرُّ ليس إليك « يريد : أن الشر لا يُتقرب به إليك ولا يُبتَغى به وجهك ، أو أن الشر لا يصعد إليك وإنما يصعد إليك الطيب من القول والعمل ، كما قال سبحانه : إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه . وفي هذا الدعاء إرشاد إلى استعمال الأدب في الثناء على الله والدعاء ، وأن تضاف إليه محاسن الأشياء دون مساوئها... ومن كلمة لعلي بن أبي طالب : إن للخير والشر أهلاً ، فهما تركتموه منهما كفاكموه أهله « يقول رضى الله عنه : إنَّ عنَّ لك باب من أبواب الخير وتركته فسوف يكفيك بعض الناس ممن جعله الله أهلاً للخير ، وإنَّ عنَّ لك بابٌ من أبواب الشر فتركته فسوف يكفيك بعض الناس ممن جعلهم الله أهلاً للشر وأذى الناس ، فاختر لنفسك أيما أحب إليك : أن تحظى بالمحمدة والثواب وتفعل ما إن تركته فعله غيرك وحظي بحمده وثوابه ، أو أن تتركه ، وأيما أحب إليك : أن تشقى بالذم عاجلاً والعقاب آجلاً وتفعل ما إن تركته كفاك غيرك وبلغت غرضك منه على يد غيرك ، أو أن تفعله ؛ وإذا نـفى بالعاقل أن يُؤثرَ فعلَ الخير وتركَ الشر ما وجد إلى ذلك سبيلاً ، ومن قولهم في أوصاف البررة الأخيار : فلانٌ نَقى الساحة من المآثم ، يرىُ الذمَّة من الجرائم ؛ إذا رضى لم يقل غير الصدق ، وإذا سخط لم يتجاوز

جانبَ الحقِّ ؛ يرجع إلى نفسِ أَمارةٍ بالخيرِ ، بعيدةٍ من الشرِّ ، مدلولةٍ على سبيلِ البرِّ ... ووصفَ أعرابيٌّ رجلاً بلونٍ من ألوانِ البرِّ وبالأمعية والذكاء والحصافة والآنأة قال : كان - والله - الفهمُ مِنْهُ ذَا أُذُنَيْنِ ، والجوابُ ذَا لِسَانَيْنِ ، لم أرَ أحداً كان أُرْتَقَى لِخَلَلِ رَأْيِي مِنْهُ ، ولا أبعدَ مسافةً رَوَيْتَهُ وَمَرَادَ طَرْفٍ ، إنما يرمى بهمته حيث أشار إليه الكرم ، وما زال - والله - يَتَحَسَّى مَرارةَ أَخلاقِ الإخوانِ وَيَسْتَقِيمُ عُذُوبَةَ أَخلاقِهِ ... كان الفهم منه ذَا أُذُنَيْنِ : يريد أنه كان يعي ويتفطن لما يرى ويسمع فطنة أوفت على الغاية ، إذ أنها فطنة مضاعفة ، فكأن له آذنين . أما قوله : والجوابُ ذَا لِسَانَيْنِ : فإما يريد قوة العارضة واللِّسَنَ ، وهذا غير قولهم : فلان ذو وَجْهَيْنِ وذو لِسَانَيْنِ ، يريدون : النفاق والذبذبة . ورتق الفتق : أصاحه ، والمراد : المكان من راد يرود : إذا جاء وذهب ، ويتحسى : يقال حسا الماء : شربه ، وتحساه : إذا شرب في مُهَلَّةٍ ، وهو هنا مجاز .

ومن كلمة لابن المقفع يصف الرجل يتلاقى البرُّ في بُردِيهِ بألوانِ شَتَّى مِنْ المُثَلِّ العُلَماءِ وأخلاقِ السادة ، في أسلوبٍ بديع - وقد وردت هذه الكلمة في نهج البلاغة منسوبةً لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه : - كان لي أخٌ في الله ، كان أعظمَ الناسِ في عيني ، وكان رأسَ ما عَظَّمَهُ في عيني صِغَرُ الدنيا في عَيْنِيهِ ، كان خارجاً من سلطانِ بَطْنِهِ ؛ فلا يَتَشَهَّى ما لا يَجِدُ ، ولا يُكثِرُ إذا وَجَدَ . وكان خارجاً من سلطانِ فَرَجِهِ ؛ فلا يدعُرُ إليه وَؤنُهُ ، ولا يَسْتَحِفُّ إليه رأياً ولا بَدَناً ، وكان لا يتأثر عند نعمة ، ولا يستكين عند مصيبة ، وكان خارجاً من سلطانِ لِسَانِهِ ؛ فلا يتكلم بما لا يعلم ولا يماري فيما علم . وكان خارجاً من سلطانِ الجِهالةِ ؛ فلا يُقَدِّمُ أبداً إلا على ثِقَةٍ بنفسه ، وكان

أكثرَ دهره صائناً ، فإذا قال بزَّ القائلين ، وكان ضعيفاً مستضعفاً ، فإذا جَدَّ الجسدُ فهو الليث عاديًا ، وكان لا يدخل في دعوى ، ولا يشارك في وراءٍ ، ولا يُدلي بحُجَّةٍ ، حتى يرى قاضياً قهماً وشهوداً عدولاً ، وكان لا يلومُ أحداً فيما يكرن العذر في مثله حتى يعلمَ ما عذرُهُ ، وكان لا يشكو وجمعه إلا عند من يرجو عنده البرء ، ولا يستشير صاحباً إلا أن يرجو منه النصيحة . وكان لا يتبرم ولا يتخط ، ولا يتشكى ولا يتشهى ، ولا ينتقم من العدو ولا يقبلُ عن الوليِّ ، ولا يخصُّ نفسه بشيء دون إخوانه ، من اهتمامه وحيثه وقوته ... فمليك بهذه الأخلاق إن أطقها ، ولن تطيق ، ولكن أخذ القائل خيراً من ترك الجميع ... قوله كان لي أخ الخ : فليس يعني أبا بعينه ولكن هذا كلام خارج مخرج المثل ، وعادة العرب جارية بذلك مثل قولهم في الشعر : فقلت لصاحبي ، وباصاحبي . وقوله : فلا يتشهى مالا يجسد ، فإن ذلك لعمرى من سقوط المروءة . قال الأحنف بن قيس : جئبوا مجالسنا ذكر تشهى الأطعمة وحديث الكاح ؛ ومن طريف الجاحظ مارواه عن نفسه : جالسنا في دار فجلنا تشهى الأطعمة ، فقال واحد : أنا أشهى سكباجة كثيرة الزعفران ، وقال آخر : وأنا أشهى هريسة كثيرة الدارصيني ... وإلى جانبنا امرأة بيننا وبينها بئرُ الدارِ ، فضربت الحائط وقالت : أنا حامل ، فأعطوني ملاء هذه الغضارة - الصلحفة - من طيخكم ، فقال ثمامة بن الأشرس : جارتنا هذه تشم رائحة الأمانى وقوله : وكان ضعيفاً مستضعفاً : يريد : كسب الجانب وطأ الأكناف ، ... وقرع رجلٌ بابَ بعض الخيرين من السلف ، في ليل ، فقال لجاريته : أبصرى من القارع ، فأنت الباب فقالت : من ذا؟ قال أنا صديقٌ مولاك ، فقال الرجل : قولى له : والله إنك لصديق ؟ فقالت له ذلك ، فقال :

والله إني لصديق ، فهض الرجل ويده سيف وكيس يسوق جاربه ، وفتح الباب وقال : ماشأذك ؟ قال : راعنى أمر ، قال : لآبك ماسأك ، فإنى قد قسمتُ أمرَك بين صديق : فهذا المال ، وبين عدو : فهذا السيف ، أو مشوق : فهذه الجارية . فقال الرجل : لله بلادُك ، مارأيت مثلك ... « أقول : هذه لعمرى هى أخلاق السادة النبلاء ذوى البر والمروءة والوفاء والحزم والظرف ، وكونٌ - وجود - أمثال هؤلاء من ذوى الإنسانية العالية هو الذى يُحسِّنُ ظننا بالحياة ويحملها فى أعيننا ، ويجعلها مُحْتَمَلَةً مطاقه ، لا كما نرى اليوم ... » ، وقال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت يصف رجلا قليل الخير - أى لا خير فيه - :^(١)

أبى لكِ فِعْلَ الخَيْرِ رَأَى مُقَصِّرٌ وَنَفْسَ أَضَاقِ اللهُ بِالخَيْرِ بِأَعْمَا
إِذَا مَا أَرَادَتْهُ عَلَى الخَيْرِ مَرَّةً عَصَاهَا وَإِنْ هَمَّتْ بِشَرِّ أَطَاعَهَا

ومن قولهم فى قليل الخير :

هُوَ فِي الخَيْرِ قَطُوفٌ وَهُوَ فِي الشَّرِّ وَسَاعٌ

« انقطوف من الإنسان والحيوان : البطيء المتقارب الخطو ، ووساع : واسع الخطو سريع السير ، ومن قولهم فى المتسارين فى الخير والشر . هما كَفَرَسَى رهان ، وهذا فى الخير ، وأما فى الشر فيقال : هما كِحَمَارَى العبادى . والعبادى : رجل من العباد ؛ وهم قوم من قبائل شتى من بطون العرب اجتمعوا على النصرانية فأنفروا أن يتسموا بالعبيد وقالوا : نحن العباد ، وقد نزلوا بالحيرة ومنهم عدى بن زيد العبادى الشاعر المشهور . أما هذا العبادى فيروى أنه قيل له - أى حَمَارِيكَ شَرٌّ ؟ فقال : هذا ، ثم هذا ا

(١) كان عبد الرحمن هذا قد سأل محمد بن عمرو عامل سليمان بن عبد الملك حاجة فلم يقضها ، فسألها عمر بن عبد العزيز رحمه الله فقضاه ، فقال آياتا منها هذان البيتان

وقال الأشعر الرقبان - وهو شاعر جاهلي من بني أسد - يخاطب ابن عمه

له يسمى رضوان ، يصفه بالشر واللوم والندالة والفسولة :

بِحَسْبِكَ فِي الْقَوْمِ أَنْ يَعْلَمُوا بِأَنَّكَ فِيهِمْ غَنِيٌّ مُضِرٌّ
وَقَدْ عَلِمَ الْمَعَشَرُ الطَّارِقُوكَ بِأَنَّكَ لِلضَّيْفِ جُوعٌ وَقُرٌّ
إِذَا مَا انْتَدَى الْقَوْمُ لَمْ تَأْتِهِمْ كَأَنَّكَ قَدْ وَلَدْتَكَ الْحُمْرُ
مَسِيخٌ مَلِيخٌ كَلْحَمِ الْخَوَارِ فَلَا أَنْتَ حُلُوٌّ وَلَا أَنْتَ مُرٌّ

وقوله : غنيٌّ مُضِرٌّ ، فالمُضِرُّ : الذي له ضرةٌ من المال ، وهي القطعة من

المال والإبل والغنم ، أو المال الكثير ، كما هنا ، وانتدى القوم : اجتمعوا

في ناديتهم ، والمسيخ : الذي لا طعم له ، والمليخ مثله ، وخص به بعض اللغويين

الحوار الذي ينجر حين يقع من بطن أمه فلا يوجد له طعم ، وقال ابن الأعرابي :

المليخ من الرجال : الذي لا تشتهي أن تراه حينك فلا تجالس به ولا تسمع أذُنك

حديثه ، والحوار : ولد الناقة ساعة تضعه . . . وما يحسن إيراده في هذا

الباب لللبسته واشتباهه قول عمر رضي الله عنه - وقد قيل له : فلان لا يعرف

الشر - فقال : ذلك أوقع له فيه ، إذ أن معناه : أن لا يكون الإنسان مغفلا وإنما

الواجب الفطنة والحذر وسوء الظن بالناس ، لما جُبل عليه سوادهم من الشر

واللوم والخذاع ، وفي معناه يقول حكيم لابته : استعد بالله من شرار الناس

وكن من خيارهم على حذر . . . وقد كان الفاروق رضي الله عنه لا يقعع

له بالشنان^(١) وكان سي الظن بالناس ، يدل على ذلك شدته وصرامته

(١) لا يقعع له بالشنان : مثل ، أي لا يخدع ولا يروع ، وأصله من تحريك الجلد

اليابس للبعير ليفزع ، ومعنى القعقة : التحريك ، والشنان : جمع شن وهو القرية الخلق

أو الخلق - البالي - من كل وعاء صنع من جلد .

وحذرُهُ وسياسته الحازمة الرشيدة... «وبعد، فإنك ترى في باب طبائع الإنسان كثيرا من عقرياتهم في الشر ووصف الأشرار وحكمة امتزاج الخير بالشر في العالم ، كما أنه سيمرُّ بك قريبا كثير من عقرياتهم في التقوى وحسن الخلق ...

ومن أروع وأجمع ما قيل في البر على سائر ألوانه قوله جلّ شأنه : ليس البرّ أن تُتولوا وُجوهكم قِبَلَ المَشْرِيقِ والمَغْرِبِ ، ولكنّ البرّ من آمنَ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ والملائكةِ والكتابِ والذيين وآتَى المَالَ على حُبّه ذَوِي القُرْبَى واليتامى والمساكينَ وابنَ السَّيْلِ والسَّائِلِينَ وفي الرقابِ وأقامَ الصَّلَاةَ وآتَى الزَّكَاةَ ، والمؤفونَ بعهديهم إذا عاهدوا ، والصابرينَ في البأساءِ والضراءِ وحينَ البأسِ ، أولئك الذين صدقوا وأولئك همُ المتقون ...

«نزلت هذه الآية الكريمة بعد أن أكثر أهل الكتاب من يهود و نصارى ، الخوض في أمر القبلة حين حوّل رسولُ الله إلى الكعبة ، وزعم كل من الفريقين أن البرّ هو التوجُّه إلى قِبَلَتِهِ ، ففندَ اللهُ سبحانه هذا الزعمَ وبهرجته وقال : ليس البرُّ العظيمُ الذي يجب أن تذهلوا بشأنه عن سائر صنوف البرِّ هو أمر القبلة ، ولكنّ البرّ الذي يجب الاهتمامُ به وصرفُ الهمةِ إليه هو برُّ من آمنَ وقامَ بهذه الأعمال ... هذا ، وقوله . ليس البر أن تُتولوا ، فالبرّ بالنّصب خبرٌ ليسَ مُقدّم . وأن تُتولوا . وولّ بمصدر اسم ليس مؤخر ، وقوله : ولكن البر من آمن : إمّا مثلُ قول الخنساء (١) :

(١) الخنساء : هي تماضر بنت عمرو بن الشريد من سروات قبائل بني سليم من أهل نجد ، أشعر النساء في عصرها أدركت الإسلام وأسلمت توفيت سنة ٢٤ هـ وقوله فإنما هي إقبال وإدبار ، من أبيات ترى أخواها صخرا تقول فيها :

فإنما هي إقبالٌ وإدبارٌ * أو تقول : ولكن البرّ : أى ذا البرّ
 أو تقول ، إنه على حذف مضاف ، أى برّ من آمن . وقوله سبحانه : والكتاب ،
 يعنى جنس كتب الله ، أو القرآن . وقوله : على حبه ، أى مع حُبّ المال
 والشُّحِّ به ، وقَدَّم ذوى القربى لأن الإحسان إليهم أفضل ، كما وردَ في
 الأثر : صَدَقْتُكَ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةٌ وَعَلَى ذِي رَحِمِكَ آثَلَتَانِ ، صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ ،
 وابن السبيل : المسافر المنقطع ، وقيل الضيف : لأن السبيل يرْعَفُ به - أى
 يتقدم به ويبرزه للقيمين كما يرْعَفُ الأنف بدم الرعاف - وقوله : وفى الرقاب : أى
 وفى مُعَاوَنَةِ الْمَكَاتِبِينَ حَتَّى يَفْكَرُوا رِقَابَهُمْ وَقِيلَ : فى شراء الرقاب وإعتاقها ،
 وقيل : فى فكّ الأسارى . وقوله : والموفون بعهدهم : عَطَفَ عَلَى مَنْ آمَنَ
 وقوله : والصابرين ، فهو منصوب على المدح ، ولم يُعْطَفْ ، لفضل الصبر على
 سائر الأعمال ، والبأساء ، أى فى الأموال كالفقر ، والضراء ، أى فى الأنفس
 كالمرض . وحين البأس : أى وقت مجاهدة العدو ... أليست هذه الآية الكريمة
 - كما قال الإمام البيضاوى ، وكما ترى - جامعة للكلمات الإنسانية بأسرها ، دالة
 عليها صريحا أو ضمنا ، فإنها على تشعبها منحصرة فى ثلاثة أشياء : صحة الاعتقاد ،
 وحسن المعاشرة ، وتهذيب النفس . وقد أُشير إلى الأول بقوله : مَنْ آمَنَ

فَمَا عَجُولٌ عَلَى بَوِّ مُطِيفٍ بِهِ لَهَا حَيْنَاتٍ إِعْلَانُ وَإِسْرَارُ
 تَرَفُّعُ مَا غَمَلَتْ حَتَّى إِذَا أَدَاكَ كَرْتٌ فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارُ
 يَوْمًا بِأَوْجَدَ مِنِّي حِينَ فَارَقَنِي صَخْرٌ وَلِدَهْرٍ إِحْلَاءُ وَإِمْرَارُ
 العجول من الإبل : الواله التى فقدت ولدها ، لعجلتها فى جبنها وذهابها جزعا
 والبو : جلود الناقة يحشى تبنا ونحوه ويقرب منها فتعطف عليه وتدرّ ، وقولها : فإنما
 هى إقبال وإدبار : جعلها نفس الإقبال والإدبار مبالغة ، أى أنها تتلهى عن الرعى فتقبل
 وتدبر جزعا .

بِالله . إلى : والنبیین ، وإلى الثاني بقوله : وآتى المال ... إلى : والرقاب ،
 وإلى الثالث بقوله : وأقام الصلاة ... إلى آخرها . ولذلك وُصِفَ المستجمعُ
 لها بالصدق ، نظراً إلى إيمانه واعتقاده ، وبالتقوى : اعتباراً بمعاشرته للخلق
 ومعاملته مع الحق سبحانه ، ولذلك قال عليه السلام : مَنْ عمل بهذه الآية فقد
 استكمل الإيمان .

برُّ الوالدين وصِلَةُ الرَّحِمِ

وعقوباتهم في الآباء والأبناء والأقارب من بابات شتى

وإليك شدوا من عبقرياتهم في لَوْنٍ من ألوان البر لقد نراه بادي الرأى قليل
 الخطر ، وهو عند الله الحق ، ولدى إلقاء البال إليه ، وإنعام النظر فيه ، عظيم
 كُلِّ الْعِظَمِ ، خطير كلِّ الْخَطَرِ ، ذلك هو صلة الرحم بعامة ، وبر الوالدين بخاصة ،
 ولقد قرن الله برَّ الوالدين بالتوحيد ، وأكثرت في كتابه المُنزَلِ مِنَ الْحِصِّ
 على هذا البر بأسلوب يُخَيِّلُ إلى السامع إليه أن برَّ الوالدين ركن من أركان
 الدين ، وأساس من أُسُسِ الْإِخْلَاقِ لَا يُؤَبَّه لِسَائِرِهَا بدونه ، وإنه كذلك ،
 وفي الحق إن هذه الإشادة البالغة من الإسلام ببر الوالدين وصلة الرحم
 لِمَا يُعَدُّ من فضائل هذا الدين الحنيف وخصائصه التي يمتاز بها . فليُنْتَبِهُ أبنَاءُ
 اليوم بالهم إلى ذلك ، وليجعلوه دائماً نُصَبَ أعينهم ، إن كانوا يريدون الخير
 لأنفسهم ، وإلا فلا يُبْعِدُ اللهُ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ... هذا وستسمع بادئ ذي بدء خير

(ه) البَابَةُ عند العرب : الوجه ، والبَابَاتُ الوجوه وأنشدوا تميم بن مقبل :

بنى عامر ما تأمرون بشاعر تخير بابات الكتاب هجائياً

معناه : تخير هجائى من وجوه الكتاب ، ويقال فلان من أهون باباته الكذب
 وهى أنواع خبيثة ، وإذا قال الناس : هذا شئ . من بابتي ، فعناه من الوجه الذى أريده
 ويصلح لى .

ما قالوا في هذا اللون من البر، ثم نعبه بخير ما قالوا في الآباء والأبناء والأقارب، مما يتأشب إلى هذا المعنى، وينشعب به القول، ولا يخلو بعضه من طرافة، حتى نستوعب المنتقى من كلامهم في كل باب، وحتى يكون فيما يستطرف منه استراحة للقارئ وانتقال ينفى ملل الجِدِّ عنه... فمن ذلك ما يقول الله عز وجل - وتَجَزَّأُ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ الْجَامِعَةِ عَنْ سَائِرِ الْآيَاتِ الَّتِي يَزْتَحِرُّ بِهَا كِتَابُ اللَّهِ فِي بَابِ الْبِرِّ بِالْوَالِدِينَ - : وَاقْضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ، وَبِالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا، رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ الْأَوَّابِينَ غَفُورًا، وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ... الْآيَاتِ

وقوله سبحانه: وَاقْضَى رَبُّكَ: أى أمر امرأ مقطوعا به... وإِنَّهَا لِكَلِمَةٍ مُرْوَعَةٍ تَرْجُحُ النَّفْسَ رَجًا وَتُزَلِّزُ أَرْجَاءَ مَا زَلَّ الشَّيْطَانُ. وَلَا جَرَمَ أَنَّهُ كِتَابُ اللَّهِ الَّذِي أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ. أَمَا قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ: أى قَضَى رَبُّكَ بِأَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ؛ لِأَنَّ غَايَةَ التَّعْظِيمِ لَا تَحِقُّ إِلَّا لِمَنْ لَهُ غَايَةُ الْعِظَمَةِ وَنَهَايَةُ الْإِنْعَامِ. وَقَوْلُهُ: وَبِالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا، أى وَقَضَى بِأَنْ تُحْسِنُوا بِالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا، وَقَوْلُهُ: إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا، فَإِمَّا: هِيَ إِنْ الشَّرْطِيَّةَ زِيدَتْ عَلَيْهِمَا تَأْكِيدًا لَهَا، فَكَأَنَّهُ قَالَ: إِنْ يَبْلُغَنَّ، وَأَحَدُهُمَا فَاعِلٌ يَبْلُغَنَّ، وَأَفٍ: صَوْتٌ يَدُلُّ عَلَى التَّضَجُّرِ، وَعِنْدَكَ: قَالَ الزُّنْجَشَرِيُّ: مَعْنَاهُ: أَنْ يَكْبُرَا وَيَعْجِزَا وَبَصِيرًا كَلًّا عَلَى وَلَدِهِمَا لِأَنَّ كَابِلًا لَهَا غَيْرُهُ، فَهُمَا فِي بَيْتِهِ وَكَتَفِهِ، وَذَلِكَ أَشَقُّ عَلَيْهِ وَأَشَدُّ احْتِمَالًا وَصَبْرًا، وَرَبَّمَا تَوَلَّى مِنْهُمَا مَا كَانَا يَتَوَلَّيَانِ مِنْهُ فِي حَالِ الطُّفُولَةِ، فَهُوَ مَأْمُورٌ بِأَنْ يَسْتَعْمَلَ مَعَهُمَا وَطَأَةَ الْخُلُقِ وَإِينَ الْجَانِبِ

والاحتمال ، حتى لا يقول لهما - إذا أضجره ما يُستَقَدَّرُ منهما أو يستنقل
من ثؤنهما - : أْفِ ، فضلا عما يزيد على أْفٍ ... قال : ولقد بالغ سبحانه
في التوصية بهما كما ترى ، حيث افتتح الآية بأن شَفَعَ الإحسان إليهما بتوحيده ،
ونظمهما - التوحيد والإحسان إلى الوالدين - في سلك القضاء - الأمر -
بهما معا ، ثم ضَيَّقَ الأمرَ في مراعاتهما حتى لم يُرَخِّصْ في أدنى كلمة تنفلت
من المتضجر ، مع موجبات الضجر وتمتضياته ، ومع أحوال لا يكاد يدخل
صبر الإنسان معها في الاستطاعة ... وقوله : ولا تهرهما : أى لا تنتههما عما
يتعاطيانه مما لا يعجبك ، وقل لهما قولا كريما : أى جميلا ، كما يقتضيه حسن
الآداب والنزول على المروءة . وقوله سبحانه : واخفض لهما جناح الذل ،
قال الإمام الزمخشري : فيه وجهان : أحدهما أن يكون المعنى : واخفض
لهما جناحك كما قال : واخفض جناحك للثومنين ، فأضافه إلى الذل أو الذل^(١)
كما أضيف حاتم إلى الجود ، على معنى واخفض لهما جناحك الذليل أو
الذلول ، والثاني : أن تجعل لِدُلَّهُ أو لِدِئَلَّهُ لهما جناحا خفيضا كما جعل لبيد^(٢)
- الشاعر المخضرم - للشمال يَدًا وللقرة زماما^(٣) مُبالغة في التذلل والتواضع
لهما ، وقوله سبحانه : من الرحمة : أى من فرط رحمتك لهما وعطفك عليهما
لِكِبْرِهِمَا وافتقارهما إلى مَنْ كان أفقر خاق الله إليهما بالأمس ،

(١) الذل الاول من ذل ذلافه وذليل بمعنى الخضوع ، والذل الثاني بكسر الذال ،

وبضها أيضا - من ذل يذل فهو ذلول بمعنى اللين (٢) في قوله من معلقته :

وَعَدَاةٍ رِيحٍ قَدْ كَشَفَتْ وَرِقْرَةَ إِذْ أَصْبَحَتْ بَيْدَ الشَّمَالِ زِمَامُهَا

د. القرة : البرد يقول لبيد : كم من غداة تهب فيها الشمال - وهى أبرد الرياح - وبرد قد

ملك الشمال زمامه ، قد كمنفت عادية البرد عن الناس بنحر الجزر لهم ، وتحرير المعنى :

كم من برد كمنفت غرب عادته ياطعام الناس .

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: رَضَا اللهُ فِي رِضَاِ الْوَالِدَيْنِ، وَسُخْطُهُ فِي سُخْطِهِمَا. وَرَوَى: يَفْعَلُ الْبَارُّ مَا يَشَاءُ أَنْ يَفْعَلَ فَلَنْ يَدْخُلَ النَّارَ، وَيَفْعَلُ الْعَاقُ مَا يَشَاءُ أَنْ يَفْعَلَ فَلَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ: وَقَالَ رَجُلٌ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ: إِنْ أَبَوَى بِلِغَا مِنَ الْكِبَرِ أَنْ أَلِيَّ مِنْهُمَا مَاوِلِيَا مِنِّي فِي الصَّغَرِ، فَهَلْ فَضَيْتُهُمَا حَقَّهُمَا؟ قَالَ: لَا، فَإِنَّهُمَا كَانَا يَفْعَلَانِ ذَلِكَ وَهُمَا يُحِبَّانِ بَقَاءَكَ، وَأَنْتَ تَفْعَلُ ذَلِكَ وَأَنْتَ تَرِيدُ مَوْتَهُمَا: وَعَنْ حُدَيْفَةَ: أَنَّهُ اسْتَأْذَنَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَتْلِ أَبِيهِ وَهُوَ فِي صَفِّ الْمُشْرِكِينَ، فَقَالَ: دَعَّهُ بِلَيْهِ غَيْرُكَ. وَسُئِلَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَّاضٍ عَنِ الْوَالِدَيْنِ، فَقَالَ: أَنْ لَا تَقُومَ إِلَى خِدْمَتَيْهِمَا عَنْ كَسَلٍ، وَسُئِلَ بَعْضُهُمْ: قَالَ: أَنْ لَا تَرْفَعَ صَوْتَكَ عَلَيْهِمَا، وَلَا تَنْظُرَ شِزْرًا إِلَيْهِمَا، وَلَا يَرِيَا مِنْكَ مُخَالَفَةً فِي ظَاهِرٍ وَلَا بَاطِنٍ، وَأَنْ تَتَرَحَّمَّ عَلَيْهِمَا مَا عَاشَا، وَتَدْعُو لَهَا إِذَا مَاتَا، وَتَقُومَ بِخِدْمَةِ أُودَادِهِمَا مِنْ بَعْدِهِمَا، فَعَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنْ مِنْ أَبَرِّ الْبِرِّ أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ أَهْلَ وَدِّ أَبِيهِ... أَمَا قَوْلُهُ تَعَالَى: وَآتَ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ: فَهَذَا تَوْصِيَةٌ بِغَيْرِ الْوَالِدَيْنِ مِنَ الْأَقْرَابِ بَعْدَ التَّوَصِيَةِ بِهِمَا، يَقُولُ سَبْحَانَهُ: آتَوْهُمْ حَقَّهُمْ، وَحَقَّهُمْ صَلَّتُهُمْ بِالْمُودَةِ وَالزِّيَارَةِ وَحَسَنِ الْمَعَاشِرَةِ وَالْمَوَالِفَةِ عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْمَعَاضِدَةِ إِنْ كَانُوا مِيَّاسِيرَ، وَتَعَهُدُّهُمْ بِالْمَالِ إِنْ كَانُوا عَاجِزِينَ عَنِ الْكَسْبِ «انظر التفصيلات في كتب الفقه، وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال: إني أريد الغزو، فقال عليه الصلاة والسلام: أحمى أبواك؟ قال: نعم، قال: فنيهما فجاهد». وَسُئِلَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ ابْنِ الْوَالِدَيْنِ، فَقَالَ: أَنْ تَبْدُلَ لَهَا مَا مَلَكَتْ، وَتَطْعِمَهُمَا فِيمَا أَمْرَاكَ، مَا لَمْ يَكُنْ مَعْصِيَةً، وَآيَةُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ

لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطْعَمُهُمَا، وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ...

ومما يؤثر من أخبار البررة : ما يقول المأمون بن الرشيد : لم أر أحداً أبرَّ من الفضل بن يحيى - البرمكي - بأبيه ، بَلَغَ من برِّه به أن يحيى كان لا يتوضأ إلا بماء مُسَخَّنٍ وهما في السجن ، فتنهما السجان من إدخال الحطب في ليلة باردة ، فقام الفضل - حين أخذ يحيى مَضَجَعَه - إلى مُقْمَمٍ^(١) كان يُسَخِّنُ فيه الماء ، فلاه ثم أدناه من المصباح ، فلم يزل قائماً وهو في يده حتى أصبح ... وقيل لعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهم : إنك من أبرَّ الناس بأملك ولتسنا نراك تأكلُ مع أمك في صحفة ، قال : إني أخاف أن تسبقها يدي إلى شيء سبقت عينها إليه فأكون قد عَقَقْتُهَا . وقيل لعمر بن ذر^(٢) - وقد مات ابنه - : كيف كان برُّ أمك بك ؟ قال : ما ما شئته قط نهاراً إلا مَشَى خَلْفِي ، ولا ليلاً إلا مَشَى أَمَامِي ، ولا رَقِي سَطْحًا وأنا تحته .

ومما يروى في باب العقوق وأحوال العقيقة : « والعقوق ضد البر »

(١) إناء من نحاس يسخن فيه الماء (٢) هو عمر بن عبد الله بن ذر بن زرارة بن مسعود الحمداني كان واعظاً بليغاً وعابداً صالحاً وكان ابنه - واسمه ذر - مباركا طيباً له . دخل يوماً على ابنه وهو يجود بنفسه فقال : يا بني ، إنه ما علينا من موتك غضاضة - ذل وانكسار وقتور - ولا بنا إلى أحد سوى الله حاجة . فلما مات وصلى عليه وواراه وقف على قبره ؛ وقال : يا ذر ، قد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك ، لأننا لاندرى ما قلت وما قيل لك . اللهم إني وهبت له ما قصر فيه مما افترضت عليه من حق ، فهب له ما قصر فيه من حَقِّك واجعل ثوابي عليه - يريد ثواب صبره - له ، وزدني من فضلك ، إني إليك من الراغبين قال ابن خلكان : وكان عمر المذكور يعد من المرجئة ، وتوفى سنة ١٥٥ هـ

وأصله من العَقَّ وهو الشق والقطع ، يقال عَقَّ الولدُ والدَه يُعَقِّه عَقًّا وعقوقًا
ومَعَقَّةً : إذا شَقَّ عصا طاعته ، وعَقَّ والديه : قطعهما ولم يصل رحمهُ منهما
وقد يُعَمُّ بلفظ العقوق جميعُ الرِّحمِ ، والولد عاق ، والجمع عَقَقَةٌ ، مثل كَفَرَةٍ «
فمن قولهم في العقوق : العقوقُ نُكْلٌ من لا يَشْكُلُ الشكلُ الموت
والهلاك ، وأكثر ما يُسْتَعْمَلُ في فقدان الرجل والمرأة ولدَهما ، يعنون أن
من ابتلى بولدٍ عاقٍ فكأنه نُكِلَهُ » ، وقال بعضهم لابن له عاقٍ : أنت
كالإصْبَعِ الزائدة ، إن تُرِكَتْ شانتُ وإن قُطِعَتْ آذتُ ... وقيل لأعرابيٍّ
كيفَ ابْنُكَ؟ - وكان عاقًا - فقال : عَدَابٌ رَعِفَ به الدهرُ ، فَلَيْتَنِي قَدَّ
أودَعْتُهُ القبرُ ، فإنه بَلَاءٌ لا يقاومه الصبرُ ، وفائدة لا يجب فيها الشكرُ قوله
رَعِفَ به الدهرُ : يريد تقدم به الدهرُ وعَجِلَ ،

وأورد أبو العباس المبرد في الكامل هذه الآيات لامرأة يقال لها أمُّ
ثواب الهزانية ، في ابنها - وكان لها عاقًا - وقد اختارها أبو تمام في حماسته :

رَبِيَّتُهُ وَهُوَ مِثْلُ الفَرخِ أَعْظَمُهُ أُمُّ الطَّعَامِ تَرَى فِي رِيشِهِ زَعْبًا
حَتَّى إِذَا آضَ كالفُحَالِ شَذَبَهُ أَبَارُهُ وَنَفَى عَنْ مَتْنِهِ الكَرْبَا
أَنْشَا يُخَرِّقُ أَنْوَابِي وَيَضْرِبُنِي أَبْعَدَ سِتِّينَ عِنْدِي يَبْتَغِي الأَدْبَا
إِنِّي لَا بُصِيرُ فِي تَرْجِيلِ لِمَتِهِ وَحَطَّ إِحْيِيهِ فِي وَجْهِهِ عَجَبًا
قَالَتْ لَهُ عِرْسُهُ يَوْمًا لِتُسَمِّعِنِي رِفْقًا يَا ابْنَ لَنَا فِي أَمْنَا أَرْبَا
وَلَوْ رَأَيْتَنِي فِي نَارِ مُسْعَرَةٍ مِنْ الجَحِيمِ لَزَادَتْ فَوْقَهَا حَطْبًا

هذه آيات من شعر الفطرة ، تصف في دِقَّةِ حالِ الابنِ العاقِ يكون
ضَلَعُهُ وَهَوَاهُ مع زَوْجِهِ على أمِّه ، وكذلك تصف ذلك العداء القديم بين الكَنَّةِ

وَحَمَاتِهَا^(١)، وقولها: أَعْظَمُهُ أُمُّ الطَّعَامِ، وصف للفرخ، ومعناه: أكبرُ
أَعْضَائِهِ أُمُّ الطَّعَامِ: أى معدته، وكذلك قولها: ترى فى ريشه زغبا: وصف
آخر للفرخ، والزَّغْب: أول ما يبدو من ريش الفرخ، تصف ضعف نشأة
ابنها، وآض: صَارَ، والفُجَال: خال النخل، أى الذَّكَرُ منه، وأَبَارُهُ: الذى
يصلحه يقال: أَبْرَتِ النخْل: إِذَا لَقَّحْتَهُ، وشَدَّ به: قطع ما عليه من الكراتيف
وهى أصول السَّعْفِ الغسلاظ التى إِذَا يَبَسَتْ صارت أمثال الأكتافِ،
ومتته: فمن كل شيء ما ظهر منه، والكرب: ما يبقى من أصول السَّعْفِ فى النخل
تريد: حتى إِذَا بلغ أشده واستوى طوله، وأنشأ: أصله أنشأ، تريد: أبتدأ
وأقبل، وقولها: أبعدستين عندى يبتغى الأدبا، تريد: أنضربه إياها يريد تأديها
بعد أن بلغت الستين حق منه وعبت، إذ من العناء رياضة الهرم، وقولها:
إنى لأبصر... البيت، فاللمة: الشعر الذى يلم بالملكب، والترجيل: تسريح الشعر
تصفه بالحسن والجمال، وعرسه: زوجه، وأمنا.. أضافها إلى نفسها خديعة،
وأربا: حاجة، تريد: لا ينبغي لك أن تهينها... .

وقيل لرجل أبطأ فى الزوج: لِمَ أبطأت؟ فقال: أريد أن أسبق أولادى
فى اليُتم قبل أن يسبقونى فى العقوق...

وأورد المبرِّد أيضا عن رجل يسمى أبا المِخْش حديثا طريفا قال:
قال أبو المِخْش: كانت لى ابنة تجلس معى على المائدة فُنْبِرُ كَفَّا كأنها
طَلَمَةٌ، فى ذراعِ كأنها جُمَارَةٌ، فلا تقعُ عَيْنُهَا على أُكْلَةٍ نفيسةٍ إِلَّا خَصَّتْنى بها

(١) الكنة: امرأة الابن - وامرأة الاخ أيضا - والحماة: أم زوجها: قال الشاعر:

إن الحماة أولعت بالسكنة وأت الكنة إلا ضنه

فَرَوَّجَتْهَا .. وصار يجلسُ معي على المساندةِ ابنِ نُلي ، فُيُبرِزُ كَفًّا كَأَنَّهَا
 كِرْنَاقَةٌ ، فِي ذِرَاعٍ كَأَنَّهَا كَرْبَةٌ ، فَرَأَيْتُهُ إِنْ تَسْبِقُ عَيْنِي إِلَى لُقْمَةٍ طَيِّبَةٍ إِلَّا
 سَبَقَتْ يَدُهُ إِلَيْهَا ... الطَّلَعَةُ فِي كَلَامِ أَبِي الْمِنْخَشِ هَذَا جَمْعُهَا طَلَعٌ ، وَهُوَ نَوْرُ
 النَّخْلَةِ مَادَامَ فِي الْكَافُورِ ، وَهُوَ وَعَاؤُهُ الَّذِي يَنْشَقُّ عَنْهُ ، وَالْجَمَارَةُ : شِجْمَةُ النَّخْلَةِ
 الَّتِي إِذَا قَطَعْتَ قِصَّةَ رَأْسِهَا ظَهَرَتْ كَأَنَّهَا قِطْعَةٌ سَنَامٌ ، وَالْكَرْنَاقَةُ : طَرْفُ
 الْكَرْبَةِ الْعَرِيضِ الَّذِي يَتَّصِلُ بِالنَّخْلَةِ كَأَنَّهُ كَتْفٌ ، وَقَوْلُهُ : إِنْ تَسْبِقُ عَيْنِي
 فَإِنْ نَافِيَةٌ بِمَعْنَى مَا ،

وأورد أبو تمام في باب المهجاء من حماسته لأحد الشعراء أياتاً لها قصةٌ
 فيها اعتبار لمن أراد أن يعتبر من عقبة الأبناء ، وإليك هذه القصة والآيات :
 كان في زمن عبد الملك بن مروان رجل يُسَمَّى مُنَازِلَ بْنَ فُرْعَانَ ، وَكَانَ
 لِمُنَازِلِ هَذَا ابْنٌ يُقَالُ لَهُ خَلِيْجٌ - وَهُوَ مِنْ رَهْطِ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ - فَعَقَّ
 خَلِيْجٌ أَبَاهُ مُنَازِلًا ، فَقَدَّمَهُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَرَبِيِّ ، وَآلِي الْيَمَامَةِ ، مُسْتَعْدِيًا
 عَلَيْهِ - وَقَالَ :

تَطَلَّعْتَنِي حَقِّي خَلِيْجٌ وَعَقَّنِي	عَلَى حِينٍ كَانَتْ كَالْحَنِيِّ عِظَامِي (١)
لَعَمْرِي لَقَدْ رَبَّيْتُهُ فَرِحًا بِهِ	فَلَا يَفْرَحُنْ بَعْدِي أَمْرٌ وَبُعْلَامِ
وَكَيْفَ أُرَجِّي النِّفْعَ مِنْهُ وَأُمُّهُ	حَرَامِيَّةٌ ؟ مَا عَرَّانِي بِحَرَامِ (٢)
وَرَجَّيْتُ مِنْهُ الْخَيْرَ حِينَ اسْتَرَدَّتْهُ	وَمَا بَعْضُ مَا يَزِدُّ أَدَاؤَ غَيْرِ غَرَامِ (٣)

(١) كانت كالحني عظامي : أي كانت عظامي كالحني ، وهو جمع حنية ، وهي القوس ،
 لأنها حنية ، أي معطوفة

(٢) حرامية : نسبة إلى حرام وهي قبيلة

(٣) الغرام هنا : العذاب والشر الدائم والبلاء الذي لا استطاع أن يتفصى منه قال
 تعالى : إن عذابها كان غراما : أي هلاكا دائما ملحا

فأراد إبراهيم بن عَرَبِي ضَرْبَهُ ، فقال: أَصْلَحَ اللهُ الأَمِيرَ ، لا تَعْجَلْ عَلَى
أَعْرَفِ هَذَا؟ قال: لا ، قال: هذا مُتَازِلُ ابنِ فُرْعانَ ، الذى عَقَّ أباه ، وفيه
يقول أبوه:

جَزَتْ رَحْمُ بَيْنى وَبَيْنَ مُنازِلِ جِزَاءَ كَمَا يَسْتَنْزِلُ الدِّينَ طَالِبُهُ (١)
لَرَبِّيْتُهُ حَتَّى إِذَا آضَ شَيْطَماً يَكادُ يُسَاوِي غارِبَ الفَحْلِ غارِبُهُ (٢)
فَلَبَّأَ رَأَى أَبْصَرَ الشَّخْصَ أَشْخُصاً قَرِيباً وَذا الشَّخْصِ البَعِيدِ أَقارِبُهُ (٣)
تَعَمَّدَ حَتَّى ظالِماً وَلوى يَدِي لَوَى يَدَهُ اللهُ الَّذِي هُوَ غالِبُهُ (٤)
وَكانَ لَه عِنْدِي إِذا جاعَ أُرْبَكِي مِنَ الزَّادِ أَحلى زادِنا وَأَطايِبُهُ
وَرَبِّيْتُهُ حَتَّى إِذا ما تَرَكَتُهُ أأخا القَوْمِ وَأَسْتَعْنَى عَنِ المَسْحِ سارِبُهُ (٥)
وَجمَعَتْها دُهماً جِلاداً كَأَنَّها أَشْأءَ نَحِيحِ لِمُ تَقَطَّعَ جَوازِبُهُ (٦)

(١) يدغو على ابنه منازل ، وجعل فعل الجزاء للرحم والجازى هو الله سبحانه
يقول: جزى الله منازل على الرحم أى القرابة التى بينى وبينه - فقد قطعها - جزاء
يستوفى له وعليه ، كما يستنزل صاحب الدين حقه من المدين

(٢) الشيطان: الطويل ، ولربيتته: جواب قسم انطوى عليه الكلام ، وربيتته وربيتته
وتربيتته وربته تريبيا: بمعنى واحد ، وآض: صار ، وأصل الغارب فى الإبل - وهو
ما يكون قدامه السنام - ثم استعير حتى قيل لأعلى كل شىء: غوارب ، يقول: إنه رباها
حتى بلغ مبلغ الرجال

(٣) قريبا: حال ، والمعنى: أبصر الشخص مقاربا ، أى أبصره - وأقرب منه - شخصا ،
وأقاربه: أظنه قريبا ، يقول: لما رأى شيئا كبيرا ضعف نظره واختلفت مواقع
بصارتة حتى يرى الشخص القريب منه شخصا ويرى الشخص البعيد منه قريبا

(٤) تعمد حتى: ستره وأخفاه ، وقوله: ولوى يدي: أى فتلها وأزالها عن

حالتها وهيئتها

(٥) أخا القوم: قال الإمام التبريزى: نصب أخا القوم على الحال من الهاء فى
تركته ، وجاز كونه حالا وإن كان معرفة فى اللفظ لأنه لا يبنى قوما بأعيانهم وإنما
يريد تركته قويا لاحقا بالرجال (٦) وجمعتها: الضمير إلى الخيل وإن لم

فَأَخْرَجَنِي مِنْهَا سَلِيًّا كَأَنِّي حُسَامُ يَمَانٍ فَارَقْتُهُ مَضَارِبُهُ ^(١)
 أَلَا إِنَّ أُرْعَشْتَ كَفًّا أَيْكَ وَأَصْبَحْتَ يَدَاكَ يَدَيَّ لَيْتَ فَإِنَّكَ ضَارِبُهُ ^(٢)
 فقال الوالى : يا هذا ، عَقَقْتَ فَعَقِقْتَ ، فما لكَ مَثَلًا إِلَّا قَوْلُ خَالِدِ
 لِأَبِي ذُوَيْبٍ :

فَلَا تَجْزَعَنَّ مِنْ سِيرَةٍ أَنْتَ سِرْتَهَا فَأَوْلُ رَاضِي سِيرَةٍ مَنْ يَسِيرُهَا
 قال الإمام التبريزى : وذلك أن أبا ذُوَيْبٍ ^(٣) هذا كان غلاما ، وكان
 لِرَجُلٍ صَدِيقَةً ، فكان الرجل يبعث أبا ذُوَيْبٍ إلى صديقه بالرسائل ، فلما
 ترعرع أبو ذُوَيْبٍ كسرها على الصديق - يريد أفسدها وأمالها عنه إليه - ،
 ولما ترجل أبو ذُوَيْبٍ - يريد صار رجلا - مُنِعَ منها وحُجِبَتْ عنه
 وحجب عنها ، فكان يبعث خالدا إليها بالرسائل ، وخالد يومئذ
 غلام ، فلما ترعرع خالد كسرها على أبي ذُوَيْبٍ ، فقال أبو ذُوَيْبٍ يعنف
 المرأة :

تُرِيدِينَ كَيْ تَجْمَعِيَنِي وَخَالِدَا وَهَلْ يُجْمَعُ السَّيْفَانِ وَيُنْحَكُ فِي غَمْدٍ
 وجعل يؤنب خالدا ، فقال خالد :

يذكرها وهذا أسلوب معروف لهم ، ودعما : جمع أدم ، وهو الأسود ، وجلادا : صلابا ،
 والأشياء بالفتح والمد : صغار النخل وقيل النخل عامة واحده أشاءة (١) السلب : الذى سلب
 ماله ، استعاره من الشجر يسلب ورقه ويعزى منه ، والمضارب : جمع مضرب : حد السيف ،
 يقول : لما جمعت من الخيل الدم الجلاد ما جمعت وأعدتها لى وله ، عدا على بعد
 أن ربيته وبلغ مبلغ الرجال وجزدنى من الخيل وتركنى سليبا ، فأشبه حالى حال السيف
 البنان المقاطع تفلل حده (٢) أرعشت كفا أيك : يريد : أبعد أن كبر أبوك وبلغ
 من الكبر عتيا وأصبحت أنت شابا قويا ، تجترئ عليه وتمينه وتضربه

(٣) أبو ذُوَيْبٍ هذا هو الشاعر أبو ذُوَيْبٍ الهذلى ، وخالد هو ابن أخته ، والمرأة
 هى امرأة رجل يقال له عبد عمرو بن عامر من بنى عامر بن صعصعة ، انظر أمثال
 الميدانى فى شرحه هذا المثل ، لا تجزعن من سيرة أنت سرتها ، ،

فلا تَجَزَعَنَّ مِنْ سِيرَةِ أَنْتِ سِيرَتَهَا البيت
 ولأُمِيَّةَ بنِ أَبِي الصَّلْتِ الشَّاعِرِ الجَاهِلِيِّ (١) أَيْبَاتُ حَسَانٍ يَشْكُو فِيهَا هُوَ
 الآخِرُ ابْنَهُ الَّذِي عَقَهُ وَأَسَاءَ إِلَيْهِ: وَقَدْ اخْتَارَهَا أَبُو تَمَامٍ فِي حِمَاسَتِهِ قَالَ:
 عَذْوُكَ مَوْلُودًا وَعُائِكَ يَا بَعْمَا تُعَلُّ بِمَا أُذْنِي لِيكَ وَتُنْهَلُّ (٢)
 إِذَا أَيْلَةُ نَابَتِكَ بِالشَّكْوِ لَمْ أَيْتْ لِشَكْوَاكَ إِلَّا سَاهِرًا أَتَمَلُّ (٣)
 كَأَنِّي أَنَا المَطْرُوقُ دُونَكَ بِالَّذِي طُرِقْتَ بِهِ دُونِي وَعَيْنِي تَهْمَلُّ (٤)
 فَلَمَّا بَلَغْتَ السَّنَّ وَالغَايَةَ الَّتِي إِلَيْهَا مَدَى مَا كُنْتُ فِيكَ أَوْمَلُّ
 جَعَلْتَ جِزَائِي مِنْكَ جَبْهًا وَغُظَّةً كَأَنَّكَ أَنْتِ المُنْذِمُ المْتَفَضِّلُ (٥)

(١) اسمه عبد الله بن ربيعة بن عوف من بني بكر بن هوازن . وكان ممن حزم
 الخرفي الجاهلية ورفض عبادة الاوثان والتمس الدين وطمع في النبوة فلما بعث سيدنا
 رسول الله صلى الله عليه وسلم حسده وقال : إنما كنت أرجو أن أكونه
 (٢) وعلتك : من عال عياله يعولهم : كفاهم معاشهم ، ويروى : ومنتك ، من مان
 أهله يمونهم مونا : أنفق عليهم ، ويافعما : شابا ، من أيفع الغلام مثل أبقل الموضع فهو
 ياقل وأورق اليبث فهو وارق وأورس فهو وارس وأقرب فهو قارب : إذا
 قربت لبله من الماء ليلا ، وكلهن نراد ، وتعل من عله يعله : سقاه ثانياة ، وتهل من
 أنهله : سقاه أول سقية ، يريد ، إطعامه وسقيه مرة بعد أخرى
 (٣) الشكو : المرض نفسه قاله الليث وأنشد :

أَخِي إِنْ تَشَكَّى مِنْ أَدَى كُنْتُ طَبَّهُ وَإِنْ كَانَ ذَاكَ الشَّكْوُ بِي فَأَخِي طَبِّي
 وَأَمَلُّ : يريد يتقلب على فراشه من غمه عليه : قال اللغويون : إذا نبا بالرجل
 مضجعه من هم أو وصب قيل قد تملل ، وأصله أتمل ، من الملة وهي الرماد الحار يدفن
 فيه الخبز لينضج كأن المتقلب على فراشه من الهم يتقلب على تلك الملة
 (٤) المطروق من طرقة الهم يطرقه - بالضم - طرقا : أتاه ونزل به ، مجاز من طرق
 القوم : جاءهم ليلا ، وتهمل : تسيل وتفيض وقد هملت عينه تهمل - بالضم والكسر -
 هملا وهملانا : سالت وفاضت (٥) جبها مصدر جبها بالمكروه : استقبله به ،
 وذلك مجاز من جبها : صك جبته . ويروى : جعلت جزائي غلظة وفضاظة

فَلْيَتَّكِ إِذْ لَمْ تُرْعَ حَقَّ أَبِي تِي فَعَلْتَ كَمَا الْجَارُ الْمُجَاوِرُ يَفْعَلُ (١)
 وَسَمَّيْتَنِي بِاسْمِ الْمُفْنَدِ رَأْيُهُ وَفِي رَأْيِكَ التَّفْنِيدُ لَوْ كُنْتَ تَعْقِلُ (٢)
 تَرَاهُ مُعِدًّا لِلْخِلَافِ كَأَنَّهُ بَرَدٌ عَلَى أَهْلِ الصَّوَابِ مُوَكَّلٌ (٣)

* * *

ومن المستطرف من أقوالهم في الأولاد المتخلفين: ما يروى أن رجلاً بعث أبنه ليشتري حبلاً، فقال له: آجعله عشرين ذراعاً، فقال الولد: في عرض كم؟ قال: في عرض مصيبي فيك.. وكان لأبي العباس المبرّد صاحب الكامل ابن متخلف، فقيل له يوماً: غطّ سوءةً تك، فوضع يده على رأس ابنه.. وقيل لصبي: لم لا تتعلم الأدب؟ فقال: إني أخاف أن أكذب والدي، لأنه قال لي: إنك لا تفلح أبداً...

* * *

هذا وكما أن لوالدك عليك حقاً كذلك لولدك عليك حق: وما ورد في ذلك ما جاء في الحديث: من حقّ الولدِ على الوالد أن يُحسِنَ أدبَهُ، وأن يُعِفَّهُ إذا بلغ. « أن يحسن أدبه: أن يُعنى تربيته وتهذيبه وتعليمه، وأن يُعِفَّهُ: أي يعمل على أن يكون عفواً عن الحرام فيزوجه... وقال حكيم من أدب ولده صغيراً، سرّ به كبيراً، وقالوا: من أدب ولده، أرغم حاسده. ومن آداب الإسلام: إذا بلغ أولادكم سبع سنين فمروهم بالطهارة والصلاة وإذا بلغوا عشرة فاضر بهم عليها، وإذا بلغوا ثلاثة عشر فمروهم بالوضوء في المضاجع؛ ومن كلامهم: لا عيب ابنك سبعا وعمله سبعا وجالس به إخوانك.

(١) كما الجار المجاور يفعل: أي كما يراعى الجار حق الجوار من الرفاه به

(٢) المفند رأيه: اسم مفعول من فند رأيه: خطأه (٣) معدا: اسم فاعل،

أعد الأمر عدته: هياه له

سبعاً يَتَّبِعِينَ لَكَ أَخَافٌ هُوَ بَعْدَكَ أُمَّ خَلْفٌ « الخَلْفُ - بفتح اللام: الولد الصالح، والخَلْفُ - بسكونها: الطالح، تقول: أعطاك الله خَلْفاً مما ذهب لك ولا تقل خَلْفاً، وتقول أنت خَلْفٌ سَوْءٍ من أبيك، هذا هو الأعراف عند أهل اللغة^(١) » وقال رجل لأبيه . يا أبت، إن عَظِيمَ حَمَّكَ عَلَيَّ لَا يُذْهِبُ صَغِيرَ حَقِّي عَلَيْكَ، وإن الذي تَمَّتْ به إلى أُمِّتٍ بِمِثْلِهِ إِلَيْكَ، ولستُ أُرْزِعُ أَنَا عَلَيَّ سِوَاهُ، ولكن لا يَحِيلُ الاَعْتِدَاءُ ...

وقالوا: إِنَّ الْوَالِدَ الْبَارَّ أَبْرُّ مِنَ الْوَالِدِ، لَأَنَّ بِرَّ الْوَالِدَيْنِ طَبِيعَةٌ، وَبِرُّ الْوَالِدِ وَاجِبٌ، وَالْوَالِدُ أَبَدًا ثَقِيلٌ، وَلَعَلَّ الْمُنْتَبِيَّ يَنْظُرُ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى إِذْ يَقُولُ:

لِنَمَا أَنْتَ وَالِدٌ وَالْأَبُ الْقَا طَعُ أَحْتَى مِنْ وَاصِلِ الْأَوْلَادِ

ومما يستطرف في هذا الباب ما يروى من احتجاج بعض العقبة لعقوقهم: فقد قيل لبعض الفلاسفة: لِمَ تَعُقُّ وَالِدَيْكَ؟ قال: لأنهما أخرجاني إلى الكون والفساد... وضرب رجلاً أباه، فقيل له: أما عَرَفْتَ حَقَّهُ؟ قال: لا، لأنه لم يَعْرِفْ حَقِّي، قيل: فما حقُّ الولد على الوالد؟ قال: أَنْ يَتَخَيَّرَ أُمَّهُ، وَيُحَسِّنَ اسْمَهُ، وَيُحْتَنِنَهُ، وَيُعَلِّمَهُ الْقُرْآنَ، ثُمَّ كَشَفَ عَنْ عَوْرَتِهِ فَإِذَا هُوَ أَقْلَفٌ - لم يُحْتَنَنْ - وقال: آسَمِي بُرْعُوث... ولا أعلم حَرْفًا من القرآن، وقد اسْتَوْلَدَنِي مِنْ زَنْجِيَةٍ... فقيل للوالد: احتمله، فإنك تستأهل...

(١) قال الله عز وجل: خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، وقال لبيد:

ذهب الذين يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيَتْ فِي خَلْفِ كَجَلْدِ الْأَجْرِبِ

وعيرَ رجل ابنه بأمه، فقال الابن: هي والله خير لي منك، لأنها أحسنت الاختيارَ فولدَتني من حُرِّ، وأنت أسأت الاختيارَ فولدَتني من أمّة... وقال رجلٌ لابنه: ما أطيبَ الشُّكلَ يا بُنَيَّ! فقال الابن: اليَسْمُ أطيب منه يا أبت! وقيل لبعضهم: أيُّ ولدك أحبُّ إليك؟ قال: صَغِيرُهُمْ حتَّى يَكْبُرَ، ومَرِيضُهُمْ حتَّى يَبْرَأَ، وغَائِبُهُمْ حتَّى يَقْدَمَ...

«أقول: وإنما قال صغيرهم حتى يكبر، لأن كبير الأولاد في العادة قلما يظفر من حب أيه بمثل ما يظفر به الصغير، وقد قالوا في ذلك ما بين عن السبب، وهو ما روى أن رجلاً من العرب رأى بنه يثبون على الخيل وقد تنادوا بالغازة، فذهب يروم ذلك مرة وثانية فلم يقدر، فقال: من سرّه بنوه ساءته نفسه... وفي ضدّ هذا المعنى يقول أكرمُ بنُ صَيْفِي حَكِيمُ العَرَبِ:

إِنَّ بَنِيَّ صَيْفِيَّةٌ صَيْفِيُونَ أَفْلَحَ مَنْ كَانَ لَهُ رَبِيعِيُونَ

«يقال أصف الرجل يُصِفُ إصافةً: إذا لم يُولد له حتَّى يُسَنَّ وَيَكْبُرَ وأولاده صَيْفِيُونَ، والواحد صَيْفِيٌّ، والرَّبِيعِيُّونَ: الذين وُلِدُوا في حدائته وأول شبابه، ولما حضرت سليمان بن عبد الملك الوفاة تمثّل بهذا البيت لأنّه لم يكن في أبنائه من يُقلِّده العهدَ بعده، ومعنى ذلك عندهم: أنّ الأولاد الكبار أفضل من الصغار لدى الوالد، ولا سيما إذا كبر... وهذا على تقيض قول القائل: من سرّه بنوه ساءته نفسه، وإن كان لكل وجه هو مولياً،



وناول عمر بن الخطاب رجلاً شيئاً فقال له: حدّمك بنوك، فقال عمر:

يَلِ اغْنَانَا اللهُ عَنْهُمْ.

وكان يقال : ابْنُكَ رَيْحَانُكَ سَبْعًا ، وخَادِمُكَ سَبْعًا ثم عدوُّ أو صديقٌ ...
وفي الأثر : رِيحُ الْوَالِدِ مِنْ رِيحِ الْجَنَّةِ ...

وكان رسول الله يُقْبَلُ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وهو حفيد المصطفى -
يوما ، فقال الأقرعُ بنُ حابس : إن لي عشرةً من الأولاد ما قبّلت واحدا منهم ،
فقال رسول الله : فما أصنع إن كان الله نَزَعَ الرَّحْمَةَ مِنْ قَلْبِكَ !

ويروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا مات الرجل انقطع
عمله ، إلا من ثلاث : صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أو عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أو وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ .
وقالوا : خيرُ ما أُعْطِيَ الرَّجُلُ بَعْدَ الصَّحَةِ وَالْأَمْنِ وَالْعَقْلِ وَالدُّمُوفِ
من زوجةٍ مَوَاقِفَةٍ * وَمُتَعَمَّةٍ الْعَيْشِ بَيْنَ الْإِهْلِ وَالْوَالِدِ * .

وكانت الْعَرَبُ تُسَمِّي مَنْ لَا وُلْدَ لَهُ صُنْبُورًا ، وَالصُّنْبُورُ فِي اللَّغَةِ : الْإِبْرُ
لِأَعْقَبِ لَهُ وَلَا أَخٍ ، فَإِذَا مَاتَ انْقَطَعَ ذِكْرُهُ وَكَانَ كِفَارُ قُرَيْشٍ يُطْلَقُونَ
عَلَى رَسُولِ اللَّهِ : صُنْبُورًا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : إِنَّ شَانِيكَ هُوَ الْإِبْرُ « شَانِيكَ :
مِنْغَضُكَ ، وَالْإِبْرُ الَّذِي لِأَعْقَبِ لَهُ » ...

وقال حكيمٌ فِي مَيِّتٍ : إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَهُوَ حَيٌّ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ
فَهُوَ مَيِّتٌ

ومن أمثال العرب : ابْنُكَ ابْنُ بُوْحِكَ « أَي ابْنُ نَفْسِكَ لِأَنَّ تَبْنِيَّتَهُ ،
وَمِثْلَهُ : وَوَلَدُكَ مِنْ دَمِي عَقْبِيكَ » يعنون : الَّذِي نَفْسِي بِهِ فَأَدْمِي النَّفْسُ
عَقْبِيكَ ، أَي : ابْنُكَ مِنْ وَلَدِي لَهُ لَأَنَّ تَبْنِيَّتَهُ ، وَقِيلَ لِحَكِيمٍ : مَا السَّعَادَةُ ؟ قَالَ :
أَنْ يَكُونَ لِلرَّجُلِ ابْنٌ وَاحِدٌ ، فَتَقِيلُ لَهُ : الْوَاحِدُ يُخْشَى عَلَيْهِ الْمَوْتُ ! قَالَ :
لَمْ تَسْأَلُونِي عَنِ الشَّقَاوَةِ ...

وهناك فريق من الناس يذهبون إلى ذمِّ الولد وقلة جدواه : وما يروى في هذا الباب أنه قيلَ لبعض الزهاد : هلَّا تزوجت ؟ فر بما يكون لك خَلْفٌ ؟ فقال : كفى بالزهد فيه قوله تعالى : إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ؛ وقوله سبحانه وتعالى : إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ... وقالوا : قِلَّةُ الْعِيَالِ أَحَدُ الْيَسَارِينِ ، وقال المتنبي :

وما الدهرُ أهلٌ أن يُومَلَّ عنده حياةٌ وأن يُشتاقَ فيه إلى النسلِ
هَلِ الْوَلَدُ الْمَحْبُوبُ إِلَّا تَعَلَّةٌ

وهلْ خَلْوَةٌ الْحَسَنَاءِ إِلَّا أذى الْبَعْلِ (١)

وقد ذُفَّتْ خُلُوعًا الْبَنِينَ عَلَى الصَّبَا فَلَا تَحْسَبْنِي قَلْتُ مَا قَلْتُ عَنْ جَهْلٍ
وقال المَعْرِيُّ - وهو إمام السَّخَطِينِ ، « أو المَشَائِمِينَ كما يقولون اليوم » - :

أَرَى وُلْدَ الْفَتَى عَيْنًا عَلَيْهِ لَقَدْ سَعِدَ الَّذِي أَخْضَى عَقِيمًا
فَإِمَّا أَنْ يُرَبِّيَهُ عَدُوًّا وَإِمَّا أَنْ يُخَلِّفَهُ يَتِيمًا
وَإِمَّا أَنْ يُصَادِفَهُ حِمَامٌ فَيَسْقِي حُزْنَهُ أَبَدًا مُقِيمًا

وَبُشِّرَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ بَابِنٍ فَقَالَ : لا مرحبا بمن إن كنت غنيا أذهلني ،
وإن كنت فقيرا أتعبني ، لا أرضى كدِّي له كدًا ، ولا سعي له في الحياة
سعيًا ، أهتمُّ بفقره بعد وفاتي ، حين لا ينالني به سرور ، ولا يهيمه لي حزن ،
وأصحح الحسن يوما - أي ذهب إلى الصحراء - فرأى صيادًا فقال : ما أكرُّ

(١) تعلقة : يقال : فلان يعمل نفسه بتعلة : أي لهاها به كما يعمل الصبي بشيء من الطعام يتجزأ به عن اللبن . يقول : إن السرور بالولد المحبوب لا يدوم وإنما هو تعلق إلى وقت ، ثم قال : وخلوتك بامرأتك أذى لك في الحقيقة لأنها تجلب لك ولدًا تغم من أجله وتتأذى بتربيته وربما كانت العاقبة إلى الشكل

ما يقعُ في شبكتيك؟ قال: كلُّ طيرٍ زاقٍ «أى يزُقُّ أفراخه أى يُطعمها
بفيه»، فقال الحسن: هلك المَعِيلون «أى الذين لهم عيال كثير»،
وقال المصطفى صلى الله عليه وسلم لأحدِ ابْنَيْ بِنْتِهِ: إِنَّكُمْ لَتُجَبَّنُونَ
وإنكم لَتُبَخَّلُونَ وإنكم لَمِنْ رِيحَانِ اللَّهِ، وفي الحديث أيضا: الولدُ مَجْبَنَةٌ
مَجْهَلَةٌ مَبْخَلَةٌ .. «يقولُ عليه السلام: إنَّ الولدَ يَحْمِلُ أباهُ على الجُبْنِ، فلا
يُجاهدُ ولا يَشْجُع، لِأَنَّهُ يُحِبُّ البقاءَ لِأَجْلِهِ، وعلى الجَهْلِ، بِمُلاعِبَتِهِ إِيَّاهُ
وَتُرُوقِهِ إلى مُستَواه، وتركِ العَقْلِ ومُقْتضاهُ، أو باشتغاله به عن طلب العلم،
وعلى البُخْلِ، لِأَنَّهُ يُبْقِي على المالِ لِأَجْلِهِ وَيَبْخَلُ به وَيَشْجُع ..»



ومن أحسن ما قيل في الإشفاق على الأولاد: قولُ حِطَّانِ بنِ المُعَلَّى - وهو
شاعرٌ إسلاميٌّ، وأبياته هذه في الحامسة -:

أَنْزَلَنِي الدَّهْرُ عَلَى حُكْمِهِ مِنْ شَاخٍ عَالٍ إِلَى خَفِضٍ
وَعَالَنِي الدَّهْرُ بِوَفْرِ الْغِنَى فَلَيْسَ لِي مَالٌ سِوَى عِرْضِي
أَبْكَانِي الدَّهْرُ وَيَا رَبِّمَا أَضْحَكَنِي الدَّهْرُ بِمَا يُرِضِي
لَوْلَا بُبَيَّاتُ كَرْغَبِ الْقَطَا رُدِدَنَّ مِنْ بَعْضِ إِلَى بَعْضٍ
لَكَانَ لِي مُضْطَرَبٌ وَاسِعٌ فِي الْأَرْضِ ذَاتِ الطُّولِ وَالْعَرِضِ
وَإِنَّمَا أَوْلَادُنَا بَيْنَنَا أَكْبَادُنَا تَمُشِي عَلَى الْأَرْضِ
لَوْ هَبَّتِ الرِّيحُ عَلَى بَعْضِهِمْ لَأَمْتَعَتْ عَيْنِي مِنَ الْغَمِضِ

«أزلني الدهر على حكمه: أنزله من العزة إلى الذلِّ يحكم فيه بما شاء،
ومن شاخ: من جبل شاهق طويل في السماء، وإلى خفيض: إلى مطمئن من
الأرض، وهذا تمثيل. وغالني الدهر: أخذه غيلة من حيث لم يدر، وبوفر

الغنى : يريد : في كثرة عاله ، وقوله : فليس لي مال سوى عرضي يريد : لم يبق له الدهر شيئا إلا أتى عليه سوى عرضه فلم ينتقصه . والعرض : قال ابن الأثير : موضع المدح والذم من الإنسان سواء كان في نفسه أو سلفه أو من يلزمه أمره ، وقيل : هو جانبه الذي يصونه من نفسه وحسبه ويحامي عنه أن يُنتقص ويُثَلَب ، وقال أبو العباس ثعلب : إذا ذكر عرض فلان فعناه أهـوره التي يرتفع أو يسقط من جهتها بحمد أو بدم ، فيجوز أن تكون أمورا يوصف هو بها دون أسلافه ويجوز أن تذكر أسلافه لتلحقه النقيصة بعيهم وقول الشاعر :

✽ وَأَدْرِكُ مَيْسُورَ الْغِنَى وَمَعِي عِرْضِي ✽ أَي أفعال الجميلة

وقوله : بما يرضى : أي أضحكني أحيانا بما يرضيني . وقوله : كزغب القطا : واحدها زغباء والذكر أزغب والصدر الزغب ، وهو أول ما يبدو من ريش الفرخ ، وكذا من شعر الصبي ، وقوله : رُدِدْن من بعض إلى بعض : تصوير لهيئة تداخل الأفراخ وانضمام بعضهن إلى بعض أول نشأتهن ، يصف بناته بأنهن ضعاف لا يستطعن القيام بشؤونهن . ومضطرب : أي اضطراب ، أي تحرك . وأكبادنا : تمثيل لمعنى الشفقة عليهن ، وقد بينها بقوله : لو هبت الريح ... البيت ... والغمض بضم الغين : النوم .

✽ ✽ ✽

ويقول إسحاق بن خلف^(١) - من شعراء الدولة العباسية - في بنت أخت له

(١) ترجم له صاحب الأغاني وإسحق هذا هو الذي يقول في صفة السيف :

أَلْقَى بِجَانِبِ خَضْرِهِ أَمْضَى مِنَ الْأَجْلِ الْمَتَّاحِ
وَكَأَنَّهَا ذَرٌّ الْهَبَا عَلَيْهِ أَنْفَاسُ الرِّيحِ =

تسمى أئيمة كان حديبا عليها كلفا بها ، وهي من أبيات الحماسة :

لولا أئيمة لم أجزع من العدم ولم أفانس الدجى في حنيس الظلم
وزادنى رغبة في العيش معرقى ذل اليتيمة تجفوها ذور الرحم
أحاذر الفقر يوما أن يُيلم بها فيهتك الستر عن لحم على وضم
تهوى حياتى. وأنهوى موتها شفقا

والموت أكرم نزال على الحرم-

أخسى فظاظة عم أو جفاه أخ
وكننت أبقى عليها من أذى الكلم-

«العدم» : الفقر، وقوله : فهتك الستر ، فالهتك : جذبك الستر تقطعه منه وضعه

أو تشق منه جزءا فيبدو ماوراءه ، وإسناده إلى الفقر مجاز ، وقوله عن لحم
على وضم ، فالوضم : ما وضع عليه اللحم من خشب ونحوه ، وكانت العرب فى
باديتها إذا نُحر بعير للحى يقسمونه ، تقلع شجرا وتضع عليه اللحم مُقطعا
ياخذ منه كل شريك قسمة ولم يعرض له أحد ، وكانت تضرب المشل فى

== وهو الذى يقول فى مدح العربية من أبيات :

النحو يبسط من لسان الالكن والمرء تكريمه إذا لم يلحن

قال المبرد : وأحسبه أخذ قوله : والمرء تكريمه إذا لم يلحن من حديث حدثنا
به عن الأصمعى قال : كان يقال : ثلاثة يحكم لهم بالنبل لا يدرى من هم : رجل رأته
راكبا فى شارة حسنة ، أو سمعته يعرب ، أو شممت منه طيبا . وثلاثة يحكم عليهم
بالاستصغار حتى يدرى من هم : رجل شممت منه رائحة نبيذ فى محفل ، أو سمعته فى
مصرعربى يتكلم بالفارسية - أو الفرنسية أو الانكليزية أو غيرهما من اللغات - ورجل
رأته على ظهر طريق ينازع فى القدر .. ما أطيب هذا الكلام وأسماء وأليقه
بأخلاق السادة ..

ضعف النساء وقلة امتناعهن على طُلابهن إلا أن يذادَ عنهن ، بذلك اللحم مادام مع الوضم .
 وقوله : شفقا ، أى خيفة ، وقد شفق يشفق - بالفتح - وأشفق عليه يُشفق :
 خاف ، وقوله : والموت أكرم نزال على الحَرَم ؛ فالحرم ، جمع حُرمة ، وهى
 عيال الرجل ونساؤه ، يريد : أن الموت أكرم ضيف ينزل عليهن ، وفى هذا
 المعنى قولهم .. دَفَنُ البنات ، من المسكُرات ، وسيمر عليك كلامهم فى هذا المعنى
 فى باب النساء ، وقوله : وكنت أبقى عليها : من أبقيت عليه : إذا أُرغيتَ عليه
 ورحمته ... وقال عمرانُ بنُ حِطّان - وقد كان رأس القَعْدِ من الصُّفْرِيَّةِ
 « طائفة من الخوارج ، وكان خطيبهم وشاعرهم ، وهو من التابعين - :

لقد زاد الحياةَ إلى حُبًّا بَنَاتِي أَنَّهُنَّ مِنَ الضَّعَافِ
 مَخَافَةَ أَنْ يَرَيْنَ البُؤْسَ بَعْدِي وَأَنْ يَشْرِبْنَ رَنَقًا بَعْدَ صَافِ
 وَأَنْ يَعْرِينَ إِنْ كَسَى الجَوَارِي فَتَذُبُوا العَيْنُ عَنْ كَرَمِ عِجَافِ
 ولولا ذلك قد سَوِّمْتُ مَهْرِي وفى الرحمن لِلضَّعْفَاءِ كَافِ
 أَبَا مَنْ لَنَا إِنْ غَبَّتْ عَنَّا وصارَ الحَيُّ بَعْدَكَ فى اِخْتِلافِ

« الرنق : الماء الكدر ، وكرم : قال ابن سيده وغيره : رَجُلٌ كَرَمٌ :
 أى كريم ، وكذلك الإئنان والجمع والمؤنث تقول : امرأة كرم ونسوة كرم
 لأنه وصف بالمصدر ، وعجاف : جمع عَجْفَاءِ على غير قياس ، والنجف : الهزال
 وسوّمت مهري : فالخيل المسوّمة : المرسلة وعليها ركبانها ، وفى التنزيل العزيز :
 والخيل المسوّمة ، من قولك سوّمت فلانا إذا خأيتَه وسوّمته ، أى : ومايريد ، وقيل
 الخيل المسوّمة : هى التى عليها السمة والسومة وهى العلامة »

وقال شاعر جاهلى يمتدح ابنه لِبرِّه به ، وهى من آيات الحماسة :

رَأَيْتُ رِبَاطًا حِينَ تَمَّ شَبَابُهُ وولّى شبابى ليسَ فى بَرِّه عَتْبُ
 إِذَا كَانَ أَوْلَادُ الرِّجَالِ حَزَازَةً فَأَنْتَ الحَلَالُ الحُلُوءُ والبَارِدُ العَذْبُ

لنا جانب منه دميثٌ وجانبٌ إذا رآته الأعداءُ مُمتنعٌ صعبٌ
وتأخذه عند المكارم هزةٌ كما هزَّت تحت البارج الغصنُ الرطبُ
«قوله ليس في برِّه عتبٌ: يريد ليس في بره لومٌ ولا سخط، وقوله:
إذا كان أولاد الرجال حزازةً، فالحزازة: وجع في القلب من غيظٍ ونحوه
والجمع حزازات، وتروى: إذا كان أولاد الرجال مرارةً، وهي الأنسبُ
بقوله فأنت الحلال الحلو، يكتنى به عن الرجل الذي لا رية فيه، على المثل بالحلوى
الحلال مما يُذاق، يصف طيب أخلاقه، وقوله: دميث: أى سهل لئى،
والبارج: الريح تهب من الشمال في الصيف خاصة،

وقال عمرو بن شأس - وهو شاعر فارس شهد مع سيدنا رسول الله الحديبية
وكانت امرأته تُؤذى ابنه عراراً - وكان من أمة سوداء - تُعيره بالسواد
وتشتمه، فلما أعتت أباه عمراً أنشأ كلمة عدتها عشرون بيتاً اختار منها
أبو تمام هذه الأبيات:

أرادت عِراراً بالهوانِ ومن يُردُّ
فإن كنتِ منىً أو تُريدِينِ صُحبتى
وإن كنتِ تهوينِ ألفراقَ ظيبيتى
وإلا فيرى مثلَ ماسارِ راكبِ
وإن عِراراً إن يكنْ ذا شِكيمَةٍ
وإن عِراراً إن يكنْ غيرَ واضحِ
عِراراً لعمري بالهوانِ فقد ظلمُ
فكونى له كالسمنِ ربَّ له الأدمُ
فكونى له كالذئبِ ضاعت له الغنمُ
تجشمَ نخسا ليس في سَيره يتمُ
تفاسينها منه فما أملكُ الشيمِ
فإن أحبَّ الجونَ ذا المنسكبِ العممُ

«قوله: فإن كنت منى: نقل الكلام من الإخبار إلى الخطب. ومعنى: فإن كنت منى: فإن
كنت توافيني، من قولهم فلان منياً. أى: يوافقنا. وقال المرصفي: معناه: فإن كنت
مثل نفسى سيدة، وقوله: أو تريدين صحبتي: أى أو تكونين مثل غيرك في المعيشة لاحظ

لها في السيادة، وقوله: فكونى له كالسمن: أى كونى له كالسمن الذى لا يتغير،
والرب: خلاصة التمر بعد طبخه وعصره، والأدم: اسم جمع للأديم وهو الجلد
المدبوغ، يريد الأسقية التى يجعل فيها الرب. وكانت العرب تدهن وعاء السمن
بالرب لتمنع فساده ويزيد فى طيب ريحه، فقوله: رُبّ له الأدم: أى جعل فيه
الرب لئلا يفسد، وقوله وإن كنت تهوين الخ يقول: وإن كنت تؤثرين
مفارقى مصممة على ذلك فكونى له ذئبا أهملت له الغنم يعيىث فيها، ويقال لزوج
الرجل: ظعينة، وهى مقيمة، والأصل فى الظعينة المرأة فى هودجها وهى سائرة،
وقوله: وإلا فسيرى الخ، فالخمس: فلاة بعد ماؤها حتى إر الإبل لآترده فى اليوم
الرايع سوى اليوم الذى شربت فيه وصدرت، واليتم: الفتور والتقصير
والإبطاء، يقول: وإلا فارقنى وسيرى سير راكب تكلف ورود الماء
للخمس، وقوله: وإن عرارا... البيت، فالشكيمة: شدة النفس وإباؤها، والشيمة:
الخلية، وكان عرار هذا حديد القلب ذرب اللسان، يقول: لا أفدر على
تغيير خلقه، فإما أن تلاميذه على ما نقاسينه من حدته، وإما أن تفارقين فإنه أحب
إلى منك، وقوله غير واضح: أى غير أبيض: مستعار من وضح الصبح
وهو بياضه، والجون هنا: الأسود المشرب حمرة، والمنكب: مجتمع عظم
العضد والكتف، يصفه بالقوة والشدة، والعمم: التام، قالوا: كان عرار
هذا أحد فصحاء العقلاء، توجه عن المهلب بن أبى صفرة إلى الحجّاج رسولا
فى بعض فتوحه، فلما مثل بين يدي الحجّاج لم يرفه وازدراه، فلما استنطقه
أبان وأعرب ماشاء وبلغ الغاية والمراد فى كل ما سأل، فأنشد الحجّاج
متمثلا:

أرادت عرارا بالهوان ومن يرِدْ عرارا لعمرى بالهوان فقد ظلم

فقال عرار : أنا - أيد الله الأمير - عرار ، فأعجِبَ به وبذلك الاتفاق .

صلة الرحم : « وبعد » فلنورد بعض ماقلوا في صلة الرحم ، والرحم في الاصل : موضع تكوين الولد ، ثم سميت القرابة رحماً ، فالرحم : خلاف الأجنبي ، وقال ابن الأثير : ذُوو الرحم : هم الأقارب ، ويقع على كل من يجمع بينك وبينه نسب - قرابة - ويطلق في الفرائض - علم المواريث - على الأقارب من جهة النساء . ويقال : رَحِمَ ورَحِمَ ورَحِمَ ، وهي وثنة ، قال زهير بن أبي سُلي :

خُذُوا حَظَّكُمْ يَا آلَ عِكْرِمَ وَاذْكُرُوا

أَوْاصِرَنَا وَالرَّحِمُ بِالغَيْبِ تُذَكِّرُ (١)

ومما ورد في صلة الرحم : قوله جل شأنه : واتقوا الله الذي تَسَاءَلُونَ به والأرحامَ « أى واتقوا الأرحام أن تقطعوها ، وفي قراءة : والأرحام بالحنف ، وإذن يكون المعنى : تَسَاءَلُونَ به وبالأرحام ، وهو قولهم : نشدتك بالله وبالرحم . . . » ، وقال صلى الله عليه وسلم : الرحمُ شُجْنَةٌ من الله - وفي رواية : من الرحمن - معلقةً بالعرش تقول اللهم صلْ مَنْ وَصَّأَنِي واقطعْ مَنْ قَطَعَنِي ... » قال الجوهري : الشجنة بالضم والفتح والكسر : عروق الشجر المشتبكة ، و : بينى وبينه شجنة رحم : أى قرابة مشتبكة ، ومن ذا قولهم : الحديث ذو شجرين : أى ذو شُعَبٍ وامتساکِ بَعْضُهُ ببعض ، وعبارة أبي عبيدة في تفسير هذا الحديث : شجنة من الله : أى قرابة من الله مشتبكة كاشتباك العروق ، شبه بذلك مجازاً واتساعاً ، وأصل الشجنة . شعبة من غصن

(١) من أبيات جميلة تراها في خزانة البغدادى ج ٢ ص ٢٨٧ ، طبعة السلفية ،

من غصون الشجر ثم استعمل اتساعاً في الرحم المشتبكة ، وقال عبد الله بن أبي أوفى : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : لا يجالسنا قاطعُ رحمٍ ، فقام شاب ، فأنتى خالته له ، - وكان بينه وبينها شيء - فأخبرها بقول النبي صلى الله عليه وسلم ، فاستغفرت له واستغفر لها ، ثم رجع والنبي صلى الله عليه وسلم في مجلسه فأخبره ، فقال النبي : إن الرحمة لا تنزل على قاطع رحم . وفي الحديث : من أحبَّ أن يُبْسَطَ له في رِزْقِهِ ، ويُنْسَأَ له في أَجَلِهِ ، فليَصِلْ رَحِمَهُ ، يُنْسَأُ : يؤخر ومنه الحديث . صلة الرحم مَثْرَاةٌ في المالِ مَنَسَاةٌ في الأثر . منسأة : مفعلة من النَّسَأَ أَي مَظِنَّةٌ له وموضع ، والأثر : الأجل ، وفي الحديث : لا تستنسؤا الشيطان أى إذا أردتم عملاً صالحاً فلا تؤخروه إلى غد ولا تستمهلوا الشيطان ، يريد : أن ذلك مهلةٌ مَسْوَلَةٌ من الشيطان . ولعل المراد من تبسيط الرزق ومد العمر : البركة والخير والسعادة ورفاعة العيش ، وللعلماء في ذلك كلام كثير راجعه في المطولات . . .



وكان الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم : مَنْ كان منهم يؤثر أقرباه بالولايات والعِمالات وإسناد أمور الدولة إليهم ، فإنما كان ذلك - بعد كفاية الأقرباء واستحقاقهم - للبرِ صرفاً ، أى امتثالاً لأمر الله في وجوب صلة الرحم ، ومن كان منهم يؤثر الأجنب ويَقْصِي الأقاربَ وَيَحْرِمُهُم أعمالَ الدولة . فإنما كان ذلك للبر أيضاً ، إذ كان ذلك إمعاناً في التورع والتأثم وتركاً لما يريب إلى مالا يريب . . . وفي ذلك يقول الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه : كان عمر يمنعُ أقرباه ابتغاء وجهِ الله ، وأنا أُعْطِي قراباتي لوجهِ الله ، ولن يُرَى مثلُ عُمرَ . . . فنأمل قوله : ولن يُرَى مثلُ عُمرَ . . . أى لن يبلغ إنسان مبلغه في

الحزم والسياسة الرشيدة وضيِّط النفس أن تسترسل مع ما يُشبه الهوى ...
يعنى أن عمرَ أفضلُ منى، رضى الله عن الجميع ..

وبما يروى فى معنى حث الأقارب على التعاون: أن أكرمَ بنَ صَيْفِيَّ
حكيمَ العرب دعا أولاده عند موته، فاستدعى بِضمانَةٍ من السهام «أى حزمةٍ
منها، لغة فى الإضمامة، وتقدم إلى كل واحد أن يكسرها، فلم يقدر واحد
على كسرها، ثم بددها وتقدم إليهم أن يكسروها، فاستسلموا كسرها، فقال:
كونوا مجتمعين، لِيُعْجِزَ من ناوأكم «أى عاداكم، عن كسركم، لعجزكم ...
وقال الشاعر فى هذا المعنى:

إنَّ القِدَاحَ إذا اجتمعنَ فزأهنا بالكسر ذو حَرْدٍ وبَطْشِ أَيْدٍ (١)
عَزَّتْ فَلَمْ تُكْسَرْ، وإن هِيَ بَدَدَتْ فالوهن والتكسيرُ لِلْمَتَبَدِّدِ
وقال آخر فى هذا المعنى:

إذا ما أراد الله ذلَّ قَبِيلَةَ رَمَاهَا بِتَشْتِيتِ الهوى والنخازل
« وهذا كما يقال فى الأقارب يقال فى كل جماعة بينهم حُفْمَةٌ تجمعهم، من
وطن وغير وطن، وبما يروى: أن رجلا من العرب قتل ابنَ أخيه، فدفع
إلى أخيه لِيقتادَ منه فلما أهوى بالسيف أرعدت يدهُ، فألقى السيف من
من يده وَعَقَّأ عنه، وقال: - والبيتان فى الحماسة -:

(١) الحرد بتسكين الراء وبفتحها لغتان: الغضب والغيظ، قال الأشهب
ابن رُمَيْلَةَ:

أَسْوَدُ شَرَى لاقَتِ أَسْوَدَ خَفِيَّةٍ تَسَاقَوْا على حَرْدِ دماءِ الأَسْوَدِ
والأيد: القوى

أَقُولُ لِلنَّفْسِ تَأْسَاءً وَتَعْزِيَةً : إِحْدَى يَدَيَّ أَصَابْتَنِي وَلَمْ تُرِدِ (١)
 بِكَلَامِهِمَا خَلْفَ مَنْ فَقَدْ صَاحِبَهُ هَذَا أَخِي حِينَ أَدْعُوهُ وَذَا وَلَدِي (٢)
 وفي مثل هذا المعنى يقول الحارث بن وَعْلة الذُهلي - وهي من
 أبيات الحماسة - :

قَوْمِي هُمْ قَتَلُوا، أُمِّيمَ، أَخِي إِذَا رَمَيْتُ يُصْبِيئِي سَهْمِي
 فَلَيْنَ عَنَوْتُ لِأَعْفُونَ جَلَالًا وَلَيْنَ سَطَوْتُ لِأَرْهَنَنْ عَظْمِي
 لَا تَأْتِنَنَّ قَوْمًا ظَلَمْتَهُمْ وَبَدَأْتَهُمْ بِالشِّمِّ وَالرَّغْمِ
 أَنْ يَأْبُرُوا نَحْلًا لَغَيْرِهِمْ وَالشَّيْءُ تَحْقِرُهُ وَقَدْ يَنْبِي
 وَزَعَمْتُمْ أَنْ لِأَحْلُومَ لَنَا إِنَّ الْعَصَا قُرِعَتْ لِذِي الْجِلْمِ
 وَوَطِنْتَنَا وَطَأَ عَلَى حَنْقِي وَطَأَ الْمُقَيْدِ نَابِتَ الْهَرَمِ
 وَرَكَتْنَا لِحَمَا عَلَى وَضَمِّ لَوْ كُنْتَ تَسْتَبِقِي مِنَ اللَّحْمِ

« يقول في البيت الأول : قومي - يأميمة - هم الذين قتلوني بأخي
 ووتروني فيه ، فإذا حاولت الانتصارَ منهم عاد ذلك بالنكابة في نفسي ،
 لأن عزَّ الرجل بعشيرته . وهذا الكلام تحزن وتفجع وليس بإخبار . وقوله :
 فلئن عفوت ... البيت . يقول : إن تركتُ طلب الانتقام منهم صفحتُ
 عن أمرٍ عظيم . وإن انتقمْتُ منهم أُرهنْتُ عَظْمِي : أي أضعفُته ، ويقال :

(١) تأساء: تفعال من الاسوة ، بقول : أعزى النفس عنه متأسيا بغيري بمن
 قتل ولده، وقوله إحدى يدي: مبتدأ، وأصابتنى خبر، ولم ترد: في موضع الحال، والجملة
 في موضع نصب على أنه مفعول لقوله أقول
 (٢) يقول: كل واحد من الأخ الواتر والابن المفقود يصاح لأن يرضى به عوضا
 من فقدان الآخر

عفوت من الذنب : إذا صفحت عنه ، والسطو : الأخذ بعنف ، والجلال :
من الأضداد : يكون الصغيرَ ويكون العظيمَ ، وهو المراد ههنا . وقوله :
لاتأمننَّ توما ... ألبيتين ، حَوَّل الكلام عن الإخبار إلى الخطاب مُتَوَعِّدًا ،
والرغم : مصدر رغمت فلانا : إذا فديت به ما يُرغِمُ أنْفَه ويُذَلُّه ، وأوله :
أن يَأْبُرُوا : في موضع نصب على البدل من قوما في البيت الذي قبله ، كأنه
قال : لاتأمننَّ أْبُرَ قوم ظلمتهم نخلا لغيرهم ، يقال : أْبُرْتُ النخل وأْبُرْتَه :
إذا لَقَّحْتَه . يقول : إذا ظلمت قوما فلا تأمنهم أن ينتقموا منك فتشتقي
أعداؤك منك ، فتكون كمن أصلح أمر غيره ، وقال بعضهم : المعنى : إن
ظلمتونا تحوّلنا عنكم ، فلا يكون لكم بعدنا مُقَامٌ - إقامة - فتحولون أو
يَمْلِكُكم العدوُّ ، فيكون ما أْبُرْنَا نحن وأتم ، لهم دوننا ودونكم ، وقال
أبو العلاء المدي : قد اختلف في معنى هذا البيت ، قيل : أراد أنه يُفَارِقُهُم
ويَهْبِطُ هو وتوهُ أرضا ذات نخل كان لغيرهم فيدفعونهم عنه ويأْبُرُونَهُ ،
كأنه يتهدّدُهم بترخلة عنهم ، لأن ذلك يؤديهم إلى الذلِّ ، واستدلوا على هذا
الوجه بقوله في القصيدة :

قَوْضُ خِيَانِكَ وَالتَّمَسُّ بِلَدَا يَنْأَى عَنِ الغَاشِيكَ بِالظُّلْمِ

وقيل : بل يريد أنه يحاربهم فيصلحهم لغيره فيجعلهم كالنخل التي قد
أبرت ، إذ كان عدوهم ينال غرضه منهم إذا أعانه عليهم ، وقيل : بل عني
أنه يَسْبِي نساءهم فتوطأ فيكون ذلك كالإبار الذي هو تلقيح النخل . قال
التبريزي : وهذا الوجه أشبه بمذهب العرب بما تقدم ، لأنهم يكونون عن
النخلةِ بالمرأة . وقوله : وَرَعَمْتُمْ أَنْ لاحلوم لنا : فأكثر ما يستعمل الزعم فيما
كان باطلا أو فيه آرتياب ، والحلوم : العقول ، وقرع العصا : كناية عن التنبيه ،

واختلف في أول من قرعت له العصا ، فتميل عمرو بن الظرب العدواني وقيل عمرو بن جُمّة الدوسي ، وخبرهما : أن كل واحد منهما كان حَكَمًا للرب يتحاكمون إليه في كل مُعضلة ، قالوا : إن العرب أتوا عمرو بن مُحمّة يتحاكمون إليه ، فغَطَطَ في حكومته - وكان قد أَسَنَّ - فقالت له ابنته : إنك قد صرّتَ تَمِيمٌ في حكومتك - أي تغلط - فقال : إذا رأيت ذلك مني فأقرعني العصا ، فكان إذا قرعت له العصا فطن . يقول : زعمتم أنه لا عقول لنا وأنا سفهاء ، فإن كان الأمر على ما زعمتم فبهونا أتم ، وهذا تمك من الشاعر بهم ، وقوله : وَوَطِئْنَا ... ألبيت ، فالحنق : الغيظ ، والهَرَمُ : شجر ، أو البَقْلَةُ الحَمَاءُ - هي التي تُسَمَّى الرَّجْلَةَ - ، أو صَرَبٌ من الحِمَضِ فيه مُلوحةٌ وهو أذله وأشده انبساطا على الأرض واستبطاحا ... وفي المثل : أذل من الهَرمة ، يقول : وأثرتُ فينا تأثير الحنق الغضبان كما يؤثر البعير المُقَيَّد إذا وَطِئَ هذا النبات الضعيف ، وَخَصَّ المقيد لأن وطأته أنقل ، لأنه لا يتمكن من وضع قوائمه على حسب إرادته . كما خص الحنق لأن إبقائه أقل . ومن قول العرب : أعوذ بالله من وطأة الدليل ، أي من أن يطانى ، لأن وطأته أشد لسوء مَلَكَتِهِ ، كما قال امرؤ القيس :

فإنك لم يَفْخَرْ عليكَ كفاخِرٍ ضعيفٍ ولم يَغْلِبِكَ مثلُ مُغَلَّبٍ
 وخص النبات وأراد : الحديث النبات ، وهو أغصن له وأرق ، ويروى :
 يابِسَ الهَرَمِ ، وقوله وتركنا لهما على وضم : فالوضم : الخشبة التي يَصْعُقُ
 الجزارُ اللحمَ عليها يُوقَى بها اللحم من الأرض ، أو تقول : خِوانُ الجزار ، وقد تقدم
 يقول . تركنا لادفاع بنا كاللحم على الوضم يتناوله من شاء ، ثم قال : لو كنت
 تستبقي من اللحم ، أي لو كنت تترك بقية ، قال النبرزي : جعل ذلك مثلا

لاستفساده لهم وسماحته بهم ،

والعرب تقول في العطف على القريب والحمية له وإن لم يكن وادًا :
« أَنْفَكَ مِنْكَ وَإِنْ ذَنْ (١) » وَعَيْصُكَ مِنْكَ وَإِنْ كَانَ أَشِبًا (٢) وقال
قائلهم - وهو حريثُ بن جابر - :

إِذَا ظَلِمَ الْمَوْلَى قَزَعْتُ لِظَلْمِهِ فَخَرَّكَ أَحْشَائِي وَهَرَّتْ كِلَابِيَا (٣)

وقيل لأعرابي : ماتقول في ابن العم ؟ فقال عَدُوُّكَ وَعَدُوُّ عَدُوِّكَ ، ولما
مات عبادة بن الصامت بكى عليه أخوه أوس بن الصامت ، فقيل له : أتبكي
عليه وقد كان يريد قتلك ؟ فقال : حركني للبكاء عليه ارتكاضنا في بطن ،
وارتضاعنا من نُدْيٍ ... ودخل رجل من أشراف العرب على بعض الملوك ،
فسأله عن أخيه . فأوقع به يعيبه ويشتمه ، وفي المجلس رجل يشنؤد -
يبغضه - فشرع معه في القول ، فقال له : مهلاً إني لأكل لحمي ولا أدعه
لأكل ... وقال الشاعر - قيل هو زرارة بن سبيع ، وقيل فضلة بن خالد ، وقيل
دودان بن سعد ، وكلهم من بني أسد ، شعراء جاهليون ، والآيات من الحماسة :

لَعَمْرِي لَرَهْطِ الْمَرْءِ خَيْرُ بَقِيَّةٍ عَلَيْهِ وَإِنْ عَالُوا بِهِ كُلَّ مَرَكَبٍ
مِنَ الْجَانِبِ الْأَقْصَى وَإِنْ كَانَ ذَاغِيٍّ جَزِيلٍ وَلَمْ يُخْبِرْكَ مِثْلُ مُجْرَبٍ

(١) ذَنْ أَنْفَهُ يَذَنْ : إذا سال ، والذنان والذنين : الخاط الرقيق الذي يسيل من
الأنف (٢) العيص : منبت الشجر ، والأشب : الملتف ، ومعنى المثل : أصلك منك
وإن كان ذا شوك مشتبك غير سهل : أى أصلك منك وإن كان أقاربك على خلاف
ماتريد ، فاصبر عليهم فإنه لا بد منهم ..

(٣) هز الكلب يهر هريراً : إذا نبح وكثر عن أنيابه ، ومن طبع الكلب أن
يهز دون أهله ويذب عنهم

إذا كنت في قوم عدى لست منهم فكل ما علفت من خبيث وطيب
 « علوا به يريد : علوا به ، كل مركب : صعب أو ذلول ، يريد : وإن
 حملوه مالا يستطيع ، ومن الجانب الأقصى ، يريد : من الحى الأبد ، وقوله :
 ولم تك منهم ، يروى : * إذا كنت في قوم عدى لست منهم *
 وعدى بالكسر : غرباء ، فأما قوم عدى فقد ورد فيها الضم والكسر
 وقوله : فكل ما علفت : فهذا مثل ، يريد به : المسألة والدارة ، ويروى للشاعر
 بعد هذا البيت :

فإن حدثتلك النفس أنك قادرٌ على ما حوت أيدي الرجال فكذب

وقديما أكثروا من شكوى الأقارب : من جهة أنهم يحكم تجارهم
 وقرابتهم أدنى إلى الحسد والعداوة ، فقالوا : الأقارب عقارب وأتسمم بك
 رحما أشد هم بك لدغا ، وقال بعض حكماء العجم : ثلاث لا يستصاح فسادهم
 بشيء من الحيل : العداوة بين الأقارب ، وتحاسد الأكفاء ، والركاكة في
 الملوك ... ولذلك شكوا من أن عداوة الأقارب أشد على النفس من عداوة
 الأباعد فقالوا : - والقائل طرفة بن العبد - :

وظلم ذوى القربى أشد مضاضةً على المرء من وقع الحسام المهند
 وقال الشريف الرضى :

وللذل بين الأقربين مضاضةً والذل ما بين الأباعد أروح
 وإذا أتتكم من الرجال قوارصٍ فإسهام ذى القربى القريبة أجرح^(١)
 فمنهم من يحمل ويبقى على مقتضيات القرابة ، ويتجافى عن ذنوب

(١) القوارص : جمع قارصة وهي الكلمة المؤذبة قال الفرزدق :

قوارص تأنى وتحترونها وقد يملأ القطر الإناه فينعم

أقربائه على الرغم من عدائهم ، فيقولون - والقائل محمد بن عبد الله الأزدي -
صحابي جليل - وهذه الأبيات في الحماسة - :

لَا أَدْفَعُ ابْنَ الْعَمِّ يَمْشِي عَلَى شَفَا وَإِنْ بَلَغْتَنِي مِنْ أَذَاهُ الْجِنَادِعُ
وَلَكِنْ أُوَاسِيهِ وَأَنْسَى ذُنُوبَهُ لِتَرْجِعُهُ يَوْمًا إِلَى الرَّوَاجِعُ
وَحَسْبُكَ مِنْ دُلٍّ وَسَوْءِ صَنِيعَةٍ مَنَاوَأَةُ ذِي الْقُرْبَى وَإِنْ قِيلَ قَاطِعُ

« الشفا : حرف الشيء وحده ، مثل الشفير ، وقد أشفى على الهلاك : أشرف .
والجنادع في الأصل - كما قال أبو حنيفة الدينوري - : الجنادب الصغيرة ، وجنادب
الضب : دوابُّ أصغرُ مِنَ الْقِرْدَانِ تَكُونُ عِنْدَ جُحْرِهِ فَإِذَا بَدَتْ هِيَ
عُلِمَ أَنَّ الضَّبَّ خَارِجٌ فَيَقَالُ حَيْثُذُ : بَدَتْ جِنَادِعُهُ ، ثُمَّ قِيلَ لِأَوَائِلِ الشَّرِّ :
بَدَتْ جِنَادِعُهُ ، يَقُولُ الشَّاعِرُ : لَا أَدْفَعُهُ يَمْشِي عَلَى حَدِّ الْهَلَاكِ وَإِنْ بَالِغٌ فِي
الِإِسَاءَةِ ، وَالْمَنَاوَأَةُ : الْمَادَاةُ ، وَأَصْلُهُ الْهَمْزُ يُقَالُ : نَاوَأَهُ مُنَاوَأَةً : أَي عَادَاهُ ،
وقوله : وَإِنْ قِيلَ قَاطِعٌ : يَرِيدُ : وَإِنْ قِيلَ فِي ذِي الْقُرْبَى إِنَّهُ قَاطِعٌ لِرَحْمَةِ فَلَا
يَحْمِلُكَ ذَلِكَ عَلَى مَنَاوَأَتِهِ ، وَقَالَ الْفَضْلُ بْنُ الْعَبَّاسِ بْنِ عُثْبَةَ بْنِ أَبِي لَهَبٍ :

مَهْلًا بَنِي عَمَّنَا مَهْلًا ذَوَالِنَا لَا تَنْبِشُوا بَيْنَنَا مَا كَانَ مَدْفُونَا
لَا تَطْمَعُوا أَنْ تُهَيِّنُوا وَتُكْرِمَكُمْ وَأَنْ نَكْفِيَ الْأَذَى عَنْكُمْ وَتُوذُونَا
مَهْلًا بَنِي عَمَّنَا مِنْ نَحْتِ أُمَّتِنَا سِيرُوا رُويْدَا كَمَا كُنْتُمْ تَسِيرُونَا
اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّا لَا نُجْبِكُمْ وَلَا نَلْوِمُكُمْ إِنْ لَمْ تَجْبُونَا
كُلُّهُ نَيْسَةٌ فِي بُغْضِ صَاحِبِهِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ تَقْلِيكُمْ وَتَقْلُونَا

« مهلا : يريد : رفقوا وسكونا لا تعجلوا ، ويريد بنو عمه : بني أمية ، وقد
كان في صدورهم أحقاد ، وقوله لا تانبشوا : يريد لا تستخرجوا ما كان بيننا

من العداوة مدفونا في الصدور، وقوله: من نحت أثنتنا، فالأثلة: واحد الأثل وهو من العَضاه شجر طوال مستقيم الخشب ومنه تصنع الأقواح والجفان ونحتها: قشرها أو نشرها، يريد: ههلا بني عمنا في إظهار المثالب والمعائب التي تلصقونها بنا، وقوله: كل له نية الخ يريد: إنا وإباكم لعلی طرفی نقيض نحن نبغضكم لا غصابكم الملك واستيلائكم على أموال المسلمين وأنتم تبغضوننا على قرابتنا من النبي صلوات الله عليه، وقلاه يقلبه قلى: أبغضه، وقد حذف نون الرفع من تقولنا ضرورة «

وقال ذو الأصبع العدواني: (١)

لولا أو اصر قربي لست تحفظها ورهبة الله في مؤلى يعاديني
إذن بريتك برياً لا انجبار له إني رأيتك لا تنفك تبريني

ومنهم من اضطر إلى الانتقام من أقاربه: أو من تربطه بهم آصرة مأم تأسف، فقال قيس بن زهير في ذلك:

شفيت النفس من حمل بن بدر وسيفي من حذيفة قد شقاني
قتلت ياخوتي سادات قومي وقد كانوا لنا حلي الزمان
فإن أك قد بردت بهم غليلي فلم أقطع بهم إلا بناني

وقال النمرى:

فإنك حين تبلغهم أذاه وإن ظلموا لمحترق الضمير

(١) واسمه حمرثان بن الحارث بن محرت، شاعر فارس من قدماء الشعراء في الجاهلية، وبيتاه هذان من قصيدة له في ابن عم له اسمه عمرو وهي قصيدة بارعة جدا أولها:

يامن لقلب شديد الهم محزون أوسى أذكر ليلي أم هارون
وقد ترجم له صاحب الأغاني، انظر الجزء الثالث طبعة دارالكتب،

وقال المنبى في ذلك :

وكيف يَتَمُّ بِأَسْكَ فِي أَنَاسٍ تُصِيبُهُمْ فِدْوَالُكَ الْمُصَابُ
وقال البحرى من قصيدة له يمدح بها المتوكل على الله العباسى ويذكر

صلح بنى تغلب - :

وَفِرْسَانِ هَيْجَاءٍ تَجْبِشُ صُدُورُهَا بِأَحْقَادِهَا حَتَّى تَضِيقَ دُرُوعُهَا
تُقْتَلُ مِنْ وَتْرٍ أَعَزَّ نَفُوسِهَا عَلَيْهَا بِأَيْدِي مَا تَكَادُ تُطِيعُهَا
إِذَا أَحْتَرَبْتَ يَوْمًا فِقَاضَتْ دِمَاؤُهَا تَذَكَّرْتَ الْقُرْبَى فِقَاضَتْ دِمُوعُهَا

وقال سيدنا على كرم الله وجهه - حين تصفح القتلى يوم الجمل : شَفَيْتُ
نَفْسِي ، وَجَدَعْتُ أَنْفِي - وسيمر بك هذا الكلام بتمامه في موضع آخر من هذا
الكتاب ... ومنهم من يركب رأسه وَيُحِبُّ فِي عِدَاءِ أَقَارِبِهِ خَبًّا وَلَا يَبَالِي -
وقد قال قائلهم - أوس بن حَبَاءِ التَّمِيمِي - :

إِذَا الْمَرْءُ أَوْلَاكَ الْهُوَانَ فَأَوْلُهُ هَوَانًا وَإِنْ كَانَتْ قَرِيبًا أَوَاصِرُهُ

ويبلغ الحق بهذا الصنف من الناس أن يظهر الأجنبي على القريب

وقد شبه العرب هذا الصنف بذئب السوء قال الفرزدق - :

وَكَانَتْ كَذَيْبِ السُّوءِ لَمَّا رَأَى دَمًا بِصَاحِبِهِ يَوْمًا أَحَالَ عَلَى الدَّمِّ

« وهو معلوم أن الذئب إذا رأى بصاحبه دمًا أقبل عليه ليأكله ، وإنه

لبديهي أن هذا التماؤ للآجنبي على القريب لا يُشعر إلا الضرر الموبق ، وقد

قال قائلهم في ذلك - وهو أبو يعقوب الخَرَيْمِيُّ - :

كَانُوا بَنِي أُمَّ فَفَرَّقَ شَمَلَهُمْ عَدَمُ الْعُقُولِ وَخِيفَةُ الْأَحْلَامِ

وقد ورد في علاج العداء الذي يحدث بين الأقارب : وهو علاج مُسَكَّن ... وإيكنه لا علاج غيره - قولُ أَكْمَبْنِ صَيْفِي حَكِيمِ الْعَرَبِ : تَبَاعَدُوا فِي الدِّيَارِ تَقَارَبُوا فِي الْمَوَدَّةِ ... وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعريّ: مُرْ ذَوَى الْقَرَابَاتِ أَنْ يَتَزَاوَرُوا وَلَا يَتَجَاوَرُوا... وقال في هذا المعنى وزاد شاعر جاهلي من بنى أسد - وكان له ابن عم يترصد له مرافع السوء -:

دَاوَابْنَ عَمِّ السُّوءِ بِالنَّأْيِ وَالْغِنَى كَفَى بِالْغِنَى وَالنَّأْيِ عَنْهُ مُدَاوِيَا
يَسْأَلُ الْغِنَى وَالنَّأْيُ أَدْوَاءَ صَدْرِهِ وَيُؤَيِّدِي التَّدَانِي غِلْظَةً وَتَقَالِيَا
أَعَانَ عَلَى الدَّهْرِ إِذْ حَكَ بَرَكُهُ كَفَى الدَّهْرُ لَوَوَكَّاتُهُ بِي كَافِيَا

« النَّأْيُ : البعد ، والغنى : مصدر غَنِيَ عن الشيء يَغْنَى : استغنى عنه وأطرحه فلم يلتفت إليه ، ويسألُ : ينتزع برفق ، وأدواء صدره : أضغائه وأحقادها ، والتداني : يريد إظهار التقارب منه ، وتقالييا : تباغضا ، وحك بركة : فالحك : إمرار جرم على جرم ، والبرك في الأصل : كل كل البعير ، وهو صدره الذي يدكُّ به ماتحته ، استعاره لادهر ، وقوله . كفى الدهر الخ : يريد : كفى حدّان الدهر وحادّة في الإساءة فلا تكون إغائته وحادث الدهر ماعليه ،

ومن كلامهم في الإخوة : ماورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : حَقُّ كَبِيرِ الْإِخْوَةِ عَلَى صَغِيرِهِمْ حَقُّ الْوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ ... وَيُرْوَى أَنَّ إِخْوَةَ حَضَرُوا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَتَكَلَّمُوا أَصْغَرَهُمْ ، فَتَمَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : الْكَبِيرَ الْكُبْرَى ... « الكبر : جمع الأكبر ، كأخمر وحر : أى ليبدأ الأكبر بالكلام ، أو قدّموا الأكبر ، إرشادا إلى الأدب في تقديم الأسن ، وقيل لحكيم معه أخ أكبر منه : أهذا أخوك ؟ فقل بل أنا أخوه ... وكان بين الحسن والحسين رضى الله عنهما كلام ، فقيل للحسين : أدخل

على أخيك فهو أكبر منك ، فقال : إني سميتُ جدِّي صلى الله عليه وسلم
يقول : أيما اثنين جرى بينهما كلام ، فطلب أحدهما رضا الآخر ، كان سابقه
إلى الجنة ، وأنا أكرهه أن أسبقَ أخى الأكبر ، فباغ قوله أخاه ، فأتاه
عاجلا وأرضاه ...

* * *

ومما يتصل بالإخوة وينشعب به القول في هذا الباب : ما يروى في الأخوين
يختلفان في النجابة والتخلف والحسن والدمامة ، فهذا كَيْسُ رَفِيعٌ ، وهذا أَحْمَقُ
وضيح ؛ وهذا جميل ، وهذا دميم ، قال الأصمعي : لم يقل أحد في تفضيل أخ على
أخ وهما لأب وأم مثل قول ابن المعتز لأخيه صخر :

أبوك أبي وأنت أخى ولكن تفاضلتِ العناكبُ والرؤسُ
وفي هذا المعنى يقول بعضهم :

تفرّد بالعلياء عن أهل بيته وكلُّ يهْدِيهِ إلى المجدِّ والدِّ
وتختلف الأثمارُ في شجراتها إذا شَرِقَتْ بالماء والماء واحدُ

وقال رجل لأخيه : لَأَهْجُؤَنَّكَ ، فقال : كيف تهجونى وأنا أخوك لأبيك
وأملك ؟ فقال :

غَلَامٌ أَتَاهُ اللَّؤُومُ مِنْ شَطْرِ نَفْسِهِ ولم يَأْتِهِ مِنْ شَطْرِ أُمِّ وَلَا أَبِ
وقال رجل لآخر ، وكان هذا الآخر قبيحاً ومعه أخٌ صبيحٌ ، ما أملك
إلا شجرة البلوط ، تحمل سنة بلوطاً وسنة عَفْصاً^(١) وفي هذا المعنى
يقول آخر :

(١) البلوط : أبو فروة ، والعفص : نتره يكون على شجرة البلوط أو ضرب منه

أَمَا رَأَيْتَ بَنِي بَدْرِ وَوَدَّ خُلُقُوا كَأَنَّهُمْ حُسْبُ بَقَالٍ وَكُتَابٍ (١)

قطيعة الإخوة

ومما جاء في قطيعة الإخوة وتبريرها - والقطيعة الهجران ، ضد الصلة - : ما روى أنه قيل لأعرابي : لِمَ تَقْطَعُ أَخَاكَ شَقِيْقَكَ ؟ فقال : أَنَا أَقْطَعُ الْفَاسِدَ مِنْ جَسَدِي الَّذِي هُوَ أَقْرَبُ إِلَيَّ مِنْهُ ، فَكَيْفَ لَا أَقْطَعُهُ إِذَا فَسَدَ ! وَكُتِبَ الْفَضْلُ بْنُ سَهْلِ الْوَزِيرُ إِلَى الْمَأْمُونِ - الْخَلِيفَةِ الْعَبَّاسِيِّ - : أَمَا بَعْدَ هَذَا الْخُلُوعِ - يَرِيدُ الْأَمِينَ أَخَا الْمَأْمُونِ - وَإِنْ كَانَ قَسِيمَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الذَّنْبِ وَاللَّحْمَةِ ، فَقَدْ فَرَّقَ كِتَابُ اللَّهِ بَيْنَهُمَا فِيمَا اقْتَضَى عَلَيْنَا مِنْ نَبَأِ نُوحٍ ، فَقَالَ : يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أُمَّدِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ، وَلَا صَلَاةَ لِأَحَدٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ ، وَلَا قَطِيْعَةَ مَا كَانَتِ الْقَطِيْعَةُ فِي ذَاتِ اللَّهِ ، وَالسَّلَامُ . . . وَقِيلَ لِبُزْرِجَهْرَ : أَخُوكَ أَحَبُّ إِلَيْكَ أَمْ صَدِيقُكَ ؟ فَقَالَ : إِنَّمَا أَحَبُّ أَخِي إِذَا كَانَ صَدِيقًا . وَيُقَالُ : الْقَرَابَةُ مَحْتَاجَةٌ إِلَى الْمَوَدَّةِ ، وَالْمَوَدَّةُ أَقْرَبُ الْأَنْسَابِ ، وَالْبَيْتُ الْمَشْهُورُ فِي هَذَا :

فَإِذَا الْقَرَابَةُ لَا تُقَرِّبُ فَاطِمًا وَإِذَا الْمَوَدَّةُ أَقْرَبُ الْأَنْسَابِ

الناس تجاه البنات

وقد كان الأوائِلُ تُجَاهَ الْبَنَاتِ - وَكَذَلِكَ النَّاسُ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا - قَرِيقَيْنِ - : فَأَمَّا قَرِيقُ فَقَدْ كَانُوا يُفَضِّلُونَهُنَّ وَيَحْنُونَ عَلَيْهِنَّ ، وَمِنْ قَوْلِهِمْ فِي ذَلِكَ مَا يُرْوَى أَنَّ مَعْنَ بْنَ أَوْسٍ الْمَرْزِيَّ - شَاعِرَ إِسْلَامِيٍّ مِنَ الْفُجُولِ -

(١) البقال : بائع البقول ، والكتاب : المدرسة يحفظ فيها كتاب الله وما إليه

كَانَ مِثْنَانًا — وَكَانَ لَهُ ثَمَانُ بَنَاتٍ ، وَكَانَ يُحْسِنُ مُصْحَبَتَهُنَّ وَتَرَبُّبَتَهُنَّ ، فَوَلِدَ لِبَعْضِ عَشِيرَتِهِ بِنْتًا ، فَكَرِهَهَا وَأَظْهَرَ جَزَعًا مِنْ ذَلِكَ ، فَقَالَ مَعْنُ :

رَأَيْتُ رِجَالًا يَكْرَهُونَ بَنَاتِهِمْ

وَفِيهِنَّ — لَا تُكَذِّبُ — نِسَاءَ صَوَالِحِ

وَفِيهِنَّ — وَالْأَيَّامُ يَعْتُرْنَ بِالْفَتَى — عَ — وَانْدُ لَا يَمْلِكُنَّهُ وَنَوَاحِجُ

وَدَخَلَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ عَلَى مَعَاوِيَةَ وَعِنْدَهُ ابْنَتُهُ عَائِشَةُ ، فَقَالَ : مَنْ هَذِهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ فَقَالَ : هَذِهِ مُفَاحَةُ الْقَلْبِ ؛ فَقَالَ : انْبِذْهَا عَنكَ ، قُلْ : وَلِمَ ؟ قَالَ : لِأَنَّ بِلَدُنِ الْأَعْدَاءِ ، وَيُقَرَّبُ مِنَ الْبُعْدَاءِ ، وَيُورَثُ مِنَ الضَّغَائِنِ ^(١) ، فَقَالَ : لَا تَقُلْ ذَلِكَ يَا عَمْرُو ، فَإِنَّ اللَّهَ مَا مَرَضَ التَّرَضَى وَلَا تَدَبَّ الْمَوْتَى وَلَا أَعَانَ عَلَى الْأَحْزَانِ مِثْلُهُنَّ ، وَإِنَّكَ لَوَاجِدٌ خَالًا قَدْ نَفَعَهُ بَنُو أُخْتِهِ ؛ فَقَالَ لَهُ عَمْرُو : مَا أَعْلَمُكَ إِلَّا حَبِيبَتَهُنَّ إِلَى ..

وقال بعضهم : البناتُ حسناتٌ . والبنونُ نعمٌ ، والحسناتُ مثابٌ عليها ،
والتَّعَمُّ مَسْئُولٌ عَنْهَا ...

وَأَمَّا الْفَرِيقُ الْآخَرُ فَيَكْرَهُ الْبَنَاتِ : وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ — كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى — وَتَدِيمًا قَالُوا : نِعْمَ الْحَتَنُ الْقَبْرِ ^(٢) ... وَدَفَنُ الْبَنَاتِ مِنَ الْمَكْرُمَاتِ ...

* وَمَا حَتَنُ فِينَا أَعْفُ مِنَ الْقَبْرِ *

ونظر أميراني إلى بنت تُدْفَنُ ، فَقَالَ : نِعْمَ الصَّهْرُ صَاهِرْتُمْ ... وَقَالَ

(١) يُورَثُ : مِنْ أَرَثَ النَّارَ : أَوْقَدَهَا (٢) الْحَتَنُ : زَوْجُ الْبِنْتِ

الحسين بن علي رضي الله عنه : والد البنت مُتَمَّبٌ ، ووالد بنتَيْنِ مُشَقَلٌ ،
 ووالد ثلاث فعلى الناس أن يُعِينُوهُ... وقال الزهري : كانوا لا يَرَوْنَ علي
 صاحب ثلاثِ بَنَاتٍ صَدَقَةٌ ولا جهادًا ... وكانت العَرَبُ لا تأكل طعام
 صاحب البناتِ وقد قال قائلهم :

إذا ما المرءُ شبَّ له بَنَاتٌ عَصَبِنَ برأسه عَنَتًا وَعَارًا

وأد البنات : وناهيك في هذا الباب سُنْعَةٌ وَسُوءٌ صَنِيعَةٌ بما كان العربُ يفعلون
 في الجاهلية من وأد البنات^(١) ... وما فَيْتَوُا إلى أن أُرْسِلَ سَيِّدُ البَشَرِ صلوات الله
 عليه ، فَتَهَى عن ذلك ، وأَنْزَلَ اللهُ عز و تقدس : وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ
 ذَنْبٍ قُتِلَتْ ؟ وكثيرا من الآيات في هذا المعنى المُفْطِئِعِ ... ودخل قيس بن
 عاصم المِنَقَرِيُّ - وهو سَيِّدُ أهل الوبر - على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال :
 إني وأدتُ أَثَلَّتِي عَشْرَةَ بِنَاتٍ ، فما أَصْنَعُ ؟ فقال رسول الله : أَعْتَقِ عَن
 كُلِّ تَوُودَةٍ نَسَمَةً ، فقال له أبو بكر رضي الله عنه : فما الذي حَمَلَكَ على ذلك
 وأنت أكثرُ العربِ مالا ؟ فقال : عِزَّةٌ أَنْ يَنْدِكِحُونَنِي مِثْلَكَ^(٢) ، فتبسم رسول
 الله وقال : هذا سيد أهل الوبر ... قال قيس : ما وُلِدْتُ لِي ابْنَةٌ إِلا وَأَدْتُهَا
 سِوَى بُيَّتَةٍ وُلِدْتُهَا أُمُّهَا وَأَنَا فِي سَفَرٍ ، فَلَمَّا عُدْتُ ذَكَرْتُ أَنَّهَا وُلِدَتْ ابْنَةً
 مَيِّسَةً ... فَأَوْدَعْتُهَا أَخْوَالَهَا حَتَّى كَبُرَتْ ، فَأَوْدَخْتُهَا مَسْرِيًّا مُسْتَزِينَةً ،

(١) وأد بنته يندما وأدا : دفنها في القبر وهي حية

(٢) هذه بحرف عجمية وعنجبية من هذا الاعرابي الجلف في حق الصديق رضي الله عنه
 وإن كان قيس بن عاصم سيد أهل الوبر ، وما أحلم سيدنا رسول الله الذي أرسل
 ليتم مكارم الاخلاق ، والذي أمر بأن يدعو الناس الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة
 الحسنة.

فاستَحَسَّتْهَا ، فقلتُ : مَنْ هذه ؟ فقالت : هذه ابنتُكَ ، وهي التي أَخْبَرْتُكَ
أني ولدْتُها ميتةً ، فأخَذْتُها ودَفَنْتُها حَيَّةً وهي تصيحُ وتقول : ائْتِرْ كني
هكذا ؟ فلم أَعْرِجْ عليها ، فقال صلى الله عليه وسلم : من لا يَرْحَمَ لا يُرْحَمُ ...

الخال والخولة

بقي بعد ذلك أن نورد شيئاً مما قالوا في الخولة والخال : والقول في ذلك
ينشعب أيضاً ، فقد قالوا في مَدْحِ الخال ودَمِّه ، وقالوا في معنى نِزَاعِ
الولد إلى خاله ^(١) ، فَلَمَنْتَقِي شيئاً مما قالوا في هذه المعاني ، فأما قولهم في
اعتبار الخولة وكونها كالأبوة ، فمن ذلك ما يروى أن الأسود بن وهب
خال رسول الله صلى الله عليه وسلم استأذن عليه ، فبسط صلى الله عليه وسلم له
رِدَاءَهُ ، فقال الأسود : حَسْبِي أن أجلسَ على ما أنت عليه ، فقال صلى الله عليه
وسلم : أجلس فإن الخال والد ... ومن طريف هذا الباب ما يروى أن الحجاج
قال لابن مِعْمَرٍ : إنك تزعم أن الحسنَ والحسينَ ابنا رسولِ الله صلى الله عليه
وسلم ؟ قال : نعم ، قال : والله لا قُتِلْتُكَ ، فقال ابن معمر : أليس الله يقول :
وَمَنْ ذُرِّيَّتِهِ دَارِدَ دَوْسِلِيَانَ ، إلى قوله : وزكريا ويحيى وعيسى ، وإنما عيسى
ابنُ مَرْيَمَ : ابن بنت ، فقال نَجْوَتَ ... وأما من عدَّ الخولة ليست من النسبِ
والقرابة ، فمن قولهم في ذلك - والقائل ضَمْرَةَ بن ضَمْرَةَ بن جابر بن قَطَنَ
- شاعر جاهلي - وقيل غيره - :

إذا كنتَ في سَعْدٍ وأُمَّكَ مِنْهُمْ غريباً فلا يَغْرُرْكَ خَالُكَ من سَعْدٍ

(١) نزع فلان إلى أبيه أو خاله ينزع نزوعاً ونزاعاً : ذهب إليه وأشبهه ، ومثله نزع
الإنسان إلى أهله والبعير إلى وطنه نزاعاً ونزوعاً : حنّ واشتاق

فَإِنَّ ابْنَ أُخْتِ الْقَوْمِ مُصْنَعِي إِيَّاؤُهُ إِذَا لَمْ يُزَاحِمْ خَالَهٖ بِأَبِّ جَدِّهِ (١)
 وتقدم شابٌ إلى عبد الله بن الحسين رضى الله عنه فقال : إِنَّ جَدِّي أَوْصَى
 بِسُلْكِ مَالِهِ لَوْلَدٍ وَلَدِهِ ، وَأَنَا مِنْ وَلَدِ بَدْتِهِ ، وَالْوَصَى لَيْسَ يُعْطِينِي مِنْهُ ، فَقَالَ :
 لِأَحَقِّ لَكَ فِيهِ ، أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ الشَّاعِرِ :

بُنُونًا بَنُو أَبْنَانِيَا وَبَنَاتُنَا بَنُوهُنَّ أَبْنَاءُ الرَّجَالِ الْآبَاعِدِ

« يقول : إن بنى أبنائنا مثل بنينا ، أما بنو بناتنا فليسوا منا وإنما هم أبناء
 الأجاناب ، فبنونا خير مقدم وبنو أبنائنا مبتدأ مؤخر ، وهذا البيت لا يعرف
 قائله على شهرته . قال الإمام العيني : هذا البيت استشهد به النجاة على جواز
 تقديم الخبر ، والفرضيون - علماء المواريث - على دخول أبناء الأبناء
 في الميراث وأن الانتساب إلى الآباء ، والفقهاء كذلك في الوصية ،
 وأهل المعاني والبيان في التشبيه ، ولم أر أحدا منهم عزاه إلى قائله »
 وقالوا في نزاع الولد إلى خاله :

عَلَيْكَ الْخَالُ إِنَّ الْخَالَ يَسْرِي إِلَى ابْنِ الْأُخْتِ بِالشَّبَهِ الْمُبِينِ

وقالوا :

لِكُلِّ أَمْرِي شَكْلٌ يَقْرَأُ بِعَيْنِهِ

وَقُرَّةُ عَيْنِ الْقَسَلِ أَنْ يَصْحَبَ الْفَسْلَا

وَتَعْرِيفٌ فِي تَجْمِيدِ أَمْرِي تَجْمَدُ خَالِي

وَيَسْذُلُ أَنْ تَمْلُقَ أَخَا أُمِّهِ نَذْلًا

(١) مصغى إياؤه : نقص حظه ، يقال أصغى فلان إناء فلان : إذا أماله ونقصه
 من حظه يقول هذا الشاعر : لا تغتر بخؤلتك فإنك منقوص الحظ مالم تزاحم أخوالك
 بآباء شراف وأعمام أعزة .

« الفسل : النذل الذى لامرؤة له ولا جلد » وقال رافع بن هریم :-

شاعر مخضرم أدرك الإسلام وأسلم ، يخاطب بنى أخوته :-

فَهَلَّا عَيْرَ عَمَّكُمْ ظَلَمْتُمْ إِذَا مَا كُنْتُمْ مُتْظَلِّينَا

عَفَارِيثَا عَلَى وَأَكَلِ مَالِي وَجُبْنَا عَنْ رِجَالِ آخِرِينَا

وَلَوْ كُنْتُمْ لِمُكَيِّسَةَ أَكَاكْسَتْ وَكَيْسُ الْأُمِّ كَيْسُ اللَّبْنِينَا

وَلَكِنْ أُمَّكُمْ حَمَقَتْ فَجِئْتُمْ غَثَانَا مَا نَرَى فِيكُمْ سَمِينَا

وموضع هذه الايات باب إنجاب الادهات فى كتاب النساء وترى نظائرله هناك

« قوله متظللينا ، تقول : تظلنى مالى : أى ظلمنى مالى ، و « ما » فى : إذا ما كنتم :

زائدة ، والمكيسة : المرأة التى تلد أولادا أكياسا ، وأكاست المرأة : ولدت

ولدا كياسا ، والكيس : خلاف الحق ، ورجل كيس : أريب ظريف ، وقوله :

ولكن أممكم حمقت : أى صارت حمقاء ، والغثا : جمع غثيث بمعنى مهزول ،

مدعو القرابة البعيدة

ومما يستطرف من محاسنهم فى مدعى القرابة البعيدة : قول رجل لآخر :

لست ترعى حقى وبيننا قرابة ا فقال : من أين ؟ قال : إن أباك كان قد خطب

أُمى ، فلو تم الأمر لكنت أنا أنت ... فقال : هذه والله رِجْمٌ مأساة ...

وَتَعَرَّضَ رَجُلٌ لِهَشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَادَّعَى أَنَّهُ أَخُوهُ ، فَسَأَلَهُ : مِنْ أَيْنَ ذَلِكَ ؟

قَالَ : مِنْ آدَمَ فَأَمَرَ أَنْ يُعْطَى دِرْهَمًا ، فَقَالَ : لَا يُعْطَى مِثْلَكَ دِرْهَمًا ،

فَقَالَ هَشَامٌ : لَوْ قَسَمْتُ مَا فِي بَيْتِ الْمَالِ عَلَى الْقَرَابَةِ الَّتِي ادَّعَيْتَهَا لَمْ يَنْتَلِكْ

إِلَّا دُونَ ذَلِكَ ... وَفِي هَذَا الْمَعْنَى - مَعْنَى ' ادِّعَاءِ الْقَرَابَةِ وَانْتِفَائِهَا -

يقول حسان بن ثابت :

لَعَمْرُكَ إِنَّ لَكَ مِنْ قُرَيْشٍ كَيْلَ السَّقْبِ مِنْ رَأْلِ النِّعَامِ^(١)

محاسنهم في الآباء والأبناء والأقارب من بابات شتى

ولنعطف على سائر محاسنهم في الآباء والأبناء والقربات من بابات شتى :

فمن ذلك تفاخرهم بالحسب وكرم المجتهد ، قال عدى بن أرطاة لإياس : دُلَّنِي عَلَى قَوْمٍ مِنَ الْقُرَاءِ أَوْلِيَهُمْ ، فَقَالَ : الْقُرَاءُ ضَرْبَانُ : ضَرْبٌ يَعْمَلُونَ لِلدُّنْيَا ، غَمًّا ظَنَنْكَ بِهِمْ : وَضَرْبٌ يَعْمَلُونَ لِلْآخِرَةِ فَلَا يَعْمَلُونَ لَكَ ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِأَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الَّذِينَ يَسْتَحْيُونَ لِأَحْسَابِهِمْ ... وَقَالَ زُهَيْرُ بْنُ أَبِي سَلْبَى :

وَمَا يَكُ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا تَوَارَتْهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ

وقال :

وَهَلْ يُنْبِتُ الْخَطُّ إِلَّا وَشَيْجَهُ وَتُقَرُّسُ إِلَّا فِي مَنَابِتِهَا النَّخْلُ

« الْخَطُّ : الرَّيْحُ ، قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ الدِّينُورِيُّ الْعَالِمُ النَّبَاتِيُّ الْأَشْهُرُ : الْخَطُّ :

الرَّمَاحُ ، وَهُوَ نَسَبَةٌ قَدْ جَرَى مَجْرَى الْأَسْمِ الْعِلْمِ وَنَسَبَتْهُ إِلَى الْخَطِّ ، خَطُّ الْبَحْرَيْنِ ، وَإِلَيْهَا تَرَفُّأَنْسَفُنْ إِذَا جَاءَتْ مِنْ أَرْضِ الْهِنْدِ ، وَلَيْسَ الْخَطُّ - الَّذِي هُوَ الرَّمَّاحُ - مِنْ نَبَاتِ أَرْضِ الْعَرَبِ . وَزَادَ الْجَوْهَرِيُّ : وَإِنَّمَا نَسَبَتْ إِلَى الْخَطِّ لِأَنَّهَا تَحْمَلُ

مِنْ بِلَادِ الْهِنْدِ فَتَقُومُ بِهِ . وَوَشَيْجُهُ : فَالْوَشَيْجُ شَجَرُ الرَّمَّاحِ ، ...

وَدَخَلَ بَعْضُ أَوْلَادِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ عَلَى سَلِيمَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ ، فَنَسَسَ عَلَى نَمْرُوقَةَ

(١) الإل : القرابة ، والسقب : ولد الناقة ، والرأل : ولد النعام ، بهجو حسان

أبا سفيان الحارث بن عبد المطلب ، وزعم بعضهم أن هذا الشعر يقوله حسان لعقبه بن أبي معيط ، وذكروا أنه كان لزنبة ولذلك قال له عمر حين أمر رسول الله بضر

عنقه ، فقال : أقتل من بين قريش صبوا . فقال عمر : دَحْنٌ قَدَحٌ لَيْسَ مِنْهَا ،

« الوسادة يتكأ عليها ، فاذا ظم من ذلك وقال : مَنْ أجالسك دهنا؟ قال : صَفِيَّةُ بنت عبد المطلب : فسكن فضبه . وقال أبو تمام :

تَسَبُّ كَانَ عَلَيْهِ مِنْ تَمَسُّ الضُّحَى نُورًا وَرَمِنَ فَاتِحِ الصَّبَاحِ عَمُودًا

• • •

وقالوا فيمن يشبه أباه في علاء ابنتاه : شَيْفِيَّةُ أَعْرِفُهَا مِنْ أَخْزَمِ^(١) وَتِ
وإن امرءاً في الفضل أشبه جدّه ووالدته الأذنى لغير ظلم
وقال أبو تمام فيمن مكارهته تدلُّ على كرم أسلافه :

فُرُوعٌ لَا تَرِفُّ عَلَيْكَ إِلَّا شَهِدَتْ بِهَا عَلَى طَيْبِ الْأُرُومِ^(٢)

وَفِي الشَّرَفِ الْحَدِيثُ دَائِلُ صِدْقٍ لِمُخْتَبِرٍ عَلَى الشَّرَفِ الْقَدِيمِ

وقال عامر بن الطفيل^(٣) في المستغنى بنفسه عن حسيبه :

إِنِّي وَإِنْ كُنْتُ ابْنَ فَارِسٍ عَامِرٍ وَفِي السَّرِّ مِنْهَا وَالصِّمِّ الْمَهْدَبِ^(٤)

فَمَا سَوَّدَتْني عَامِرٌ عَنْ وِرَاثَةِ أَبِي اللَّهِ أَنْ أَسْتَوِي بِأُمِّ وَلَا أَبِ

وَلَكِنِّي أَنِحِي جِهَاهَا وَأَتَقِي إِذَاهَا وَأُرْمِي مِنْ رَمَاهَا بِمَقْتَبِ^(٥)

(١) الشفينة : العادة والطبيعة وهذا مثل ، وأصله لابي أخزم الطائي وهو جد جندمرتين - حاتم الطائي ، وكان له ابن يقال له أخزم كان عاقلاً فأتى وترك بين فوثبوا يوماً على جدم أبي أخزم فأدسموه فقال :

إِن بَنِي ضَرْجُونِي بِالْأَدَمِ شَفِينَةٌ أَعْرِفُهَا مِنْ أَخْزَمِ

يعني أن هؤلاء أشبهوا أباهم في العقوق

(٢) الأروم : جمع أرومة ، وهي الاصل

(٣) شاعر مخضرم وفارس مذكور بعيد الصوت في العرب

(٤) وفي السر منها : من سر الوادي ، وهو أكرم ووضع فيه يريد أنه في

كرم موضع من نسبها (٥) مقنب كبير : جماعة الخيل والرجال والجمع مقانب

ويروى : من رماها بمنكب ، والمنكب في الاصل : مجتمع عظم العضد والكف ، ضربه

مثلاً للشدّة والقوة

وقال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب :
 لَسْنَا وَإِنْ كُرِمَتْ أَوَائِلُنَا يَوْمًا عَلَى الْأَحْسَابِ تَسِكُلُ
 نَبِيٍّ كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا تَبْنِي وَتَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوا

وقال المتنبي :

خُذْ مَا تَرَاهُ وَدَعْ شَيْئًا سَمِعْتَ بِهِ فِي طَلْعَةِ الشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَنِ زُحُلِ
 وقال :

لَا يَقُومِي شَرَفْتُ بِلِ شَرَفُوا بِي وَبِنَفْسِي فَخَرْتُ لِابْجُودِي
 وَمَا فَضَّلَ الْوَالِدَ عَلَى الْوَالِدِ بِأَحْسَنَ مِنْ قَوْلِ الْمَتْنِيِّ :
 وَإِنْ تَكُنْ تَغْلِبُ الْعَلْبَاءُ عُنُصْرَهَا فَإِنَّ فِي الْخُرْمَعْنِيِّ لَيْسَ بِالْعِنَبِ
 وقوله أيضا :

• فَإِنَّكَ مَاءُ الْوَرْدِ إِنْ ذَهَبَ الْوَرْدُ •

وقال ابن الرومي فيمن ازداد شرف آياته به :

وَكَمْ أَبٍ قَدْ عَلَا بِابْنِ دُرٍّ أَشْرَفٍ كَمَا عَلَتْ بِرَسُولِ اللَّهِ عِدْنَانُ
 يَسْمُو الرِّجَالُ بِآبَاءِهِ وَأَوْتَهُ تَسْمُو الرِّجَالُ بِأَبْنَائِهِ وَتَزْدَانُ



وقالوا في أنه لا اعتداد بمن شرف أصله إذا لم يشرف بنفسه :
 - والقائل المعلم الأول أرسطو طاليس - : إذا كان الإنسان تجسيس الأبوين
 شريف النفس ، كانت خسته أبويه زائدة في شرفه ، وإذا كان شريف الأبوين
 تجسيس النفس ، كان شرف أبويه زائداً في خسته . وقال ابن الرومي :
 وَمَا الْحَسَبُ الْمُرُوثُ لِأَدْرَ دَرُهُ يُحْتَسَبُ إِلَّا بِأَخْرَ مُكْتَسَبُ
 إِذَا الْعُودُ لَمْ يُشْمِرْ وَإِنْ كَانَ شُعْبَةً

مِنَ الْمُشْمِرَاتِ اعْتَدَهُ النَّاسُ فِي الْحَطَبِ

« لا دَرْدَرَةٌ : لازكا عمله ، دعاء عليه أن لا يجعله الله نافعاً ،

وقال سقراط - في الاعتذار عن شرفت نفسه ولم يشرف أصله - وقد
عَيَّرَهُ رجل بحسبه - : حَسْبِي مِنِّي ابتداءً ، وَحَسْبُكَ إِلَيْكَ انتهى ... وقال قائل
في هذا المعنى : لَأَنَّ يَكُونُ الرَّجُلُ شَرِيفَ النَّفْسِ دَنِيءَ الْأَصْلِ ، أَفْضَلُ مِنْ
أَنْ يَكُونَ دَنِيءَ النَّفْسِ شَرِيفَ الْأَصْلِ ، أَلَا تَرَى أَنَّ رَأْسَ الْكَلْبِ خَيْرٌ مِنْ
ذَنَبِ الْأَسَدِ !

وما يستظرف من اعتذار المتخلفين الأندال ، عن تخلفهم عن آباءهم الأشراف
ماروى : أنه قيل لأعرابي : ما أشبهت أباك ! فقال : لو أشبهت كل رجل أباه
كنا كآدم ... وخطب رجل قَصَرَ عن أبيه إلى رجل رفيع القدي ، ابنته ، فقال
له العظيم : لو كنت مثل أبيك ! فقال : لو كنت مثل أبي لم أخطب إليك ...

ومن محاسنهم في ذم من قصر عن آبائه : قول بعضهم :
لَسِنَّةٌ فَخَرَتْ بِآبَاءِهِمْ شَرَفٌ لَقَدْ صَدَقْتَ وَلَكِنْ بِنَسَمَةٍ وَوَلَدُوا
وقول أبي تمام :

يَا أَكْرَمَ النَّاسِ آبَاءَهُمْ وَمُقْتَضِرًا وَالْأَمَّ النَّاسِ مَبْلُورًا وَمُخْتَبِرًا
ونظر رجل إلى ابن نذل من أب كريم فقال : سبحان الله من قائل :
يُخْرِجُ الْحَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ . وقال شاعر في لثيم النفس كريم الأبوين :
فَلَا يَعْجَبَنَّ النَّاسُ مِنْكَ وَمِنْهُمَا فَمَا حَبَّتْ مِنْ فِضَّةٍ بِعَجِيبِ
« الحب من الحديد والفضة ونحوهما : مانفاه الكبير ولا خير فيه ،

وقالوا فيمن يَخْزَى من ذكر آبائه : فمن ذلك أن رجلاً سُئِلَ عن نسبه ، فقال : أنا ابن أخت فلان ، فقال أعرابي : الناس ينتسبون طولاً وأنت تنتسب عرضاً

ومن محاسنهم فيمن لا يُعْتَدُّ بأبيه : قول الأخطل :
وَإِذَا وَصَّعْتَ أَبَاكَ فِي مِيزَانِهِمْ رَجَّحُوا وَشَالَ أَبُوكَ فِي الْمِيزَانِ
« شال الميزان : ارتفعت إحدى كفتيه ، ويقال : شال أبوك في الميزان ، وهو مثل في المفاخرة يقال : فاخَرْتَهُ فِشَالَ مِيزَانِهِ : أى فَخَرْتَهُ بِأَبَائِهِ وَغَلَبْتَهُ » وقال بعض شعراء أصفهان :

تَبْجَحَ بِالْكِتَابَةِ كُلُّ وَغْدٍ فُقُبْحًا لِلْكِتَابَةِ وَالْعَمَّالِهِ
أَرَى الْآبَاءَ نَسَبَتْهُمْ جَمِيعًا إِلَى الْآبَاءِ مِنْ فِرطِ النَّذَالِ

وقالوا في الابن يجارى أباه : العصامن العُصِيَّةِ وَ : هل تَلِدُ الحِيةُ إِلَّا حِيةً
وقال شاعر :

وَإِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ أَنْ لَا تَلُومَهُ عَلَى الشَّرِّ مَنْ لَمْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ وَالِدُهُ
إِذَا الْمَرْءُ أَلْفَى وَالِدَيْهِ كِلَيْهِمَا عَلَى اللَّوْمِ فَأَعْدِرُهُ إِذَا خَابَ رَأْدُهُ (١)
وقالت الخنساء - وقيل لها : ما بَدَحْتَ أَخَاكَ حَتَّى هَجَوْتَ أَبَاكَ فَقَالَتْ :
جَارَى أَبَاهُ فَأَقْبَلَا وَهُمَا يَتَعَاوَرَانِ مَلَأَةً الْحُضْرِ
حَتَّى إِذَا نَزَّتِ الْقُلُوبُ وَقَدْ لَزَّتْ هُنَاكَ الْعُذْرُ بِالْعُذْرِ
وَعَلَا هُتَافُ النَّاسِ أُهْمَا قَالَ الْمُجِيبُ هُنَاكَ : لَا أَدْرِي

(١) أصل الرائد : الذى يتقدم القوم يبصر لهم الكلال ومساقط الغيث

بَرَزَتْ صَحِيفَةٌ وَجْهَ وَالِدِهِ وَهَضَى عَلَى غُلُوَائِهِ يَجْرِي
أُولَى فَأُولَى أَنْ يَسَاوِيَهُ لَوْلَا جَلَالُ السَّنِّ وَالْكِبَرِ
وَهُمَا وَقَدْ بَرَزَا كَأَنَّهُمَا صَقْرَانِ قَدْ حَطَّأَ إِلَى وَكْرٍ

«قوله: ملاءة الحضر: فالحضر: العدو والجرى، وإنما تريد: ملاءة الحضر: الغبار
وكان عدي بن الرفاع نظر إلى هذا في قوله يصف حمارا وأتانا:
يتعاوران في الغبار ملاءة بيضاء محدثة هما تتساجها

ونزت القلوب: يريد طمحت وشرأت لتعرف من السابق، ولزت: قرنت
والعذر: جمع عذار وهو ما سال من اللجام على خد الفرس، ويروى القدر
بالقدر، والقدر: المنزلة، والكبر: أظنها بضم الكاف بمعنى الأكبر أى ولولا
جلال الأكبر، ولك أن تقرأها الكبر بكسر الكاف أى الكبر ولكن
أسكن الباء ضرورة،

أما الإسلام فقد عد الشرف والحسب إنما هو بالثقة فتمال سبحانه: إن
أكرمكم عند الله أتقاكم، قال بعضهم: ما أبقى الله بهذه الآية لأحد شرف
أبوة... ورأى عمر بن الخطاب رجلا يقول أنا ابن بطحاء مكة، فوقف
عليه وقال: إن كان لك دين فلك شرف، وإن كان لك عقل فلك مروءة
وإن كان لك علم فلك شرف، وإلا فأنت وإلخمار سواء، وقالوا: كان
الشرف في الجاهلية بالبيان والشجاعة والسماحة، وفي الإسلام بالدين والتقى...

وقالوا في الدعوة: أى ادعاء الولد الدعى غير أبيه، أى انتسابه إلى
غير أبيه، وقد كانوا يفعلون ذلك في الجاهلية، فنهى الإسلام عنه، وكان سيدنا
رسول الله قد تبنى زيد بن حارثة عتيق الرسول، فكانوا يقولون له: ابن

محمد ، فأمر الله عزّ وجل أن ينسب الناس إلى آباؤهم وأن لا ينسبوا إلى من تبناهم فقال : وما جعل أديعائكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم « أى للاحقيقة لله فى الواقع ، والله يقول الحق » أى ماله حقيقة عينية « وهو يهدى السبيل ، آدوهم لآباؤهم هو أقسط عند الله » هو : أى دعوتهم لآباؤهم ، وأقسط : نعدل ، ومعناه البالغ فى الصدق ، فإن لم تعلوا آباؤهم فإخوانكم فى الدين رموا إليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما نعمدت قلوبكم ، وكان الله غفوراً رحيماً ...

والأحاديث فى ذلك متوافرة ، فمنها قوله صلوات الله عليه : الولدُ للفراش وللعاهر الحجرُ ... « يعنى أن الولد لصاحب الفراش ، من السيد أو الزوج ، وللزاني الحية والحرمان ، وهذا كما تقول : مالك عندى شئ غير التراب ، وما بيدك غير الحجر ، وذبح قوم إلى أنه كنى بالحجر عن الرجم ، قال ابن الأثير : وليس كذلك لأنه ليس كلُّ زانٍ يُرجم .. وقالوا فى التعريض بالنسب - والقائل أبو نواس :

إذا ذكرتَ عدياً فى بنى ثَمِيلٍ فقدم الدال قبل العين فى النسب
ودخل ابن مُكْرَمٍ على أبى العيناء - صاحب النوادر والمجون وكان ضريراً -
لِيُهَيِّئَهُ بآبنِ وُلْدِله ، فوضع عنده حجراً ، فلما خرج أخبرَ أبو العيناء ،
فقال : لعن الله هذا ، أما تعلون ماذا عَنَى ؟ إنما أراد قول رسول الله :
لولد للفراش وللعاهر الحجر ...

ولقى رجل رجلاً فقال له : من أنت ؟ قال : قُرشي والحمد لله ، فقال :
لحمد لله فى هذا الموضع ريبة ... وقال زياد بن أبيه - وهو ابن أبى سفيان لريبة -
لاجل : يادعى ، فقال : الدعوة قد تشرف بها المدعى على ، فكيف عيرَها !

وفي قولهم فيمن لا يشبه والدَيْه وذوَيْه خَلْقَةً :

أَلْوَانُهُمْ إِلَيْكَ عَنْ أَنْسَابِهِمْ مُعْتَدِرَهُ

وكان بأصْبِهَانَ رجل مجنون يعرف بابن المسْتَهَام ، فقيل لأحمد بن عبد العزيز : إنه مليح ذو نوادر ، فاستحضره ، فلما تأمله قال - أي المجنون - :

في اختلاف الوجوه من آلِ عَجَلٍ لَدَلِيلٍ على فسادِ النساءِ
فأراد أحمد أن يبيِّنَ به ، ثم كَفَّ عنه مخافةً أن يتحدث الناس بذلك ...
ومن طريف ما قالوا أيضا في التعريض بالرجل أن ابنه من زِنْيَةٍ ، ما يروى
أنه قيل لرجل : إن امرأة فلان ولدت بعد الزفافِ بِخَمْسَةِ أَشْهُرٍ فقال : إنه
بني جَدَّارَهُ على أَسٍ غَيْرِهِ ...

وخاصمَ ذو الرمة رجلا من ولَدِ زياد بن أبيه فقال له الزياتي : يادعيّ ،
فأنشد ذو الرمة :

بُيِّنَتْهُ قَالَتْ يَا جَمِيلَ أَرَبْتَنَا فَقُلْتَ كَلَانَا يَا بَيْنُ مَرِيْبٍ (١)

ومما يصح أن يذكر في هذا الباب : كما يصح أن يذكر في كتاب النساء
قولهم في أن الولدَ الذي يَنْسِلُ من الأقارب يخرج ضاويا ضعيفا ، فمن ذلك
قوله صلوات الله عليه : « اغْتَرِبُوا لَا تُضُورُوا » أي تزوجوا الغرائب دون
القرائب فإن ولد الغريبة أنجب وأقوى من ولد القرية ، وقد أضوت المرأة
إذا ولدت ولدا ضعيفا ، فعنى لا تضوروا : لا تأتوا بأولاد ضاوين ، أي ضعفاء
نحفاء ، الواحد : ضارٍ ، وكذلك قال صلوات الله عليه : لَا تَنْسِكُوا الْقَرَابَةَ الْقَرِيبَةَ

(١) أَرَبْتَنَا : رأينا منك ما يربينا ونكرهه منك

فإن الولد يُخلق ضارياً... ونظر عمر رضى الله عنه إلى قوم من قريش صغار الأجسام فقال: مالكم صغرتم؟ قالوا: قُربُ أمهاتنا من آبائنا، قال: صدقم، اغتربوا لا تَضُوروا... وقال العتيبي: تزوج أهل بيت، بعضهم في بعض، فلما بلغوا البطن الرابع بلغ بهم الضعف إلى أن كانوا يحبون حبواً لا يستطيعون القيام ضعفاً...

الرضاعة

وكذلك نورد هنا قولهم في الرضاعة: قال رسول الله: يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعَةِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ. (انظر كتب الفقه)، ونهى رسول الله عن رضاع الحمقاء وقال: لا تسترضعوا الحمقاء فإن الولد ينزع إلى اللبن... وقال رجل في وصف آخر نسبه إلى الرعونة: كيف لا يكون أرعن وقد أرضته فلانة! والله إنها كانت تزق الفرخ - أى بفيها - فأرى الرعونة في طيرانه.. ورووا أن الحسن البصري رحمه الله عليه كانت أمه تغشى أم سلمة زوج سيدنا رسول الله، فدرت عليه من لبنها، فورث منه علمه وفماحته وورعه:

الإحسان

وعقوباتهم في الجود واصطناع المعروف وقرى الأضياف

وذم البخل والسؤال

وهذا لَوْنٌ ثانٍ من ألوان البر هو في الواقع يَنْظُمُ لَوْنَيْنِ، فَأَمَّا أَوْلُهُمَا فهو هذا الذي نحن بصدده الآن، وهو الجود واصطناع المعروف، وسائر ما يمت إلى ذلك بسبب واصل من قرى الأضياف وذم البخل، وأما الآخر فهو حُسن الخلق، وستفرد له وصلاً تراه عقيب هذا.

تحفى الإسلام بالإحسان: وكما أن صَلَاةَ الرَّحْمِ بِعَامَّةٍ، وِبِرَّ الوَالِدِينَ بِخَاصَّةٍ،
 بما تحفى به الإسلامُ كُلَّ التحفى، حتى قرَّنه بالتوحيد وبالتهوى، ترى هذا الدينَ
 الخنيف، لقد تحفى كذلك كلَّ التحفى بالإحسانِ إلى مُسْتَحْقِيهِ، وذمَّ الشُّحَّ ونعاهُ،
 على أهليه، وامتدح الجودَ وقَّوه به كلَّ التَّوْبَةِ، حتى قرَّنه ذكره بالإيمان،
 ووصف أهله بالفلاح، والفلاح اسمٌ جامعٌ لسعادة الدارين، فقال سبحانه
 وتقدس: أَلَمْ، ذلك الكتاب لارِيبَ فيه هُدًى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب
 ويقيمون الصلاةَ وعمارَ زَقَاتِهِمْ يُنفِقُونَ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل
 من قبلك وبالآخرة هم يوقنون، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون...
 وقال فى وصف الانصار: ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصةٌ،
 وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمَفْلِحُونَ... «الخصاصة: الفقر، ويوقى:
 يسان» وقال عزَّ وجلَّ: مَثَلُ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ
 أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَبِيلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ
 وَاسِعٌ عَلِيمٌ، إلى أن قال سبحانه: ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاءَ مرضاة
 اللَّهِ وتثبيتاً من أنفسهم كمثل حَبَّةٍ بَرْبُورَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلهَا ضِعْفَيْنِ...
 الآيات... «قوله سبحانه: كمثل حبة... الآية، فإن ذلك تمثيل لا يقتضى
 وقوعه، والجنة: البستان، والربوة: الموضع المرتفع، وشجره فى العادة يكون
 أحسن منظرًا وأزكى ثمرًا، والوابل: المطر العظيم، وقال: لن تناولوا البرَّ حتى
 تنفقوا مما تحبون، وما تنفقوا من شيء فهو يخلفه والله خير الرازقين.
 «والبر ههنا: فهو يرُّ الله، أى خيرُ الدنيا والآخرة، أى السعادةُ والفلاحُ
 والفرزُ، أو تقول: لن تناولوا البر: أى لن تناولوا حقيقةَ البرِّ حتى تُنفقوا
 مما تحبون»

قال الراغب في الذريعة : وَحَقٌّ لِلْجُودِ أَنْ يُقَرَّنَ بِالْإِيمَانِ ، فَلَا شَيْءَ أَخْصُّ بِهِ ، وَأَشَدُّ مُجَانَسَةً ، مِنْهُ ، إِذْ مِنْ صِفَةِ الْمُؤْمِنِ انْشِرَاحُ الصَّدْرِ : فَمَنْ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يُبَيِّنْ لَهُ وَيُشْرِحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِيدُ أَنْ يُضِلَّهُ يُجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيْقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ . . . وَهَذَا مِنْ صِفَاتِ الْجَوَادِ وَالْبَخِيلِ ، لِأَنَّ الْجَوَادَ يُوصَفُ بِسَعَةِ الصَّدْرِ لِلْإِنْفَاقِ ، وَالْبَخِيلَ يُوصَفُ بِضَيْقِ الصَّدْرِ لِلْإِمْسَاكِ . . .

الناس مجبولون على البخل

« وأما بعد » فَإِنَّ أَكْثَرَ هَذَا النَّاسِ لَقَدْ جُيِلُوا عَلَى الْبُخْلِ ، فَالْبُخْلُ هُوَ الْأَصْلُ ، وَإِنَّمَا الْجُودُ فِي سَائِرِ أَوَانِهِ ، تَكَثُّفٌ وَتَعَمُّلٌ وَحُلٌّ لِلنَّفْسِ عَلَى مَكْرُوهِهَا وَعَلَى غَيْرِ مَا جِلَّتْ عَلَيْهِ ، وَقَدْ قِيلَ لِحَاتِمِ الطَّائِي الَّذِي يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْجُودِ : كَيْفَ تَجِدُ الْجُودَ فِي قَلْبِكَ ؟ فَقَالَ : إِنِّي لَا جِدُهُ ، كَمَا يَجِدُهُ النَّاسُ ، وَلَكِنِّي أَحْمِلُ نَفْسِي عَلَى حُطْطِ الْكِرَامِ (١) ، وَقَالَ بَعْضُ الْأَجْوَادِ : إِنَّا لَنَجِدُ كَمَا يَجِدُ الْبِخْلَاءُ وَلَكِنَّا نَصْبِرُ وَلَا يَصْبِرُونَ . . . وَفِي هَذَا الْمَعْنَى يَتَوَلَّى الْبَحْتَرَى : وَأَشَقُّ الْأَفْعَالِ أَنْ تَهَبَ الْأَنْفُسُ مَا أُغْنِيَتْ عَلَيْهِ إِلَّا كُفٌّ وَيَقُولُ أَبُو يَعْقُوبَ الْخُرَيْمِيُّ :

وَدُونَ النَّدَى فِي كُلِّ قَلْبٍ ثَلِيَّةٌ بِهَا مَصْعَدٌ حَزْنٌ وَمُنْحَدَرٌ سَهْلٌ (١)
ويقول أبو العتاهية :

إِطْرَحْ بَطْرَفِكَ حَيْثُ شِدَّتْ فَلَنْ تَرَى إِلَّا بِخِيلًا
ويقول ابن نباتة السعدي :

(١) الخطط: جمع الخططة ، وهي الحال والأمر والخطب

(٢) الثنية : المكان المرتفع الصعب المطلق ، أى أن الكرم شاق على النفس

كيف السبيلُ إلى الغنى والبخلُ في الناسِ فظنه

وأكثرُ من يتسَخَى ويَجُودُ فإِثْمًا بِجُودٍ رَغْبًا أَوْ رَهْبًا - رَغْبًا فِي عَاجِلِ

الجزءِ * كَمَلَقِي الحَبِّ لِلطَّيْرِ لِيَصِيدَ بِهِ لَا لِيَنْفَعَهُ *

وَمَنْ يَظُنُّ نَشْرَ الحَبِّ جُودًا وَيَنْصُبُ تَحْتَ مَا نَشَرَ الشِّبَاكَ^(١)

وَرَهْبًا مِنْ عَابٍ يَلْتَصِقُ بِهِ أَوْ مَكْرُوهٍ يُصِيبُهُ :

مِثْلُ الحِمَارِ المَوْقِعِ الظَّهْرَ لَا يُعْطِيكَ شَيْئًا إِلَّا إِذَا رَهَبَا^(٢)

وَهناكَ صِنْفٌ مِنَ النَّاسِ يُعْطَى وَيَمْنَعُ لَا يُبْخَلُ وَلَا كَرَمًا ، وَإِنَّمَا يَكُونُ

ذَلِكَ تَهَوُّرًا وَإِنْدفاعًا مِنْهُ مَعَ نَزْوَةٍ مِنَ نَزَوَاتِ النُّفُوسِ ، كما قال الأديب

أبو بكر الخوارزمي في الوزير صاحب بن عباد :

لَا تَحْمَدَنَّ ابْنَ عِبَادٍ وَإِنْ هَطَلَتْ يَدَاهُ بِالْجُودِ حَتَّى أَخْجَلَ الدَّيْمَا

فإنها حَطَرَاتٌ مِنْ وَسَاوِسِهِ يُعْطَى وَيَمْنَعُ لَا يُبْخَلُ وَلَا كَرَمًا

وَقَلَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَجُودُ اسْتِجَابَةً لِفِطْرَتِهِ ، وَلِدَاعِي الضَّمِيرِ ، كما يَقُولُونَ ،

فَلْيَلْحَظْ هَذَا ، وَلْيَلْحَظْ كَذَلِكَ أَنَّ البُخْلَ رَذِيلَةٌ تَسْتَدْبِعُ رذَائِلَ ، وَنَاهِيكَ

بِالجِبْنِ رَذِيلَةٌ ، هِيَ أَلْزَمُ الرذَائِلِ للبُخْلِ : كما أَنَّ الجُودَ فَضِيلَةٌ تَسْتَدْبِعُ فَضَائِلَ ،

وَحَسْبُكَ بِالشُّجَاعَةِ فَضِيلَةٌ هِيَ أَخْضُ الضَّائِلِ بِالْجُودِ :

(١) للنتني ، وقوله ومن يظن : عطف على كل نفس في البيت قبله وهو :

وَأَمَّا فِدَاؤُكَ كُلِّ نَفْسٍ وَإِنْ كَانَتْ لِمَمْلَكَةٍ مَلَكَ

يقول : الملوك يجودون لطلب العوض كما نثر الصائد جبا تحت الشبكة ، ولا يعد

ذلك جوداً لأنه إنما نثر لآخذ الصيد الذي هو خير من الحب

(٢) للحكم بن عبد الأسد ، والموقع الظهر : الذي بظهوره آثار الدبر الكثرة ما حمل

عليه وركب ، فهو ذلول .

ذَرِبْنِي فَإِنَّ الشَّحَّ يَا أُمَّ هَيْتَمَ لِصَالِحِ أَخْلَاقِ الرِّجَالِ سَرُوقٌ (١)

وإذا اختبرت علمت غير مُدَافِعٍ أَنْ السَّامِحَ سَجِيَّةُ الأَبْطَالِ
وقال أبو تمام في ذلك - من أبيات يمدح بها خالد بن يزيد الشيباني :
وإذا رأيت أبا يزيدٍ في نَدَى وَوَعَى وَمُيَدَى غَارَةٍ وَمُعِيدَا
يَقْرَى مُرَجِّبِهِ مُشَاشَةً مَالِهِ وَشَبَا الأَسِنَّةِ نُغْرَةً وَوَرِيدَا
أَيَقْنَتَ أَنْ مِنَ السَّامِحِ شَجَاعَةٌ تُدْمِي وَأَنْ مِنَ الشَّجَاعَةِ جُودَا (٢)

وقال المتنبي :

هو الشجاع يَعُدُّ البُخْلَ مِنْ جُبِينٍ وَهُوَ الجُودُ يُعَدُّ الجُبْنَ مِنْ بُخْلٍ
وقد عدوا الشجاعة لونا من الجود فقال مسلم بن الوليد :
يَجُودُ بِالنَّفْسِ إِذْ ضَنَّ البُخِيلُ بِهَا وَالجُودُ بِالنَّفْسِ أَقْصَى غَايَةِ الجُودِ

(١) من أبيات جميلة نبيلة لعمر بن الاثم ، وبعد البيت :

ذَرِبْنِي وَحُطِّي فِي هَوَايَ فَإِنِّي عَلَى الحَسْبِ العَالِي الرِّفِيعِ شَفِيقِ
وَمُسْتَمْنِحِ بَعْدَ المَدْوَةِ دَعْوَتِهِ وَقَدْ كَانَ مِنْ سَارِي الشَّتَاءِ طُرُوقِ
قَلْتُ لَهُ أَهْلًا وَسَهْلًا وَمَرْحَبًا فَهَذَا مَبِيتِ صَالِحِ وَصَدِيقِ
أَضَفْتُ فَلَمْ أَفْحَشْ عَلَيْهِ وَلَمْ أَقُلْ لِأَحْرَمِهِ إِنَّ الفِئَاءَ مَضِيقِ
لَعْمُرُكَ مَا ضَاقَتْ بِلَادُ بَآهْلِهَا وَلَكِنَّ أَخْلَاقَ الرِّجَالِ آضِيقِ

(٢) الوغى : الحرب ، وقرى الضيف يقريه قرى : أضافه وأحسن إليه ، والمشاشة واحدة المشاس وهو رأس العظم الذي يمكن مضغه ، يقول : انه يطعم المجتدى ماله حتى انه لينش العظم وهذه مبالغة في أنه يمكن المجتدى من ماله . والشبا : جمع شباة ، وشباة كل شيء : حده ، والثغرة : نقرة النحر

ولأجل هذين الملاحظين ، تظاهرت الآيات والأحاديثُ وما أُثِرَ عن الأوائِل من العلماء والحكماء والشعراء والربّانيين ، على ذمّ البخل وامتداح الجود والإحسان ، وأكثروا وأفتتوا وأبدعوا ، الأمرُ الذي يدلُّ على أنهم قدروا أثرَ الجودِ والبخلِ في الخُلُقِ حقَّ قدره ، وأنهم لذلك شنّوا هذه الغارةَ الشّعواءَ على الإنسانِ الأنانيِّ الكزِّ الشحيحِ الكاينِ في نفسِ كُلِّ إنسانٍ ...

عقرياتهم في مدح الجود ودم البخل

ولنأخذ الآن في عقرياتهم في ذم البخل ومدح الجود والإحسان واصطناع المعروف ، والكلام في هذه المعاني يدخلُ بعضه في بعض ... كتب رجلٌ من البُخلاء إلى رجلٍ من الأسخياء يُخَوِّفُه الفقرَ ، فأجابه : الشيطانُ يَعِدُكُمُ الفقرَ ويأمرُكم بالفحشاء واللهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً منه وفضلاً ... وإنى أكرهُ أن أتركَ أمراً قد وقعَ لِأمرٍ لَعَلَّهُ لا يَقَعُ . « يقول سبحانه : إِنَّ الشيطانَ يَعِدُ الناسَ الفقرَ في الإنفاقِ ، أى يقول لهم : إن عاقبةَ إنفاقِكُم أن تَمْتَقِرُوا - والوعدُ كما يُسْتَعْمَلُ في الخيرِ يستعملُ في الشرِّ - ويأمرُكم بالفحشاء ، أى يغيرُكم بالبُخْلِ ومنع الصدقاتِ إغراءً لِأمرٍ لِلأُمورِ ، فالفحشاءُ هنا : البُخْلُ ، والفاحشُ عند العرب : البُخيلُ ، قال طرَفَةُ بنُ العبدِ في مُعَلِّقَتِهِ :

أَرى المَوْتَ يَعْتامُ الكِرَامَ وَيَصْطَفِي

عَقِيلَةَ مالِ الفاحِشِ المُتَشَدِّدِ (١)

ثم قال سبحانه : واللهُ يَعِدُكُم في الإنفاقِ مَغْفِرَةً لذنوبِكُم وكفارةً لها ، وأن

(١) يعتامُ : يختار ، والعقائل : كرائمُ الأموال والنساء ، الواحدة عقيلة ، والفاحش البخيل ، يقول طرفة : إن المورت لا يبقى على الأجواد والبخلاء فيصطنع الكرام وكرائم أموال البخلاء فلا يجدى البخل على صاحبه ، فالجود أحرى لأنه أحمَد .

مُخْلِيفَ عَيْكُمْ أَفْضَلَ مِمَّا أَنْفَقْتُمْ» وَقِيلَ لِإِبْلِيسَ : مَنْ أَحَبَّ النَّاسَ إِلَيْكَ ؟
فَقَالَ : عَابِدُ بُخَيْلٍ... قِيلَ : فَمَنْ أَبْغَضُ النَّاسَ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : فَاسِقُ سَخِيٍّ ،
فَإِنْ سَخَاةَهُ يُنْجِيهِ ... أَفَرَأَيْتَ أَلَيْسَ هَذَا الْكَلَامُ تَمْثِيلًا جَمِيلًا لِحَالِي الْبُخَيْلِ
وَالْجَوَادِ ! حَتَّى إِنَّهُمْ فَضَّلُوا الْفَاسِقَ السَّخِيَّ عَلَى الْعَابِدِ الْبُخَيْلِ ، وَأَحْسَنَ مِنْهُمَا
جَمِيعًا لِعَمْرَى : الْعَابِدُ الْكَرِيمُ ، وَإِنَّمَا كَانَ الْعَابِدُ الْبُخَيْلُ مَفْضُولًا ، لِأَنَّ
الْعِبَادَةَ الْحَقَّ لَا تَجْتَمِعُ وَالْبُخْلَ ... وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِآخَرَ : إِنَّكَ مِتْلَافٌ ، فَقَالَ :
مَنْعُ الْجُودِ سُوءٌ ظَنَّ بِالْمَعْبُودِ ، قَالَ تَعَالَى : وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ
وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . وَمِنْ هَذَا قَوْلُ بَعْضِ الْحُكَمَاءِ : عَلَيْكُمْ بِأَهْلِ السِّخَاءِ وَالشُّجَاعَةِ
فَأَتَمُّ أَهْلُ حُسْنِ ظَنِّ بِاللَّهِ ، وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْبُخْلِ لَمْ يَدْخُلْ عَلَيْهِمْ مِنْ ضَرِّ
مُبْخَلِهِمْ ، وَمَذْمَمَةِ النَّاسِ لَهُمْ ، وَإِطْبَاقِ الْقُلُوبِ عَلَى بُغْضِهِمْ ، إِلَّا سُوءَ ظَنِّهِمْ
بِرَبِّهِمْ فِي الْخَلْفِ - أَى الْعَوْضِ - لَكَانَ عَظِيمًا ، وَفِي هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ مُحَمَّدُ
الْوَرَّاقُ :

مَنْ ظَنَّ بِاللَّهِ خَيْرًا جَادَ مُبْتَدِنًا وَالْبُخْلُ مِنْ سُوءِ ظَنِّ الْمَرْءِ بِاللَّهِ
وورد في الحديث : خَصَلْتَانِ لَا يَجْتَمِعَانِ فِي مُؤْمِنٍ : الْبُخْلُ وَالْكِبَرُ
وقال بعضهم في هذا المعنى :

أُنَاسٌ تَأْتَهُونَ لَهُمْ رُؤَاؤُهُ تَغِيْمُ سَمَاوَهُمْ مِنْ غَيْرِ وَبَلٍ (١)
ومن أمثالهم في ذلك : رَبُّ صَلَفٍ تَحْتَ الرَّاعِدَةِ ... « الرَّاعِدَةُ : السَّحَابَةُ
ذَاتُ الرَّعْدِ ، وَالصَّلَفُ قَلَّةُ الْخَيْرِ ، وَهَذَا الْمَثَلُ يَضْرِبُ لِلْبُخْلِ مَعَ الْوُجْدِ
وَالسَّعَةِ ، وَلا تَمَّةُ اللُّغَةِ كَلَامٌ كَثِيرٌ فِي هَذَا الْمَثَلِ رَاجِعُهُ فِي مَادَةِ «صَلَفٍ» بِلِسَانِ

(١) تَأْتَهُونَ : مِنْ التَّيِّهِ وَهُوَ الزَّهْوُ وَالْكِبَرُ ، وَالرُّؤَاؤُ : حَسَنُ الْمَنْظَرِ ، وَالْوَبْلُ :
الْمَطَرُ الْعَظِيمُ

العرب « ... ومن قولهم في البخيل لا يُرَجِي خيره ولا يَبِضُّ حَجْرَهُ :

يُعالج نفساً بينَ جَنِينِهِ كَزَّةً إِذَا هَمَّ بِالْمَعْرُوفِ قَالَتْ لَهُ مَهْلًا

ومن المستطرف من كنياتهم في هذا المعنى ما يروى : أن امرأة قالت

لزوجها : والله ما يُقيم الفأرُ في دَارِكَ إِلَّا لِحُبِّ الْوَطَنِ ... وقال رجل : إني

أقصد فلاناً راجياً نداءه ، فقال له صاحبه :

وَتَرْجُو النَّدَى مِنْ إِنْاءِ قَلَمْنَا ارْتَشَحَا

كَالْمُسْتَذِيبِ لِشَحْمِ الْكَلْبِ مِنْ ذَنْبِهِ

وقال ابن الرومي - وهو من مُقَدِّعَاتِهِ الْمُضْحِكَةِ - :

يُقَتِّرُ عَيْسَى عَلَى نَفْسِهِ وليس يباقي ولا خالد

لَوْ يَسْتَطِيعُ لِتَقْتِيرِهِ تنفّس من منخرٍ واحد

« الْمَنْخَرُ : ثقب الأنف ، وقال آخر :

يُحِبُّ الْمَدِيحَ أَبُو خَالِدٍ وَيَفْرَعُ مِنْ صَلَةِ الْمَادِحِ

كَيْسَرَ تَوَدُّ لَذِيذَ النِّكَاحِ وَتَهْلَعُ مِنْ صَوْلَةِ النَّاكِحِ

وقال البُحْتَرِيُّ - وهو معنى بديع - :

جِدَّةٌ يذُودُ الْبُخْلُ عَنْ أَطْرَافِهَا كَالْبَحْرِ يَدْفَعُ مَاحُهُ عَنْ مَائِهِ ^(١)

وقال بشار :

إِذَا جِئْتَهُ فِي حَاجَةٍ سَدَّ بَابَهُ فَلَمْ تَلْقَهُ إِلَّا وَأَنْتَ كَمِينُ

إِذَا سَلَّمَ الْمَسْكِينُ طَارَ فُؤَادُهُ مَخَافَةَ سُؤْلِ وَعَاتِرَاهُ جُنُونُ

(١) الجدة : الغنى ، ويزود : يدفع

وقال ابن الرومي . وهو كذلك من هجائه المضحك :

تَجَنَّبُ سَلِيمَانَ فُقِّلَ النَّدى فَقَدَ يَدُسُّ النَّاسُ مِنْ فَتْحِهِ
ولو كان يملك أمرًا سيئه لما طمِعَ الحُسُّ في سَلِجِهِ

« الحُسُّ : المستراح - موضع قضاء الحاجة - والسلح : النجور - الغائط - »

وقال ابن الرومي أيضا - وهو معنى بديع - وإن كان من بابة غير هذه البابة :

وإذا امرُومَدَحَ امرءَ النِّوَالِهِ وَأَطالَ فِيهِ فَقَدَ أَرادَ هِجاءَهُ
لو لم يُقَدِّرْ فِيهِ بُعَدَ المُسْتَقَى عِنْدَ الوَرودِ لِمَا أَطالَ رِشاءَهُ

« الرشاء : جبل الدلو » وقالوا : من لم يأت الخير صغيرا لم يأت كبيراً ، وفي

ذلك يقول المعلوط السعدي - وهو شاعر إسلامي - :

إذا المرءُ أعيتهُ المرءةُ ناشئاً فطلبُها كَهلاً عليه شديدٌ (١)

. وقالوا في البخيل كلما ازداد ثراءً ازداد بخلاً وكزازة ، والنقائل ابن الرومي -

والبيتان من أوابده وتوليداته البديعة :

إذا غَمَرَ المالُ البَخيلَ وَجَدَتَهُ يَزيدُ بِهِ يُبَسِّأُ وَإِنْ ظَنَّ يَربُطُ
وَليسَ عَجيباً ذاكَ مِنْهُ فَإِنَّهُ إذا غَمَرَ المِاءَ الحِجارَةَ تَصَلُبُ

وقال :

ألم ترَ أنَّ المالَ يَهْلِكُ أَهْلَهُ إذا جَمَّ آتِيهِ وَسَدَّ طَريقَهُ

(١) من أبيات جميلة يقول فيها :

مَتى ما يَرَ النَّاسُ الغَنىَّ وَجارَهُ فقَيرٌ يَقولوا عَاجِزٌ وَجَديدٌ
وَليسَ الغَنىَّ وَالفقَيرُ مِنْ حِيلةِ الفَتى وَلسَكنَ أَحاطَ قَسَمَتِ وَجُدودُ
فَكَمَ قَدَرًا إِنّا مِنْ غَنىِّ مُذَمَّمٍ وَصُغولِكَ قَومٌ ماتَ وَهو حَميدٌ

إذا المرء البيت

وَمَنْ جَاوَرَ الْمَاءَ الْغَزِيرَ جَمَّهُ وَسُدَّ سَبِيلُ الْمَاءِ فَهُوَ غَرَبُهُ

وقال :

الْمَالُ يُكْسِبُ رَبَّهُ - مَالٌ يَفِضُ فِي الرَّاعِبِينَ إِلَيْهِ - سُوءُ ثَنَائِهِ
كَلِمَاءٍ تَأْسُنُ بِنَرُّهُ إِلَّا إِذَا حَبَطَ السَّقَاةُ جِمَامَهُ بِدَلَاءِهِ

« تأسن : تنغير ، وخبطه : ضربه ، والجمام : بثايت الجيم : معظم الشيء »

عقرياتهم في الجود واصطناع المعروف

ولندع البخلَ والبخلَاءَ لحظةً وننتقل إلى عقرياتهم في الجود والإحسان واصطناع المعروف : جاء في كليله ودمته : إن أحسنَ الناسَ عَيْشاً من حَسَنَ عَيْشِ الناسِ فِي عَيْشِهِ ، وإن من أَلَدِّ اللَّذَّةِ الْإِفْضَالَ عَلَى الْإِخْوَانِ ، وفي الحديث : ليس لك من مالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَنْفَيْتَ ، أَوْ لَبِستَ فَأَبْلَيْتَ ، أَوْ أَعْطَيْتَ فَأَمْضَيْتَ ، وما سوى ذلك فهو ملك الوارث وقال شاعرهم :

أَنْتَ لِلْمَالِ إِذَا أُنْسَكْتَهُ فَإِذَا أَنْفَقْتَهُ فَالْمَالُ لَكَ

وقال سعيد بن العاص من خطبة له : مَنْ رَزَقَهُ اللهُ رِزْقاً حَسَناً فَلْيُنْفِقْ مِنْهُ سِرّاً وَجَهراً حَتَّى يَكُونَ أَسْعَدَ النَّاسِ بِهِ ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا يُتْرَكُ لِأَحَدٍ رَجُلَيْنِ : إِمَّا مُصْلِحٍ ، فَلَا يَقْلُ عَلَيْهِ شَيْءٌ ، وَإِمَّا مُفْسِدٍ فَلَا يَبْقَى لَهُ شَيْءٌ... فقال معاوية : جَمَعَ أَبُو عَثْمَانَ طَرَفِي الْكَلَامِ...

وقال الأحنف بن قيس : مَا شَأْنَتْ رَجُلًا مُذْ كُنْتُ رَجُلًا ، وَلَا زَحَمْتُ رُكْبَتَيْ رُكْبَتَيْهِ ، وَإِذَا لَمْ أَصِلْ مُجْتَدِي حَتَّى يَنْتَسِحَ جَبِينُهُ عَرَقاً كَمَا يَنْتَسِحُ الْحَمِيْتُ ، فَوَاللَّهِ مَا وَصَلْتُهُ... « قوله : مجتدى : يريد . الذي يأتيه يطلب ماله يقال : اجتداه يجتديه واعتفاه يعتفيه واعتراه يعتريه واعتراه يعتريه وعراه

يَعْرُوهُ ، : إِذَا قَصَدَهُ يَتَعَرَّضُ لِنَائِلِهِ . وَيَسْتَبِيحُ كَيْضَرِبُ : يَرَشِّحُ ، وَالْحَمِيْتُ : وَعَاءُ السَّمَنِ . يَقُولُ الْأَحْنَفُ : إِنَّهُ لَا يُحَوِّجُ سَائِلَهُ إِلَى أَنْ يَتَرَشَّحَ جَبِينَهُ عِرْقًا ، لِمَبَادَرَتِهِ بِإِعْطَائِهِ « وَقَالَ مَعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ لِرِوَدَانَ مَوْلَى عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ : مَا بَقِيَ مِنَ الدُّنْيَا تَلَذُّهُ ؟ قَالَ : الْعَرِيضُ الطَّوِيلُ ، قَالَ : وَمَا هُوَ ؟ قَالَ : أَنْ أَتَيْتَ أَخًا قَدْ تَسَكَّبَتْهُ الدَّهْرُ فَأَجْبُرْهُ ، قَالَ : نَحْنُ أَحَقُّ بِهَذَا مِنْكَ . . . قَالَ : إِنَّ أَحَقَّ بِهَذَا مِنْكَ مَنْ سَبَقَكَ إِلَيْهِ . . . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : ثَلَاثَةٌ لَا أَكَاثِمُهُمْ : رَجُلٌ بَدَأَنِي بِالسَّلَامِ ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ لِي فِي الْمَجْلِسِ ، وَرَجُلٌ أَغْبَرَتْ قَدَمَاهُ فِي الْمَشْيِ إِلَى إِرَادَةِ التَّسْلِيمِ عَلَيَّ ؟ فَأَمَّا الرَّابِعُ فَلَا يَكْفِيهِ عَنِّي إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، قِيلَ : وَمَنْ هُوَ ؟ قَالَ : رَجُلٌ نَزَلَ بِهِ أَمْرٌ فَبَاتَ لَيْلَتَهُ يَفْسِكُرُ بِمَنْ يُنْزِلُهُ ، ثُمَّ رَأَى أَهْلًا لِحَاجَتِهِ فَأَنْزَلَهَا بِي . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضًا : لَا يُزْهَدَنَّكَ فِي الْمَعْرُوفِ كَفْرٌ مِنْ كَفْرِهِ ، فَإِنَّهُ يَشْكُرُكَ عَلَيْهِ مَنْ لَمْ تَصْطَنِعْهُ إِلَيْهِ : « كَفْرٌ مِنْ كَفْرِهِ : يَرِيدُ : كَفْرُ النِّعْمَةِ ، أَيْ عَدَمُ شُكْرِهَا ، وَقَوْلُهُ : مَنْ لَمْ تَصْطَنِعْهُ إِلَيْهِ يَرِيدُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ،

وَأُنشِدُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، أَحَدَ الْأَجْرَادِ فِي الْإِسْلَامِ
قَوْلَ الشَّاعِرِ :

إِنَّ الصَّنِيعَةَ لَا تَكُونُ صَنِيعَةً حَتَّى يُصَابَ بِهَا طَرِيقُ التَّمْضِغِ (١)
فَقَالَ : هَذَا رَجُلٌ يَرِيدُ أَنْ يُبْخَلَ النَّاسَ ، آمَطَّرَ الْمَعْرُوفَ مَطْرًا فَإِنْ
صَادَفَ مَوْضِعًا فَهُوَ الَّذِي قَصَدَتْ لَهُ ، وَإِلَّا كُنْتَ أَحَقَّ بِهِ
« وَبَعْدَ » فَهَذَا فِي هَذَا الْمَعْنَى كَمَا تَرَى مَذْهَبَانِ ، فَمَذْهَبُ بَرِيٍّ إِعْطَاءَ

(١) الصنعية : ما أسديت من المعروف ، وبعد هذا البيت :

فَإِذَا صَنَعْتَ صَنِيعَةً فَأَعْمِدْ بِهَا إِلَهًا أَوْ لَدَوِي الْقَرَائِبَ أَوْ دَعِ

المستحق وغير المستحق ، الكريم ، والثلثم ، الشاكر ، والكافر : ويقول
هذا المذهب - والقائل الشاعر محمود الوراق :

فإمّا كريمٌ صُنْتُ بالجودِ عِرْضَهُ وإمّا لثيمٌ صُنْتُ عن لؤمِهِ عِرْضِي
وقال بعضهم : لأن أُخْطِئَ باذلاً ، أَحَبُّ إلىَّ من أن أُصِيبَ مانعاً باذلاً
ومانعاً : حالان من فاعل أُخْطِئَ وأصِيبَ «

ومذهب آخر يرى حرمان اللثام ومن يُسْتَضَرُّ بإعطائه ، قال قائلهم :
اتَّقُوا صَوْلَةَ الكَرِيمِ إذا جاع والثلثم إذا شبع . وقالوا : الثلثم يُزْدَادُ بِالرُّفِّ
خَبَالاً ، كما يزداد المريض من كثرة الطعام وبالآ ، د خبالاً : فساداً ،
وقال شاعر :

* ليس في مَنعٍ غَيْرِ ذِي الْحَقِّ بُخْلٌ *

وقال الآخر :

وَمَنْ يَصْنَعِ المَعْرُوفَ مَعَ غَيْرِ أَهْلِهِ

يُلاقِي كما لاقِي مُجِيرُ أُمِّ عامر (١)

(١) أم عامر : الضبع ، وكان من حديث هذا المثل أن قوما خرجوا إلى الصيد
في يوم حار ، فبينما هم كذلك إذ عرضت لهم أم عامر ، وهي الضبع ، فطردوها - أي
حاولوا صيدها - فأتعبتهم حتى أُلْجِأُوا إلى خباء أعرابي فافتحمت ، فخرج إليهم
الأعرابي فقال : ما شأنكم ؟ فقالوا : صيدنا وطريدتنا . قال : كلا ، والذي نفسي بيده
لا تصلون إليها ما نبت قائم سيفي بيدي . فرجعوا وتركوه ، فقام إلى لفحة - د اللفحة :
الناقة الحلوب الغزيرة اللبن ، فخلبها وقرب إليها ماء ، فأقبلت مرة تلغ من هذا ومرة
تلغ من هذا حتى عاشت واستراحت ، فبينما الأعرابي نائم في جوف بيته إذ وثبت عليه
فبقرت بطنه وشربت دمه وأكلت حشوته - أمعاهه - وتركته فجاء ابن عم له فوجده
على تلك الصورة فالتفت إلى موضع الضبع فلم يرها فقال : صاحبتني وأنته ، وأخذ سيفه
في كنانته واتبعها فلم يزل حتى أدركها فقتلها وأنشد البيت

وأخيراً قالوا - والقائل أبو العاتية :-

إذا المال لم يُوجب عليك عطاءه صديعة تقوى أو خليل مُخالقه
منعتَ وبعض المنع حزمٌ وقوة ولم يبتدلك المال إلا حقائقه^(١)

وقال الحسنُ والحسينُ رضوان الله عليهما لعبد الله بن جعفر : إنك قد أسرفتَ في بذل المالِ ! قال : بأبي أنتما ، إن الله عودَدي أن يُفضلَ عليّ ، وعودته أن أُفضلَ علي عباده ، فأخاف أن أقطع العادة ، فيقطع عني ... ومرّ يزيدُ بنُ المهلبَ بأعرابية ، في خروجه من سجن عمر بن عبد العزيز^(٢) ، يريد البصرة ، فقرته عنزاً فقيل لها ، وقال لابنه معاوية : مامعك من النفقة ؟ فقال : ثمانمائة دينار ، قال : فادفعها إليها ، فقال له ابنه : إنك تريد الرجال ، ولا يكون الرجال إلا بالمال ، وهذه يُرضيها اليسير ، وهي بعدُ لا تعرفُك ، فقال له : إن كانت ترضى باليسير فأنا لا أرضى إلا بالكثير ، وإن كانت لا تعرفني ، فأنا أعرف نفسي ، اذفعتها إليها ...

وأورد المبردُ في الكامل ما يأتي : وأشرف عمرُ بنُ هُبيرة الفزاريُّ - والي العراقين يزيد بن عبد الملك - من قصره بالكوفة يوماً ، فإذا هو بأعرابيِّ

(١) حقائقه : جمع حقيقة : ما يحق عليك أن تحميه

(٢) وذلك سنة ١٠١ للهجرة ، وكان عمر بن عبد العزيز أخذه بعدة وعدها سليمان بن عبد الملك ، وذلك أن يزيد كان عامله على حراسان ، فانتح جرجان وطبرستان ، ثم بشره بفتحهما في كتاب أرسله إليه يقول فيه ، وقد صار عندي من خمس ما أفاه الله على المسلمين بعد أن صار لكل ذي حق حقه في النية والغنيمة ستة آلاف ألف ، وأنا حامل ذلك إلى أمير المؤمنين إن شاء الله ... ثم مات سليمان وولي الخلافة عمر ، فسأل يزيد ، فتلكاً فأمر بسجنه ، ثم هرب لما بلغه شدة مرض عمر الذي مات به مخافة من يزيد بن عبد الملك الخليفة بعده لما كان بينهما من التباغض

يُرَقِّصُ بَحْمَلَهُ الْآلُ^(١) فقال : لحاجبه : إن أرادني هذا فأوصله إلي ، فلما دنا الأعرابي سألته ، فقال : قصدت الأمير ، فأدخله إليه ، فلما مثل بين يديه قال له عمر : ما خطبك ؟ فقال الأعرابي :

أَصْلَحَكَ اللهُ قُلَّ مَا بِيَدِي فَمَا أُطِيقُ الْغِيَالَ إِذْ كَثُرُوا
أَلْحَ دَهْرٌ أَنْحَى بِكُلِّكَ^(٢) فَأَرْسَلُونِي إِلَيْكَ وَأَنْتَظِرُونِي
رَجَّوْكَ لِلدَّهْرِ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ غَيْثَ سَحَابٍ إِنْ خَانَهُمْ مَطَرٌ

فأخذت عمر الأريحية ، فجعل يهتز في مجلسه ، ثم قال : أرسلوك إلي وانتظروا الإذن والله لا تجلس حتى ترجع إليهم غانما . وأمر له بألف دينار ، وزده على بعيره ... قال المبرد : وحدثت أن الخبر لمعن بن زائدة . أقول : وقد أورده ابن خلكان منسوباً لمعن .



وهذا معن بن زائدة هو الآخر له في المكارم عُرْرٌ وأوضاع ، وهو أشهر في باب الأريحية والجلود والإقدام والحلم من أن يتوه به ، ودو معن بن زائدة الشيباني ، كان في أيام بني أمية مُتَنَقِّلاً في الولايات ، ومنقطعا إلى يزيد ابن عمر بن هبيرة وإلى العراقيين ، فلما أدال من بني أمية بنو العباس ، وجرى بين أبي جعفر المنصور وبين يزيد بن عمر المذكور ماجرى ، أبلَى يومئذ معن مع يزيد بلاءً حسناً ، فلما قُتِلَ يزيد خاف معن من أبي جعفر المنصور ، فاستتر عنه مدة وجرى له مدة استتاره غرائب ، وهنا يحدثنا شاعره الفحل مروان بن حفصة بحديث طريف من هذه الغرائب . قال :

(١) الآل : ما تراه في الضحى كالماء بين السماء والأرض ، ويرقصه : يحمله على الرقص ، وهو نوع من السير كالتخب

(٢) انحى : اعتمد ومال ، والكلكل : الصدر ، استعاره لوطاة الدهر ونقله

أخبرني ممن وهو يومئذ مُتَوَلَّى بِلَادِ الْيَمِينِ : أَنَّ الْمَنْصُورَ جَدَّ فِي طَلْبِي ، وَجَعَلَ
لِمَنْ يَحْمِيهِ إِلَيْهِ مَالًا ، قَالَ مَعْنَى : فَاضْطُرِرْتُ لِإِلْحَاحِهِ فِي الطَّلَبِ إِلَى أَنْ
تَعَرَّضْتُ لِلشَّمْسِ حَتَّى لَوَّحَتْ وَجْهِي ، وَلَبِئْسَتْ جُبَّةٌ صُوفٍ ، وَرَكِبْتُ جُمَلًا
وَخَرَجْتُ مُتَوَجِّهًا إِلَى الْبَادِيَةِ لِأَقِيمَ بِهَا ، فَلَمَّا خَرَجْتُ مِنْ بَابِ حَرْبٍ -
أَحَدِ أَبْوَابِ بَغْدَادٍ - تَبِعَنِي أَسْوَدٌ مُتَقَلِّدٌ سَيْفًا حَتَّى إِذَا غَبَّتْ عَنِ الْحَرَسِ ،
قَبِضَ عَلَى خِطَامِ الْجَمَلِ ، فَأَنَاحَهُ ، وَقَبِضَ عَلَى يَدِي ، فَقَلَّتْ لَهُ : مَا بَكَ ؟ قَالَ :
أَنْتِ طَلِيبَةٌ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، قَلتْ : وَمَنْ أَنَا حَتَّى أُطَلَبُ ؟ قَالَ : أَنْتِ مَعْنَى بِنْتِ
زَيْنَةَ ، فَقَلَّتْ لَهُ : يَا هَذَا ، اتَّقِ اللَّهَ عِزَّ وَجَلَّ ، وَأَيْنَ أَنَا مِنْ مَعْنَى ؟ فَقَالَ :
دَعْ هَذَا ، فَإِنِّي - وَاللَّهِ - لَأَعْرِفُ بِكَ مِنْكَ ، فَلَمَّا رَأَيْتَ مِنْهُ الْجِدَّةَ قَلتْ لَهُ : هَذَا
عِقْدُ جَوْهَرٍ قَدْ حَمَلْتَهُ مَعِيَ بِأَضْعَافِ مَا جَمَلَهُ الْمَنْصُورُ لِمَنْ يَحْمِيهِ بِي ، فَخَذَهُ
وَلَا تَكُنْ سَيِّئًا لِسَفْكِ دَمِي ، قَالَ : هَاتِهِ ، فَأَخْرَجْتَهُ إِلَيْهِ ، فَنَظَرَ فِيهِ سَاعَةً ،
وَقَالَ صَدَقْتَ فِي قِيمَتِهِ ، وَلَسْتُ قَابِلَةً حَتَّى أَسْأَلَكَ عَنْ شَيْءٍ ، فَإِنْ صَدَّقْتَنِي
أَطْلُقْتِكَ ، قَلتْ : قُلْ ، قَالَ : إِنْ النَّاسُ قَدِمُوا وَصَفُوكَ بِالْجُودِ ، فَأَخْبِرْنِي :
هَلْ وَهَبْتَ مَالَكَ كُلَّهُ قَطْ ؟ قَلتْ : لَا ، قَالَ فَنِصْفَهُ ، قَلتْ : لَا . قَالَ : فَنُكِّلْتَهُ
قَلتْ : لَا ، حَتَّى بَلَغَ الْعُشْرَ ، فَاسْتَحْيَيْتِ وَقَلتْ : أَظُنُّ أَنِّي قَدْ فَعَلتْ
هَذَا ، قَالَ : مَا ذَاكَ بِعَظِيمٍ ، أَنَا وَاللَّهُ رَاجِلٌ - يَرِيدُ مِنَ الْمَشَاةِ - وَرِزْقِي مِنْ
أَبِي جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ كُلِّ شَهْرٍ عَشْرُونَ دِرْهَمًا ، وَهَذَا الْجَوْهَرُ قِيمَتُهُ أَلُوفٌ
دِينَارٍ ، وَقَدْ وَهَبْتَهُ لَكَ وَوَهَبْتُكَ لِنَفْسِكَ وَلِجُودِكَ الْمَأْتُورِ بَيْنَ النَّاسِ
وَلتَعْلَمَنَّ أَنَّ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مَنْ هُوَ أَجْرُدُ مِنْكَ ، فَلَا تُعْجِبُكَ نَفْسُكَ ، وَلتَحْتَمِرْ
بَعْدَ هَذَا كُلِّ جُودٍ فَعَلْتَهُ وَلَا تَتَوَقَّفَنَّ عَنْ مَكْرُمَةٍ ، ثُمَّ رَمَى الْعِقْدَ فِي حِجْرِي ،
وَتَرَكَ خِطَامَ الْجَمَلِ ، وَوَلَّى مَنْصَرَفًا ، فَقَلتْ : يَا هَذَا ، وَاللَّهُ لَقَدْ فَضَحْتَنِي ،

وَأَسْفُكَ دَمِي عَلَى أَهْوَنُ مِمَّا فَعَلْتَ ، نَحْنُ مَا دَفَعْتَهُ لَكَ نَائِيٌّ غَنِيٌّ عَنْهُ ، فَضَحِكُ
 وَقَالَ : أَرَدْتُ أَنْ تُكَدِّبَنِي فِي مَقَالِي هَذَا ! وَاللَّهِ لَا أَخْذُهُ وَلَا آخِذَ لِمَعْرُوفٍ
 ثَمَّنًا أَبَدًا ، وَدَضِي لِسَابِلِهِ ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ طَلَبْتَهُ بَعْدَ أَنْ أَمِنْتُ ، وَبَذَلْتُ لِمَنْ يَجِيءُ
 بِهِ مَا شَاءَ فَمَا عَرَفْتُ لَهُ خَبْرًا ، وَكَأَنَّ الْأَرْضَ ابْتَلَعَتْهُ . . . أَلَا تَرَى مَعِيَ أَنَّ
 مَا فَعَلَهُ هَذَا الْجَنْدِيُّ الْفَقِيرُ إِنْ لَمْ يُفَقِّ بِه مَعْنَى بَنَ زَائِدَةً وَأَشْبَاهَ مَعْنَى بَنِ
 زَائِدَةً ، فِي بَابِ الْمَرْوَةِ وَالْفَتْوَةِ وَالنَّجْدَةِ وَالْكَرْمِ وَعَبْقَرِيَّةِ الرُّوحِ فَإِنَّهُ لَا يَقِلُّ
 عَنْهُمْ !

جُهْدُ الْمُقِلِّ إِذَا أَطَاكَ نَائِلُهُ وَمُكْتَرٌ مِنْ غَنَى سَيَّانٍ فِي الْجُودِ
 فَهَوَا كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

وَلَمْ يَكْ أَكْثَرُ الْفَتِيَانِ مَالًا وَلَكِنْ كَانَ أَرْحَبَهُمْ ذِرَاعًا



وَمِنْ هُنَا حَثُّوا عَلَى الْجُودِ وَالْمَرْوَةِ وَالتَّسَخُّيِّ حَتَّى فِي حَالَةِ الْعُسْرِ وَالضَّقِيقِ
 فَمِنْ ذَلِكَ مَا قَرَأْنَاهُ مَلْسُوبًا لِـ بُزْرِجَهْرٍ أَوْ أَيُّحِي بْنِ خَالِدِ الْبَرْمَكِيِّ أَوْ لِامْرَأَةٍ
 مِنَ الْعَرَبِ تَوْصِي بِه ابْنَهَا ، وَهُوَ : إِذَا أَقْبَلْتَ عَلَيْكَ الدُّنْيَا فَانْفِقْ ، فَإِنَّهَا لَا تَقْفَى ،
 وَإِذَا أُدْبِرَتْ عَنْكَ فَانْفِقْ فَإِنَّهَا لَا تَبْقَى . أَخَذَهُ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ فَقَالَ :

وَأَنْفِقْ إِذَا أَنْفَقْتَ إِنْ كُنْتَ مُوسِرًا

وَأَنْفِقْ عَلَى مَا خَيْلَتْ حِينَ تُعْسِرُ

فَلَا الْجُودُ يُفْنِي الْمَالَ وَالْجُدُّ مُقْبَلٌ

وَلَا الْبَخْلُ يُبْقِي الْمَالَ وَالْجُدُّ مُدْبِرٌ

وَقَالَ الْآخَرُ فِي مَعْنَاهُ :

لَا تَبْخَانِ بَدُنِيَا وَهِيَ مُقْبِلَةٌ فَايَسُ يَنْقُصُهَا التَّبْدِيرُ وَالسَّرْفُ

فَإِنْ تَوَلَّتْ فَأَحْرَىٰ أَنْ يَجُودَ بِهَا وَالشُّكْرُ مِنْهَا إِذَا مَا أَدْبَرْتَ خَلْفَ

ولا تنسَ أن مرادهم بالإِنفاق والجُود هنا : الإِنفاقُ في سبيل الله والبرِّ لاني سبيل الشيطان والإثم ، والجُودُ على ذوى الحقوق ومن لهم في حاجة إليك حتى مع إِدبار الدنيا عنك ، وبالحرى مرادهم بالسرف : السرفُ في الشرف ، وما يُكسب المرءَ مَحْمِدةً ومِقةً^(١) . ويؤثر عن معاوية أو المأمون - وقد قيل لاحدهما : لاخير في السرف - فقال : لا سرفَ في الشرف ...

وقال سلم بن قتيبة : أحدكم يَحْقِرُ الشىءَ فيأتى ما هو شر منه « يعنى المنع ، يريد الحثَّ على إعطاء القليل إن لم يُستطع إعطاء الكثير ، وقال حماد بن عمار في ذلك من آيات :

بُتَّ النَّوَالِ وَلَا تَمْتَمِكْ قَلْتَهُ فكلُّ ماسدٍ فقراً فهو محمودٌ

يقول فيها :

إِنَّ الْكَرِيمَ لِيُخْفِيَ عَنْكَ عُسْرَتَهُ حَتَّى تَرَاهُ غَنِيًّا وَهُوَ بِجَهْدِ
إِذَا تَكْرَمْتَ أَنْ تُعْطِيَ الْقَائِلَ وَلَمْ تَقْدِرْ عَلَى سَعَةٍ لَمْ يَظْهَرِ الْجُودُ
وَالْبَخِيلِ عَلَى أَمْوَالِهِ عِلَلٌ زُرُقُ الْعُيُونِ عَلَيْهَا أَوْجُهُ سُودُ
أَوْرُقِ بَخَيْرٍ تُرَجَّى لِلنَّوَالِ فَمَا تُرَجَى الثَّمَارُ إِذَا لَمْ يُورِقِ الْعُودُ

والعرب تقول : من حقرَ حرمَ ... « حقر الشىء : عده حقيراً ، أى

من حقر يسيراً يقدرُ عليه ولم يقدر على الكثير ضاعت لديه الحقوق ، وفي الحديث : لا تردوا السائلَ ولو بظلفٍ مُحْرَقٍ « الظلف من كل ما يجترُّ من

الحيوانات كالبقرة والظبي بمنزلة الحافر من الفرس ، ويقال : أحرق الشيء بالنار وحرّقه شدّد لكثرة ، وقال المعري :

إذا طرَقَ الْمِسْكِينُ بِأَبْكَ فَأَجِبْهُ قَلِيلًا وَلَوْ مِقْدَارَ حَبِيَّةِ خَرْدَلٍ
وَلَا تَحْتَقِرْ شَيْئًا تُسَاعِفُهُ بِهِ فَكَمْ مِنْ حَصَاةٍ أَيْدَتْ ظَهَرَ مَجْدَلٍ

المجدل : النصر المشرف ، وكان ابن عباس يقول : صاحب المعروف لا يقع ، فإن وقع وجد مُتَّكَأً . وهذا من قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : المعروف يَبْقَى مَصَارِعَ السُّوءِ ... وكان ابنُ عَبَّاسٍ يقول أيضا : مارأيت رجلا أوليته معروفًا إلا أضاع ما بيني وبينه ، ولا رأيت رجلا أوليته سوءًا إلا أظلم ما بيني وبينه ، ومما يروى في هذا المعنى أن رجلا كان في مجلس خالد بن عبد الله القسريّ ، فقام من المجلس ، فقال خالد : إني لأُبْغِضُ هذا الرجلَ وماله إلى ذنْبٍ ، فقال رجل من القوم : أوّله أيها الأميرُ معروفًا ففعل ، فما كُتِبَ أن حَفَّ على قلبه وصار أحدَ جُلُساته . وفي هذا المعنى يقول سيّدُ مُوسِيقيّ الإسلام أبو إسحاق الموصلي :

أرى الناسَ خُلَّانَ الجِوَادِ وَلَا أرى بِخِيَلِهِ فِي الْعَالَمِينَ خَائِلُ
وَمِنْ خَيْرِ حَالَاتِ الْفَقِي لَوْ عَلِمَتْهُ إِذَا نَالَ شَيْئًا أَنْ يَكْرَنَ يُذِيلُ
فإني رأيت البخل يُزْرَى بأهله فَأَكْرَمَتِ نَفْسِي أَنْ يُقَالَ بِخِيلُ

وبقول المتنبي :

وَأَحْسَنُ وَجْهِ فِي الْوَرَى وَجْهُ مُحْسِنٍ وَأَيْمَنُ كَيْفَ فِي الْوَرَى كَيْفَ مُنْعِمٍ
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَنْ أَنْصَلَتْ نِعَمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، كَثُرَتْ حَوَائِجُ النَّاسِ إِلَيْهِ ، فَمَنْ لَمْ يَحْتَمِلْ تِلْكَ الْمَوْنُ عُرْضَ لَزْوَالِ تِلْكَ النِّعَمِ ، وَقَالَ خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيُّ أَيْضًا : حَوَائِجُ النَّاسِ إِلَيْكُمْ نِعَمٌ مِنْ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ،

فَلَا تَمْلُوا النَّعْمَ فَتُحَوَّلَ رِزْقًا ، قال الشاعر :

بَدَا - حينَ أُنزِي - يَا خَوَانِهِ قَدَمَلَّ عَنْهُمْ شِبَابَةَ الْعَدَمِ (١)
وَذَكَرَهُ الْحَزْمُ غِبَّ الْأُمُورِ فَبَادَرَ قَبْلَ انْتِقَالِ النَّعْمِ
وعن سيدنا رسول الله : تَنْزِيلُ الْمَعْوَنَةِ عَلَى قَدْرِ الْمَشْوَنَةِ «ومعناه : أنه كلما
تكاثر على المرء من يحق عليه أن يعولهم ويقوم بمؤنتهم ، ففعل ، أو كلما أنفق
المرء في سبيل البر ، أعطاه الله بمقدار ذلك ، وجاء في الحديث المرفوع :
مَنْ وَسَّعَ وَسَّعَ عَلَيْهِ ، وَكَلِمَا كَثُرَ الْعِيَالُ كَثُرَ الرِّزْقُ ...

وقالوا في معنى النجدة وإقالة العثرات وواجبات ذوى الجاه :
بِذَلِّ الْجَاهِ زَكَاةُ الشَّرَفِ . وفي الحديث : إِنْ اللَّهُ يَسْأَلُ الْعَبْدَ عَنْ جَاهِهِ كَمَا
يَسْأَلُهُ عَنْ مَالِهِ وَعُضْمَرِهِ ، فيقول : جعلتُ لك جاها فهل نصرتَ به مظلوما
أَوْ قَوَّمتَ به ظالما أَوْ أَغثتَ به مكروبا ! وفي الحديث أيضا : أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ أَنْ
تُعِينَ مَنْ لاجاهَ له ... وقال أبو تمام :

وَإِذَا امْرُؤٌ أَسَدَى إِلَى صَلِيحَةٍ مِنْ جَاهِهِ فَكَأَنَّمَا مِنْ مَالِهِ
وكان زياد بن أبيه يقول لأصحابه : آسَفُوا لِمَنْ وَرَاءَكُمْ فَلَيْسَ كُلُّ مَنْ
أَرَادَ السُّلْطَانَ - يَرِيدُ : كُلُّ مَنْ بِيَدِهِ الْأَمْرُ - وَصَلَ إِلَيْهِ ، وَلَا كُلُّ مَنْ وَصَلَ
اسْتَطَاعَ أَنْ يُكَلِّمَهُ ... وَالْأَصْلُ فِي هَذَا قَوْلُهُ سَبَّحَانَهُ : مَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً حَسَنَةً
يَكُنُّ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنُّ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا ، وَكَانَ اللَّهُ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتِنًا . «قال المفسرون : الشفاعةُ الحسنةُ : هي التي رُوِيَ بها
حَقُّ مُسْلِمٍ وَدُفِعَ بِهَا عَنْهُ شَرٌّ أَوْ جُلِبَ إِلَيْهِ خَيْرٌ وَابْتُغِيَ وَجْهُ اللَّهِ وَلَمْ

(١) بدأ ، هي : بدأ ، بالهزم ، فسهل للشعر ، والشبابة : طرف السيف وحدث كل شيء .

وقل : كسر

تُؤَخَذُ عَلَيْهَا رِشْوَةٌ، وَالسَّيِّئَةُ مَا كَانَتْ بِخِلَافِ ذَلِكَ. وَقَوْلُهُ سَبْحَانَهُ: يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا: فَذَلِكَ النِّصِيبُ: هُوَ ثَوَابُ الشَّفَاعَةِ وَجَزَاؤُهَا عِنْدَ اللَّهِ، وَقَوْلُهُ يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا: أَي نَصِيبٌ مِنْ وَزْرِهَا مُسَاوٍ لَهَا فِي الْقَدْرِ، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا، فَلَمَقِيتُ: أَلْمَقْتَدِرُ مِنْ أَقَاتِ عَلَى الشَّيْءِ: إِذَا قَدَّرَ، قَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلُبِ وَقِيلَ لِأَبِي قَيْسٍ بِنِ رِفَاعَةَ -:

وَذِي ضِغْنٍ كَفَفْتُ النَّفْسَ عَنْهُ

وَكُنْتُ عَلَى مَسَاءَتِهِ مُقِيتًا^(١)

وُفِّرَ الْمَقِيتُ بِالْحَافِظِ وَاشْتِقَاقُهُ مِنَ الْقُوَّةِ، فَإِنَّهُ يَقْوَى الْبَدْنَ وَيَحْفَظُهُ.

وَمَنْ أَجْمَلَ مَا قِيلَ فِي الْجُودِ قَوْلَ حَاتِمِ طَائِي:

أَمَاوِيٌّ مَا يُغْنِي السَّرَّاءُ عَنِ الْفَقْرِ

إِذَا حَشْرَجَتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

(١) رَوَى الصَّاعِقَانِي هَذَا الْبَيْتَ مَعَ آيَاتٍ أُخْرَى هَكَذَا:

وَذِي ضِغْنٍ كَفَفْتُ النَّفْسَ عَنْهُ وَكُنْتُ عَلَى مَسَاءَتِهِ أُقِيتُ

يَبِيتُ اللَّيْلَ مُرْتَفِقًا ثَقِيلًا عَلَى فَرَشِ الْفِتَاةِ وَمَا أَيْبْتُ

تَعْنُ إِلَى مِنْهُ: تُؤْذِيَاتُ كَمَا تُؤْذِي الْأَجْدَايِرَ الْبُرُوتُ

وَالْمُرْتَفِقُ: الْمَتَكِّعُ عَلَى مِرْقِيهِ، وَتَعْنُ: تَسْرَعُ وَتَظْهَرُ، وَالْجَذْمَارُ: مَا بَقِيَ مِنْ أَصْلِ السَّعْفَةِ، وَالْبُرُوتُ: الْفَأْسُ، لَعْنَةُ يَمَانِيهِ يَنْظِمُونَهَا الْبُرْتَ وَالْبُرْتُ، وَالْبُرُوتُ فَاعِلٌ تُوْذِي،

(٢) مَآوِيٌّ: مَنَادَى مَرَحِمِ مَآوِيَةَ وَهِيَ زَوْجَةُ حَاتِمٍ، وَحَشْرَجَتْ: أَي النَّفْسُ وَإِنْ

لَمْ يَتَقَدَّمَ لَهَا ذِكْرٌ، لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ

أماوي إن يُصيح صدائى بقفرة
 بين الأرض لأماء لدى ولا نخر^(١)
 ترى أن ما أبقيت لم أك ربه
 وأب يدي مما بخلت به صفر^(٢)
 أماوي إن المال غاد ورائح
 ويبقى من المال الأحاديث والذكر
 غينا زمانا بالتصعلك والغنى
 وكلا سقاناها بكأسيهما الدهر^(٣)
 فما زادنا بأوا على ذى قرابة
 غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقر^(٤)

أست معى فى أن على هذه الأبيات مسحة من الجمال وأثرا بيننا من الصدق
 وأن لها لوظة من تم بالقلب ا أليس حاتم يقول : الحق أقول : إنه لا يلبغى
 لك ياماوية أن تلمينى على إنفاق مالى فى سبيل البر والإطاف ، والتخرق فى
 النوال وقرى الاضياف ، أما تعلمين أن مال المرء لا يُغنى عنه شيئا إذا
 ما الموت رماه بسهامه وغادر هذه الحياة ، أما تعلمين أن المرء متى نُبذ جسده
 بالعرء وأودع حفرة موحشة مقفرة ليس معه شيء مما كان يحتازه فى هذه
 الدنيا من مال ، بدا لك أن المال الذى تركته وبخلت به على مُستحقه أصبح

(١) الصدى هنا : جسد الانسان بعد موته

(٢) ربه : صاحبه ، وصفر : خلو (٣) غينا : عشنا ، غنى كفروح : عاش ، وغنى

بالمكان : أقام ، والمراد بالتصعلك الفقر ، وكأسيهما : يعنى الفقر والغنى

(٤) البأو : الكبر والفخر ، يقال : بأوت على القوم أبأى بأوا ...

ملكاً لغيري وأصبحت أنا خالي الوفاض^(١) بادي الإنفاض^(٢) لا أملك من هذا المال شروى نقير^(٣) ! أليس الأخاقُ بي لذلك أن أُفِقَهُ وَأَتَسَخَّى به على أهليه ، فأنتفع بعد موتي - إذا أنا فعلتُ - بالذكر في الناس والحديث الحسن ! وأية قيمة للمال ياماوية ، ذلك الذي يجيء ويذهب ، ويغدو ويروح ! ليس الأخلقُ بالعاقل الثاقب النظر أن يُفِيدَ منه ما هو أبقى على الزمن الباقي من الزمن - أن يفيدَ منه الذكر من طريق إنفاقه ، والجودَ به في وجوه استحقاقه لقد عشنا يازوجتي حيناً من الدهر أغنياء كما عشنا حيناً فقراء ، وكللاً سقانا الدهر بكأسيهما ، فما أزرى الدهر بأحسابنا ، ولا أضغى إناء أعراضنا ، ولا أسفَّ بأخلاقنا ، كما هو شأنه مع ضعفاء النفوس ، وكذلك إذ كنا أغنياء ، ما أبطرتنا الغنى ، وما أظفاننا ، على ذوى قربانا ، لإنا نعلم علماً ليس بالظن أن المال عرضٌ زائل ، أما الجواهر ، أما الذِّكر ، أما الشرف ، أما الخلق ، فكل أولئك هو الذي عليه المعول ، وإنه لذخيرة لا تنفدُ ، وهي حسبُ العاقل الذي راض نفسه على السكون إلى الحقائق ، ولم يُخَلِّدْ إلى أمِّ دَفْرِ^(٤) باطل الأباطيل . . .

«أما بعد، فلقد أذكرتنا هذه العقريات الكريمة من القول، عبقرية رجل من رجالات السلف لقد بلغ المبالغ في الإحسان واصطناع المعروف، وإغاثة الملهوف، وإنه لحنٌّ علينا أن نعرض شيئاً لهذه العبقرية من الفعال^(٥)، إذ أن كتابنا هذا ليس بمقصود على العبقرى من القول وإنما نعرض كذلك للعبقرى من الأناسى^(٦) فى أى معنى من المعانى^(٦) على شريطة أن يكون ذلك لِمَأمًا. فلا

(١) فارغ الجراب (٢) ظاهر الفقر (٣) النقير : نكتة فى النواة يكون منها منبت النخلة وشروى نقير : مثل هذه النكتة (٤) أم دفر: الدنيا وأصل الدفر: التن (٥) الفعال بفتح الفاء : الفعل الحسن (٦) فى أى معنى : متعلق بالعبقرى

تَغْفِلُ الْإِغْفَالَ كُلَّهُ مَا يَعْنِينَا مِنْ سِيَرِ الْعَبْقَرِيِّينَ ، وَبِمَتْ مِنْهَا بِسَبَبٍ وَأَصْلٌ إِلَى أَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ هَذَا الْكِتَابِ ، وَلَا تَتَبَسَّطُ التَّبَسُّطُ الَّذِي يُبَلِّغُنَا بِأَصْحَابِ السَّيْرِ وَالْمُتَرَجِّمِينَ ؛ وَشَخْصِيَّتِنَا الَّتِي حَبَّبَ اللَّهُ إِلَيْنَا أَنْ نُعَلِّمَ بِعَبَقَرِيَّتِهَا فِي بَابِ الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ هُوَ رَجُلٌ مِنْ رِجَالِ أَسْلَافِنَا كَمَا قُلْنَا - هُوَ قَاضِي الْقَضَاةِ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دُوَادٍ

أحمد بن أبي دواد *

كَانَ هَذَا أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دُوَادٍ تَخْصِيصًا ضَخْمَةً ذَاتَ أَثَرٍ فَعَالَ خَالِدٍ فِي تَارِيخِ الْإِسْلَامِ ، إِذْ أَنَّهُ كَانَ مِنْ أَشْيَاعِ الْمُعْتَزِلَةِ ، وَكَانَ فِي طَلِيعَةِ الْقَائِلِينَ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ ، الْعَامِلِينَ عَلَى تَرْوِيحِ هَذِهِ الْبَدْعَةِ ، مُسْتَظْهِرًا عَلَى ذَلِكَ بِجَاهِهِ وَنُفُوذِهِ لَدَى الْمَأْمُونِ وَالْمُعْتَصِمِ وَالْوَائِقِ . وَلَيْسَ فِيهِ مِنْ مَعَمَزٍ - فِي نَظَرِ رِجَالِ الْحَدِيثِ وَأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ - إِلَّا هَذِهِ ... قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى الصُّوَلِيُّ : لَوْلَا مَا وَضَعَ بِهِ نَفْسَهُ مِنْ مَحَبَّةِ الْمِحْنَةِ - مِحْنَةِ الْقَوْلِ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ ، وَحَمَلِ النَّاسِ عَلَيْهِ - لَاجْتَمَعَتِ الْأَلْسُنُ عَلَيْهِ ، وَلَمْ يُضَفَّ إِلَى كَرَمِهِ كَرْمٌ أَحَدٍ ... وَمَنْ أَحَبَّ الْوُقُوفَ عَلَى مَوْقِفِ ابْنِ أَبِي دُوَادٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فَلْيَرْجِعْ إِلَى مَظَانِّهَا ... وَمِنْ قَوْلِهِمْ فِي مَكَاتِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ ، وَمَنْزِلَتِهِ مِنَ الْجَاهِ وَالسُّلْطَانِ ، وَرَسُوخِ قَدَمِهِ فِي الْفَضْلِ وَالنُّبْلِ وَمَكَارِمِ

(هـ) قَالَ ابْنُ خُلِكَانٍ - بَعْدَ أَنْ سَرَدَ نَسَبَهُ وَنَمَاهُ إِلَى إِبَادِ بْنِ نِزَارِ بْنِ مَعْدَانَ بْنِ عَدْنَانَ أَى أَنَّهُ عَرَبِيٌّ إِيَادِيٌّ - إِنَّ أَسْلَمَهُ مِنْ قَرْيَةٍ بِقَنْسَرِينَ ، وَاتَّجَرَ أَبُوهُ إِلَى الشَّامِ وَأَخَذَهُ مَعَهُ وَهُوَ حَدِيثٌ ، فَنَشَأَ أَحْمَدُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَخَاصَّةِ الْفِقْهِ وَالْكَلَامِ حَتَّى بَلَغَ مَا بَلَغَ ، وَصَحِبَ هِيَاجَ بْنَ عَلَاءِ السُّلَمِيِّ - وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ وَأَصْلُ بْنُ عَطَاءٍ - فَصَارَ إِلَى الْإِعْتِزَالِ ، وَكَانَتْ وِلَادَتُهُ سَنَةَ ١٦٠ هـ بِالْبَصْرَةِ وَتَوَفَّى سَنَةَ ٢٤٠ بَعْدَ أَنْ أُصِيبَ بِالْفَالِجِ فِي زَمَنِ الْمُتَوَكِّلِ

الأخلاق ، وأفاعيله المُخلَّدة في هذه المعاني - والكلام يدُخلُ بعضه في بعض - : قال أبو العيْناء^(١) مارأيت رئيساً أَظُ أفصح ولا أنطق من ابن أبي دُواد ، وقال : كان ابنُ أبي دُوادِ شاعراً مُجيداً ، فصيحاً بليغاً : وقد ذكره دُعَيْلُ بنَ عَلِيِّ الخُزَاعِيُّ - الشاعر العبقرى - في كتابه الذي جمع فيه أسماء الشعراء وروى له أبياتا حسانا : وقال أبو بكر الجرجاني : سمعت أبا العيْناء الضربير يقول : مارأيت في الدنيا أقومَ على أدبٍ من ابن أبي دُواد - يُريد أبو العيْناء بالأدب هنا : أدب النفس - ماخرجت من عنده يوماً أَظُ فقال : ياغلام خذ بيده ، بل قال : ياغلام أخرج معه ، فكنت أتتقِدُ هذه الكلمة عليه ، فلا يُخِلُّ بها ولا أسمعُها من غيره ... قالوا : ودو أولُ من افتتح الكلامَ مع الخلفاء ، وكانوا لا يبدؤهم أحدٌ حتى يبدؤه . وقال إبراهيم بن الحسن : كنا عند المأمون ، فذكروا من بايعَ من الأنصار ليلةَ العَقَبَةِ ، فاختلَفوا في ذلك ، ودخل ابنُ أبي دُواد ، فمدَّهم واحداً واحداً بأسمائهم وكُناههم وأنسابهم ، فقال المأمون : إذا استجلسَ الناسَ فاضلاً فمِثْلَ أحمد ، فقال أحمد : بل إذا جالسَ العالمُ خليفةً فمِثْلَ أمير المؤمنين ، الذي يفهم عنه ، ويكون أعلمَ بما يقوله منه . وقال أحمد بنُ عبد الرحمن الكلبي : ابنُ أبي دُوادِ رُوِّحَ كُلُّهُ من قرينه إلى قَدَمِهِ . وقال لازونُ بنُ اسماعيلَ : مارأيت أحداً قَطُّ أطوعَ لأحد ، من المُعتصم لابن أبي دُواد ، كان - المُعتصم - يُسْتَلُّ الشياءَ اليسيرَ فيمتنع منه ، ثم يدخُلُ ابنُ أبي دُوادِ فيكلمه في أهله

(١) أبو العيْناء هو أبو عبد الله محمد بن القاسم الضربير ، ولد سنة ١٩١ وتوفي سنة ٢٨٢ كان من ظرفاء العالم وفيه من اللسن وسرعة الجواب مالم يكن لأحد من نظرائه ، وترى نوادره مبعثرة في هذا الكتاب

وفي أهل الثغور وفي الحرمين وفي أقاصي أهل المشرق والمغرب ، فيجيبه إلى كل ما يريد ، ولقد كلفه يوماً في مقدار ألف ألف درهم ليحفر بها نهراً في أقاصي خراسان ، فقال له : وما عليّ من هذا النهر ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الله تعالى يسألك عن النظر في أمر أقصى رعيتك ، كما يسألك عن النظر في أمر أدناها ، ولم يزل يرفقُ به حتى أطاقها . قالوا : وكان ابتداء اتصال ابن أبي دُواد بالمأمون ما حدث به ابنُ أبي دُواد نفسه ، قال : كنت أحضرُ مجلسَ القاضي يحيى بنِ أكرم ، مع الفقهاء ، فإني عنده يوماً إذ جاء رسولُ المأمون ، فقال له : يقول لك أميرُ المؤمنين : انتقل إلينا أنتَ وجميعُ من معك من أصحابك ، فلم يُجبْ أن أحضرَ معه ، ولم يستطع أن يؤخّرني ، فحضرت مع القوم ، وتكلّمنا بحضرة المأمون ، فأقبل المأمون ينظر إلىّ إذا شرّعتُ في الكلام ، ويتفهّم ما أقول ، ويستحسنه ، ثم قال لي : مَنْ تكون ؟ فانتبّهتُ له ، فقال : ما أخرك عنا ؟ فكريهت أن أُحِيلَ عليّ يحيى ، فقلت : حُبسة القدر ، وبلوغ الكتاب أجله ، فقال : لا أعلمن ما كان لنا من مجلس إلا حَضرتَه ، فقلت : نعم ، يا أمير المؤمنين ، ثم اتصل الأمر ، وقيل : قدِم يحيى بنُ أكرم قاضياً على البصرة من خراسان ، من قبل المأمون ، في آخر سنة ٢٠٢ وهو حدّث ، سنّه نيف وعشرون سنة ، فاستصحب جماعةً من أهل العلم والمروآت ، منهم ابنُ أبي دُرَاد ، فلما قدِم المأمون ببغداد في سنة ٢٠٤ قال ليحيى : اختر لي من أصحابك جماعةً يجالسونني ويكثرُونَ الدخولَ إليّ ، فاختر منهم عشرين ، فيهم ابنُ أبي دُواد ، فكثروا على المأمون ، فقال : اختر منهم ، فاختر عشرة فيهم ابنُ أبي دُواد ، ثم قال : اختر منهم ، فاختر خمسة ، فيهم ابنُ أبي دُواد ، واتصل أمره ... وكان من وصية المأمون إلى أخيه المعتصم عند الموت :

وأبو عبدالله أحمد بن أبي دواد لا يفارقك الشركة في المشورة في كل أمر، فإنه مريض ذلك، ولا تتخذن وزيراً، فلما ولي المعتصم، جعل ابن أبي دواد قاضي القضاة مكان يحيى بن أكرم، وكان لا يفعل فعلاً باطناً ولا ظاهراً إلا برأيه... ولما مات المعتصم وتولى بعده ولده الواثق بالله حسنت حال ابن أبي دواد، وما زال إلى أن ولي أخوه المتوكل، فأصيب ابن أبي دواد بالفالج فكانت مدة عظمة ابن أبي دواد ونفوذه وجاهه نحواً من ثمان وعشرين سنة... قال ابن خلكان - الذي نعتد عليه في هذا الباب - : وكان ابن أبي دواد كثيراً ما يُنشد - ولم يذكر أنهما له أو لغيره - :

مأنت بالسبب الضعيف وإنما تُجرح الأمور بقوة الأسباب

فاليوم حاجتنا إليك وإنما يدعى الطيب لشدة الأوصاب

ومن كلامه : ثلاثة ينبغي أن يُجعلوا وتُعرف أقدارهم : العلماء، وولادة العدل، والإخوان، فمن استخف بالعلماء أهلك دينه، ومن استخف بالولادة أهلك دنياه، ومن استخف بالإخوان أهلك مروءته، ومن كلامه أيضاً : ليس بكامل من لم يحمل وليه على منبر ولو أنه حارس، وعدوه على جذع ولو أنه وزير^(١)

(١) هذا على حد قول عبدالله بن معاوية :

إذا أنت لم تنفع فضرر فإنما يرجى الفتى كيما يضر وينفعا

وقول الآخر :

ولكن قى الفتيان من راح وأعتدى لضرر عدو أو لنفع صديق

وقول المتنبي :

لمن تطلب الدنيا إذا لم تردبها سرور محب أو إساءة مجرم

وقول ابن الرومي :

وكان بين ابن أبي دواد وبين الوزير الجبار محمد بن عبد الملك الزيات ، الذي
توثر عنه هذه الكلمة : الرحمةُ خَوْرٌ في الطبيعة - منافساتٌ وشحناءٌ ، حتى إن
شخصاً كان يصحب ابن أبي دواد ويختص بقضاء حوائجه ، منعه الوزير المذكور
من التردد إليه ، فبلغ ذلك ابن أبي دواد ، فجاء إلى الوزير وقال : والله ،
مَا أَجِيْتُكَ تَتَكَبَّرُ ابْنُكَ مِنْ قِلَّةِ ، وَلَا مُتَعَزِّزًا بِكَ مِنْ ذِلَّةِ ، وَلَكِنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
رَبِّكَ مَرْتَبَةٌ أَوْجَبَتْ لِقَاءَكَ ، فَإِنْ لَقِينَاكَ فَلَهُ ، وَإِنْ تَأَخَّرْنَا عَنْكَ فَلَكَ ... ثم
نهض من عنده ... قال ابن خليكان : وكان فيه - في ابن أبي دواد - من
المكارم والمحامد ما يستغرق الوصف ... وكان يقال : أكرمٌ من كان في دولة
بني العباس البرامكة ثم ابن أبي دواد ... حَدَّثَ الْجَاهِظُ قَالَ : غَضِبَ الْمُعْتَصِمُ عَلَى
رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَزِيرَةِ الْفُرَاتِيَّةِ ، وَأَحْضَرَ السِّيفَ وَالنَّطْعَ ^(١) فَقَالَ لَهُ الْمُعْتَصِمُ :
قَعَلْتَ وَصَنَعْتَ ، وَأَمْرٌ بِضَرْبِ عُنُقِهِ ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ أَبِي دَوَادٍ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ،
سَبَقَ السِّيفُ الْعَدَلَ ^(٢) ، فَتَأَنَّنَ فِي أَمْرِهِ فَإِنَّهُ مَظْلُومٌ ، قَالَ : فَسَكَنَ الْمُعْتَصِمُ

= وليس يصالح لاستصلاح مملكته غيرُ امرئٍ نافعٍ بالحقِّ ضرَّارٍ
ووليه : يريد صديقه وكل من يمت إليه بسبب واصل ، ويريد بحمله على المنبر
نصرته والارتفاع به ، ويريد بحمل عدوه على جذع : صلبه والقضاء عليه ، وقوله : ولو
أنه حارس ، أي خفي ، يريد ولو أنه حقير ، ولعله قال هذه الكلمة وهو يعرض بابن
الزيات الوزير .

(١) النطع : بساط من جلد يفرش تحت المحكوم عليه بقطع الرأس وفيه لغات :
نَطْعٌ وَنَطْعٌ وَنَطْعٌ وَنَطْعٌ وَنَطْعٌ وَنَطْعٌ وَنَطْعٌ وَنَطْعٌ وَنَطْعٌ وَنَطْعٌ
(٢) هذا مثل ، والعدل : اللوم وأصله أن الحارث بن ظالم ضرب رجلاً فقتله فأخبر
بعذره فقال : سبق السيف العدل ، يضرب لما قد فات

قليلًا ، قال ابن أبي دؤاد : وعَمَرَني البُولُ فلم أقدر على حبسه ، وعَلِمَت أني إن مُتُّ قُتِلَ الرجل ، فجمَعَتُ ثيابي تحتي وُبُلْتُ فيها ، حتى خَلَّصْتُ الرجل قال : فلما قتت نظر المعتصم إلى ثيابي رَطْبَةً فقال : يا أبا عبد الله ، أكان تحتك ماء ؟ فقلت : لا ، يا أمير المؤمنين ، ولكنه كان كذا وكذا ! فضحك المعتصم ، ودعالي وقال ، أحسنت ، بارك الله عليك ، وخلع عليه وأمر له بمائة ألف درهم ... وقال أبو العيَّان : كان الأَفْشِينُ - التركي وكان من أجلَّ قواد المعتصم ، وأبلى في أمرِ بابك الخرميِّ بلاءَ حمده له - يَحْسُدُ أبا دُؤَافَ القاسمَ بنَ عيسى العِجَلِيَّ ^(١) - وهو كذلك أحدُ قوادِ المأمون ثم المعتصم من بعده . وكان تحت إمرة الأَفْشِينِ في حرب بابك - للعربية والشجاعة

(١) وهذا أبو دلف كان كذلك كريما سريا جوادا مدحا شجاعا مقدما فاضلا ، مدحه أبو تمام وعلي بن جبلة المعروف بالعكوك وبكر بن النطاح ، وفيه يقول العكوك قصيدته التي يقول فيها :

إنما الدنيا أبو دُؤَافٍ بين مَغزاه ومحتَضِرِه
فإذا ولى أبو دلفٍ ولت الدنيا على أثرِه
كلُّ من في الأرض من عرب بين ياديه إلى حَضِرِه
مُستعيرٌ منك مَكْرَمَةٌ يكتسيها يومَ مَفْتَحِرِه

ويقول بكر بن النطاح :

يا طالبا للكيمااء وعليه مدحُ ابن عيسى الكيمااءُ الأعظم
لولم يكن في الأرض إلا درهم ومدحَتَه لآتاك ذاك الدرهم
وقد أعطاه أبو دلف على هذين البيتين عشرة آلاف درهم ... هذا ودلف اسم علم ممنوع من الصرف للعلمية والعدل لانه معدول عن دلف، قاله ابن بربى

فاحتال عليه حتى شهد عليه بجناية قتل ، فأخذه ببعض أسبابه ، فجلس له وأحضره ، وأحضر السيّاف ليقتله ، وبلغ ابن أبي دؤاد الخبر ، فركب من وقته مع من حضر من عُدُوِّه ، فدخل على الأفتنين ، وقد جرى بأبي دُؤاف ليُقتل ، فوقف ، ثم قال : إني رسول أمير المؤمنين إليك ، وقد أمرت أن لا تُحدِث في القاسم بن عيسى حدّنا حتى تُسلّمه إلىّ ، ثم انفت إلى العدول وقال : أشهدوا أنّي أدّيتُ الرسالة إليه عن أمير المؤمنين والقاسم حتى مُعافى ، فقالوا : قد شهدنا ، وخرج ، فلم يقدر الأفتنين عليه ، وسار ابن أبي دؤاد إلى المعتصم من وقته ، وقال : يا أمير المؤمنين ، قد أدّيتُ عنك رسالة لم تُقلها لي ، ما أعدتُ بعملٍ خيرٍ خيراً منها ، وإني لأرجو لك الجنة بها ، ثم أخبره الخبر ، فصوّب رأيه ، ووجّه من أحضر القاسم ، فأطلقه ووهب له : وعنف الأفتنين فيما عزم عليه ... ومن مُروآته : أن المعتصم كان قد اشتدّ غيظه على محمد بن الجهم البرمكيّ ، فأمر بضرب عنقه ، فلما رأى ابن أبي دؤاد ذلك وأن لا حيلة له فيه وقد شدّ برأسه وأقيم في النّطع وهزّ السيفُ قال ابن أبي دؤاد للمعتصم : وكيف تأخذ ماله إذا قتله ؟ قال المعتصم : ومن يحولُ بيني وبينه ؟ قال : يا أبا الله تعالى ذلك ، ويأباه رسول الله صلى الله عليه وسلم ويأباه عدل أمير المؤمنين ، فإن المال للوارث إذا قتله حتى تُقيم البيّنة على ما فعله ، وأمره باستخراج ما اختأته أفرّب عليك وهو حتى ، فقال : أحبسوه حتى يُناظر ، فتأخّر أمره على مالٍ حمله « أي كتمّله ، وخلصّ محمد ... » وقال أبو العيناء : غضب المعتصم على خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانيّ ، وأشخصه من ولايته ، لتعجزٍ لحقه في مالٍ طلب منه ، وأسبابٍ غير ذلك ، فجلس المعتصم لعقوبته ، وكان قد طرّح نفسه على ابن أبي دؤاد ، فنكلم فيه فلم يُجبه المعتصم ،

فلما جلس لعقوبته حضر ابن أبي دواد، فجلس دون مجلسه، فقال له المعتصم: يا أبا عبد الله، جلست في غير مجلسك ١ فقال له: ما ينبغي أن أجلس إلا دون مجلسي هذا... فقال له: وكيف؟ قال: لأن الناس يزعمون أنه ليس موضع موضع من يشفع في رجل فلا يشفع، قال: فارجع إلى مجلسك، قال: مُشَفَّعاً أو غير مُشَفَّع^(١)؟ فقال: بل مُشَفَّعاً، فارتفع إلى مجلسه، ثم قال: إن الناس لا يعلمون رضا أمير المؤمنين عنه إن لم يخضع عليه^(٢) - فأمر بالخلع عليه، فقال: يا أمير المؤمنين، قد استحق هذا وأصحابه رزق ستة أشهر لا بد أن يقبضوها، وإن أمرت لهم بها في هذا الوقت قامت مقام الصلوة، قال: قد أمرت لهم بها، فخرج خالد وعليه الخلع، والمال بين يديه، وإن الناس ينتظرون في الطرق الإيقاع به، وصاح رجل: الحمد لله على خلاصك يا سيد العرب، فقال خالد: أسكت، سيد العرب والله أحمد بن أبي دواد... وقال الواثق يوماً لابن أبي دواد - تضرجاً بكثرة حوائجه: قد أخذت بيوت المال بطلبائك للأنذين بك والمُتوسلين إليك! فقال: يا أمير المؤمنين، هي نتائج شكرها مُتَّصِلٌ بك، وذخائر أجرها مكتوب لك. ومالي من ذلك إلا أن أخذت المدح فيك، فقال: أحسنت.

«وبعد، فلنتجزأ بهذا المقدار من مساعي ابن أبي دواد سيد العرب وعقريتها في النجدة والمروءة والكرم والأريحية والشجاعة الأدبية»

(١) يقال: شفع له وشفع له إلى الملك مثلاً، فشفعه فيه تشفيماً، فالطالب شفيح

وشافع، والمشفع: الذي تقبل شفاعته، أما المشفع فهو الذي يقبل الشفاعة

(٢) قال في أساس البلاغة: خلع عليه: إذا نزع ثوبه وطرحه عليه، وكساه

الخلعة والخلع

وما آفَ لَفْ هذه المعاني الكريمة مما انبعثت له قرايحُ فحول شعراء الإسلام، أمثال
أبي تمام، فأنطقتهم بالمأثور من الشعر الفخم، وامتدحوا به هذا الرجل العظيم،
فقال أبو تمام :

لقد أنست مسايي كل دهرٍ محاسنُ أحمدَ بنِ أبي دُوادٍ
وما سافرتُ في الآفاقِ إلا ومن جدِّ والكَراحتي وزادِي

قال علي الرازي: رأيت أبا تمام عند ابن أبي دواد ومعه رجل يُبشِدُ عنه
قصيدة منها هذان البيتان، فلما أنشدتها قال ابن أبي دواد لأبي تمام:
هذا المعنى تفرَّدتَ به أم أخذته؟ فقال: هولى، وقد أَلَمْتُ فيه بقول
أبي نواس:

وإن جَرَّتِ الألفاظُ مَنَّا بِمدْحَةٍ لغيرِكَ إنساناً فأنتَ الذي نَعْنِي
ومدحه أبو تمام أيضا بقصيدته التي أولها:

أرأيتَ أيَّ سوائِفٍ وُحْدُودٍ عَنَّتْ لنا بينَ اللَّوى وَزُرُودِ

وفيها الآيات الثلاثة البديعة في الحسد:

وإذا أرادَ اللهُ تَشْرَفِضِيْلَةً طُوِيَتْ أتاحَ لها لسانَ حَسودِ
لولا اشتعالُ النارِ فيما جاورَتْ ما كانَ يُعْرَفُ طِيبُ عَرَفِ العودِ
لولا التَّخَوُّفُ لِلعوافِبِ لم تزلْ لِلحاسِدِ النُّعْمَى على المحسودِ

ودخل أبو تمام عليه يوما، وقد طالَت أيامه في الوقوف ببابه ولا يصل
إليه، ولما وصل قال له ابن أبي دواد: أَحَسَبُكَ عاتبا يا أبا تمام، فقال
أبو تمام: إنما يُعْتَبُ على واحدٍ وأنتَ الناسُ جميعا، فكيف يُعْتَبُ عليه!
فقال له: مِنْ أَيْنَ لك هذا يا أبا تمام؟ فقال من قول الحاذِقِ - يعني
أبا نواس - في الفضل بن الربيع:

وليس على الله بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدٍ^(١)
ولما وُلِّيَ ابْنُ أَبِي دُوَادِ الْمَظَالِمَ قَالَ أَبُو تَمَامٍ قَصِيدَةً يَتَظَلَّمُ إِلَيْهِ، مِنْ جَمَلَتِهَا
قَوْلُهُ :

إِذَا أَنْتَ ضَيَّعْتَ الْقَرِيضَ وَأَهْلَهُ فَلَا عَجَبٌ إِنْ ضَيَّعْتَهُ الْأَعَاجِمُ
فَقَدْ هَزَّ عِظْفِيهِ الْقَرِيضُ تَوَقُّعًا لِعَدْلِكَ مُذْ صَارَتْ إِلَيْكَ الْمَظَالِمُ
وَلَوْلَا خِلَالُ سِنَّهَا الشَّعْرُ مَا دَرَى بُغَاةَ الْعُلَى مِنْ أَيْنَ تَوَوَّى الْمَكَارِمُ

ومدائحُ أبي تمام وغيرِ أبي تمام فيه كثيرة متوافرة... وقال أبو بكر بن
دريد : كان ابن أبي دراد هُوَ الْفَأْ لَاهِلِ الْأَدَبِ مِنْ أَى بَلَدٍ كَانُوا ، وَكَانَ
قَدْ ضَمَّ مِنْهُمْ جَمَاعَةً يَعُولُهُمْ وَيَمُونُهُمْ ، فَلَمَّا مَاتَ حَضَرَ بِيَابِهِ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ
وَقَالُوا يُدْفَنُ مِنْ كَانَ سَائِقَةَ الْكِرْمِ^(٢) وَتَارِيخِ الْأَدَبِ وَلَا تَسْكَمُ فِيهِ إِنْ
هَذَا وَهَنْ^(٣) وَتَقْصِيرٍ ، فَلَمَّا طَلَعَ سَرِيرُهُ قَامَ إِلَيْهِ ثَلَاثَةٌ مِنْهُمْ ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ :
الْيَوْمَ مَاتَ نِظَامُ الْمَلِكِ وَاللَّسَنِ وَمَاتَ مَنْ كَانَ يُسْتَعْدَى عَلَى الزَّمَنِ^(٤)

(١) وأخذه أبو نواس من قول جرير :

إِذَا غَضِبْتَ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ حَسِبْتَ النَّاسَ كُلَّهُمْ غَضَابًا

(٢) الساقية : جمع سائق وهم الذين يسوقون جيش الغزاة ويكونون من ورائه
يحفظونه ، فلعل هؤلاء الأدباء يريدون بقولهم من كانت ساقية الكرم : أنه كان يحوط
الكرم ويحفظه فكأنه الجيش الذين يحفظون جيوش الكرم ، والمراد : أنه أمير الكرم
إذ أنه يحوطه ويحفظه

(٣) وهن : ضعف

(٤) يقال : استعديت الأمير على فلان فأعداني : أى استعنت به عليه فأعداني

والاسم منه العدوى وهى المعونة

وَأظَلَّتْ سُبُلُ الْآدَابِ إِذْ حُجِبَتْ شمسُ الْمَكَارِمِ فِي غَيْمٍ مِنَ الْكَفَنِ
وتقدم الثاني فقال :

تَرَكَ الْمَنَابِرَ وَالسَّرِيرَ تَوَاضَعًا وَلَهُ مَنَابِرٌ لَوْ يَشَاءُ وَسَرِيرٌ
ولغيره يُجَبِّي الخِرَاجَ وَإِنَّمَا تُجَبِّي إِلَيْهِ مَحَامِدُهُ وَأُجُورٌ^(١)
وتقدم الثالث فقال :

وَلَيْسَ قَتِيقُ الْمَسْكِ رِبْحٌ خُيُوطِهِ وَلَكِنَّهُ ذَاكَ التَّنَاءُ الْمُخَلَّفُ^(٢)
وَلَيْسَ صَرِيرُ النَّعْشِ مَا تَسْمَعُونَهُ وَلَكِنَّهُ أَصْلَابُ قَوْمٍ تَقْصَفُ^(٣)

رسالة للجاحظ ينضح فيها عن الجود

«وبعد، فلننظف على كلامهم في الجود وذم البخل : أورد الجاحظ في كتابه «البخلاء» رسالة جميلة جداً نسبها إلى أبي العاصي بن عبد الوهاب ابن عبد المجيد الثقفي - أرساها إلى رجل من عشيرته، وقد سمع بأنه يجلس إلى قوم من البخلاء، أمثال سهل بن هارون والأصمعي، وقد تأثر بمذهبهم في البخل وامتداحهم إياه، فكتب إليه هذه الرسالة يتنعى فيها على البخلاء مذهبهم، ويذم البخل وينوّه بالجود - ونحن فإننا نقطف من هذه الرسالة نُتْقًا ونترك سائرها لمن يحب أن يراجعها في كتاب البخلاء - قال :

(١) أجور: جمع أجر وهو الثواب

(٢) قَتُقُ المسك: استخراج رائحته بشيء نخلطه به، ومسك قتيق: مستخرج

الرائحة بجملة في غيره - كما يفعلون اليوم به وبالعنبر .

(٣) الاصلاب: جمع صلب وهو العظم من لدن الكاهل إلى العجب، وتقصف:

يحذف لإحدى التامين أى تقصف والتقصف: التكرس

وهل تزيد حالَ مَنْ أنفق جميعَ ماله ، ورأى المكروةَ في عياله ، وظهر فقره ، وشمتَ به عدوه ، على أكثرِ من انصرافِ المؤمنين عنه ، وعلى بُغضِ عياله ^(١) ، وعلى خشونةِ الملبس ، وجُشوبةِ المأكل ^(٢) ؟ وهذا كله ، يُجْتَمِعُ في مَسْكَ ^(٣) البخيل ، ومَصُوبٍ على هاتمة ^(٤) الشحيح ، ومُعْجَلٍ للثيم ^(٥) ومُلازِمٍ للنُّوع ؛ أَلَا إِنَّ الْمُنْفِقَ قَدْ رَجَحَ الْمَحْمَدَةَ ، وتمتَّعَ بِالنِّعْمَةِ ، ولم يُعْطَلِ الْمَقْدُرَةَ ^(٦) ووَفَّى كُلَّ خِصْلَةٍ مِنْ هَذِهِ حَقَّهَا ، ووفَّرَ عَلَيْهَا نَصِيحَهَا ، وَالْمُسْكُ مَعْدَبٌ ، بِحَضْرِ نَفْسِهِ ، وبالكَدِّ لِغَيْرِهِ ؛ مع لزومِ الحجة ^(٧) ، وسقوطِ الهمة ^(٨) والتعرُّضِ لِلذَّمِّ وَالإِهَانَةِ ، ومع تحكيمِ المِرَّةِ السُّودَاءِ فِي نَفْسِهِ ^(٩) وتَسْلِيْطِهَا عَلَى عِرْضِهِ ، وتمكينِهَا مِنْ عَيْشِهِ ، وسرورِ قَلْبِهِ ^(١٠)

إِنَّ اللَّهَ جَوَادٌ لَا يَخْلُ ، وَصَدُوقٌ لَا يَكْذِبُ ، وَوَفِيُّ لَا يَغْدِرُ ، وَحَكِيمٌ لَا يَعْجَلُ ، وَعَدْلٌ لَا يَظْلِمُ . وَقَدْ أَمَرْنَا بِالْجُودِ ، وَنَهَانَا عَنِ الْبُخْلِ ؛ وَأَمَرْنَا بِالصِّدْقِ ، وَنَهَانَا عَنِ الْكُذْبِ ؛ وَأَمَرْنَا بِالْحِلْمِ ، وَنَهَانَا عَنِ الْعَجَلَةِ ؛ وَأَمَرْنَا بِالْعَدْلِ ، وَنَهَانَا عَنِ الظُّلْمِ ؛ وَأَمَرْنَا بِالْوَفَاءِ ، وَنَهَانَا عَنِ الْغَدْرِ .

(١) أى بغضهم له (٢) جشوبة المأكل : غلظه وخشونته أو قلة إدامه
(٣) المسك : الجلد والمراد : النفس والشخص (٤) الهامة : الرأس
والجمع : هام (٥) اللثيم : الشحيح النفس (٦) أى لم يعطل المقدرة على فعل
الخير وكسب الثناء (٧) مع لزوم الحجة : أى مع قيام الحجة عليه فى بخله وعجزه
عن الزياد عن نفسه (٨) سقوط الهمة : العجز عن جلائل الأعمال
(٩) المِرَّة : خلط من أخلاط البدن ، والمزاج الأسود : هو المزاج المخترب
الكثير المخاوف والوساوس

(١٠) وتسلطها : يعنى أنه بمخاوفه ووساوسه يستهدف للذم ، وتمتكن هذه المِرَّة
من نفسه فتتغصص عليه عيشه وتعصف بسورره

فَلَمْ يَأْمُرْنَا إِلَّا بِمَا اخْتَارَ لِنَفْسِهِ ، وَلَمْ يَزْجُرْنَا إِلَّا عَمَّا لَمْ يَرْضَهُ لِنَفْسِهِ : وَقَدْ
 قَالُوا بِأَجْمَعِهِمْ : إِنَّ اللَّهَ أَجودُ الْأَجودِينَ ، وَأَجْدُ الْأَجْدِينَ ؛ كَمَا قَالُوا : أَرْحَمُ
 الرَّاحِمِينَ ، وَأَحْسَنُ الْخَالِقِينَ . وَقَالُوا فِي التَّأْدِيبِ لِسَائِلِهِمْ ، وَالتَّعْلِيمِ لِأَجْوَادِهِمْ :
 لَا تَجَاوِدُوا اللَّهَ ^(١) فَإِنَّ اللَّهَ - جَلَّ ذِكْرُهُ - أَجودُ وَأَجْدُ . وَذَكَرَ نَفْسَهُ جَلَّ
 جَلَالُهُ ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ - فَقَالَ : « ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ، [وَ « ذُو الطَّلُورِ » ^(٢)
 لِإِلَهِهِ إِلَّا هُوَ » وَقَالَ : « ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ،



وَذَكَرُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالُوا : لَمْ يَضَعْ دِرْهَمًا عَلَى دَرَمٍ ،
 وَلَا لَيْتَةً عَلَى لَيْتَةٍ . وَمَلَكَ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ ، فَقَبَضَ الصَّدَقَاتِ ، وَجُمِعَتْ لَهُ
 الْأَمْوَالُ ، مَا بَيْنَ عُذْرَانَ الْعِرَاقِ إِلَى شَجْرِ عُحْمَانَ ^(٣) إِلَى أَقْصَى تَخْلِيفِ ^(٤) الْبَيْنِ
 ثُمَّ تُورَثِي وَعَلَيْهِ دَيْنٌ ، وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ . وَلَمْ يُسْأَلْ حَاجَةً قَطُّ فَقَالَ : لَا .
 وَكَانَ إِذَا سُئِلَ أُعْطِيَ ، وَإِذَا وَعِدَ أَوْ أَطْمَعُ ، كَانَ وَعْدُهُ كَالْعَيْانِ ^(٥) ، وَإِطْمَاعُهُ
 كَالْإِنْبَازِ . وَمَدَحَتْهُ الشُّعْرَاءُ بِالْجُودِ . وَذَكَرَتْهُ الْخُطَبَاءُ بِالسَّحَابِ . وَلَقَدْ كَانَ
 يَهْبُ لِلرَّجُلِ الْوَاحِدِ الضَّاجِعَةَ مِنَ الشَّاءِ ^(٦) وَالْعَرَجَ مِنَ الْإِبِلِ ^(٧) - وَكَانَ
 أَكْرُبُ مَا يَهْبُ الْمَلِكُ مِنَ الْعَرَبِ مِائَةً بَعِيرٍ ، فَيَقَالُ : وَهَبْ هُنَيْدَةً ^(٨) . وَإِنَّمَا

(١) أى لا تحاولوا أن تصلوا في الجود إلى مثل جود الله (٢) الطلور :
 الإنفضال والإنعام (٣) ساحل البحرين عمان وعدن (٤) المخلاف : الكورة
 ودو عند أهل اليمن واحد المخاليف وهي كورها أى المدن والاصتقاع
 (٥) العيان : مصدر عاين الشيء : أبصره والمعنى : أن وعده في الوثوق بتحقيقه
 كالشيء المشاهد (٦) الضاجعة : الغنم الكثيرة (٧) العرج من الإبل : ما بين
 السبعين إلى الثمانين وقيل : ما بين الثمانين إلى التسعين ، وقيل : مائة وخمسون وفوق
 ذلك ، وقيل : من خمسمائة إلى الألف (٨) هند وهنيدة : اسم للمائة من الإبل خاصة

يقال ذلك ، إذا أريد بالقول غاية المدح ، ولقد وهبَ لرجل ألفَ بعير .
فلسا رآها تزدهمُ في الهوادي ^(١) قال : أشهدُ أنك نبي . وما هذا مما تجودُ
به الأنفس .

وأجمعتِ الأممُ كلُّها بَخِيئُها وَسَخِيئُها وممزوجُها ، ^(٢) على ذمِّ البخل ، وحمْدِ
الجود ، كما أجمعوا على ذمِّ الكذب وحمْدِ الصدق .

فمن أراد أن يخالف ما وصف الله - جل ذكره - به نفسه ، وما منح من
ذلك نبيه (صلى الله عليه وسلم) ، وما فطر على تفضيله العرب قاطبة ،
والاسم كقافة ، لم يكن عندنا فيه إلا إكفاره واستسقاطه ^(٣)

ولم نزال أمة أبغضت جواداً قط ولا حقرته ، بل أحبته وأعظمته ، بل
أحبت عقبه وأعظمت من أجله رهطه . ولا وجدناهم أبغضوا جواداً ،
لمجاوزته حسد الجود إلى السرف ، ولا حقرته ، بل وجدناهم يتعلمون
مناقبه ، ويتدارسون محاسنه ، وحتى أضافوا إليه من نوادر الجليل ^(٤) ما لم يفعله
وتحلوه ^(٥) من غرائب الكرم ما لم يكن ليبلغه ، ولذلك زعموا أن الثناء في الدنيا
يضعف ^(٦) كما تضعف الحسنات في الآخرة . نعم ، وحتى أضافوا إليه

(١) الهادية والهادى : العتق والهادية من كل شيء : أوله وما تقدم منه فيكون
معنى تزدهم في الهوادي : تزدهم بأعناقها وهذا ما يشاهد في الإبل . أو يكون المعنى :
تزدهم في أوائها وهذا . شاهد أيضاً في كل قطع
(٢) ممزوجها : من امتزج فيه السخاء والبخل فكان وسطاً بين الكريم والبخل
(٣) في اللسان : وأكفرت الرجل : دعوته كافراً ، واستسقاطه : إسقاطه من
بين العقلاء

(٤) الفعل الجليل (٥) نحلوه : نسبوا إليه (٦) يضعفه الناس أضعافاً

كثيرة بما يضيفون إليه ويزيدون عليه

كلّ مدحٍ شارد^(١)، وكلّ معروفٍ مجهولٍ الصاحب . ثم وجدنا هؤلاء بأعيانهم للبخل على ضدّ هذه الصفة، وعلى خلاف هذا المذهب: وجدناهم يُبغضونه مرّةً، ويُحَقِّرونه مرّةً، ويُبغضون بفضلٍ بغيضه ولده، ويحتقرون بفضلٍ احتقارهم له رَهْطَه، ويضيفون إليه من نوادر اللوم ما لم يَبْلُغه، ومن غرائب البخل ما لم يفعله، وحتى ضاعفوا عليه من سوء الثناء بقدر ما ضاعفوا للجواد من حُسن الثناء.

وعلى أنّما لا نجد الجوائم^(٢) إلى أمّال الاستخياء، أسرع منها إلى أموال البخلاء، ولا رأينا عدد من افتقر من البخلاء أقلّ.

والبخيل عند الناس ليس هو الذي يَبْخُلُ على نفسه فقط؛ فقد يستحقّ عندهم اسمُ البخيل ويستوجب الذم، من لا يدعّ لنفسه هوى إلا ركبته، ولا حاجة إلا قضائها، ولا شهوة إلا ركبها وبلغ فيها غايته. وإنما يقع عليه اسم البخيل، إذا كان زاهداً في كل ما أوجب الشكر، ونوّه بالذكر، وأدخر الأجر.

وقد يُعاقَّب البخيل^(٣) على نفسه من المؤمن، ويلزمها من الكُلف، ويتخذ من الجوارى والخدم، ومن الدوابِّ والحشم^(٤)، ومن الآنية العجيبة، ومن البزة الفاخرة^(٥). والشارة الحسنة^(٦)، ما يُرَبِّي على نفقة السخيِّ المثرى^(٧) ويضعف على جُود الجواد الكريم^(٨) فتذهب ماله وهو مذموم، ويتغيّر

(١) شارد: نافر، يريد المدح الغريب الذي لا يخطر عادة بالبال

(٢) الجوائم: جمع جائحة وهي الآفة.

(٣) يعلق: يوجب ويكلف (٤) الحشم: الخدم وهي كلمة في معنى الجمع ولا

واحد لها من لفظها (٥) البزة: الهيئة: يقال: هو حسن البزة

(٦) الشارة هنا: الزينة واللباس

(٧) يرَبِّي: يقال: أربى الشيء على كذا: زاد عليه

(٨) ضعف يضعف: من باب كرم، زاد

حاله وهو ملوم . وربما غَابَ عليه حُبُّ الْقِيَانِ ^(١) واستُهِتِرَ بِالْحِصْيَانِ ^(٢) .
 وربما أَفْرَطَ فِي حُبِّ الصَّيْدِ ، واستولى عليه حُبُّ المَرَآكِبِ ^(٣) ، وربما كَانَ
 إِتْلَافَهُ فِي العُرْسِ وَالْحُرْسِ ^(٤) وَالوَلِيمَةِ ، وَإِسْرَافُهُ فِي الإِعْذَارِ ^(٥) وَفِي العَقِيقَةِ ^(٦)
 وَالوَكِيرَةِ ^(٧) ، وَرَبَّمَا ذَهَبَتْ أَوَالُهُ فِي الرِّوَضَائِعِ ^(٨) وَالرِّوَدَائِعِ . وَرَبَّمَا كَانَ
 شَدِيدُ البُخْلِ ، شَدِيدَ الحُبِّ لِلذِّكْرِ ^(٩) وَيَكُونُ بُخْلُهُ أَوْشَجَّ ^(١٠) وَلَوْمُهُ أَقْبَحَ ،
 فَيُنْفِقُ أَوَالَهُ وَيُتَلَفُ خَزَائِنَهُ ، وَلَمْ يَخْرُجْ كَغَافَا ^(١١) وَلَمْ يَنْبُجْ سَلِيمَا
 كَأَنَّكَ لَمْ تَرَبَّ بِبُخْيَلَا مَخْدُوعَا ^(١٢) ، وَبُخْيَلَا مَضْعُوفَا ، وَبُخْيَلَا مِضْيَاعَا ، وَبُخْيَلَا

(١) القيان : جمع قينة ، بفتح فسكون ، الأمانة البيضاء مغنية أو غير مغنية
 (٢) استهتر بالشئ : بالبناء للجھول . : أولع به : والولوع بالخصيان نوع من السرف
 والترف كان شائعا في أيامهم

(٣) المراكب : جمع مركب والمراد ما يركب من الخيل ونحوها

(٤) الحرس بالضم والحراس بالكسر : طعام يصنع ابتهاجا بالولادة

(٥) الإعذار : وليمة الختان وطعام البناء ، الدخلة ،

(٦) العقيقة : الشاة تذبح في اليوم السابع من ولادة المولود

(٧) الوكيرة : الطعام يتخذه الرجل ويدعو إليه عند انتهاء ما كان بينه

(٨) الروضائع : جمع وضيفة وهي ما يرفعه الدائن عن المدين من الدين

(٩) شديد الحب لأن يذكر بما ينفقه من مال في هذه السبيل

(١٠) أى أعلق بنفسه

(١١) الأصل في معنى الكفاف : ما يكف عن سؤال الناس ويقنى ، ومعنى لم

يخرج كغافا هنا : لم يخرج خاليا من الذم وهو في معنى : ولم ينبج سليما

(١٢) يتخيل كاتب الرسالة أن المخاطب ينكر ما ذهب إليه فهو يتجه إليه

قائلا : كأنك الخ ، والمضعوف : ضعيف الرأي

تفاجأ^(١) وبخيلا ذهب ماله في البناء، وبخيلا ذهب ماله في الكيمياء^(٢) ، وبخيلا أنفق ماله في طمع كاذب ، وعلى أمل خائب ، وفي طلب الولايات ، والدخول في القبالات^(٣) ، وكانت فنتته بما يؤمل من الإمرة^(٤) ، فوق فنتته بما قد حواه من الذهب والفضة ، وقد رأيناه^(٥) يُنفق على مائدته وفاكهته ألفَ درهم في كل يوم ، وعنده في كل يوم عُرْس^(٦) ، ولأن يطعن طاعن في الإسلام ، أهونُ عليه من أن يطعن طاعن في الرغيف الثاني ، وأشقُّ عصا الدين ، أهونُ عليه من شقِّ رغيف ، لا يُعدُّ الثأمة في عِرْضه ثلثة ، ويعدها في ثريدته من أعظم الثلم^(٧)

وإنما صارت الآفاتُ إلى أموال البخلاء أسرعَ والجوائحُ عليهم أكْبَـ^(٨) ؛

(١) التفاج : المدعى المتباهى بما ليس له

(٢) الكيمياء في زعمهم : تحويل المعادن الخسيسة - بالصناعة - إلى معادن نفيسة ، أقول : وقد رأيت بعيني رأسى رجلا ثريا من ذوى قرابتنا كان يضرب به المثل في البخل ولكنه في أواخر أيامه أضاع ثروته التي كانت تبلغ ثلاثمائة فدان من أجود أطيان مديرية الغربية في سبيل هذا الكيمياء بعد أن تعرف على رجل مغربي قد اشتهر بهذه الصناعة التي كم خربت من بيوت أمثال هؤلاء البخلاء المخبولين

(٣) القبالة - بالفتح - الكفالة ، واسم لما يلتزمه الإنسان من عمل ودين ونحوها ،

والقبيل : الكفيل والضامن

(٤) الإمرة : اسم مصدر، من أمر علينا : إذا ولى

(٥) يريد بخيلا من البخلاء

(٦) العرس من معانيه : الوليمة

(٧) الثلثة : الفرجة في الشيء المهْدوم أو المكسور

(٨) أكلب : أضرى وأولع وأشد

لأنهم أقلُّ توكلًا ، وأسوأ بالله ظنًا . والجوادُ إما أن يكون متوكلاً ، وإما أن يكون أحسنَ بالله ظنًا ، وهو على كل حال بالمتوكل أشبهه ، وإلى ما أشبهه أنزع^(١) ، وكيفما دار أمره ، فليس بمن يتسكل على خزوه ، ويلجأ إلى كييسه^(٢) ويرجع إلى جودته احتياطه وشدة احتراسه .

واعتلالُ البخيل بالحدثان ، وسوء الظن بتقلب الزمان ، إنما هو كناية عن سوء الظن بخالق الحدثان^(٣) ، وبالذي يحدث الأزمان وأهل الزمان . ولا تجرى الأحداث إلا على تقدير الحديث لها ؟ وهل تختلف الأزمنة إلا على تصريف من دبرها ؟ أولسنا وإن جهلنا أسبابها فقد أيقننا بأنها تجرى إلى غاياتها ؟^(٤) والدليل على أنه ليس بهم خوف الفقر ، وأن الجمع والمنع إما أن يكون عادةً منهم ، أو طبيعةً فيهم ، أنك قد تجد الملك بخيلاً ، وملكته أوسع ، وخرجه أدر ، وعدوه أسكن^(٥) وقد علمنا أن الزنج أقصر الناس ميرة^(٦) وزويةً وأذهلهم عن معرفة العاقبة^(٧) : فلو كان سخاؤهم إنما هو لكلال خدمهم^(٨) ،

(١) الضمير في أشبهه يعود الى المتوكل وأنزع : أميل

(٢) كييسه : عقله وفطنته

(٣) حدثان الدهر : نوابه . واعتلال البخيل بالحدثان : أى تلسه العلل والاعذار

بالخوف من نواب الدهر الخ

(٤) الفاء من فقد : زائدة ، لأن جملة فقد أيقننا : خبر ليس

(٥) الخرج والخراج : ما يحصل من غلة الارض ، وأدر : أكثر ، وعدوه أسكن :

أى غير متحفز لقتاله وإذن فالسال موفور لديه

(٦) المزة : العقل والإحكام

(٧) أى وهم مع ذلك أسخياء

(٨) كلال الحد : أصله فى السيف والسكين ونحوهما والمراد هنا الغباء وقلة

الذكاء والفطنة

وَنَقِصَ عَمَوِلَهُمْ ، وَقَلَّةَ مَعْرِقَتِهِمْ ، لَكَانَ يَنْبَغِي لِفَارَسٍ أَنْ تَكُونَ أَبْخَلَ
 مِنَ الرُّومِ وَتَكُونَ الرُّومُ أَبْخَلَ مِنَ الصَّقَالِبَةِ (١) ؛ وَكَانَ يَنْبَغِي فِي الرِّجَالِ ، فِي
 الْجَمَلَةِ ، أَنْ يَكُونُوا أَبْخَلَ مِنَ النِّسَاءِ ، فِي الْجَمَلَةِ ، وَكَانَ يَنْبَغِي لِلصِّيَّانِ أَنْ يَكُونُوا
 أَسْحَى مِنَ النِّسَاءِ ، وَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ أَقْلُ الْبِخْلَاءِ عَقْلًا ، أَعْقَلُ مِنْ أَشَدِّ
 الْأَجْوَادِ عَقْلًا ؛ وَكَانَ يَنْبَغِي لِلْكَلبِ - وَهُوَ الْمَضْرُوبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي التُّؤْمِ - أَنْ
 يَكُونَ أَعْرَفَ بِالْأُمُورِ مِنَ الدِّيَكِ ، الْمَضْرُوبِ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْجُودِ (٢)

وَنَحْنُ لَا نَجِدُ الْجَوَادَ يَفِرُّ مِنْ اسْمِ السَّرْفِ إِلَى الْجُودِ ، كَمَا نَجِدُ الْبَخِيلَ
 يَفِرُّ مِنْ اسْمِ الْبُخْلِ إِلَى الْاِقْتِصَادِ (٣) . وَنَجِدُ الشُّجَاعَ يَفِرُّ مِنْ اسْمِ الْمَهْزَمِ ،
 وَالْمُسْتَحْيَ يَفِرُّ مِنْ اسْمِ الْحِجْلِ . وَلَوْ قِيلَ لِحَطِيبِ ثَابِتِ الْجِنَانِ وَقَاحٌ (٤) لَجَزِعَ
 - فَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ فَضِيلَةِ الْجُودِ إِلَّا أَنْ جَمِيعَ الْمُتَجَاوِزِينَ لِحُدُودِ أَصْنَافِ
 الْخَيْرِ يَكْرَهُونَ اسْمَ تِلْكَ الْفَضِيلَةِ (٥) - إِلَّا الْجَوَادَ (٦) ، لَقَدْ كَانَ فِي ذَلِكَ مَا يُبَيِّنُ
 قَدْرَهُ ، وَيُظْهِرُ فَضْلَهُ .

وَلَوْ كَانُوا لِأَوْلَادِهِمْ يَجْمَعُونَ ، وَلَهُمْ يَكْدُونَ ، وَمَنْ أَجْلِهِمْ يَحْرِصُونَ ،
 لَجَعَلُوا لَهُمْ كَثِيرًا ، نَمَا يَطْلُبُونَ ، وَلَسَرَكَوَا مُحَاسِبَتَهُمْ فِي كَثِيرٍ مِمَّا يَشْتَهَوْنَ .

(١) الصَّقَالِبَةُ: جَبَلٌ تَتَاخَمُ بِلَادُهُمْ بِلَادَ الْخَزَرِ - فِي الرُّوسِيَا - وَبِحَرِّ الْخَزَرِ هُوَ

بِحَرِّ قَزْوِينَ

(٢) وَصَفَ الدِّيَكِ بِالْجُودِ لِأَنَّ مِنْ عَادَتِهِ أَنْ يَدْعُو الدِّجَاجَ وَيُشِيرُ لَهَا الْحَبَّ

(٣) وَنَحْنُ نَحْجُ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْجَوَادَ لَا يَخَافُ مِنْ اسْمِ السَّرْفِ خَوْفَ الْبَخِيلِ مِنْ

اسْمِ الْبُخْلِ لِأَنَّ السَّرْفَ فِي رَأْيِ الْجَوَادِ يَكَادُ يَلْحَقُ بِالْجُودِ

(٤) الْوَقَاحُ: الْقَلِيلُ الْحَيَاةِ .

(٥) الْفَضِيلَةُ هُنَا: تَجَاوُزُ الْحَدَّ فِي الْفَضِيلَةِ

(٦) إِلَّا الْجَوَادَ ، أَيُ فَإِنَّهُ لَا يَكْرَهُ أَنْ يَلْقَبَ بِالسَّرْفِ

وهذا بعض ما بغض بعض المورثين إلى الوارثين ، وزهد الأخلاف ^(١) في طول عمير الأسلاف ...

ولو كانوا لأولادهم يمهّدون ، ولهم يجمعون ، كما جمع الخُصيانُ الأوال ، ولما كَنَزَ الرُّهبانُ الكنوزَ ، ولأستراح العاقرُ من ذلِّ الرَّغبة ^(٢) وتَسَلَّمَ العَقِيمُ من كدِّ الحِرْصِ . وكيف ؟ ونحن نجدُه بعد أن يموت ابنُه الذي كان يعتل به ^(٣) ، والذي من أجله كان يجمع ، على حاله ^(٤) في الطلب والحِرْصِ ، وعلى مثل ما كان عليه من الجمع والمنع

والعامَّة لم تُقَصِّر في الطلب والحُسْرة ^(٥) ، والبُخلاء لم يحدوا شيئا من جُهدهم ^(٦) ولا أعفوا بعد قُدْرَتهم ^(٧) ، ولا قَصروا في شيء من الحِرْصِ والحَصْرِ ^(٨) ، لأنهم في دَارِ قُلْعَةٍ ، بعَرَضِ نُقْلَةٍ ^(٩) . حتى لو كانوا بالخلود مُوقنين ، لأغفلوا تلك الفُضول ^(١٠)

- (١) الأخلاف : جمع خلف وهم أبناء الانسان الذين يخلفونه بعد موته
 (٢) ذل الطمع والحِرْص (٣) يعتل به : يتخذُه علة وسببا للجمع والمنع
 (٤) على حاله : متعلق الجار والمجرور مفعول ثان لتجد (٥) والعامَّة الخ كأنه الحق العامَّة بالبخلاء ، لصفات البخل فيهم ، والحُسْرة هنا : الجمع والإسك
 (٦) أى لم يحدوا جُهدهم في سبيل جمع الأموال (٧) اعنى : أنفق العفو من ماله وهو ما يفضل عن النفقة وبعد قُدْرَتهم : أى بعد اقتدارهم وإيسارهم
 (٨) الحصر : البخل

(٩) يقال : الدنيا دار قلعة : أى انقلاع وارتحال ، وقوله : وبعرض نقلة : أى أن الدنيا دار يعرض فيها انتقال فلا تدوم على حال (١٠) حتى لو كانوا الخ هذا من الترقى في الدليل يقول : لو كتب لهم الخلود ، لوجب أن يغفلوا طلب ما يزيد على عيشتهم وحالتهم ولجادوا به لو حصل في أيديهم ولكنهم لا يعقلون بسبب ما ركب فيهم من الحِرْصِ والجشع

فالبخيلُ مجتهدٌ ، والعامى غير مقصّر .^(١) فمن لم يستعين على ما وصفنا بطبيعة قوية ، وبشهوة شديدة ، وبنظر شافٍ ، كان إما عامياً ، وإما بخيلاً شقيماً^(٢) . ففيم اعتلاهم بأولادهم ، واحتجاجهم بخوف التلونِ من أزمئتهم^(٣) ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أفيد كذب عنده كذبة ، وكان جواداً : لولا خصلةٌ وممكك الله عليها ، لشردتُ بك من وافر قوم^(٤) ... وقيل للنبي صلى الله عليه وسلم : هل لك في بيض النساءِ وأدم الإبل^(٥) ، قال : ومن هم ؟ قال : بنو مدلج^(٦) . قال : يمتنعني من ذلك قرأهم الضيف ، وصلتهم الرحم . وقال لهم أيضاً : إذا نحرُوا نجوا^(٧) ، وإذا لبوا عجموا^(٨) . وقال الأنصار : من سيدكم ؟ قالوا : الحر بن قيس ، على أنه يزن^(٩) . فإنا يبخل ، فقال : وأى داء أدوا من البخل ؟ جعله من أدوا الداء .

(١) معنى اجتهاد البخيل هنا أنه يفعل ما يفعل عن احتجاج واقتناع بصواب ما يفعل . أما العامى فليس له من العقل ما به يقم الحجة على حكرته وإنما هو مسوق إلى ذلك بطبيعته فهو ملحق بالبخل .

(٢) فمن لم يستعن الخ ، على ما وصفنا : على ما بينا من تمكن البخل والجشع من النفوس . والطبيعة القوية : السائمة من العلل النفسية ، أما الشهوة الشديدة : فهو يريد بها الميل الشديد للتخلص من هذا الضعف ، وقوله وبنظر شافٍ : يقصد به التفكير الصحيح المؤسس على البرهان القويم لا السفسطة

(٣) تلون الأزمنة : تملها وتنكرها (٤) ومقه يمقه ، كوثق يثق : أحبه . وشردت بك : أبعدتك وطردتك ، وقوله من وافر قوم : هو بيان للكاف في « بك » ، (٥) الأدم : جمع آدم وأدماء ، والأدمية في الإبل : لون مشرب سواداً أو بياضاً أو هو البياض الواضح والتقدير : هل لك في قوم الخ أى هل لك في غزو قوم الخ كما يفهم من المقام (٦) بنو مدلج قبيلة من كنانة (٧) وقال لهم : أى قال في حقهم ، ونجوا : أسالوا دماء الذبائح في الحج (٨) التلية في الحج قول : ليلك اللهم ليك الخ وعج يعج ، بالكسر والفتح ، صاح ورفع صوته (٩) يزن : يتهم

وقال الأنصار : أنا والله ، ما علمتكم إلا لتكثروا عند الفزع وتقلون عند الطمع ^(١) ، وقال : كفى بالمرء حرصاً رُكوبه البحر ^(٢) . - وقال : لو أن لابن آدمَ وِاديينِ من مال لا يبتغي ثالثاً ، ولا يشبع ابن آدم إلا الترابُ ويتوبُ الله على من تاب ^(٣) . وقال : السخاء من الحياء ، والحياء من الإيمان وقال : إن الله جوادٌ يحب الجود . وقال : أنفق يا بلال ، ولا تحش من ذي العرش إقلالا ^(٤)

هذا ما رأينا اختياره من هذه الرسالة الجاحظية البارعة الجامعة . ونعود إلى سائر عقرباتهم في الجود والإحسان

كلمة علوية لسيدنا رسول الله

عن أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه قال : جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فقال : إني أخاف عليكم بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها ... قال : فقال رجل : أو يأتي الخَيْرُ بالشرِّ يا رسول الله ؟ قال : فسكت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و: رأينا أنه يُنزلُ عليه ^(٥) ، فأفاق يمسحُ عنه الرِّحضاء ^(٦) وقال : أين هذا السائل - وكأنه حمده - فقال : إنه لا يأتي

(١) لتكثرون الخ : أي لتجتمعون بجموعكم للنجدة والنود ، وقتلهم عند الطمع :

لساقتهم وكرمهم وقلة حرصهم ، والمراد : الطمع في مغنم حرب أو نحوه

(٢) كفى بالمرء الخ يذم صلى الله عليه وسلم الجشع والحرص على جمع المال ولا سيما عند توقع الخطر كركوب البحر في تلك الأيام وليس المراد ذم السعي على الرزق الخلال من أي وجه كان ، كما هو ظاهر

(٣) واديين : نهرين (٤) أنفق الخ ، بلال : هو بلال بن حمارة الحبشي مؤذن

سيدنا رسول الله

(٥) ينزل عليه : يوحى إليه (٦) الرحضاء : العرق الكثير وكثيرا ما يستعمل

الخير بالشر، وإن مما يُذبتُ الربيعُ ما يقتلُ حَبَطاً أو يُيْلِمُ^(١)، إلا آكلةَ الحَضرِ^(٢)، فإنها أكلتُ حتى إذ امتلأتْ خاصرتاها استقبلت عينَ الشمسِ فتأطتْ^(٣) وبالت ثم رتعت. وإن هذا المالُ خِضْرَةٌ حُلوةٌ، ونعمُ صاحبِ المسلمِ دو، إن أعطى المسكينَ واليتيمَ وابنَ السبيلِ. أو كما قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم.

قال الإمام اللغوي أبو منصور الأزهري^(٤): في هذا الحديث ثلاثان، ضرب أحدهما للمفرط في جمع الدنيا مع منع ما جمع من حقه، والآخر ضربه للمقتصد في جمع المال وبذله في حقه، فأما قوله صلى اللهُ عليه وسلم: وإن مما يذبتُ الربيع ما يقتل حبطاً، فهو مثلُ الحريصِ المفرط في الجمع والمنع، وذلك أن الربيع يذبت أحرار العشب^(٥) التي تحلّولها الماشية فتستكثر منها حتى تنتفخ بطونها وتهلك، كذلك الذي يجمع الدنيا ويحرص عليها ويشح على ما جمع حتى يمنع ذا الحق حقه منها، يهلك في الآخرة بدخول النار واستيجاب العذاب - أقول: ويهلك في الدنيا كذلك، وهل لا يعد هلاكاً لمن هذه حاله ما يلاقيه من إزاء الناس به وازورارهم عنه وانطوائهم له على البغض والحقد والحسد وصنوف الأذى وعدم إياه خنزيراً من خنازير البشر أو مجنوناً من صرعى الأثرة والأنانية وحب الذات، وبالحرى لا خير فيه لأحد ولا لنفسه وإنما هو لا يعدو

في عرق الحمى والمرض (١) الحبط - كما سيمر بك - أن تأكل الماشية فتكثر حتى تنتفخ بطونها ولا يخرج عنها ما فيها فتهلك، ويذبت: يقرب ويدنو من الهلاك (٢) الحضر بفتح فسحة جمع خضرة: ضرب من الجنة أي عروق العشب الغامضة في الأرض كما سيأتي (٣) تأطت: تفوطت وأكثر ما يقال للإبل والبقر والفيلة (٤) هو محمد بن أحمد بن الأزهر الهروي، الإمام المشهور في اللغة، صاحب التهذيب. ولد سنة ٢٨٢ وتوفي سنة ٣٧٠ بمدينة هراة إحدى مدن خراسان، فالأزهري نسبة جده أزهري (٥) أحرار العشب: الرقيق الرطب منه

أن يكون صيرفاً أو حارس مال ليس غير :

يَجْنِي الْغِنَى لِلثَّامِ لَوْ عَقَلُوا مَا لَيْسَ يَجْنِي عَلَيْهِمُ الْعَدَمُ
هُمْ لِأَمْوَالِهِمْ وَلَسَنَ لَهُمْ وَالْعَارُ يَبْقَى وَالْجُرْحُ يَلْتَسِمُ

أَنْتَ لِلْبَالِ إِذَا أَمْسَكَتَهُ فَإِذَا أَنْفَقْتَهُ فَمَا لَكَ لَكَ

هذا إذا أضاف الشَّحَّ على نفسه إلى الشح على ذوى الحقوق

أما إذا آثر نفسه بالتمتع بلذات الدنيا فأى هلاك بعد الذى يصيبه من
الأسقام والأوجاع وسائر أدواء الترف والسرف واجتواء المحرومين إياه
وحققهم عليه وما عساه يتولد من ذلك كله من الفوائل الاجتماعية التى نرى
أفعلها اليوم - قال الأزهرى : وأما مثل المقتصد المحمود فتقوله صلى الله
عليه وسلم : **إِلَّا آكَلَةَ الْخَضِرَ فَإِنَّهَا أَكَلَتْ حَتَّى إِذَا امْتَلَأَتْ خَاصَرَتَاهَا اسْتَقْبَلَتْ**
عَيْنَ الشَّمْسِ فَتَلَطَّتْ وَبَالَتْ ثُمَّ رَتَمَتْ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْخَضِرَ لَيْسَ مِنْ أَحْرَارِ
الْبَقُولِ الَّتِي تَسْتَكْثِرُ مِنْهَا الْمَاشِيَةَ فَتَهْلِكُهَا أَكْلًا وَلَكِنَّهُ مِنَ الْجَنَبَةِ (١) الَّتِي
تُرَاعَاهَا بَعْدَ هَيْجِ الشَّبِّ وَيُبْسِيهِ ، وَالْمَاشِيَةُ تَرْتَعُ مِنْهَا شَيْئًا شَيْئًا وَلَا تَسْتَكْثِرُ
مِنْهَا فَلَا تَحْبُطُ بِطَوْنِهَا عَنْهُ . فَضَرَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آكَلَةَ
الْخَضِرِ مَثَلًا لِمَنْ يَقْتَصِدُ فِي أَخْذِ الدُّنْيَا وَجَمَعَهَا وَلَا يَسْرِفُ فِي الْحِرْصِ عَلَيْهَا
وَأَنَّهُ يَنْجُو مِنْ وَبَالِهَا كَمَا نَجَتْ آكَلَةُ الْخَضِرِ ، أَلَا تَرَاهُ قَالَ : فَإِنَّهَا إِذَا أَصَابَتْ
مِنَ الْخَضِرِ اسْتَقْبَلَتْ عَيْنَ الشَّمْسِ فَتَلَطَّتْ وَبَالَتْ ، وَإِذَا تَلَطَّتْ قَعْدَ ذَهَبٍ

(١) أسلفنا أن الجنبة هى الكلا الذى له عروق فى الارض، قال أبو حنيفة الدينورى:
الجنبة ما كان فى نبتة بين البقل والشجر فيكون فوق البقل ودون الشجر مثل الخياط
مما يبقى أصله فى الشتاء ويبيد فرعه ، وسمى جنبة لأنها كما قال الأزهرى صغرت عن
الشجر الكبار وارتفعت عن التى لا أرومة لها فى الارض

حبطها، وإنما تحبب الماشية إذا لم تثلط ولم تبل ، ثم حث صلوات الله عليه على إعطاء المسكين واليتيم من هذا المال ، مع حلاوته ورغبة الناس فيه ، ليقية الله تبارك وتعالى وبال نعمتها في دنياه وآخرته .

هيات أن أبيت مبطانا وحولى بطون غرثى

ومن كلمة لسيدنا علي رضي الله عنه في كتاب له إلى عثمان بن حنيف الأنصارى عامله على البصرة : ولو شئت لأهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل ، ولباب هذا القمح ، ونسأج هذا القز ، ولكن هيات أن يغلبني هواي ، ويقودني جسعى إلى تخير الأطعمة ، ولعل بالحجاز وباليمامة من لا طمع له في القرص ، ولا عهد له بالشبع أو أبيت مبطانا وحولى بطون غرثى ،^(١) وأكبأد حرى ، أو أكون كما قال القائل :

وَحَسْبُكَ عَارًا أَنْ تَبَيْتُ بِيْطَنَةً وَحَوْلَكَ أَكْبَادُ تَحِنْ إِلَى الْقَدِّ^(٢)

أفقتع من نفسى بأن يقال : هذا أمير المؤمنين ولا اشاركهم في مكاره الدهر ، أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش^(٣) ، فما خلقت لي شغلنى أكل الطيبات ، كالبهيمة المربوطة همها علفها ، أو المرسلة شغلها تقمها ، تكثرش من أعلافها ، وتلهو عما يراد بها ...

(١) المبطان : الذى لا يزال عظيم البطن من كثرة الأكل ، وغرثى : جائعة

(٢) البطنة : الكظة ، وذلك أن يمتلئ الإنسان من الطعام امتلاء شديدا ، والقَد :

سيور قد - تقطع - من جلد غير مدبوغ . وهذا البيت من أبيات لحاتم الطائي

المشهور بالجود (٣) جشوبة العيش : خشونته وغلظه

وكان الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم - وكان من قبلهم مؤدّبهم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم - يرّون - ونعيماً رأوا - أن السياسة الرشيدة ، وأن الطريق إلى الإحسان - ولا طريق غيرها - إنما تتحقق بالرغبة عن شهوات الحياة الدنيا ، وتنكّب السرف والترّف ، وكانوا يريدون عمّالهم على هذه السياسة التي لا سياسة غيرها .

كان الخلفاء الراشدون مثلاً علياً في الرغبة عن شهوات الحياة الدنيا

قال الربيع بن زياد الحارثي : كنت عاملاً لأبي موسى الأشعري على البحرين ، فكتب إليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه بأمره بالقدوم عليه هو وعماله ، وأن يستخلفوا جميعاً . قال : فلما قدمنا أتيت يرّفاً « مولى عمر » قلت : يا يرّفاً مُسْتَرْتِدُّ وابن سبيل . . . أى الهيئات أحبّ إلى أمير المؤمنين أن يرّى فيها عماله ، فأوماً إلى بالخشونة . فاتخذتُ حُفَيْنَ مُطَارِقَيْنِ ^(١) وابستُ جُبَّةً صوفٍ وثتُ عمامتي على رأسي ^(٢) . فدخلنا على عمر ، فصفنا بين يديه ، فصعد فينا وصوب ^(٣) فلم تأخذ عينه أحداً غيري ، فدعاني فقل : من أنت ؟ قلت : الربيع ابن زياد الحارثي ، قال : وما تتولى من أعمالنا ؟ قلت : البحرين ، قال : كم ترتزق؟ ^(٤) قلت : ألفاً ، قال : كثيرٌ . . . فما تصنع به ؟ قلت : أتقوت منه شيئاً وأعود به على أقارب لي ، فما فضل عنهم فعلى فقراء المسلمين ، قال : فلا بأس ، ارجع إلى موضعك ، فرجعت إلى موضعي من الصف ، فصعد فينا وصوب فلم تقع

(١) طراق النعل : ما أطبقت عليه نخرزت به ، فمعنى مطارقين : خصفت إحداهما

فوق الأخرى (٢) أى أدرت بعضها على بعض على غير استواء

(٣) صعد فينا : رفع رأسه فنظر الأعلى ، وصوب : خفض رأسه فنظر الأسفل

(٤) أى كم مرتبك

عينه إلا على فدعاني فقال: كم ستك؟ قلت: خمس وأربعون سنة، قال: الآن حين استحكمت. ^(١) ثم دعا بالطعام وأصحابي حديث عهدهم بلين العيش، وقد تجوّعت له، فأني بخبزٍ وأكسار بعير ^(٢) فجعل أصحابي يعافون ذلك وجعلت أكل فأجيد، فجعلت أنظر إليه يا حظي من بينهم، ثم سبقت في كلمة تمنيت أني سُخْتُ في الأرض ^(٣) فقلت: يا أمير المؤمنين، إن الناس يحتاجون إلى صلاحك، فلو عمدت إلى طعام ألين من هذا! فزجرني، ثم قال: كيف قلت! فقلت: أقول - يا أمير المؤمنين - أن تنظر إلى قوتك من الطحين فيخبز لك قبل إرادتك إياه بيوم ويُطبخ لك اللحم كذلك، فتؤتى بالخبز لينا واللحم غريضا ^(٤)... فسكن من غربه ^(٥) وقال: أههنا غرت؟ ^(٦) قلت: نعم، فقال: ياربيع، إننا لو نشاء ملأنا هذه الرحاب من صلاتق وسبائك ^(٧)، ولكن رأيت الله عز وجل نعى على قومه شهواتهم

(١) استحكمت: تناهيت عما يضرك في دينك ودنياك

(٢) أكسار: جمع كسر، والكسر: عظم ليس عليه كثير اللحم

(٣) ساخ في الأرض: غاص فيها ودخل

(٤) غريضا: طريا (٥) يريد حديثه (٦) غرت: أي ذهبت يقال: غار

الرجل: إذا أتى الغور وناحيته مما انخفض من الأرض، وأنجد: إذا أتى نجداً أو ناحيته

عما ارتفع من الأرض (٧) صلاتق جمع صليقة وهي القطعة المشوية من اللحم

والسبائك: ما يسبك أي ينخل من الدقيق فيؤخذ خالصه وهو ما يسمى الحواري أي

ما يتقى من لباب البر. والصناب: صباغ يتخذ من الخردل والزبيب

(٨) نعى على قوم شهواتهم: عابها ووبخهم عليها. أما الآية التي ذكرها الفاروق

بعد فهي: وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدْمَبْتُمْ طَبِيبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ

الدنيا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ

في الأرض بغير الحق وبما كنتم تنفسون

فقال : أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا... ثم أمر أبا موسى بإقرارى وأن يَسْتَبْدِلَ بِأَصْحَابِي... وهذا من الفاروق دو - فضلا عن أنه الأليق بكل من وُلِّيَ أمر الناس - غاية في السداد والسياسة لرشيده الحازمة كما قلنا

عظمة الفاروق

في زهده وتقواه

هذا والله المَلِكُ الهنيء

وما يصح إirاده هنا ما يأتي : لما أتى بالهَرْمُزَانِ صاحبِ تُسْتَرٍ، إلى عمر ابن الخطاب - وكان هذا الهرمزان من أعظم آواد الفُرس ، وكان على مَيِّمَةِ جيشِ رُسُومٍ وزير ملك فارس يَزْدَجِرْدَ بن شهريار بن ابريز في حرب القادسية سنة ١٤ من الهجرة، فلما قتل رستم وانتصر المسلمون فرَّ الهرمزان بمن بقي من جُنْدِهِ، وما زال المسلمون يتابعونه الغارة بعد الفارة حتى لجأ إلى مدينة تُسْتَرِ^(١)، وتحصَّنَ بها، فحاصروه أشدَّ حِصَارٍ، ثم أنزلوه على حُكْمِ الفاروق، فأسلمه قائد جيش المسلمين أبو سَبْرَةَ بن أبي رُهم إلى وفد فيهم أنس بن مالك والأحنف بن قيس، فأتوا به إلى الفاروق - وكان الفاروق يلتف في كِسائه وينام في ناحية المسجد، فجعلوا يسألون عنه فيقال : مَرَّ هُنَا آفًا فَيُصَغِرُ فِي قَلْبِ الْهَرْمُزَانِ، إِذْ رَأَاهُ كَبَعِضِ السُّوقِ^(٢)... حتى انتهوا به إلى عمر وهو نائم في ناحية المسجد... فقال الهرمزان : هذا والله المَلِكُ الهنيء...^(٣) فلما جلس عمر امتلأ قلبُ العِلْجِ^(٤) منه هيبه، لما رأى عنده

(١) تُسْتَرٌ : مدينة عظيمة جمعها عمر بن الخطاب من أرض البصرة لقربها منها
 (٢) السوق : جمع سوقة كغرفة وغرف ، وهم الرعية (٣) إذ لا يحتاج إلى أحراس ولا عدد (٤) العِلْجُ في الأصل : الحمار الوحشى : وقد أطلقه المسلمون على الرجل من كفار العجم ومن يشبه العجم

من الجِدِّ والاجتهاد، وألديس من هَيْبَةِ التقوى... ثم نظر عمر إليه وقال :
 أَهْرُمُزَان ! قال : نعم ، فقال عمر : الحمد لله الذى أذل بالإسلام هذا وأشباهه ،
 وأمر بنزع ما عليه من الدياج المذْهَبِ ، والتاج المكلل بالياقوت ، وأمر له
 بثوبٍ صفيق^(١) ، وهم بقتله ، فطلب الهُرْمُزَانُ ماءً ، وقال : أخاف أن أُقتلَ
 وأنا أشرب ! فقال عمر : لا بأس عليك حتى تشربَ ، فأراقه ، فقال عمر :
 والله لا أنخدعُ حتى نُسَلِّمَ ، فأسلمَ ، وفَرَضَ له فى العطاء ألفينِ ، وأقام
 بالمدينة .



نعود إلى عبقرياتهم فى الجود من بابات شتى... ولقد أسلفنا أن الأوائل
 لم يَتَرَكُوا معنى إلا طَرَقوه : * وهل غادرَ الثمراءُ من مُتَرَدِّمٍ *^(٢)
 وهو معلوم أن الخمر تُحَدِّثُ فى شاربها إذا انتشى هِزَّةً وطرباً وأريحيةً
 وقد تُحِيلُ البخيلَ كرمياً ، فإذا قالوا فى ذلك ؟ قالوا : - والقائلُ البُحْتَرِيُّ - :
 تَكْرَمْتَ مِنْ قَبْلِ الكُؤُسِ عليهم - فما أسطعن أن يُحَدِّثَنَّ فَيْكَ تَكْرُمًا
 وقال أبو نُوَاسٍ :
 فَيَ لا تُذِيبُ الخمرُ شَحْمَةَ مالِهِ ولكنْ أَيْادِ عُوْدٍ وَبَوَادِي^(٣)
 وقال المتنبي :

(١) صفيق : جيد النسيج (٢) صدر بيت لعنترة وتماه :

* أم هل عَرَفْتَ الدار بعد توهم *

وهذا البيت مطلع معلقته ، يقول لعنترة : إن الشعراء قد سبقونا إلى القول ، فلم يدعوا
 مجالاً لقائل ، والمتروم فى الأصل : الموضع الذى يرفع ويستصلح

(٣) شحمة ماله : أطيبه ، وقوله : ولكن أيداعود وبوادي ، يقول : ولكنه يعطى
 عطاياها قبل الخمر وبعد الخمر ودائماً ، فعطاياها تبتدأ وتعماد

لا تَجِدُ الخُرُّ في مَكَارِمِهِ إِذَا انْتَشَى - خَلَّةٌ تَلَا فَاهَا ^(١)

والأصل في هذا قول عنتره في معلقته:

وَإِذَا صَحَّوتُ فَمَا أَقْصَرُ عَنْ نَدَى وَكَمَا عَلِمْتَ شَمَائِلِي وَتَكَرَّمِي

وقال زهير:

أخو ثقة لا تُهْلِكُ الخُرُّ مَالَهُ وَلَكِنَّهُ قَدْ يُهْلِكُ المَالَ نَائِلُهُ
وقد غَضُوا من قول عَمْرِو بن كَلثُوم:

✽ إِذَا مَا المَاءُ خَالَطَهَا سَخِينَا ^(٢) ✽

ومعنى ذلك كله أنهم لا يعدون جود السكران جوداً، وإنما الجود عندهم ما كان من كرم نظري لا تبعثه خمر وما يشبه الخمر. وإذا هم وصفوا الخمر بأنها تورث شاربها شيئاً يشبه الكرم، فذاك من باب استقصائهم لمعاني الخمر وما تحديه في شاربها، كما قد سيمر بك في بابها...

ولقد سميت مكارم الأخلاق بكثيرٍ من ذوى الأريحية إلى أنهم لا يقطعون نواهم عن يفضبون عليهم ويبيس السرى بينهم، وقد روى في ذلك أن

(١) الخلة: الخصلة والثلة، وتلافاها - بحذف إحدى التامين: تلافاها، أى

تداركها

(٢) عجز: بيت من معلقته وصدرة:

✽ مُشَعَّشَةٌ كَأَنَّ الحِصَّ فِيهَا ✽

يصف الخمر يقول: اسقى الخمر مشعشة، أى مزوجة بالماء، فإنها من شدة حررتها كأنما ألقي فيها الحص - وهو الورس - نبات أحمر يشبه الزعفران - وإذا شربناها وسكرنا جدنا بعقائل أموالنا وسمحنا بذخائر أعلاقنا، فسخينا: فعل من سخى بسخى سخاء - وهذه لغة - ولغة فيها وهى سخا يسخو سخاوة، وثالثة وهى سخو يسخو - ويجوز أن تكون سخينا صفة ومعناها الحاز فيكون المعنى: كأنها حال امتزاجها بالماء وكون الماء حاراً تور هذا البيت، وإذن فلا مطعن عليه

بعض الثبلاء كان يُجْرَى على رجلٍ شيئاً ، ثم غَضِبَ عليه ، و حَدَّثَ أن كتب
 أبْنُه إطلاقاتٍ ، و رُفِعَتْ إليه الإطلاقاتُ ، و تَرَكَ اسمَ المَغْضُوبِ عليه ، فقال له
 أبوه : فأين ذِكْرُ رِزْقِ فلانٍ ؟ فقال : إنَّكَ قد كُنْتَ غَضِبْتَ عليه ، فقال :
 يا بُنَيَّ ، غَضِبِي لا يُسْقِطُ هَبْتِي ... إنَّ أبَاكَ لا يَغْضِبُ في النِّوَالِ ...

وحتى المحتاجين المغضوب عليهم كانت أنفسهم كريمةً أئيمَةً ، فقد رُوِيَ
 أن بعضهم كان يُجْرَى على رجلٍ شيئاً ، فغَضِبَ عليه ، فقطعَه ، ثم رَضِيَ عنه
 فردَه ، فأبى الرجل أن يَقْبَلَه وقال : إني كنتُ أَظُنُّ أن عطاءَه مَكْرَمَةٌ ؛ فأما
 وقد صار غَضْبُه يقطعُه ، فلا حاجة لي فيه ... وكذلك بَأَعَتْ بهم مكارمُ
 الأخلاق أن يُعْطُوا الْمُتَعَفِّينَ ، أكانوا فقراءَ أم أغنياءَ ، فلا يَحْضُونُ ،
 وقد رُوِيَ في الخبر : أعطوا السائل ولو جاء على فرس ، وروى أيضاً :
 كلُّ معروفٍ صدقة ، لغنيٍّ أو فقيرٍ ؛ و يُشْبَهُونَ مَنْ دنا حاله بالغنيث ، قال
 ابن المعتز :

و يُصِيبُ بِالْجُودِ الْفَقِيرَ وَذَا الْغَنِيِّ كَالْغَيْثِ يَسْقِي مُجْدِبًا وَمَرِيحًا
 وقال المتنبي :

وَيَدُّ لَهَا كَرْمُ الْغَمَامِ لِأَنَّهُ يَسْقِي الْعِمَارَةَ وَالْمَكَانَ الْبَلْقَمًا

وكذلك تساموا وبلغوا من عبقرية الروح أن صاروا يُعْدُونَ الانخداع
 عن المال والتبأله في ابتذاله كرهأ ، وقالوا : إنَّ الكَرِيمَ إِذَا مَا خَادَعَتْهُ
 انخَدَعَا ... وفي ذلك يقول البحترى :

وَإِذَا خَادَعَتْهُ عَن مَالِهِ عَرَفَ الْمَسْلَكَ فِيهِ فَانْخَدَعْ

ويقول :

وقد يتغابى المرء عن عظيم ماله ومن تحت بردية المغيرة أو عمرو

« المغيرة : هو المغيرة بن شعبة ، وعمرو : هو عمرو بن العاص وكانا من الدهاة ، ... وقيل لبعضهم : ما الشرف ؟ فقال : الانخداع عن المال ، ولا تجد أحدا يتغافل عن ماله إلا وجدت له في قلبه فضيلة لا تقدر على دفعها ، وقد أدبنا نبينا صلى الله عليه وسلم بقوله : رحم الله سهل البيع سهل الشراء ، وهذا خلاف قول الناس : المخبون غير محمود ولا مأجور ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : ألا أدلكم على شيء يُحببه الله ورسوله ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : التَّغَابُنُ للضعيف ... ومما يُروى في هذا الباب ما أورده ابن خلكان في ترجمة الوزير الخطير أبي الحسن علي بن الفرات وزير المقتدر بالله ابن المعتض بالله العباسي - وكانت وفاته سنة ٣٢٧ هـ - وهو : أن رجلا اتصلت عظامه ، وانقطعت مآدئه ، فزور كتابا من أبي الحسن بن الفرات إلى أبي زُبور المارِ داني عامل مصر ، يتضمن الوصاة به والتأكيد في الإقبال عليه والإحسان إليه ، وخرج إلى مصر ، فلقية به ، فارتاب أبو زُبور في أمره لتغير الخطاب على ماجرت به العادة ، وكون الدعاء أكثر مما يقتضيه محله فراعه مراعاة قريبة ووصله بصلة قليلة ، واحتبس عنده على وعد وعده به وكتب إلى أبي الحسن بن الفرات يذكر الكتاب الوارد عليه ، وأنفذه بعينه إليه ، واستثبته فيه ، فوقف ابن الفرات على الكتاب المزور ، فوجد فيه ذكر الرجل وأنه من ذوى الحرُمات والحقوق الواجبة عليه ، وعرضه على كتابه وعرفهم الصورة فيه وعجب إليهم منها ومما أفدم عليه الرجل ، وقال لهم : ما الرأي في أمر هذا الرجل عنكم ؟ فقال بعضهم : تأديبه أو حبسه ، وقال آخر : قطع إبهامه لئلا يعاود مثل هذا ، ولئلا يقتدى به غيره فيما هو

أكثر من هذا، وقال أجمعهم محضراً: يُكشَفُ لأبي زُنْبُورِ قِصَّتُهُ، وَيُرْسَمُ لَهُ طَرْدُهُ وَحِرْمَانُهُ، فَقَالَ ابْنُ الْفِرَاتِ: مَا أَيْعِدُكُمْ مِنَ الْحَرِيَةِ وَالْخَيْرِيَةِ: وَأَنْفَرَا طِبَاعَكُمْ عَنْهَا رَجُلٌ تَوَسَّلَ بِنَا وَتَحَمَّلَ الْمَشَقَّةَ إِلَى مِصْرَ فِي تَأْمِيلِ الصَّلَاحِ بِجَاهِنَا، وَاسْتِمْدَادِ صُنْعِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالِاتِّسَابِ إِلَيْنَا، وَيَكُونُ أَحْسَنُ أَحْوَالِهِ عِنْدَ أَحْسَنِكُمْ مُحَضَّرًا تَكْذِيبَ ظَنِّهِ وَتَخْيِيبَ سَعْيِهِ! وَاللَّهُ لَا كَانَ هَذَا أَبَدًا، ثُمَّ إِنَّهُ أَخَذَ الْقَلَمَ مِنْ دَوَاتِهِ وَوَقَعَ عَلَى الْكِتَابِ الْمَزُورِ: هَذَا كِتَابِي، وَلَسْتُ أَعْلَمُ لِمَ أَنْكَرْتَ أَمْرَهُ وَاعْتَرَضْتُمْ شُبُهَةَ فِيهِ! وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ خَدَمْنَا وَأَوْجِبَ حَقًّا عَلَيْنَا تَعْرِيفَهُ! وَهَذَا رَجُلٌ خَدَمَنِي فِي أَيَّامِ نَكَبْتِي، وَمَا أَعْتَقِدُهُ فِي قِضَاءِ حَقِّهِ أَكْثَرَ مِمَّا كَلَّفْتُمْكَ فِي أَمْرِهِ مِنَ الْقِيَامِ بِهِ، فَأَحْسِنِ تَفْقُدهَ وَوَفِّرْ رِفْدَهُ وَصَرِّفْهُ فِيمَا يَعُودُ عَلَيْهِ نَفْعُهُ... وَرَدَّهُ إِلَى أَبِي زُنْبُورِ مِنْ يَوْمِهِ؛ فَلَمَّا مَضَتْ عَلَى ذَلِكَ مَدَّةٌ طَوِيلَةٌ دَخَلَ عَلَى أَبِي الْحَسَنِ بْنِ الْفِرَاتِ رَجُلٌ ذُو هَيْئَةٍ مَقْبُولَةٍ وَبِزَّةٍ جَمِيلَةٍ، وَأَقْبَلَ بِدَعْوِ لَهُ وَيُنْتِنِي عَلَيْهِ وَيَبْكِي وَيُقْبَلُ الْأَرْضَ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ الْفِرَاتِ: مَنْ أَنْتَ بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ! - وَكَانَتْ هَذِهِ كَلِمَتَهُ - فَقَالَ: صَاحِبُ الْكِتَابِ الْمَزُورِ إِلَى أَبِي زُنْبُورِ، الَّذِي صَحَّحَهُ كَرَمُ الْوَزِيرِ وَتَفَضَّلَهُ، فَعَلَّ اللَّهُ بِهِ وَصَنَعَ، فَضَحَكَ ابْنُ الْفِرَاتِ، وَقَالَ: كَمْ وَصَلَ إِلَيْكَ مِنْهُ؟ قَالَ: وَصَلَ إِلَيَّ مِنْ مَالِهِ وَمِمَّا قَسَطَهُ عَلَى عُمَّالِهِ وَعَمَلِيٍّ صَرَفْتِي فِيهِ، عَشْرُونَ أَلْفَ دِينَارٍ، فَقَالَ ابْنُ الْفِرَاتِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، الْزَمْنَا، فَإِنَا نَعْرُضُكَ لِمَا يَزِدَادُ بِهِ صَلَاحُ حَالِكَ، ثُمَّ اخْتَبَرَهُ فَوَجَدَهُ كَاتِبًا مُبِينًا، فَاسْتَخْدَمَهُ وَأَكْتَسَبَهُ مَا لَا جَزِيلًا...

قِرَى الأضياف

وهناك لون من ألوان الجود، لقد أكثروا فيه القول وافتنوا، وأطالوا في التفاخر به والإشادة بمحاسنه، وجعلوه عنوان الكرم والنجدة والمروءة ووضَعُوا له آداباً ودساتير. ذلك هو قِرَى الأضياف، ونحن فإننا نختار دَرَواً من عقرياتهم في هذا المعنى. وفيما يتأشب إليه وَيَنْشَعِبُ منه والله المستعان ...

معنى قِرَى الضيف: قال علماء اللغة: يقال: قَرَى الضيفَ قِرَى وقَرَأَ: أضافه وأحسن إليه، واستقراني واقراني وأقراني: طلب مني القِرَى، وإِنَّه لَقِرَى للضيف، والآثى قِرِيَّة، وكذلك: إِنَّه لَمَقْرَى للضيف ومِقْرَاء، والآثى مِقْرَاءة ومِقْرَاء ...

وأما بعد، فقد قلنا في البخل إِنَّه جَمِيلَةٌ وإِنَّه الأصلُ وإِنَّ الناسَ لقد حَلِقُوا ببخله، إلى آخر ما قلنا صَدَرَ هذا الباب، وهذا الذي قلنا يقال في قِرَى الأضياف، وأن الأصل هو البُخْلُ بالقِرَى؛ فلنورد عليك شيئاً مما قالوا في البخل بالقِرَى ثم نردفه بالقول على الجود بالقِرَى وحثهم عليه، والكلام يدخل بعضه في بعض .

طَرَفٌ مِنْ مُلِحِهِمْ فِي ذَلِكَ: قال بعض البخلاء لغلامه: هَاتِ الطَعَامَ، وَأَغْلِقِ البَابَ، فقال الغلام: يا مولاي، ليس هذا بجزم! وإِنَّمَا أُغْلِقُ البَابَ، وَأُقَدِّمُ الطَعَامَ، فقال له: أَنْتَ حُرٌّ لَوَجْهَ اللَّهِ... وطبخ بعض البخلاء قِدْرًا، وجلس يأكلُ مع زوجته فقال: مَا أَطْيَبَ هذا الطَعَامَ لَوْلَا كَثْرَةُ الرِّحَامِ! فقالت: وَأَيُّ رِحَامٍ وَمَا نَمَّ إِلَّا أَنَا وَأَنْتَ! قال: أَحِبُّ أَنْ

أكون أنا والفِدر... وعَزَمَ بعضُ إخوانِ أشعَبَ عليه ليأكلَ عنده، فقال: انِّي أخاف من ثَقِيلٍ يأكلُ مَعَنَا فَيَنْغُصُ لَذَّتَنَا، فقال: ليسَ عندي إلا ما يُحِبُّ، فمَضَى معه، فبينما هما يأكلان، إذا بالبَابِ قد طُرِقَ، فقال أشعَبُ: ما أَرَانَا إلا قد صِرْنَا لِمَا نَكْرَهُ، فقال صاحبُ المنزل: إنَّه صديقٌ لي: وفيه عَشْرُ خِصَالٍ: إنْ كَرِهْتَ مِنْهَا وَاحِدَةً لَمْ آذَنْ لَهْ، قال أشعَبُ: هَاتِ، قال: أوَّلُهَا أَنَّهُ لَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ، فقال: التَّسْعُ لَكَ وَدَعَهُ يَدْخُلُ، فقد أَمِنَّا مِنْهُ ما نَخَافُهُ... وأكلَ رجلٌ مع بعضِ البِخلاءِ، وكان على مائدته أرغفةٌ ههنا وهناك، فلما فرغَ من رَغيفِهِ قال: يا غلامُ، قَرَيْبِي، فقال الداعيُ البَخيلُ: وما تصنعُ به؟ قال: أَرَكْبُهُ إلى ذلك الرغيفِ... وَحَدَّثَ أَبُو نُؤَاسٍ قال: قلتُ لرجلٍ من أهلِ خراسانَ: لِمَ تَأْكُلُ وَحَدِّكَ؟ قال: ليسَ عَلَيَّ في هَذَا الموضعِ سَؤالٌ، إنما السَؤالُ على مَنْ أَكَلَ مع الجماعةِ، لأنَّ ذاكَ تَكَلَّفٌ، وأَكَلِي وَحْدِي هو الأَكْلُ الأَصْلِيُّ... وأضافَ رَجُلٌ أَعْرَابِيًّا، فلم يَأْتِهِ بِشَيْءٍ يَأْكُلُهُ حَتَّى غَشِيَ عَلَيْهِ مِنَ الجُوعِ، فأخَذَ يَقْرَأُ عَلَيْهِ القُرْآنَ، فقال:

لَحْسَبُزُ يَا أَحْيَى عَلَيْهِ لَحْمٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ حَسَنِ القُرْآنِ
تَظَلُّ تُذْهِدُهُ القُرْآنَ حَوَلِي كَأَنِّي مِنْ عَفَارِيثِ الزَّمانِ

وقيل للجمَّاز: مَنْ يَحْضُرُ مائِدَةَ فلان؟ فقال: أَكْرَمُ خَلْقِ اللهِ: الكُراهُ الكاتِبونَ... واصطَحَبَ رَجُلانِ فقال أحدهما للأخر: تعالَ حَتَّى نَأْكُلَ مَعاً، فقال: مَعِيَ خَبِزٌ ومَعَكَ خَبِزٌ، فلو لا أَنَّكَ تريدُ الشَّرَّ لَأَكَلْتَ وَحَدِّكَ... وقيل لآخر: أَلَا تَأْكُلُ مَعَنَا؟ فقال: الجماعةُ بجماعةٍ... ودَخَلَ على ابنِ لِرْجُلٍ مِنَ الأَشْرَافِ داخِلٌ وَبين يَدَيْهِ فراريجٌ، فغَطَّى الطَّبَقَ بِمِنْدِيلِهِ وأدخَلَ رأسَهُ في جَبِيهِ وقال للداخلِ عليه: كُنْ في الحُجْرَةِ الأخرى حَتَّى

أَفْرَعٌ مِنْ بَحُورِي ... وَدَخَلَ رَجُلٌ عَلَى رَجُلٍ يَوْمًا وَالْمَائِدَةُ مَوْضُوعَةٌ
وَالْقَوْمُ يَأْكُلُونَ وَقَدْ رَفَعَ بَعْضُهُمْ يَدَهُ ، فَمَدَّ يَدَهُ لِيَأْكُلَ ، فَقَالَ : أَجْهَزُ عَلَى
الْجِرْحَى ، وَلَا تَتَعَرَّضُ الْأَصْحَاءُ ... « يريد : كُلُّ مَا كُسِرَ وَنِيلَ مِنْهُ وَلَا
تَعْرِضُ إِلَى الصَّحِيحِ ، وَرَأَى رَجُلٌ الْحَطِيئَةَ - الشَّاعِرُ الْمُخَضَّرُ الْعَبْقَرِيُّ اللَّثِيمُ -
وَيَدُهُ عَصَا فَقَالَ : مَا هَذِهِ ؟ قَالَ : عَجْرَاءٌ مِنْ سَلَمٍ ^(١) ، قَالَ : إِنِّي ضَيْفٌ ، قَالَ :
لِلضَّيْفَانِ أَعْدَدْتُهَا ... وَوَصَفَ أَعْرَابِيٌّ قَوْمًا فَقَالَ : أَلْعَوْا مِنَ الصَّلَاةِ الْأَذَانِ ،
مَخَافَةَ أَنْ تَسْمَعَهُ الْأَذَانُ ، فَيَهْلَ عَلَيْهِ الضَّيْفَانُ ... وَفِي هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ شَاعِرٌ :
تَرَأْتُمْ حَشِيئَةَ الْأَضْيَافِ حُرْسًا يقيمون الصلاة بلا أذانٍ

* * *

وَكَانُوا يَعُدُّونَ أَنَّ بَيْتَ الرَّجُلِ سَبْعَانٌ وَجَارُهُ جَوْعَانٌ ، عَارًا وَسَنَارًا
وَلَوْ مَا رَنَدَالَةٌ ، وَيَتَهَاجُونَ بِذَلِكَ ، وَأَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي هَذَا قَوْلُ الْأَعشى -
ميمون بن قيس - فِي عِلْقَمَةَ بْنِ عِلَانَةَ :

تَبِيئُونَ فِي الْمَشَى مِلَاءً يُطُونُكُمْ وَجَارَاتِكُمْ غَرَّتْنِي يَبِينُ خَمَائِصًا ^(٢)
وَقَوْلُ بَشَارِ بْنِ بُرْدٍ :

وَضَيْفٌ عَمِرُوا وَعَمِرُوا يَسْهَرَانِ مَعًا عَمِرُوا لِبِطْنَتِهِ وَالضَّيْفُ لِجُوعِ
وَقَالَ شَاعِرٌ :

وَجِيرَةٌ لَا تَرَى فِي النَّاسِ مِثْلَهُمْ إِذَا يَكُونُ لَهُمْ عِيدٌ وَإِفْطَارُ
إِنَّ بُوقِدُوا يُوسِعُونَنا مِنْ دُخَانِهِمْ وَليْسَ يَبْلُغُنَا مَا تُنْضِجُ النَّارُ

* * *

وَمِنْ مَاجِهِمْ فِيمَنْ لَا يُظْفَرُ بِحُبِّهِ . قَوْلُ أَبِي نُوَّاسٍ :

(١) العجراة : العصا التي فيها أبن - عقدة - ، والسلم : شجر

(٢) رَوَوْا أَنَّ عِلْقَمَةَ لَمَّا سَمِعَ هَذَا الْبَيْتَ قَالَ : فَضَحَنِي وَانْتَهَى ، اللَّهُمَّ أَخْزِهِ إِنْ لَمْ

يَكُنْ صَادِقًا ، وَغَرَّتْنِي : جَائِعَاتٌ ، وَمِثْلُهُ خَمَائِصُ

وما خُبزُهُ إِلَّا كَعَنْقَاءِ مُغْرِبٍ ^(١) مُتَّوَرٌ فِي بُسْطِ الْمَلُوكِ وَفِي الْمَثَلِ

وقال الآخر :

قَدْ فَرَّ مِنْ مَنَزِلِهِ فَأَرُهُ وَعَاذَ بِالْجِيرَانِ مَرْتَقَا

وهذا من قول امرأة لزوجها : والله ما يقيم الفأر في دارك إلا لحب الوطن ، وقد تقدم آنفا ... وقيل لبخيل : إنك تُكْرِمُ خبزَكَ وَهَيْنُ لِإِكْرَامِهِ نَفْسُكَ ! فقال : كيف لا أفعل ذلك والخبز هو الذي أخرج آدم وحواء وإبليس والطاوس من الجنة ... وتعدى الجواز عند هاشمي ، فرمى الغلام بصحفة تقطر منها قطرة على ثوب الجواز ، فقال الهاشمي : آتته بطست يغسلها ، فقال الجواز : دعه ، فرمىكم لا تُغَيِّرُ الثِّيَابَ ... يريد : لا دسمَ فيها

تفاخرهم بالإحسان إلى الضيف والجار : ولأنهم يعدُّون شِيعَ المرء وجارُه جائع ، عارا - كما تقدم - تراهم يتفاخرون بإكرام الضيف والجار ، ومن أحسن ما قيل في ذلك قول عروة بن الورد :

وإني امرؤ عافٍ إنائي شِرْكَةٌ وَأنت امرؤ عافٍ إنائك واحدٌ

(١) عنقاء مغرب وعنقاء مغرب . وعنقاء مغربة : طائر معروف الاسم مجهول الجسم ، قال ابن الكلبي : كان لأهل الرس نبي يقال له حنظلة بن صفوان ، وكان بأرضهم جبل يقال له دحج مصعده في السماء ميل ، فكان ينتابه طائفة كأعظم ما يكون لها عنق طويل ، من أحسن الطائر ، فيها من كل لون ، وكانت تقع منقضة فكانت تنقض على الطائر فتأكلها فجاءت وانقضت على صبي فذهبت به فسميت عنقاء مغربا لأنها تغرب - تبعد - بكل ما أخذته ، ثم انقضت على جارية ترعرعت وضمتهما إلى جناحين لها صغيرين سوى جناحيها الكبيرين ، ثم طارت بها فشكوا ذلك إلى نبيهم ، فدعا عليها فساط الله عليها آفة فهلكت ، فضربتها العرب مثلا في أشعارها ويقال : أوت به العنقاء المغرب ، وطارت به العنقاء ...

أَقْسَمُ جِسْمِي فِي جَسُومٍ كَثِيرَةٍ وَأَحْسُو قَرَّاحَ الْمَاءِ وَالْمَاءَ بَارِدُ
 « العاقى : طالب المعروف ، يريد بالبيت الأول : أنه ليس من شرار
 الناس يأكل وحده ، وقوله : والماء بارد : كنى بذلك عن تحمله ضرر نفسه
 وعبارة بعض الشراح : يقول عروة : إن قُوَّتَهُ الَّذِي هُوَ قِوَامَ رَمَقِهِ وَمُقِيمِ
 جِسْمِهِ ، يَطْعَمُهُ وَيُؤَثِّرُ بِهِ عَلَى نَفْسِهِ ، وَأَنَّهُ عِنْدَ الْجَهْدِ وَشِدَّةِ الزَّمَانِ يَحْسُو
 الْمَاءَ وَيَسْقِي اللَّبْنَ ، فَإِنَّمَا رَغْبَةُ الْجِرَادِ فِي الْمَالِ لِيَهَبَهُ ، وَطَلَبُهُ لَهُ لِيُهَيِّبَهُ . »
 وفي هذا المعنى يقول مسكين الدارمي - وهو شاعر شجاع من أهل العراق
 كان في زمن معاوية بن أبي سفيان - :

إِنِّ أَدْعُ مِسْكِينًا فَمَا قَصَرْتُ قَدْرِي بِيُوتِ الْحَيِّ وَالْجُدْرُ (١)
 مَامَسَ رَحْلِي الْعَنْكَبُوتُ وَلَا جَدِيَاتُهُ مِنْ وَضَعِهِ غُبْرُ (٢)
 لَأَأْخُذُ الصَّنِيَانَ أَلْتَمُهُمْ وَالْأَمْرُ قَدْ يُغْزَى بِهِ الْأَمْرُ (٣)
 وَلَرُبَّ أَمْرٍ قَدْ تَرَكَتُ وَمَا بَيْنِي وَبَيْنَ لِقَائِهِ سِتْرُ
 لَا يَرْهَبُ الْجِيرَانَ عَدْرَتَنَا حَتَّى يُوَارِي ذِكْرَنَا الْقَبْرُ

(١) قوله فما قصرت قدرى الخ : فبيوت فاعل قصرت ، يقول : إن قدرى بارزة
 لاتحجبها السواتر والحيطان ، يصف نفسه بأنه مضياف جواد محسن إلى جيرانه
 (٢) قوله مامس رحلي العنكبوت الخ : كناية ، مليحة عن مواصلته السير لأن
 العنكبوت إنما ينسج على مالا تناله الأيدي ولا يكبر استعماله ، والجديات جمع جدية
 بسكون الدال وهي باطن دقة الرجل ، يقول : إن جديات رحله ليست غبراء
 لكثرة ترحاله

(٣) يقول : لأقبل الصبي وأنا أريد التعرض لأمه ، وما أحلى قوله : والأمر قد
 يغزى به الأمر . ويغزى : يقصد ، ومثل هذا قول عقيل بن علفة :

وَلَا أَلْقِي لِذِي الْوَدَاعَاتِ سَوَاطِي الْأَعْبَهُ وَزَلَّتْهُ أَرِيدُ
 وزلته يروى وغزته يروى وربيته ، والأعبه يروى لآلهيه . وللشعراء في هذا المعنى
 كثير ، وهو معنى يدل على أن العرب غاية في الفطنة ودقة الملاحظة وأنهم لاتخذعهم

لَسْنَا كَأَفْوَامٍ إِذَا كَلَّحَتْهُ إِحْدَى السَّنِينِ فِجَارُهُمْ تَمْرٌ (١)
 مَوْلَاهُمْ لَحْمٌ عَلَى وَضْمٍ (٢) تَنْتَابُهُ الْعِقْبَانُ وَالنَّسْرُ
 نَارِي وَنَارُ الْجَارِ وَاحِدَةٌ وَإِلَيْهِ قَبْلِي تُنْزَلُ الْقِدْرُ (٣)
 مَاضَرَ جَارِي إِذْ أَجَاوَرُهُ أَنْ لَا يَكُونَ لَبِيَّتِهِ سِتْرُ
 أَعَشَى إِذَا مَا جَارَتِي تَحَرَّجْتُ حَتَّى يُوَارِي جَارَتِي الْحِذْرُ (٤)
 وَيَضْمُ عَمَّا كَانَ بَيْنَهُمَا سَمِعِي وَمَا بِي غَيْرُهُ وَقُرٌ (٥)

ظواهر الأمور عما تخفى وراءها . وغواة الناس إلى يومنا هذا قد استغلوا هذا المعنى استغلالا مكشوفاً قبهم الله .

(١) فجارهم تمر : أى يستحلى الغدر به كما يستحلى التمر

(٢) الوضم : خشبة الجزار التى يقطع عليها اللحم ، وتركهم لحما على وضم : أى أذلم

(٣) يروى أنه كان لمسكين هذا امرأة تماضه - تلاحيه وتنازعه - فلما قال : نارى

ونار الجار واحدة قالت له : أجل ، إنما ناره و نارك واحدة لأنه أوقدولم ترقد ، والقدر

تنزل إليه قبلك ، لأنه طبخ ولم تطبخ وأنت تستطعمه ، ولما قال أن لا يكون لبيته ستر

قالت له : أجل ، إن كان له ستر هتكته

(٤) من دقائق هذه اللغة ما قاله صاحب الكشاف فى تفسير قوله تعالى : ومن يعش

عن ذكر الرحمن ، قال : بضم الشين وفتحها ، والفرق بينهما أنه إذا حصلت الآفة فى

بصره قيل عَشَى - أى والمضارع يعشى ، وإذا نظر نظر العشى ولا آفة به قيل عشا -

والمضارع يعشو - ونظيره عرج لمن به آفة وعرج لمن مشى مشية العرجان من غير

عرج قال الخطيئة :

مَتَى تَأْتِيهِ تَعَشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ تَجِدُ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرٌ مَوْقِدٍ

أى تنظر إليها نظر العشى لما يضعف بصرك من عظم الوقود واتساع الضوء ، فعنى

الفتح : ومن يعم عن ذكر الرحمن وهو القرآن ، وأما القراءة بالضم فعناها ومن يتعام

عن ذكره ، أى يعرف أنه الحق وهو يتجاهل ويتغابى . (٥) الوقر : الثقل فى الأذن

وصية بخيل لابنه

وهاك وصية بخيل لابنه أراد بها أن ينصَح ابنه بالتقليل من الطعام، شحاً وكزازة، ولكنه أودعها على الرغم منه نصائح قيمة يَجْمَلُ أن تُتَّخَذَ دُستوراً في الطعام لمن أراد أن يصحَّ ويُعافى، فهي حقُّ أريد بها باطل، ومن ثم اخترناها، وهي وصية جاحظية أوردها الجاحظ في كتابه البخلاء ونسبها إلى رجل يسمى أبا عبد الرحمن الثَّوري كان يحب الرؤس - رؤس الضأن وغير الضأن - قال الثوري لابنه - :

إياك وَتَهَمَّ الصَّيَّانُ^(١)، وَشَرَّةَ الزَّرَّاعِ^(٢)، وَأَخْلَاقَ النُّوَاخِ^(٣) وَدَعَّ عَنكَ خَبْطَ الْمَلَّاحِينَ وَالْفَعْلَةَ^(٤) وَنَهَشَ الْأَعْرَابِ وَالْمَهْنَةَ^(٥). وَكُلْ مَا بَيْنَ يَدَيْكَ؛ فَإِنَّمَا هُوَ حَقُّكَ الَّذِي وَقَعَ لَكَ، وَصَارَ أَقْرَبَ إِلَيْكَ؛ وَأَعْلَمَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ فِي الطَّعَامِ شَيْءٌ طَرِيفٌ، وَلُقْمَةٌ كَرِيمَةٌ، وَوَضْعَةٌ شَهِيَّةٌ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ لِلشَّيْخِ الْمُعْظَمِ، وَالصَّبِيِّ الْمُدَلَّلِ. وَاسْتِ وَاحِداً مِنْهُمَا. فَأَنْتَ قَدْ تَأْتَى الدَّعْوَاتِ

- (١) النهم: إفراط الشهوة في الطعام (٢) الشره: غلبة الحرص على الطعام. وإنما خص شره الزراع لأنهم أهل كد ونصب وحركة فيشرهون إلى الطعام لفرط ما يبذلون من قواهم البدنية (٣) النوائح جمع نائحة: اسم يقع على النساء يجتمعن في مناحة، ولعله يريد أن النوائح ينحن ما ينحن فإذا حضر الطعام أقبلن عليه شرهات ونسبن ما كن فيه من بكاء وعويل (٤) الملاح: نوق السفينة، والخبط: السير على غير هدى، والفعله: عملة الطين ونحوه. يقول: لا تذهب في الطعام على غير هدى. كالملاحين، ولا تكن عنيفاً في أكلك كما تفعل الفعلة (٥) يقول: لا تنهش اللحم كما ينهش الأعراب الجفأة وكما ينهش المهنة: جمع ما هن، وهو العبد الخادم

والولائم، وتَدْخُلُ منازلَ الإخوانِ، وعهدك باللحم قريب. وإخوانك أشدُّ قَرَمًا إليه منك، وإنما هو رأس واحد، فلا عليك أن تتجافى عن بعض وتُصِيبَ بعضاً. وأنا - بعدُ - أكره لك الموالاةَ بين اللحم، فإن الله يُبْغِضُ أَهْلَ البيتِ اللَّحْمِيِّينَ^(١) وكان يقول: إياكم وهذه المجازير فإن لها ضراوة كضراوة الخمر^(٢) وكان يقول: مُدْمِنُ اللحمِ كمدْمِنِ الخمر. وقال الشيخ - ورأى رجلاً يأكلُ اللحمَ، فقال: لحمٌ يأكلُ لحمًا... أفٍ لهذا عملاً

وقال الأول: أهلك الرجالَ الأحمرانِ: اللحمُ والخمرُ، وأهلك النساءَ الأحمرانِ الذهبُ والزعفران^(٣)... أى بُنى، عَوْدُ نَفْسِكَ الأثرَة^(٤)، ومجاهدة الهوى والشهوة.^(٥) ولا تنهش نهش الأفاعى، ولا تخضم تخضم البراذين^(٦)، ولا تديم الأكل إدامة النعاج، ولا تلتقم لقم الجبال، إن

(١) هذا حديث أورده ابن الأثير في النهاية هكذا: إن الله ليُبغِضُ أهل البيت للحمين، قيل هم الذين يكثرون أكل لحوم الناس بالغيبة: وقيل: هم الذين يكثرون أكل اللحم ويدمنونه، وهو أشبه...

(٢) في اللسان: وفي حديث عمر: اتقوا هذه المجازير فإن لها ضراوة كضراوة الخمر، أراد مواضع الجزارين التي تنحدر فيها الإبل وتذبح البقر والشاة ويباع لحانها وإنما ناهم عنها لأنه كره لهم إدمان أكل اللحوم، وجعل لها ضراوة كضراوة الخمر، أى عادة كعادتها، لأن من اعتاد أكل اللحوم أسرف في النفقة فجعل العادة في أكل اللحوم كالعادة في شرب الخمر، لما في الدوام عليها من السرف في النفقة والفساد

(٣) فالذهب للحلية والزعفران للتطيب

(٤) الأثرَة: اسم مصدر من أثر يثر إثثاراً، أى عود نفسك أن تؤثر غيرك على نفسك (٥) ومجاهدة الخ: إما أنه يريد المعنى العام وإما يريد: لا تطلق لنفسك العنان فيما تشبهه وتمواه من ألوان الطعام (٦) الخضم: الأكل بجميع الفم والبراذين: جمع برذون كفرعون وهو من الخيل العظيم الخلق الجافها الغليظ الأعضاء

اللَّهُ قَدْ فَضَّلَكَ ، لِعَمَلِكَ إِنْسَاناً ؛ فَلَا تَجْعَلْ نَفْسَكَ بَهِيمَةً وَلَا سَبُعًا ، وَاحْذَرِ
سُرْعَةَ الْكِبْطَةِ ^(١) ، وَسَرَفَ الْبِطْنَةِ ، وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْحِكَمَاءِ : إِذَا كُنْتَ بَطِينًا
فَعَدَّ نَفْسَكَ فِي الزَّمَنِ ^(٢) . وَقَالَ الْأَعَشَى :

• وَالْبِطْنَةُ مِمَّا تُسْفَهُ الْأَحْلَامَ ^(٣) •

وَاعْلَمْ أَنَّ الشَّبَعَ دَاعِيَةُ النَّشْمِ ^(٤) ، وَأَنَّ النَّشْمَ دَاعِيَةُ السَّقَمِ ، وَأَنَّ السَّقَمَ
دَاعِيَةُ الْمَوْتِ . وَمَنْ مَاتَ هَذِهِ الْمِيئَةَ فَقَدْ مَاتَ مِيئَةَ ثَمِيمة . وَهُوَ قَاتِلُ نَفْسِهِ ،
وَقَاتِلُ نَفْسِهِ أَلْوَمٌ مِنْ قَاتِلِ غَيْرِهِ ^(٥) أَيْ بُنَى ، إِنَّ الْقَاتِلَ وَالْمَقْتُولَ فِي النَّارِ ^(٦)
وَلَوْ سَأَلْتَ حُذَّاقَ الْأَطْبَاءِ لِأَخْبِرُوكَ أَنَّ عَامَّةَ أَهْلِ الْقُبُورِ إِنَّمَا مَاتُوا بِالنَّشْمِ
وَاعْرِفْ خَطَأً مَنْ قَالَ : أَكَلْتُ وَمَوْتُهُ أُؤْخَذُ بِقَوْلٍ مِنْ قَالَ : رَبِّ أَكَلْتِ تَمْنَعُ
أَكْلَاتِ ^(٧) . وَقَدْ قَالَ الْحَسَنُ - الْبَصْرِيُّ - : يَا بَنَ آدَمَ كُلْ فِي ثَلَاثِ بَطْنِكَ ، وَاشْرَبْ فِي
ثَلَاثِ بَطْنِكَ ، وَدَعْ الثُّلُفَ لِلتَّفْسُكِ وَالتَّنْفَسِ . وَقَالَ بَكْرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْمُرَزِيُّ ^(٨) :
مَا وَجَدْتُ طَعْمَ الْعَيْشِ حَتَّى اسْتَبَدَلْتُ الْخُمُصَ بِالْكِبْطَةِ ^(٩) ، وَحَتَّى لَمْ أَلْبَسْ مِنْ

(١) الكبظة : الامتلاء من الطعام ، وسرعة الكبظة أن يسرع إليه الامتلاء وهو لا يزال
يتناول الطعام فيتفاقم عاياه الأمر

(٢) البطين : عظيم البطن من كثرة ما يأكل . والزمنى : ذور العاهات الذين يدوم
مرضهم زمناً طويلاً (٣) الاحلام : العقول وتسفه الاحلام : تطيشها والبيت :

يَا بَنِي الْمُنْذِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَالْبِطْنَةُ مِمَّا تُسْفَهُ الْأَحْلَامَ

(٤) البشم : التخممة من كثرة الأكل (٥) ألوم من قاتل غيره : أحق منه

بأن يلام (٦) يقول : إن من مات بالتخممة فقد قتل نفسه فهو قاتل ومقتول في
وقت معاً فهو في النار على رأيه

(٧) أى لما ينشأ عنها من الأمراض (٨) كان من أفاضل التابعين صالحاً

عتيقاً قال الجاحظ : وكانوا إذا ذكروا البصرة قالوا : شيخنا الحسن وقتاها بكر ...

مات سنة ١٠٨ هـ (٩) الخمص : الجوع أى حتى اتخذت الجوع بدل الكبظة

ثيابي ما يستخدمني^(١)، وحتى لم آكل إلا ما لا أغسل يدي منه ! يا بُنَيَّ، والله ما آدى حقَّ الرُّكوع ، ولا وظيفة السجود، ذر كِظَّة، ولا خَشَعَ لهُ ذو بطنه^(٢)، والصوم مَصْحَةٌ^(٣)، والوَجَبَاتُ عيش الصالحين^(٤)، ثم قال : لا مَرِيماً^(٥)، طالَت أعمارُ الهند^(٦)، وَصَحَّتْ أبدانُ الأعراب . لهُ دَرُّ الحارث بن كَلْدَةَ^(٧)، حين زعم أن الدواء هو الأزم^(٨)، وأن الداء هو إدخال الطعام في أثر الطعام ! أى بُنَيَّ لِمَ صَفَّتْ أذهان العرب؟ ولم صدَقَتْ أحساسُ الأعراب^(٩) ولم صَحَّتْ أبدان الرُّهبان ، مع طول الإقامة في الصوامع؟ وحتى لم تَعْرِفَ النَّقْرَسَ، ولا وِجَعَ المفاصل، ولا الأورام؛ إلا لقَلَّةِ الرُّزْءِ^(١٠) من الطعام، وخِيفَةَ الرِّادِ، والتبْلُغَ باليسير^(١١)

أى بُنَيَّ، إن نسيم الدنيا وروح الحياة^(١٢) أفضل من أن تبيت كظيظا ،

(١) يستخدمنى : أى يجدانى خادما له أى بالمحافظة عليه ، لانه ثمين
(٢) يقول : إن الممتلى طعاما لا يمكن أن يركع فى الصلاة تمام الركوع ولا أن يسجد تمام السجود ، والخشوع وتفريغ القلب لله تعالى لا يكون مع النخمة والعناء منها
(٣) مصحة : يصح عليه (٤) الوجبات جمع وجبة وهى الأكلة الواحدة فى اليوم والليلة

(٥) لا مريما : أى لا مري عظيم (٦) أى أعمار أهاها (٧) طيب العرب سافر إلى فارس وتعلم هناك الطب واشتهر فيه ونال به مالا وأدرك الإسلام
(٨) أزم ، من باب ضرب : أمسك عن المطعم والمنشرب روى أن عمر بن الخطاب سأل الحارث بن كلدَةَ عن الطب ، فقال : هو الأزم ، يعنى : الحمية
(٩) الأحساس جمع حس وهو الشعور بالشئ (١٠) الرزء هنا : ما يصيب الإنسان من طعام (١١) التبليغ باليسير : الاكتفاء به (١٢) روح الحياة : راحتها وما يستروح إليه

وأن تكونَ لِقِصْرِ العُمَر حليفاً . وكيف لا ترغب في تدبيرٍ يجمعُ لكِ صحَّةَ البدنِ ، وذكاءَ الذَّهْنِ ، وصلاحَ المَعَى ، وكثرةَ المالِ ، والقُرْبَ من عيشِ الملائكةِ^(١) ؟ أى بنى ، لم صار الضُّبُّ أطولَ شيءٍ عُمرًا ؛ إلا لأنه إنما يعيش بالنَّسِيمِ^(٢) ؟ ولم قال الرسولُ صلى الله عليه وسلم إن الصومِ وِجاءٌ^(٣) ، إلا ليُجعلَ الجوعَ حِجَازًا دونَ الشَّهواتِ . أى بنى . قد بلغتُ تسعينَ عامًا ما نغضُّ لى^(٤) سِنَّ ، ولا تحركُ لى عَظْمٌ^(٥) ، ولا انتشرَ بى عَصَبٌ^(٦) ، ولا عرفتُ ذنِينَ أنفٍ^(٧) ، ولا سيلانَ عَيْنٍ^(٨) ، ولا سَلَسَ بُولٍ^(٩) ، ما لذلكِ عِلَّةٌ إلا التَّخْفِيفُ مِنَ الزَّادِ . فإن كنتِ تُحِبُّ الحَيَاةَ فهذه سبيلُ الحَيَاةِ ، وإن كنتِ تُحِبُّ المَوْتَ ، فلا يُبْعِدُ اللهُ إلا مَنْ ظَلَمَ .



بخيل يبيع القرى

ونزل جريرٌ - الشاعر الإسلامى الأشهر - بقوم من بنى العنبر بن عمرو ابن تميم فلم يقرؤهُ ، حتى اشترى منهم القرى ، فانصرف وهو يقول :

(١) إذ هم : لا يأكون ولا يشربون (٢) كون الضب لا يعيش إلا بالنسيم ولا يأكل ألبتة غير صحيح ولكن الثورى نقل خرافة قديمة (٣) وِجاء : مانع من الشهوات

(٤) نغض : اضطرب وتحرك ويروى نقص (٥) لعله يريد بالتحرك الالتواء كحديداب الظهر (٦) الانتشار : الانتفاخ فى العصب للإتعاب (٧) الذنبن : المخاط الرقيق الذى يسيل من الأنف ويروى ذنبن أذن والذنبن صوت الذباب ونحوه من هيمة الكلام الذى لا يفهم والمراد ما يشبه هذا الصوت فى الأذن من الكبر (٨) هو ما يحدث فى الكبر من ضعف العينين فتسيل منها دموع وسوائل أخرى (٩) سلس البول : استرساله وعدم استمساكه لحدوث مرض بصاحبه

يَا مَالِكُ ابْنَ طَرِيفٍ إِنَّ بَيْعَكُمْ رَفَدَ الْقَرَى مُفْسِدٌ لِلدِّينِ وَالْحَسْبِ
 قَالُوا تَدْبِعُكَ بَيْعًا فَقُلْتُ لَهُمْ بِيَعُوا الْمَوَالِيَّ وَاسْتَحْيُوا مِنَ الْعَرَبِ
 لَوْلَا كِرَامُ طَرِيفٍ مَا عَقَرْتُ لَكُمْ بَيْعِي قِرَايَ وَلَا أَنْسَأْتُكُمْ غَضَبِي
 هَلْ أَنْتُمْ غَيْرُ أَوْشَابٍ زَعَانِفَةٍ رِيْسِ الذَّنَابِيِّ وَبِلسِ الرَّأْسِ كَالذَّنَبِ

«قوله: بيعوا الموالي واستحيوا من العرب، قال المبرد: تزعم الرواة: أن جِلَّةَ المَوَالِي - عُظَمَاءَهُمْ - أَتَفُّوا مِنْ هَذَا الْبَيْتِ ، لِأَنَّهُ حَطَّهْمُ وَوَضَعَهُمْ وَرَأَى أَنْ الْإِسَاءَةَ إِلَيْهِمْ غَيْرُ مُحْسَبَةٍ عَمِيًّا... وقوله: ولا أنسأتكم غضبي، يقول: لم أؤخره عنكم، وقوله: هل أنتم غير أوشاب زعانفة، فالأشابة الجماعة تدخل في قوم وليست منهم وقد تطلق الأوشاب على أخلاط الناس تجتمع من كل أوب، مأخوذ من أشب الشيء كضرب. خلطه، وأما الزعانف فأصلها أجنحة السمك، سُمِّيَ بِذَلِكَ الْأَدْعِيَاءُ لِأَنَّهُم النَّصَقُوا بِالصَّمِيمِ كَمَا النَّصَقَتْ تِلْكَ الْأَجْنَحَةُ بِعِظَامِ السَّمَكِ،

عبقرياتهم في قرى الأضياف

قال الله جلَّ شأنه في مدح قوم: وَيَطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا... وقال سيدنا رسول الله: أَيُّمَا رَجُلٍ ضَافٍ قَوْمًا فَأَصْبَحَ الضَّيْفُ مُحْرَمًا، فَإِنْ نَصَرَهُ حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ حَتَّى يَأْخُذَ بِقَرَى لَيْلَتِهِ مِنْ زَرْعِهِ وَمَالِهِ (١)...

(١) قال الإمام العلقمي: قال شيخنا: هذا الحديث وما هو بسبيل منه كان في أول الأمر حين كانت الضيافة واجبة، وقد نسخ وجوبها. أقول: وعلى أنه نسخ وجوبها فلا تزال معدودة في باب الفضائل الإنسانية المرغوب فيها والمثاب عليها والذالة على المنجزة البازة الكريمة

وفي الحديث أيضا : الخَيْرُ أَسْرَعُ إِلَى مُطْعِمِ الطَّعَامِ مِنَ الشَّفْرَةِ فِي سَنَامِ
 البعير « الشَّفْرَةُ : السكين العظيمة العريضة » وقال صلوات الله عليه : ليس
 منا من بات شبعاَنَ وَضَيْفُهُ بَطْنُهُ طَاو . وقال تعالى في مدح القائم بخدمة
 ضيفه : هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ؟ قيل وصفهم بذلك لأنه
 قام بخدمتهم بنفسه ... ونزل ضيف على جعفر بن أبي طالب ، فتحقق هو
 وغلماؤه عند نزوله وعاونوه في حملوله ، فلما أراد الارتحال عنهم لم يُعْضِه
 غلماؤه ، فشكاهم فقال : إن غلماننا لا يعينون على الارتحال ... وقالوا : أمدح
 بيت قالته العرب قولُ حسان بن ثابت :

يُخْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهْرُ كَلَابُهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ
 « يقول : قد أنست كلابهم بالزوار فهي لا تنبئهم ، وهم من شجاعتهم
 لا يسألون عن جيش يقبل نحوهم لقله اكترائهم ولثقتهم ببسالة أنفسهم
 وشدتهم على أعدائهم ، ومثل هذا قول أبي تمام :

إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم لآية حرب أو لآي مكان
 أو تقول : لا يسألون عن السواد المقبل ، أي أنهم في سعة لا يهولهم الجمع
 الكثير ، لسعتهم وسخائهم »

وقال إبراهيم بن هرمة من أبيات في ابتهاج الكلب بالضيف :
 يكاد إذا ما أبصرَ الضيفَ مُقبِلاً يُكَلِّمُهُ مِنْ حُبِّهِ وَهُوَ أَعْجَمُ
 وقال حاتم الطائي وهو سيد الأجراد بالطعام :
 أضحكُ ضيفي قبل إنزالِ رحيله ويُخْصِبُ عِنْدِي وَالْمَحَلُّ جَدِيدُ
 وما الخصبُ الأضيافِ أن يكُثرَ القرى
 ولكنما وجهُ الكريمِ خصيبُ

ومن قولهم في الحث على ترك التكلف وتعجيل الحاضر: سُئِلَ أَقْرَى
أهل اليمامة للضيف: كيف ضَبَطْتُمْ الْقَرَى؟ قال: بأن لا نتكَلَّفَ ما ليس
عندنا... وقال بعضهم: الضيفُ إلى القليل العاجل أحوَجُ منه إلى الكثير
الآجل، أما سمعت قول الله تعالى: فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ خَنِيذٍ ^(١) وقال
تعالى: إلى طعامٍ غيرِ ناظرينِ إناهُ... «أى غير منتظرين نُضَجِّه وإدراكه
وبلوغه، يقال: أنى يأنى: إذا نضج،

ومن قولهم فيمن أثر على نفسه: قولُ صوفيٍّ لآخر: كيف يعمل
فقراؤكم؟ قال: إذا وجدوا أكلوا، وإذا عَدِمُوا صَبَرُوا، فقال: هذا فِعْلُ
الكلاب، إن الفقير منا إذا عَدِمَ صَبَرَ، وإذا وَجَدَ طَعَامًا آثَرَ به غيره...
وقالوا في وصف الرجل الكريم يَسُوءُ خَلْقَهُ مع أهله خوف التقصير:
والقاتل زنب بنت الطَّيْرِيَّةِ تَرْتِي أَخَاهَا يَزِيدُ:

إِذَا نَزَلَ الْأَضْيَافُ كَانَ عَدْوَرًا عَلَى الْأَهْلِ حَتَّى تَسْتَقِلَّ مَرَاجِلُهُ
يُعِينُكَ مَظْلُومًا وَيُنَجِّيكَ ظَالِمًا وَكُلُّ الَّذِي حُمِّلَتْهُ فَهُوَ حَامِلُهُ
«العَدْوَرُ: السبي الخفاق القليل الصبر فيما يريد به، وإنما جعلته
عَدْوَرًا لِشِدَّةِ تَهْمِهِ بِأَمْرِ الْأَضْيَافِ وَحِرْصِهِ عَلَى تَعَجِيلِ قِرَامِهِ حَتَّى تَسْتَقِلَّ
المراجل على الأثافي ^(٢)، والمراجل: القُدُورُ واحداها مِرْجَلٌ. وقوله:
وَيُنَجِّيكَ ظَالِمًا، أَى إِنْ ظَلَمْتَ فَطَوْلَبْتَ بِظُلْمِكَ حَمَاكَ وَمَنَعَ مِنْكَ،

(١) حنذ الشاة: شواها وجعل فوقها حجارة محما لتضجها فهى حنيد

(٢) الأثافي: جمع أنفية: وهى الحجر توضع عليه القدر وثلاثة الأثافي: القطعة
من الجبل يجعل القدر عليها وعلى حجرين أمامها ويقال: رماه بثلاثة الأثافي: أى
بالشركة

هذا؛ ومن السنة - كما ورد في الحديث - أن يمشي الرجل مع ضيفه إلى باب الدار .

وقد كان الأضياف يُعطون التُّدْلَ وَيَرْضَخُونَ لَهُمْ بِالْمَسَالِ (١) فقد روى بعضهم قال: رأيت ابن عباس في وليمة فأكل وألقى للخباز درهما .

محادثة الضيف

وكانوا يُجَاهِ مَحَادِثَةَ الضَّيْفِ عَلَى الطَّامِامِ فَرَبَقِينَ، فَرَبَقِينَ يَسْتَجِيبُهُ وَيَسْتَحْسِنُهُ، وَمِنْ صَاحِبِ الدَّعْوَةِ أَحْسَنُ، وَقَالُوا فِي ذَلِكَ: مَحَادِثَةُ الْإِخْوَانِ - تَزِيدُ فِي لَذَّةِ الطَّامِامِ. وَقَالَ شَاعِرُهُمْ:

وَأَكْثَرُ مَا أَلْذُّ بِهِ وَالْهُوُ مَحَادِثَةُ الضَّيْفِ عَلَى الطَّامِامِ

وأما الفريق الآخر فيكره الحديث على المائدة وقالوا في ذلك: من أكثر الكلام على طعامه غش بطنه وتقل على إخوانه. وقال الجاحظ في كتابه «التاج»: «وليتى ما كانت ملوك آل ساسان - إذا قدمت موائدهم - زمزموا عليها» (٢)، فلم ينطق ناطق بحرف حتى ترفع، فإن اضطروا إلى كلام، كان مكانه إشارة أو إيماء يدل على الغرض الذي أرادوا والمعنى الذي قصدوا... وكانوا يقولون إن هذه الأطعمة بها حياة هذا العالم، فينبغي للإنسان أن يجعل ذهنه في مطعمه ويشغل روجه وجوارحه فيه، حتى تأخذ كل جارحة يقسطها من الطعام، فيتغذى بها البدن والروح الحيوانية التي في القلب والطبيعة التي في الكبد، اغتذاء تاماً، وتقبله الطبيعة قبولاً جامعاً. قال الجاحظ: وفي ترك الكلام على الطعام فضائل كثيرة هي في آيئهم (٣)...

(١) التُّدْلُ: خدم الضيافة: ويقال: رضح له من ماله رضحاً: أعطاه قليلاً من كثير

(٢) الزمزمة: تراطن الملوح على أكلهم وهم صموت (٣) آيئهم: فانزومهم ودستورهم

وقال المسعودى فى مروج الذهب : ذكروا أن كيومرث هو أول من أمر بالسكوت عند الطعام ، لتأخذ الطبيعة بقسطها ، فيصلح البدن بما يرد إليه من الغذاء ، وتسكن النفس عند ذلك ، فتدبر لكل عضو من الأعضاء تدبيراً يُؤدى إلى ما فيه صلاح الجسم من أخذ صفو الطعام ، فيكون الذى يرد إلى الكبد وغيره من الأعضاء القابلة للغذاء ما يناسبها وما فيه صلاحها ، وإن الإنسان متى شغل عن طعامه بضرب من الضروب ، انصرف قسطن من التدبير وجزء من التغذى إلى حيث انصباب الهمة ووقوع الاشتراك ، فأضر ذلك بالنفس الحيوانية والقوى الإنسانية ، وإذا كان ذلك دائماً أدى ذلك إلى مفارقة النفس الناطقة المميّزة الفكرية لهذا الجسد المرثى ، وفى ذلك ترك للحكمة وخروج عن الصواب ... أقول : وقد أبدت التجاريب الحديثة هذا المذهب ، إذ تحققت أن الكلام على الطعام مدرّج لسوء الهضم ... وإني بحمد الله لعلّى هذا المذهب منذ نشأت ، أى أنى بفطرتى لا أنمحدث على الطعام ، حتى عدت ذلك أهلى ومن يخالطونى مغمّزاً فى يشف عماء وراه ، مما يشبه النّهم وليس به يعلم الله وإنماهى الفطرة التى فطرنى الله عليها ، ومن خلقت أنى أعد الكلام على الطعام ضرباً من التكلّف الذى لا أستسيغه ... على أن الأكل مهمة حيوانية سخيّفة يجمّل أن لا يمتقل بها هذا الاحتفال الكسروى الذى نراه هذه الأيام ، ورحم الله جمال الدين الأفغانى إذ يقول : وددت لو أنى خلقت مضمّتا^(١) وقبله قال الخليل بن أحمد : أنقل ساعاتى الساعة التى آكل فيها ، أو كما قال :

أما محادثة الأضياف على غير الطعام : فمن المجمع على استحسانه ، وفى

(١) المصمت : الذى لاجوف له

ذلك يقول مسكين الدارمي أو عتبة بن بجير :

لِحَافِي لِحَافِ الضَّيْفِ وَالْبَيْتِ بَيْتُهُ وَلَمْ يُلْهِنِي عَنْهُ الْغَزَالُ الْمُقْتَعُ
أُحَدِّثُهُ إِنَّ الْحَدِيثَ مِنَ الْقِرَى وَتَعَلَّمُ نَفْسِي أَنَّهُ سَوْفَ يَهْجَعُ

« الغزال المقتع : زوجته ، ويهجع : ينام ، يريد أنه يحمدته ويقرّيه بهذا

الحديث حتى ينام ،

وكانوا لكرهمهم يُفضلون الاجتماع على الأكل ويستقبحون التفرد :
شكارجل إلى سيدنا رسول الله قلة البركة في طعامهم ، فقال : لعلكم تفرقون
على طعامكم ! قال : نعم ، قال : اجتمعوا تليه واذكروا اسم الله لديه ...
وفي الحديث أيضا : ألا أخبركم بشراركم ؟ من أكل وحده ، وضرب
عبدّه ، ومنع رِفْدَه ، « الرُفْد : العطاء » ... وقال قيس بن عاصم المِنْقَرِي :
إِذَا مَا ضَنَعَتِ الزَّادَ فَاتَمِسِي لَهُ أَكِيلًا فَإِنِّي لَسْتُ أَكِلُهُ وَحْدِي ^(١)

(١) بعده :

قَصِيًّا كَرِيمًا أَوْ قَرِيبًا فَإِنِّي أَخَافُ نَدَمَاتِ الْأَحَادِيثِ مِنْ بَعْدِي
وَكَيْفَ يُسْبِغُ الْمَرْءُ زَادًا وَجَارُهُ خَفِيفُ الْمَعْنَى بِأَدَى الْخِصَاصَةِ وَالْجَهْدِ
وَاللَّمُوتُ خَيْرٌ مِنْ زِيَارَةِ بَاخِلٍ يُبَلِّغُ أَطْرَافَ الْأَكِيلِ عَلَى عَمْدِ
وَإِنِّي لَعَبْدُ الضَّيْفِ مَا دَامَ نَازِلًا وَمَا فِي إِلَّا تِلْكَ مِنْ شِيَمَةِ الْعَبْدِ

« قوله قصيا كريما أو قريبا فإني : هذا من طريف المعاني وذلك أنه لم يحتاج
إلى أن يشترط في نسبه الكرم لأنه ضمن ذلك واشترط في القصي أن يكون كريما
لأنه كره أن يكون مؤاكلة غير كريم . ورواية الاغانى :

« أَخَا طَارِقًا أَوْ جَارِ بَيْتِ فَإِنِّي »

وروا أن قيسا لما قال فاتمسي له أكيلة : أرسلت زوجته جارية فأتته بأكيل وقالت :

أبي المره قيس أن يذوق طعامه بغير أكيل إنه لكريم

وقال عبد الله بن المعتز في اجتماع الأيدي على الطعام:
 كَأَنَّ أَكْمَّ الْقَوْمِ فِي جَفَنَاتِهِ قَطًّا لَمْ يُنْفَرْهُ عَنِ الْمَاءِ عَصَارُخٌ ^(١)
 وكانت العرب تعد التفرد بالأكل احتقَابَ وَزْرٍ ^(٢) حتى أنزل الله عز
 و تقدّس: ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً ^(٣)...

السؤال

وعبقرياتهم فيه ، من جميع نواحيه

ذَمَّ السُّؤال : لما احتضّر قيس بن عاصم المنقري ^(٤) سيد أدل الوبر ، قال

(١) الجفّنات : جمع جفنة : القصعة الكبيرة

(٢) يقال : احتقَب فلان الإثم والوزر : احتمله ، كأنه جمعه واحتمبه من خلفه ،
 أى جعله في حتمية ، والحتمية الوعاء الذى يجعل الرجل فيه زاده وكانوا يجعلونها خلفهم
 على الراحلة (٣) قال البيضاوى : نزلت هذه الآية فى بنى إيث بن عمرو من كنانة ،
 كانوا يتحزجون أن يأكل الرجل وحده ؛ أو فى قوم من الانصار إذا نزل بهم ضيف
 لا يأكلون إلا معه ؛ أو فى قوم تخرجوا عن الاجتماع على الطعام لاختلاف الطبائع فى
 القذارة والنهم

(٤) تقدم له ذكر فيما أسلفنا وهذا قيس هو الذى يقول فيه عبدة بن الطيب يرثيه
 - وعبدة شاعر مخضرم أدرك الإسلام وأسلم وكان فى جيش النعمان بن مقرن الذين
 حاربوا معه الفرس بالمدائن - :

وما كانَ قَيْسٌ هُلْكَهُ هُلْكَ وَاحِدٍ وَلَكِنَّهُ بُنْيَانُ قَوْمٍ تَهَدَّمَا
 وعبدة هذا هو صاحب الايات التى روى أن عبد الملك بن مروان قال يوماً لجلسائه : أى
 المتاديل أفضل ؟ فقال قائل منهم : مناديل مصر كأنها عرقى البيض ، وقال آخرون
 مناديل اليمن ، كأنها نور الربيع ، فقال عبد الملك : بل مناديل أخى بنى تميم : عبدة بن
 الطيب حيث يقول :

لبنيه : يا بني ، احفظوا عني ثلاثا ، فلا أحد أنصح لكم مني ، إذا أنا ميت فسودوا كباركم ولا تسودوا صغاركم ، فيحقر الناس كباركم وتهونوا عليهم ، وعليكم بحفظ المال ، فإنه منبّهة للكريم ويستغنى به عن اللئيم ، وإياكم والمسألة فإنها آخر كسب الرجل ... تسودوا كباركم : فالسيد هنا الرئيس أي أسندوا رياستكم إلى كباركم ، ومنبّهة للكريم : أي مشعّر بقدره ومعلّل له ، وقوله : فإنها آخر كسب الرجل فأجر بقصر الهمة : أي أذنى وأرذل ، وإذا مدّ فمعناه : أن السؤال آخر ما يكسب به المرء عند العجز عن الكسب ، وقد جاء في الحديث إياكم والمسألة فإنها آخر كسب الرجل ، فعمل قيسا أخذها من سيدنا رسول الله ، لأن قيسا من أسلم ونزل البصرة وفي الحديث أيضا : من سأل وهو غنى جاءت مسأله يوم القيامة خدوشا أو نخوشا أو كدوحا في وجهه «الكدوح : الخدوش ، وكل أثر من خدش أو عض فهو كدح ، وقال صلوات الله عليه : إن أحدكم يخرج بمسأله من عندي متأبطا ، وما هي إلا النار ، فقال عمر رضى الله عنه : ولم تعطيه وهي نار؟ فقال : يأتون إلا أن يسألوا ويأبى الله لي البخل ... وقالوا : إياك وطلب ما في أيدي الناس فإنه فقر حاضر ، وقال ابن المقفع : السخاء سخاءان : سخؤك بما في يدك ، وسخؤك بما في أيدي الناس ، وهو أخض في

لَمَّا نَزَلْنَا ضَرَبْنَا ظِلًّا أُخْيِيَّةً وَفَارًّا لِلْقَوْمِ بِاللَّحْمِ الْمَرَاجِيلُ
وَرَدًّا وَأَشْقَرًا مَا يُؤْنِيهِ طَابِخُهُ مَاغِيرَ الْعَالِي مِنْهُ فَهَوَّ مَا كَوَّلُ
تُمَّتْ قُنَا إِلَى جُرْدٍ مُسَوَّمَةٍ أَعْرَافُهُنَّ لِأَيْدِينَا مَنَادِيلُ

و معنى بالمراجيل : المراجل فزاد فيها الياء ضرورة ، وما يؤنيه : ما ينضجه ، والجرد

المسومة : الخيل

الكرم، وأبعدُ من الدّنس، ومن جمّهما فقد استكمل الفضل ٠٠٠ وقال شاعرٌ:

لَا تَحْسَبَنَّ الْمَوْتَ مَوْتَ الْبَيْلَى وَإِنَّمَا الْمَوْتُ سُؤَالَ الرَّجَالِ
كِلَاهُمَا مَوْتُ وَلَكِنَّ ذَا أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ عَلَى كُلِّ حَالٍ

وقد كانوا يتحملون المكارة تفادياً من السؤال: روى الأصمعي قال: مررت
بكنّاس بالبصرة يَكْنُسُ كَيْفًا وَيُعْتَى:

أضاعوني وأىّ قتيّ أضاعوا ليوم كريمةٍ وسِدادٍ تُغْرِ (١)

فقلت له: أما سِدادُ الكنيفِ فأنت ملىءٌ به (٢)، فلا عِلمَ لي بك كيف
أنت فيه، وكنتُ حديثُ السنِّ فأردت العَبَثَ به - فأعرض عني مَلِيّاً ثم أقبِلَ
عليّ وأنشد مُثَمِّلاً:

وَأَكْرِمُ نَفْسِي إِنِّي إِنْ أَهَنْتُهَا وَحَقَّقَكَ لَمْ تَكْرُمْ عَلَيَّ أَحَدٌ بَعْدِي

قال الأصمعي: فقلتُ له: والله، ما يكون من الهوانِ شيءٌ أَكْثَرَ مِمَّا بَدَلْتَهُ،
فبأى شيءٍ أَكْرَمْتَهَا؟ فقال: بَيْلَى، والله، إن من الهوانِ لَشَرًّا مِمَّا أَنَا فِيهِ، فقلت: وما هو؟
فقال: الحاجةُ إِلَيْكَ وَإِلَى أَمْثَالِكَ مِنَ النَّاسِ، فأنصرفتُ عنه أَخْزَى النَّاسِ ٠٠٠ ومثله
ماروى أن أبا عمرو بن العلاء قال: اجتزت بكنّاس يُبْشِدُ:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْرِفْ لِنَفْسِكَ قَدْرَهَا هَوَانًا لَهَا كَانَتْ عَلَيَّ النَّاسُ أَدْوَانًا

فقلت: سبحان الله، أَتُبْشِدُ مِثْلَ هَذَا وَتَتَعَاطَى مِثْلَ هَذَا الْفِعْلِ؟ فقال:
إِنْ إِنْشَادِي لِمِثْلِهِ أَصَارَنِي إِلَى هَذَا، فَرَارًا مِنْ ذَلِكَ السُّؤَالِ ٠٠٠



(١) سيمر بك حديث طريف تن هذا البيت في موضع آخر من هذا الكتاب

(٢) ملىء به: مضطلع به

ذم الإلحاح والحث على الإجمال في الطلب :

في الحديث : إن الله يُبَغِضُ من عباده السائل المُلْحِفَ ، وقال حكيم :
لَا يُكْتَبِرَنَّ الرَّجُلُ عَلَى أَخِيهِ الْمَسْأَلَةَ ، فَإِنَّ الْعِجْلَ إِذَا أَفْرَطَ فِي مَصِّ أُمِّهِ
نَطَخَتْهُ وَنَحَّتْهُ ، وقال بشار بن برد : * وَلَيْسَ لِلْمُلْحِفِ مِثْلُ الرَّدِّ *
ووقع بعض الكبار في قصة مُلِحِّحٍ مُكْتَبِرٍ للسؤال : دَعِ هَذَا الضَّرْعَ
يَدِرْ لغيرك كما دَرَك . وقالوا : اطلبوا الحاجات بعِزَّة النفس فإن يَسُدَّ اللهُ
قضاءها ... وقال ابن الرومي في الإحسان يُتَوَصَّلُ إليه بهوان :

إذا أنا نالتي فواضل مُفْضِلٍ فأهلاً بها مالم تكن بهوانِ
فأما إذا كان الهوانُ قريبتها فبعداً لها ما ينتقضي لأوانِ
ومن ذا الذي يَلْتَدُّ شُهْدًا بَعَلْمٍ أبت لهواتي ذاك والشفتانِ
يَدُ مَكَانًا من كريمٍ يَصُونِي وإلا فلي رزق بكل مكانِ

* * *

دقة موقف السائل : ومن عقربياتهم في صعوبة موقف من يسأل لنفسه
شيئا ولا سيما إذا كان من يُكْرَمون أنفسهم :

قال سعيد بن العاص : موطنان لأعتذر من الغي فيهما : إذا سألتُ
حاجةً لنفسي ، وإذا كَلَّمْتُ جاهلاً ... وسار الفضل بن الربيع - الوزير كان - إلى
أبي عباد في نكبتيه يسأله حاجة ، فأرْتَبِحَ عليه ، فقال له أبو عباد : بهذا
اللسانِ خَدَمْتَ خليفَتين ! فقال الفضل : إِنَّا تَعَوَّدْنَا أَنْ نُسْأَلَ لَا أَنْ
نُسْأَلَ ... وَكَلَّمَ أعرابيُّ خالد بن عبد الله ، وَتَلَجَّجَ في كلامه ، فقال :
لَا تَلْمِني عَلَى الاختِلاطِ ، فَإِنَّ مَعِيَ ذُلَّ الْحَاجَةِ وَمَعَكَ عِزُّ الْاِسْتِغْنَاءِ ...

* * *

عقبرياتهم في آداب السؤال واستنجاح الحوائج

ولهم في السؤال وآدابه واستنجاح الحوائج ودستوره، محاسن رأينا أن نُلِمَّ بها، إتماماً لهذا الباب، فَمِنْ ذَلِكَ حَثُّهُمْ عَلَى سُؤَالِ الشَّبَانِ دُونَ الشَّيُوخِ، وَالصَّبَاحِ دُونَ الْقَبَاحِ، وَالكَرِيمِ الْفَقِيرِ دُونَ الْغَنِيِّ الْغَنِيمِ. وَهَذَا لَعَمْرِي مِنْ حَذَقِ الْأَوَائِلِ وَتَفْطَنِهِمْ إِلَى طِبَاعِ النُّفُوسِ ...

قال حكيم: طاب الحوائج عند الشبان أسهل منها عند الشيوخ، ألا ترى أن يعقوب عليه السلام لما سأله بنوه أن يستغفر لهم قال: سوف أستغفر لكم ربي، وقال يوسف عليه السلام: لا تريب عليكم اليوم... وفي الأثر: اطلبوا الحوائج إلى حسان الوجوه^(١)... وسئل ابن عائشة عن هذا الحديث فقال: معناه: اطلبوها من الوجوه التي يحسن بالمرء أن يطلبها منها... وقال البحترى:

مَنْ حَسَنَ اللَّهُ وَجْهَهُ وَسَجَا يَأَهُ وَأَعْطَاهُ كَلَّفَ الْكُلْفَا

وقال السري الرفاء:

صَرَفْتُ عَنِ الْكَثِيرِ الْوَفْرِ طَرْفِي وَهَا أَنَا لِلْقَلِيلِ الْوَفْرِ رَاجٍ^(٢)

وَكَمْ مِنْ نُظْفَةٍ عَادَتْ وَكَانَتْ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ بَحْرِ أُجَاجٍ^(٣)

وقالت امرأة من ولد حسان بن ثابت:

(١) في الجامع الصغير: اطلبوا الخير إلى حسان الوجوه

(٢) الوفر: المال الكثير (٣) النظفة: الماء القليل الصافي يبقى في الدلو

أو القربة ونحوهما، وأجاج: ملح مُمز

سَلِّ الْخَيْرَ أَهْلَ الْخَيْرِ قَدَمًا وَلَا تَسَلْ

فَتَى ذَاقَ طَائِمَ الْعَيْشِ مُنْذُ قَرِيبٍ

وقال مسلم بن قتيبة: لا تَطْلُبَنَّ حاجتك إلى كذاب، فإنه يُقَرِّبُهَا وهي بعيدٌ، وَيُبَعِّدُهَا وهي قريبٌ^(١)، ولا إلى أحقِّ فإنه يُريدُ أن ينفعك فيضُرُّا ولا إلى رجلٍ له عند من تسأله الحاجة حاجةٌ، فإنه لا يُؤثِّرُك على نفسه وقال شاعر:

لَا تَطْلُبَنَّ إِلَى لَيْتِي حَاجَةً وَأَقْعُدْ فَإِنَّكَ قَائِمًا كَالْقَاعِدِ

يَاخَادِعَ الْبُخْلَاءِ عَنِّ أَمْوَالِهِمْ هَيْهَاتَ تَضْرِبُ فِي حَدِيدٍ بَارِدٍ

وقال بعض الأدباء: عليك بذى الحصرِ البسكي^(٢)، وبذى الخيمِ الرضوي^(٣)

فإن مثقالا من شدة الحياء والعِي، أنفعُ في الحاجة من قطارٍ من لسانٍ سليلٍ وعقلٍ ذكيٍّ، وعليك بالشهمِ النَّدْبِ^(٤) الذي إن عجز أياك، وإن لم يطمعك... وقال الفاروق رضى الله عنه: لا تستعن على حاجتك إلا بالخير يُحِبُّ نجاحها لك... وقال ابن عباس: لا تسألن حاجةً بالليل، ولا تسألن أعمى، فإن الحياء في العيين.

ومن آداب السؤال عندهم أن لا يُتجاوزَ الحدُّ فيه: قالوا: من سأل

(١) بعيد وقريب: يوصف بهما المذكر والمؤنث والمفرد والجمع ومنه قوله تعالى «إن رحمة الله قريب من المحسنين»

(٢) الحصر: ضرب من العِي، والبكي: القليل الكلام

(٣) الخيم: الخلق والطبيعة والسجية والأصل، قال:

وَمَنْ يَبْتَدِعُ مَا لَيْسَ مِنْ خِيَمِ نَفْسِهِ يَدْعُهُ وَيَقْلِبُهُ عَلَى النَّفْسِ خِيَمُهَا

(٤) الشهم: الذكي الفؤاد، المتوقد النجد النافذ في الأمور، والندب: الخفيف

في الحاجة

فوق قدره ، فقد استوجب الردّ ، ومن لم يرجُ إلا ما هو مُستحقُّ له ، فإلى الرّفد ... وقال الشاعر :

إِنَّكَ إِنْ كَلَّفْتَنِي مَالِمَ أُطِيقُ سَاءَكَ مَا سَرَّكَ مِنِّي مِنْ حُلُقٍ

وكانوا لا يرون بأسا بسؤال الملوك وسؤال الابن أباه : فقالوا : مسألة

الرجل السلطان ، ومسألة الابن أباه ، لا تنقصه ولا تشينه :

وَإِذَا ابْتُلِيتَ بِبَدَلِ وَجْهِكَ سَائِلًا فَأَبْذُلْهُ لِلْمُتَكَرِّمِ الْمِفْضَالِ

وقال أبو جعفر المنصور لرجل أخدمته أمرا : سل حاجتك فقال :

يُبْتِمِكُ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قال : سل ، فليس يمكنك ذلك في كل وقت ؛

فقال : ولم يا أمير المؤمنين ؟ فوالله ، لا أستقصر عمرك ولا أرهّبُ بخلك

ولا أغنم مالك ، وإن سؤالك لزين وإن عطاءك لشرف ، وما على أحد

بذل وجهه إليك نقض ولا شين ، فأمر حتى ملئ فوه دُرّاً ... وقال العتّابي :

إِنْ طَلَبْتَ حَاجَةً إِلَى ذِي سُلْطَانٍ ، فَأَجِبْ فِي الطَّلَبِ إِلَيْهِ ، وَإِيَّاكَ وَالْإِلْحَاحَ

عَلَيْهِ ، فَإِنَّ الْإِلْحَاحَ يَنْكِلِمُ عِرْضَكَ ، وَيُرِيقُ مَاءَ وَجْهِكَ ، فَلَا تَأْخُذْ مِنْهُ

عَوَضًا لِمَا يَأْخُذُ مِنْكَ ، وَلَعَلَّ الْإِلْحَاحَ يَجْمَعُ عَلَيْكَ إِخْلَاقَ مَاءِ الْوَجْهِ وَحِرْمَانَ

النجاح فإنه ربما ملّ المطلوبُ إليه حتى يستخفّ بالطالب .

ومن قولهم في الحث على الحذق واللاطافة في المسألة : قال رجل لآخر :

لَوْ أَنَا مِتُّ مَا كُنْتُ تَفْعَلُ ؟ قَالَ : كُنْتُ أَكْفُنُكَ وَأَدْرِفُنُكَ ، قَالَ : فَأَكْسُنِي

الساعة بما تُكسّفتني به ، وَإِذَا مِتُّ فَأَدْرِفْنِي عُرْيَانًا ... وقال شاعر :

أَحْبُبُ لَبُونَكَ إِسْأَسًا وَتَمْرِيَةً لَا يَقْطَعُ الدَّرَّ إِلَّا عُنفُ مُحْتَلِبِهِ

اللبون : الناقة أو الشاة ذات اللبن ، والإبساس : أن يسمح صرع الناقة

بمسكها لتدرّ ، ومثله التمرية ، والدّر : اللبن ، وسأل أعرابي عبداً للملك بن مروان -

وكان بخيلاً وكانوا يطلقون عليه : رَشَحَ الحجر - فقال له : سل الله ، فقال : سألتُه فأحالتني عليك ، فضحك منه وأعطاه .. وأتى رجل بعضَ الوُلاة ، وكان صديقَه ، فتشاعل عنه ، فترأى له يوماً ، فقال : أعذِرني فإني مشغول ، فقال لولا الشُّغْلُ ما أتيتك ، لا بلَغَى اللهُ يومَ فراغِك . وفي هذا المعنى يقول أبو علي البصير :

لَا تُصَيِّرْ شُغْلَكَ الْيَوْمَ مَاعِذَارًا لِمِطَالِكَ
إِنَّمَا يُحَمَّدُ أَنْ تَفْرُغَ فِي وَقْتِ اسْتِغَالِكَ
لَوْ تَفَرَّغْتَ مِنَ الشُّغْلِ آتَوْنَا فِي الْمَسَالِكِ

وقال بعض الأدباء للصاحب بن عباد : إن جِرْدَانَ دَارِي ^(١) يَمِشِينَ بالعِصَا هِزَالًا ، فقال : بَشْرُهُنَّ بِمَجِيءِ الحِنِطَةِ ... وَقَسَمَ بَعْضُهُمْ مَالًا بَيْنَ بَنِيهِ فقال له عبد صغير : فأعطيني أولًا ، فقال له : وليمه ؟ قال : لأن الله تعالى يقول : المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، فبدأ بالمال ، وأناماك ، فأعطاه وقدمه ... ودخل محمد بن واسع على قتيبة بن مسلم ، فقال له : إني أتيتك في حاجة ، فإن شئت قضيتها وكنا جميعا كريمين ، وإن شئت منعتها وكنا جميعا ائيمين . وقال ابن عبد ربه صاحب العقد : أراد : إن قضيتها كنت أنت كريما بقضائها ، وكنت أنا كريما بسؤالك إياها لأنني وضعتُ طلبتي في موضعها ، فإن لم تقضها كنت أنت لثيما بمنعك ، وكنت أنا لثيما بسوء اختياري لك ، وسرق حبيب - أبو تمام - هذا المعنى فقال :

عِيَاشُ إِنَّكَ لِلْئِيمِ وَإِنِّي مُذْصِرْتِ مَوْضِعَ مَطْلَبِي لِلْئِيمِ

ومن مُحَامِ الْمُكْدِينَ ووصاياهم : قِيلَ لِرَجُلٍ مُكْدٍ : مَتَى تَعَلْتِ الكُدِيَةَ والسؤال ؟ قال : يَوْمَ وُلِدْتُ ، مُنِعْتُ الشَّدَى فِصْحَتِ ، وَبَكَيْتِ فَأَعْطَيْتِ

(١) الجرذان جمع جرذ : الفأر

الثدى، فسكت... وقال رجل لآخر: قد وَّضَع مِنكَ سؤَالُكَ؟ فقال: لقد سأل موسى والخضرُ عليهما السلام أهلَ قرية، فأبوا أن يُضيفوهما، فوالله ما وضع هذا من نبي الله وعالمه، فكيف يضع مني؟ وقال بعض المُكَيِّدِينَ: مكتوبٌ على باب الجنة: مَنْ صَبَرَ عَبْرَ... وقال آخر: كلُّب طائف، خيرٌ من أسدٍ رابض، وقالوا: الهيمة خيمة، وقال سَلْمُ الحَاسِر: من راقب الناس مات غمًا وفاز باللذَّة الجسورُ وقال أشجع السلمي:

ليس للحاجات إلا مَنْ له وَجْهٌ وَقَاحٌ

وقال أبو تمام:

وَحُذْمٌ بِالرُّقَى إِنَّ المَهَارَى يُهَيِّجُهَا عَلَى السَّيْرِ الحِدَاءُ

وقال ابن الرومي:

وإنَّ الأُمَّ لم تُرَضِّعْ صَبِيًّا معَ الإشفاق لو سَكَتَ الغلامُ

ومن قولهم في الحث على معاودة السؤال: نولُ عمر رضى الله عنه: إذا سألتونا حاجةً فعاودونا فيها، فإنما سميت القلوب قلوباً لتقلبها... وقال عبد الملك بن مروان في خطبة له: لا يَمْنَعُنْ رَجُلًا سألَ اليوم شيئاً فمَنَعْتُهُ، أن يسألَ غداً؛ فإنَّ الأمورَ بيدَ الله لا يدي. وقال شاعرٌ:

لا يُؤَيِّسُنَا مِنْ كَرِيمِ نَبْوَةٍ يَلْبُو الفَتَى وَهُوَ الجَوَادُ الخِضْرُ (١)
فإذا تَبَا فاستَبِقِهِ وتأنَّهُ حَتَّى يَجِيَّ عَهِمَا الطَّبَاعُ الأَكْرَمُ (٢)

- (١) النبوة: الجنة والتباعد ويقال: تباعه بصره ينبو: تجافى ولم ينظر إليه كأنه حقره. والخضرم بالكسر: الجواد الكثير العطاء أو السيد المحول
- (٢) يقال: تأنيتك حتى لأناة بي، أى تنظرتك حتى لا انتظاري، والطباع كالغرار واحد طباع الإنسان أى الخليفة والسجبة التى طبع عليها قال الزجاجى الطباع واحد

وقالوا : إذا سألتَ كرماً حاجة فدعه وسؤمَ نفسه^(١) فإنه لا يفكر
إلا في خير ، وإذا سألتَ لثيماً حاجةً فعاقصه^(٢) ولا تدعه يتفكر
فيستغبر ، وقال بعضهم في ضد ذلك : إذا سألتَ لثيماً حاجةً فأجله حتى يروض
نفسه ... « أى يعالج نفسه الكزة اللثيمة »

ولهم في الاعتذار عن سؤال اللثيم وأخذهم منه : قال أبو تمام :
تُحَدِّثُ مَا أَتَاكَ مِنَ اللَّثِيمِ إِذَا نَأَى أَهْلُ الْكَرَمِ
فَالْأَسَدُ تَفْتَرِسُ الْكِلَابَ إِذَا تَعَدَّرَتِ الْغَنَمُ

وقال المنبى :

غَيْرَ اخْتِيَارٍ قَبْلْتُ بِرِّكَ بِي وَالْجَوْعُ يُرِضِي الْأَسْوَدَ بِالْجَيْفِ
وقال المهلبى الوزير :

مَا كُنْتُ إِلَّا كَلِّمَ مَيِّتٍ دَعَا إِلَى أَكْلِهِ اضْطِرَارُ

ولأبى على البصير :

لَعَمْرُ أَيْكَ مَا نُسِبَ الْمُعَلَّى إِلَى كَرَمٍ وَفِي الدُّنْيَا كَرِيمٌ
وَلَكِنَّ الْبِلَادَ إِذَا أَشْعَرَتْ وَصَوَّحَ نَبْتَهَا رُغِي الْمَشِيمُ

واقشعرت : قال الأزهرى : يقال : اقشعرت الأرض من المجل - الجذب -
وفي الحديث : إن الأرض إذا لم ينزل عليها المطر اربدت واقشعرت : أى
تقبضت وتجمعت ، وصوّح نبتها : يبس

ومن قولهم في التعريض بالسؤال : قال أمية بن أبى الصلت :

أَذْكَرُ حَاجَتِي أَمْ قَدْ كَفَانِي حَيَاؤُكَ إِنَّ شِيمَتَكَ الْحَيَاءُ

مذكر كالنجار - الاصل - (١) أى وما يريد ويتجه إليه

(٢) فعاقصه : فاسلك معه مسلكاً ملتويّاً بعزّة

إذا أتني عليك المرء يوماً كَفَاهُ مِنْ تَعْرِضِهِ الثَّنَاءُ
وقال ابن الرومي :

يَأْمَنُ إِذَا التَّعْرِيزُ صَافَحَ نَفْسَهُ أَغْنَى الْعُقَاةَ بِهِ عَنِ التَّصْرِيحِ
وقال المنذبي :

أَقْلَ سَلَامِي جُبِّ مَاخَفَ عَنْكُمْ وَأَسْكُتُ كَيْمَا لَا يَكُونُ جَوَابُ
وَفِي النَّفْسِ حَاجَاتٌ وَفِيكَ فَطَانَةٌ سُكُوتِي بَيَانٌ عِنْدَهَا وَخِطَابُ
وقال أبو بكر الخوارزمي :

وَإِذَا طَلَبْتَ إِلَى كَرِيمٍ حَاجَةً فُتِقَاؤُهُ يَكْفِيكَ وَالتَّسْلِيمُ
فَإِذَا رَأَاكَ مُسْلِمًا عَرَفَ الَّذِي حَمَلَتْهُ فَكَاثَهُ مَلْرُومُ

المسئول تجاه السائل

قال شريح^(١) : مَنْ سَأَلَ حَاجَةً فَقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ عَلَى الرَّقِّ ، فَإِنْ قَضَاهَا

(١) هو القاضي شريح بن الحارث ، استقضاه عمر بن الخطاب على الكوفة فأقام قاضياً خمساً وسبعين سنة ، وكان أعلم الناس بالقضاء ، ذا فطنة وذكا ، ومعرفة وعقل وإصابة ، وكان شاعراً محسناً وكان مزاحاً ، دخل عليه عددي بن أراطة فقال له : أنت أصلحك الله فقال : بينك وبين الحائط ، قال : استمع مني ، قال : قل أسمع ، قال : إني رجل من الشام ، قال : من مكان سحيق ، قال : تزوجت عندكم ، قال : بالرفاء والبنين قال : وأردت أن أرحلها ، قال : الرجل أحق بأهله ، قال : وشرطت لها دارها قال : الشرط أملك قال : فاحكم الآن بيننا ، قال : قد فملت ، قال : فعلى من حكمت ؟ قال : على ابن أملك ، قال : بشهادة من ؟ قال : بشهادة ابن أخت خالتك ... ويُروى أن علي بن أبي طالب رضى الله عنه دخل مع خصم له ذمى إلى القاضي شريح هذا فقام له ، فقال علي : هذا أول جورك ، ثم أسند ظهره إلى الجدار وقال : أما لو أن خصمى كان مسلماً جلست بجانبه ... وتزوج شريح امرأة من بني تميم تسمى زينب فلقم عليها شيئاً فضربها ثم ندم وقال :

المسؤلُ استعبده بها ، وإن رَدَّه ، رجع حُرًّا ، وهما ذليلان ، هذا بِذَلِّ اللّوْمِ
وهذا بِذَلِّ السَّوَالِ . وقال أبو تمام :

ماماءُ كَفَّكَ - إن جَادَتْ وإن بَحَلَتْ من ماءٍ وَجْهِي إذا أَفْنَيْتَهُ - عَوْضُ

وقالوا : العَجَبُ لمن يَشْتَرِي العبيدَ بالأموال ولا يَشْتَرِي الأحرارَ بالذوال ...
وسئل خالدُ بن يزيدَ : ما الجودُ ؟ قال : أن تُعْطِيَ مَنْ سَأَلَكَ ، فقال ابنه :
يَأْتِي ، هذا هو الكُدُّ ، إنما الجودُ أن تُعْطِيَ من سَأَلَكَ ومن لم يَسَأَلْكَ ...
وقالوا : أهناُ المعروفُ أعَجَلُهُ . وقال بعضُ الناس : إذا أوليتني نِعْمَةً فَعَجَّلْهَا ،
فإن النفسَ مَوْلَعَةٌ بِحَبِّ العاجلِ ، وإن الله تعالى قد أخبر عما في نفوسنا فقال :
كلا ، بل تُحِبُّونَ العاجلةَ ... ولزم بعضُ الحكماء بابَ بعضِ ملوك العجم دَهْرًا
فلم يَصِلْ إليه ، فتناظفَ للحاجِبِ في إيصالِ رُقْعَةٍ ، ففعل ، وكان فيها أربعة أسطر

السطر الأول : « الأمل والضرورة أقدمانى عليك »

والسطر الثاني : « العدم لا يكون معه صبرٌ على المطالبة »

والسطر الثالث : « الانصراف بلا فائدة شامة للأعداء ،

والسطر الرابع : « فيما نَعَمُ مُثْمِرَةٌ ، وإما لا مُرِيحَةٌ ،

فلما قرأها وَقَعَ في كل سطرٍ : زِهْ ؛ فَأُعْطِيَ سِتَّةَ عَشَرَ أَلْفَ مِثْقَالِ فِضَّةٍ -

« زِهْ في لغة الفرس معناها : أحسنت ، ... ووقفتُ عجوزٌ على قيس بن سعد فقالت :

رَأَيْتُ رِجَالًا يَضْرِبُونَ نِسَاءَهُمْ فَسَلَّتْ يَمِينِي يَوْمَ أَضْرِبُ زَيْنَبًا

أَضْرِبُهَا مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ أَتَعَبُ بِهِ فَمَا الْعَدْلُ مَنَى ضَرْبُ مَنْ لَيْسَ مُذْنِبًا

فزينبُ شمسُ والنساءُ كواكبُ إذا طَلَعَتْ لم تُبْقِ مِنْهُنَّ كوكبا

توفي شريح سنة ٨٧ هـ وهو ابن مائة سنة .

أشكو إليك فلة الجرذان ، قال : ما أحسن هذه الكناية ؟ أملتوا بيدها خبزاً ولحمًا
وسمنًا وتمرًا . وقد تقدم مثلها .

الاعتذار عن المسئول إن لم يعط

قال أبو نواس :

فإن تولىني منك الجميل فأهله وإلا فإني عاذر وشكور

وقال ابن الرومي :

وإن عاق القضاء نذاك عني فليست أراك في منعي مليا^(١)

وما غيبت إذا يجتاز أرضاً إلى أخري بمعتد لئما

وكتب أبو العيناء إلى ابن أبي دؤاد : سنا وأهلنا أضرب ، وبضاعتنا المودة
والشكر ، فإن تمطنا فانت أهل لذلك ، وإن لم تمطنا فاسنا بمن يلزك في
الصدقات ، فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يبطوا منها إذاهم يسخطون^(٢) وهناك
من لا يعذر ، رَوَوْا أن الحجاج لما دخل مكة قال لأهلها : أتيناكم وقد غاض
الماء لكثرة الزواجب ، فاعذرونا ، فقال رجل : لا نذر الله من عذرك ، وأنت
أمير المصرين وابن عظيم القريةين^(٣) فقال : صدقت . واستقرض مالا من
التجار فقرفق فيهم ، وقال أبو تمام :

فلو حارَدت شولُ عذرتُ لِقاحها

ولكن حُرمتُ اندرَ والضرع حافل^(٤)

(١) مليا : فاعلا ما يلام عليه (٢) اللز : العيب والرفوع في الناس . يشير الى

الآية الكريمة (٣) القريةتان : مكة والطائف

(٤) حارَدت الافة : قل لبئها ، والشول جمع شائله والتائلة من الإبل التي أتى عليها
من حملها أو وضعها سبعة أشهر لحف لبئها ، واللحاق : جمع لفحة : الحامل والمراد : عذرتها

طلب الكثير والرضا بالقليل

قال أعرابيٌّ لخالد بن عبد الله من أبيات :

أخالدُ بين الحمد والأجر حاجتي فأيهما تأتي فأنت عمادُ

فقال له خالد : سل ما بَدالك ، فقال : مائة ألف درهم ، قال : أسرفت ، قال :
ألف درهم ، قال خالد : ما أدري أمِن إسرارك أتعجب أم من حطك ، فقال :
إني سألتك على قدرك ، فلما أبيت سأتُ على قدرى ، فقال : إذن والله لا تغيبني
على معروفى ...

من يسأل حاجة يزعمها صغيرة

قال رجل لعماره بن حمزة : أتيتك في حُويجة ، فقال : اطلب لها رُجِيلاً ...
وقال آخر مثل هذا فقال : دَعها حتى تكبّر ... وقال رجل لعبد الله بن عباس
رضى الله عنه : أتيتك في حاجة صغيرة ، فقال : هايتها ، فالحرُّ لا يصنُر عن
كبير أخيه ولا يكبُرُ عن صغيره ...

الحث على الصبر والأناة في طلب الحاجات

قال الشاعر :

إن الامورَ إذا اتسَدَّتْ مسالِكُها فالصبرُ يفتَحُ منها كلَّ ما ارْتَبَجَا^(١)
أخلاقُ بذي الصبرِ أنْ يحظى بحاجته ومُدْمِنِ القمعِ الأبوابُ أنْ يَلِجَا
لأنَّ أيسن وإن طالَتْ مُطالبَةُ إذا استعنت بصبرٍ أنْ ترى فرتجا
وقال أبو نواس :

هذه الشول والدر : اللبن ، وحافل : ملان (١) كل ما ارتبج : كل ما أغلق

ولا يُدْرِكُ الحَاجَاتِ مِنْ حَيْثُ تُبْتَغَى

من الناس إلا المصبحون على رجلٍ (١)

تَأَنَّ مَوَاعِيدَ الكِرَامِ فُرُبَمَا

أَصَبْتَ مِنَ الإِلْحَاحِ سَمَحًا عَلَى بُجْلِ

وقال القَطَائِمِيُّ :

قَدْ يُدْرِكُ المُتَأَنِّي بَعْدَ حَاجَتِهِ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ المُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ
والعرب تقول : رَبَّ عَجَلَةٍ تَهَبُ رَيْثًا ؛ يريدون أن الرجل قد يَخْرُقُ
وَيَحْمُقُ فَيَعَجِلُ فِي حَاجَتِهِ فَيَتَأَخَّرُ أَوْ تَبْطُلُ بِذَلِكَ .

العطية لا تجدى في غير وقتها

قال البحرى :

وَأَعْلَمَ أَنَّ الغَيْثَ لَيْسَ بِنَافِعٍ لِلسَّرِّ مَا لَمْ يَأْتِ فِي إِبَانِهِ

وقال : * يُرَجَى الطَّيِّبُ لِسَاعَةِ الأَوْصَابِ *

المسئول أهل لأن يسأل

قال عَلْقَمَةُ بن عَبْدَةَ الفُجَلِ من قصيدة يخاطب الحارث بن أبى شمر

الغسانى - وكان أسر أخاه شأساً فرحل إليه يطلبه منه :-

وَفِي كُلِّ حَيٍّ قَدْ خَبَطَتْ بِنِعْمَةٍ فُحِقَّ لِشَاسٍ مِنْ نَدَاكَ ذُنُوبٌ (٢)

وقال أحمد بن أبى طاهر :-

أَتَيْتَكَ لَمْ أَطْمَعِ إِلَى غَيْرِ ، طَمَعِ كَرِيمٍ وَلَمْ أَفْزَعْ إِلَى غَيْرِ مَفْزَعٍ (٣)

(١) يقول : إنما يقضها المشمرون القيام لا المترملون القيام

(٢) خبطه بخير : أعطاه من غير معرفة بينهما ، شبه بخباط الليل . والذنوب :

الحظ والنصيب (٣) فزع إليه : لجأ إليه

التأسف على الحرمان

قال البحترى من أبيات يمدح بها الفتح بن خاقان ويعاتبه :

سحابٌ خَطَّانِي جَوْدُهُ وَهُوَ مُسْبِلٌ وَبَحْرٌ عَدَانِي فَيْضُهُ وَهُوَ مُفْعَمٌ^(١)
وَبَدْرٌ أَضَاءَ الْأَرْضَ شَرْقًا وَمَغْرِبًا

وَمَوْضِعُ رَحْلِي مِنْهُ أَسْوَدٌ مُظْلِمٌ^(٢)

أَشْكُو نَدَاهُ بَعْدَ أَنْ وَسِعَ الْوَرَى

وَمَا إِنْ يَذُمُ الْغَيْثَ إِلَّا مُدْمَمٌ

تعريضهم بمن خيبهم

وَقَفَّ أَعْرَابِيٌّ عَلَى دَارِ سَائِلَا : فَقَالَ لَهُ صَبِيٌّ مِنَ الدَّارِ : بورك فيك ، فقال

له : قَبَّحَ اللهُ هَذَا النِّعَمَ ، فَقَدْ تَعَلَّمَ الشَّرَّ صَغِيرًا ... وَوَقَفَّ سَائِلٌ عَلَى تَوْمِ

فَقَالَ أَحَدُهُمْ : صَنَاعَتُنَا وَاحِدَةٌ ، فَقَالَ السَّائِلُ : فَأَنَا قَوَّادٌ فَهَلْ أَنْتُمْ قَوَّادُونَ ؟

يَرُونَ الْهَدَايَا وَالرِّشَى مَدْرَجَةً لِلنَّجَاحِ

كانت العرب تقول : مَنْ صَانَعَ لَمْ يَحْتَسِمْ مِنْ طَلَبِ الْحَاجَةِ «صانع : هادى» ...

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : نِعَمَ الشَّيْءُ : الْهَدِيَّةُ أَمَامَ الْحَاجَةِ ... وَكَانَ

سفيان الثوري يقول : إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَتَزَوَّجَ فَأَهْدِ إِلَى الْأُمِّ ... وَمِنْ أَمْثَلِهِمْ :

مَنْ يَخْطُبُ الْحَسَنَاءَ يُعْطَى مَهْرًا ... « يريدون من طلب حاجة مهمة بذل

فيها ، وقال شاعرهم :

(١) الجود : المطر الغزير ، ومسبل : هاطل (٢) الرحل : المنزل ، ومفعم : مالىء

ما من صديق وإن تمت صدائته

يَوْمًا يَأْتِجَحُ فِي الْحَاجَاتِ مِنْ طَبَقِ

إِذَا تَفَنَعَ بِالْمِنْدِيلِ مُنْطَلِقًا لَمْ يَخْشَ نَبْوَةَ بَوَّابٍ وَلَا غَلَقِي

لَا تُكَذِّبَنَّ فَإِنَّ النَّاسَ مُذْخَلِقُوا لِرَغْبَةِ يَسْكُرِمُونَ النَّاسَ أَوْ فَرَقِ

«نبوة: جفوة، وفرق: خوف» وقال رؤبة بن العجاج:

لَمَّا رَأَيْتُ الشُّفَعَاءَ بَلَدُوا وَسَأَلُوا أَمِيرَهُمْ فَأَنْكَدُوا

نَامَسْتُهُمْ بِرِشْوَةٍ فَأَقْرَدُوا وَسَهَّلَ اللَّهُ بِهَا مَا شَدَّدُوا

«بلدوا: يقال: بلد الرجل: إذا لم يتجه لشيء، وبلد: إذا تكس في

العمل وضعف حتى في الجري. وقوله: فأنكدوا: أي وجدوه عميراً

مقللاً إذ لم يجدوا عنده إلا نزرًا قليلاً، وقوله: نامستهم برشوة: يقول:

أفهمتهم أن يلجأوا إلى رشوة الأمير ويحتالوا بذلك، قال في اللسان: نامس

الرجل صاحبه: ساره، ومنه الناموس، وهو صاحب سر الرجل - ويقال له

اليوم السكرتير الخاص - وقوله: فأقردوا: أي خضعوا، وفي الحديث: إياكم

والإقراء، قالوا: يارسول الله، وما الإقراء؟ قال: الرجل يكون منكم أميراً

أو عاملاً فيأتيه المسكين والأرملة فيقول لهم: مكانكم، ويأتيه الشريف

والغني فيدنيه ويقول: عجلوا قضاء حاجته ويترك الآخرون متردين

«أي ساكنين ذلاً»

قطع العادة

ومن أحسن ما قيل في قطع العادة قول أعرابي - وقد سأل قوماً، فرق له:

برجل منهم فضمه إليه وأجرى له رزقاً أياماً ثم قطع عنه - فقال الأعرابي:

تَسْرَى فَلِمَا حَاسِبَ الْمَرْءُ نَفْسَهُ رَأَى أَنَّهُ لَا يَسْتَقِيمُ لَهُ السَّرْوُ
 « تَسْرَى : أى تكلف السَّرْو ، والسَّرْو : السخاء » وقال شاعر - قيل هو
 أبو الاسود الدؤلى ، وقيل أنس بن أبى أنس الليثى - :

لَيْتَ شِعْرَى عَنْ أَمِيرِي مَا الَّذِي غَالَهُ فِي الْوَدِّ حَتَّى وَدَّعَهُ
 لَا تُنْهِي بَعْدَ إِذْ أَكْرَمْتَنِي وَشَدِيدُ عَادَةِ مُنْتَزَعُهُ
 لَا يَكُنْ بَرُّكَ بَرًّا خُلْبًا إِنْ خَيْرَ الْبَرِّ مَا الْغَيْثُ مَعَهُ

« البرق الخلب : الذى لا مطر معه » وفى الحديث : الخير عادة والشَّرُّ لِحَاجَةٌ . يقال
 لَجَّ فِي الْأَمْرِ يَلْجُ وَيَلْجُ لِحَاجَةً وَلِحَاجًا وَبَلَجًا : إِذَا تَمَادَى عَلَيْهِ وَأَبَى أَنْ يَنْصَرِفَ
 عَنْهُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ شَرٌّ وَأَنْ غَيْرَهُ خَيْرٌ مِنْهُ ، وَتَقُولُ الْعَرَبُ فِيمَنْ اصْطَنَعَ مَعْرُوفًا ثُمَّ
 أَفْسَدَهُ بِالْمَنْ أَوْ قَطَعَهُ حِينَ كَادَ يَيْتِمُ : شَوَى أَخُوكَ حَتَّى إِذَا أَنْضَجَ رَمَدًا
 « رَمَدًا : أَلْبَى الشَّيْءِ فِي الرَّمَادِ »

شكوى العافين

من تفضيل بعضهم على بعض فى العطاء

قَدِمَ عَلَى سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَوَدَّ مِنَ الْعَرَبِ ، فَأَعْطَاهُمْ
 وَفَضَّلَ رِجَالًا مِنْهُمْ ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ : كُلُّ الْقَوْمِ عِيَالٌ عَلَيْهِ .
 وَأَعْطَى سَيِّدِنَا رَسُولُ اللَّهِ يَوْمَ حُنَيْنٍ الْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبِهِمْ ، وَكَانُوا أَشْرَافًا ،
 يَتَأَلَّفُهُمْ وَيَتَأَلَّفُ بِهِمْ تَوْمَهُمْ ، فَأَعْطَى فِيمَنْ أَعْطَى ، عُيَيْنَةَ بْنَ حِصْنِ الْقَزَّارِيَّ ،
 وَالْأَفْرَعَ بْنَ حَابِسِ النَّيْمِيِّ ، أَعْطَى كُلًّا مِنْهُمَا مِائَةَ بَعِيرٍ ، وَأَعْطَى عَبَّاسَ بْنَ
 مُرْدَاسِ أَبِي عَرَّ ، وَكَانَ كَذَلِكَ مِنَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ ، وَكَانَ شَاعِرًا ، فَسَخِطَهَا وَقَالَ
 يَعَاتِبُ سَيِّدِنَا رَسُولُ اللَّهِ :

أَتَجَمَّعَ - لُ نَهَى وَنَهَبَ الْعَبِيدَ بَيْنَ عُيَيْنَتَيْهِ وَالْأَقْرَعِ (١)
 وما كان حِصْنٌ ولا حَابِسٌ يفوقانِ مُرْدَاسَ في بجمجم (٢)
 وما كنتُ دونَ امرئٍ منهما وَمَنْ تَضَعُ اليَوْمَ لا يُرْفَعُ
 وقد كنتُ في الحربِ ذا تُدْرَأُ فلم أعطَ شيئاً ولم أَمْنَعُ (٣)
 إلا أَفَائِلَ أُعْطِيَتْهَا عديدَ قوائمه الأربعة (٤)
 فلما أنشدهما بين يدي رسول الله قال لعلي بن أبي طالب : يا علي ، اقطع
 عني لسانه ، فقبض علي يده وخرج به فقال : أقطع أنت لساني يا أبا الحسن ؟
 فقال : إني لمُضٍ فيك ما أمرت ، ثم مضى به إلى إبل الصدقة فقال خذ
 ما أحببت ...

بلاغة المكدين

سأل أعرابيٌ فقال في مسأله : لقد جُعتُ حتى أكلتُ الذَّوَى المُحْرَقَ ،
 ولقد مَشَيْتُ حتى انْتَعَلْتُ الدَّمِ ، وحتى سقط من رِجْلي بَخْصُ اللحمِ ، وحتى تَمَنَّيْتُ
 أن وجهي حذاءٌ لِقَدَمي ، فهل من أخ يرْحَمُنَا ! « البخص : اللحم يخالطه بياض
 من فساد يَحُلُّ به » ... ووقف أعرابي على حلقة الحسن البصري فقال : رحِمَ
 الله أمرءاً أعطى من سَمَةٍ ووَاسِي من كَفَافٍ وآثر من قوت . فقال الحسن :

(١) النهب : الغنيمة ، والعييد بالتصغير اسم فرس العباس ، وكان يدعى فارس العبيد
 (٢) مرداس مصروف ولكنه هنا ممنوع من الصرف للضرورة ، انظر كتب النحاة ،
 (٣) تدراً : من الدرء وهو الدفع قال في الصحاح : وقولهم : السلطان ذو تدراً ،
 أي ذو عدة وقوة على دفع أعدائه عن نفسه ، وهذا اسم موضع للدفع ، وقوله : فلم
 أعط شيئاً الخ أي لم أعط شيئاً طائلاً أو لم أعط شيئاً استحقه وهو المائة : ولم أمنع
 من الإعطاء لأنني أعطيت بعضاً

(٤) الأفائل : جمع أفيل بالفاء كالفصيل وزنا ومعنى

ماترك أحداً منكم حتى سأله... وقال المازني : وقف علينا أعرابي فقال :
 رحم الله امرأة لم تمجج أذناه كلامي ، وقدّم لنفسه معاذاً من سوء مُقَامِي ،
 فإن البلاد مُجْدِبَةٌ والحال مُصْعَبَةٌ ^(١) والحياة زاجرٌ يمنعُ من كلامكم ، والعُدْمُ
 عاذرٌ يدعو إلى إخباركم ، والدعاء أحد الصدقتين ، فرحم الله امرأةً أمرت بِمَيْرٍ
 ودعا بخير . فقال له رجل من القوم : بمن الرجل ؟ فقال : اللهم غَفِرًا مِن
 لَا تُضْرِكُ جِهَالَتُهُ ، وَلَا تَفْعُكُ مَعْرِفَتُهُ ، ذُلُّ الْاِكْتِسَابِ ، يَمْنَعُ مِنَ
 عِزِّ الْاِنْتِسَابِ .

حسن الخلق

وعقرياتهم فيه وفيما يتأشب إليه

وهذا هو أحد لَوْنِي الإحسان إلى الناس ، وإن شئت قلت هو اللَوْنُ

الثالث من ألوان البرِّ ، أعني حُسْنَ الخلق

تحضيضهم على حسن الخلق

قال الله عز وجل : وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

وقال : خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ . « خذ العفو :

فالعفو : السهل الميسر ، يقول سبحانه : اِحْتَمِلْ أَخْلَاقَ النَّاسِ وَأَقْبِلْ مَا سَهَّلَ

مِنْهَا وَتيسَّرَ ، وَلَا تَسْتَقْصِ عَلَيْهِمْ فَيَسْتَقْصَى اللَّهُ عَلَيْكَ ، مع ما فيه من العداوة

والبغضاء قال شَرَحَ :

خُذِي الْعَفْوَ مِنِّي تَسْتَدِينِي مَوَدَّتِي وَلَا تَنْطِقِي فِي سَوْرَتِي حِينَ أَغْضِبُ

(١) يقال صعب الامر وأصعب : صار صعباً

فإني رأيتُ الحُبَّ في الصَّدْرِ والأذَى

إذا اجتمعَا لم يلبثِ الحُبُّ يَنْهَبُ

وقوله سبحانه وتعالى : وأعرض عن الجاهلين : فالجهل هنا ما قابل العقل والجاهلون : الحمقى الأشرار السيئوا الأخلاق ، أمر الله نبيه بأن لا يماريَ الجاهلين ولا يكافئهم بمثل أفعالهم «

وقال سيدنا رسول الله : إنكم إن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم .
 ومن ذا قول حكيم وقد قيل له : هل من جودٍ يُتناوَلُ به الخُلُقُ ؟ فقال :
 نعم ، أن تحسن الخُلُقَ وتنبى الخير لكل أحد ... وقال صلوات الله عليه :
 ألا أخبركم بأحبكم إلى وأقربكم منى مجالس يوم القيامة ! : أحاسنكم أخلاقا
 المؤطون أكنافا ، الذين يالفون ويؤلفون ، ألا أخبركم بأبغضكم إلى وأبعدكم
 منى مجالس يوم القيامة ! الثرثارون المتفهبون ... « قوله : أحاسنكم أخلاقا
 يريد : الأحاسن منكم على إرادة التفضيل لا الوصف ، وذلك أن العرب
 تقول في الوصف : رجلٌ حَسَنٌ ولم تقل رجلا أحسن ، مع قولهم امرأة
 حسناء . ونظيره في عكسه : غلامٌ أمرُدٌ ولم يقولوا جاريةً مرءاء . وقوله :
 المؤطون أكنافا : يريد دماء الخلق ولين الجانب وأن ناحيته يتمكن فيها
 صاحبه غير مؤذى ولا ناب به موضعه . وأصل التوطئة : التذليل والتهديد
 يقال : فرائش وطئء إذا كان وثيرا - أي لينا - والثرثارون : الذين يكثرون
 الكلام تكلفا وتجاوزا وخروجاً عن الحق ، وأصل هذه اللفظة من العين
 الواسعة من عيون الماء يقال : عينٌ ثرثارة وثرارة : إذا كانت كثيرة
 الماء ... والمتفهبون : بسبيل من « الثرثارون » وهو تأسيس له ، واشتقاقه من
 قولهم : فوق الغدير يفهقُ : إذا امتلأ ماء فلم يكن فيه موضع مزيد : يصفهم

بأنهم يوسعون أشداقهم ويملاونها بالكلام . قال أبو العباس المبرد بعد ما أورد ما أوردناه من تفسير هذا الحديث : وتصديق ما فسرناه من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يُريد الصدق في المنطق والقصد وترك ما لا يحتاج إليه : قوله لجربير بن عبد الله البجلي : يا جربير : إذا قلت فأوجز وإذا بلغت حاجتك فلا تتكلم ، وقال الله جل شأنه في الحث على لسان الكلام : وقولوا للناس حسناً . وقال : فقولا له قولاً لينا ، وقال : وقُلْ لَهَا قولاً كريماً . وقال : فقلْ لهم قولاً ميسوراً ... وقالوا : من لانت كلمته وجبت محبته . وقالت جدة سفيان بن عيينة له :

بُنَىٰ إِنِّ الْبِرُّ شَيْءٌ هَيْنٌ الْمَفْرَشُ اللَّيْنُ وَالطُّعْمُ

وَ مَنْطِقٌ إِذَا نَطَقْتَ لَيْنٌ ۝

« تولها هينٌ : فالعرب تقول : رجلٌ هينٌ لينٌ وهينٌ لينٌ ، وفي الحديث : المؤمنون لينون كالجلج الأنفِ إن قُدَّته انقادَ وإن أُنخَّته على صخرة استنخ . جل أنفٌ : أى مانوف ، أى يشتكى أنفه من خشاش أو بُرَّة^(١) أو خزيمة في أنفه فلا يمتنع على قائده في شيء للوجع ، فهو ذلول مُنقادٌ ، ومعنى المؤمنون كالجلج الأنف : أنهم لا يريمون التشكى ، أى يُدِيمون التشكى بما بهم إلى الله وحده لا إلى سواه . أقول : وأحسن من هذا التفسير قول بعضهم : الجلل الأنف : الدليل المُواقَى الذى يَأْتف من الزجر ومن الضرب ويُعطى ما عنده من السير عَفْواً سهلاً ، كذلك المؤمن ، لا يحتاج إلى زجر ولا

(١) الخشاش : عويد من خشب يُدخَل في عظم أنف البعير يشد به الزمام ليكون

أسرع لانقياده . والبرة : ما يوضع في لحم أنف البعير ويكون من صفر - نحاس أبيض -

أما الخزيمة فهي من شعر

عِتَاب ، وما لَزِمَهُ من حَقِّ صَبْرٍ عَلَيْهِ وقَامَ بِهِ ، وهذا تفسير جميل ، وهو أليق
 بكلام سيدنا رسول الله ، . وسُئِلَتْ عائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عن حُخَاقِ النَّبِيِّ صَلَّى
 اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالت : أوما تَقْرؤون القرآن : وإنك لعلَى حُخَاقٍ عَظِيمٍ ... وقالوا :
 صفاءُ الأخلاق من نَقَاءِ الأَعْرَاقِ . «الأعراق جمع عِرْق وهو الأصل يقال يقال رجل
 مُعْرِقٌ في الحسب والكرم قالت قتيلة بنت النضر بن الحارث أو أخته :

أُحْمَدُهُ وَأَنَا نَتِ ضَنْءٌ نَجِيَّةٌ فِي قَوْمِهَا وَالْفَحْلُ فُحْلٌ مُعْرِقٌ

أى عريق النسب أصيل ، ويستعمل في اللوم أيضا تقول : إن فلانا لمُعْرِقٌ في
 الكرم ، ومعرق في اللوم . والضنء : الولد والأصل والمعدن ، وقال البحرى :

سَلَامٌ عَلَى تِلْكَ الْخَلَائِقِ إِنَّمَا مُسَلَّمَةٌ مِنْ كُلِّ عَارٍ وَمَأْتَمٌ

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : ثلاثة من قريش أحسنها أخلاقا وأصبها
 وجوها وأشدّها حياءً ، إن حدّثوك لم يكذبوك ، وإن حدّثتهم بحقٍ أو باطل
 لم يكذبوك : أبو بكر الصّدِّيق ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وعثمان بن عفان
 رضى الله عنهم ...

وفي الأثر أيضا : أن حُسنَ الخُلُقِ وحُسنَ الجِوارِ يُعَمِّرانَ الدِيَارَ وَيَزِيدانَ
 فِي الأَعْمَارِ . وفي كتاب للهند : مَنْ تَزَوَّدَ خَمْسًا بَلَّغْتَهُ وآتَسْتَهُ : كَفَّ الأَذَى ،
 وحسن الخلق ، ومجانبة الرّيب ، والنّبيلُ في العمل ، وحسن الأدب

نهيهم عن سوء الخلق

وقالوا : سوء الخلق ينسد العمل كما ينسد الصبر العسل « الصبر هو هذا
 الدواء المر ولا يسكن إلا في ضرورة الشعر » وفي الحديث : مَنْ سَاءَ
 خُلُقُهُ عَذَّبَ نَفْسَهُ ، وقال العتّابُ :

وَكُنْتَ أَمْرًا لَوْ شِئْتَ أَنْ تَبَاغَ الْمَنَى بَلَغْتَ بِأُذُنِي غَايَةَ تَسْتَدِيمِهَا
 وَلَكِنْ فِطَامُ النَّفْسِ أَثْقَلُ حَمِيلًا مِنَ الصَّخْرَةِ الصَّمَاءِ حِينَ تَرُومُهَا
 وَقَالَ عِقَالُ بْنُ شَبَّهَةَ: كُنْتُ رَدِيفَ أَبِي، فَلَقِيَهُ جَرِيرٌ عَلَى بَغْلٍ، خِيَّاهُ
 أَبِي وَالطَّفَهُ، فَلَمَّا مَضَى قُلْتُ: أَبْعَدَ مَا نَالَ لَنَا مَا قَالَ! قَالَ: يَا بُنَيَّ، أَنَا وَسَّعُ
 جُرْحِي! . وَقَالَ ابْنُ الْحَنْفِيَّةِ: قَدْ يُدْفَعُ بِاحْتِمَالِ مَكْرُوهِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ...
 وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: إِنَّا لَنَكْثِرُ فِي وَجْهِهِ قَوْمٍ وَإِنْ قُلُوبَنَا لَتَقْلِبُهُمْ (١)
 وَقَالُوا: لَا مُدَارَاةَ لِلخَلْقِ السَّيِّئِ الْقَبِيحِ، كَالشَّجَرَةِ الْمُرَّةِ لَوْ طَلَيْتَ بِالْعَسَلِ
 لَمْ تُشْمَرْ إِلَّا مُرًّا، وَكَذَنَّبِ الْكَلْبُ لَوْ أَدْخَلْتَهُ الْفَالْبُ سَنِينَ لِعَادَ إِلَى أَعْوِجَاجِهِ.
 وَمَنْ طَرَفَهُمْ فِي هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ بَعْضِهِمْ لِأَحْمَدَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ: لَقَدْ أُعْطِيَتَ مَا لَمْ
 يُعْطَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: لَنْ لَمْ تَخْرُجْ مِنْ ذَلِكَ لِأَضْرِبَكَ،
 فَقَالَ الرَّجُلُ: إِنْ اللَّهُ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ: وَلَوْ كُنْتُ فِظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا تُنْفِضُوا
 مِنْ حَوْلِكَ وَأَنْتَ فِظٌ وَنَحْنُ لَا تُنْفِضُ مِنْ حَوْلِكَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: خَطَبْتُ
 امْرَأَةً، فَأَجَابَتْنِي فَقَالَتْ: إِنْ بِيِ الْخُفَّاقِ؛ فَقَالَتْ: أَسْوَأُ خُلُقًا مِنْكَ مِنْ يُلِجُكَ
 إِلَى سُوءِ الْخُفَّاقِ... وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِرَجُلٍ بِيِ الْخُفَّاقِ: إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَغْيِرَ
 خُلُقَكَ وَإِلَّا فَلَيسَعُكَ مِنْ أَخْلَاقِنَا مَا ضَاقَ بِهِ ذَرْعُكَ...

صعوبة تغيير الطباع والمتخلق يرجع إلى شيمته

قَالُوا فِي ذَلِكَ: تَأْبَى الطَّبَاعُ عَلَى النَّاقِلِ؛ وَ: الْعَادَةُ طَبِيعَةٌ ثَانِيَةٌ، وَ:
 ظَلَمْتُ امْرَأَةً كَلَّفْتَهُ غَيْرَ خُلُقِهِ . وَهَلْ كَانَتْ الْأَخْلَاقُ إِلَّا غَرَائِزًا
 وَ: كُلُّ إِنَاءٍ بِمَا فِيهِ يَرْتَشِحُ

(١) نكشر في وجوه قوم: أي نبسم في وجوههم وأصل الكشر: بدق الاسنان
 يكون ذلك في الضحك وغيره؛ وتقليهم: نبغضهم

و : * إِنَّ الْخَلْقَ يَأْتِي دُونَهُ الْخُلُقُ *

وقال ذو الإصبع العدواني :

وَمَنْ يَبْتَدِعْ مَا لَيْسَ مِنْ خِيَمِ نَفْسِهِ يَدْعُهُ وَيَغْلِبُهُ عَلَى النَّفْسِ خِيَمِهَا

« الخيم : السجية والطبيعة والأصل » وقال زهير بن أبي سلمى :

وَهُمَا يَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تَعَلَّمْ

وقال أبو تمام :

وَالسِّيفُ مَالِمٌ يُلْفَ فِيهِ صَقِيلٌ مِنْ سِنِّهِ لَمْ يَنْتَفِعْ بِصِقَالِ

« السنخ : الأصل ، والصقال : الجلاء » وقال المتنبي :

وَكُلُّ يَرَى طُرُقَ الشَّجَاعَةِ وَالنَّدَى وَلَكِنْ طَبَعَ النَّفْسِ لِلنَّفْسِ قَائِدٌ

وقال :

وَلِلنَّفْسِ أَخْلَاقٌ تَدُلُّ عَلَى الْفَقَى أَكَانَ سَخَاءً مَا أُنِيَ أُمَّ تَسَاخِيَا

مداراة الناس

قال النّظام^(١) : ما يسرني تركُ المداراةِ وليُّ حمرُ النّعم ، فقيل له : ولم ؟

قال : لأن الأمر إذا غشيك فشخصت له أردادك ، وإذا طأطأت له

تخطأك... وقال شاعر :

وَأَنْزَلَنِي طُولَ النَّوَى دَارَ غُرْبَةٍ إِذَا شِئْتُ لَا قَيْتُ امْرَأَةً لَا أَشَاكُهُ

خَامَفَتُهُ حَتَّى يُقَالَ سَجِيَّةٌ وَلَوْ كَانَ ذَا عَقْلِ لَكُنْتُ أَعَاقِلُهُ

وقال بشار بن برد :

وَمَا أَنَا إِلَّا كَالزَّمَانِ إِذَا صَحَا صَحُوتُ وَإِنْ مَاتَ الزَّمَانُ أَمُوقُ

« ماق يموق ، موقا وموقا وورقا واستماق ، كل أولئك : سحق في

(١) هو إبراهيم بن سيار شيخ الجاحظ وأحد كبار المعتزلة .

غباوة، ويقال: فلان أحمق مائق: والعرب تقول: أنت ثمق وأنا مثق، أى أنت ممتلىء غضبا وأنا سيئ الخلق، فلا تنفق، وقال معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه: لو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت، لأنهم إذا جذبوها أرسلتها، وإذا أرسلوها جذبتها، وهكذا كان معاوية نبي الحِلم والأناة والكياسة والرياسة والسياسة.

من حسن خلقه وخلقته ومن اختلف خلقه وخلقته

قال ابن الرومي:

كلُّ الخِلالِ التي فيكم محاسِنُكم تشابهتْ فيكم الأخلاقُ والخِلاقُ
 كأنكم شجرُ الأترجِ طاب معاً خَملاً ونوراً وطاب العودُ والورقُ

« الأترج والترنج: ثمر من فصيلة الليمون ويسميه أهل الشام الكبّاد، والحمل بفتح الحاء - والكسر لغة - ثمر الشجرة؛ ومن دة ثق هذه اللغة الكريمة أنها تفرق بين الحمل الذي يحمل على ظهر أو رأس، وبين الحمل الذي يحمل في البطن من الأولاد في جميع الحيوانات، فالأول يكسرون حاءه، والآخر يفتحون حاءه، قائلين: ما كان لازماً للشئ فهو حمل وما كان بائناً فهو حمل وأما حمل الشجرة فلما كان شبيهاً بحمل المرأة لا اتصاله فتحوا حاءه ولم كان يُشبهه حمل الشئ على الرأس لبروزه من جهة ولأنه ليس مستبطناً كحمل المرأة من جهة أخرى كسروا حاءه؛ والنور بفتح النون: الزهر، وفي الأثر: ما أحسن الله خاقاً أحد وخلقته فأطعمه النار... ووصف بعضهم رجلاً فقال: يقرى العين جمالا والأذن بياناً^(١)... وقال قتادة: ^(٢) ما بعث الله نبياً إلا حسن

(١) يقرى يريد: يطعم، ولك أن تضع مكان يقرى: يفترق، من قولهم في الحسناء إنما تفترق العين أى لا تدعها تنظر إلى غيرها جمالا (٢) هو أبو الخطاب قتادة بن دعامة

الْحَاقِ حَسَنَ الْوَجْهِ ... وَقَالَ الْفَلَّاسِيَّةُ: قَلَّ صَوْرَةُ حَسَنَةٍ تَتَّبِعُهَا نَفْسٌ رَدِيئَةٌ.
 وقال جالينوس: ينبغي الرجل أن ينظر إلى وجهه في المرآة، فإن كان
 حسن الوجه جعل عناية أن يضم إلى جمال وجهه كمال خلقه وكال نفسه،
 وإن رأى صورة سميحة تحرز من أن يكون دميم الخلق ذميم الخلق...
 ونظر فيلسوف إلى غلام حسن الوجه يتعلم العلم فقال: أحسنت، إذ قرنت
 بحسن خالقك حسن خُلقك... ونظر فيلسوف إلى رجل حسن الوجه خبيث
 النفس فقال: بيت حسن وفيه ساكن نذل... ورأى آخر شابا جميلا فقال:
 سلبت محابن وجهك فضائل نفسك... وقالوا:

فَلَا تَجْمَلِ الْحُسْنَ الدَّلِيلَ عَلَى الْفِتَى فَمَا كُلُّ مُصْقُولِ الْحَدِيدِ يَمَانِ
 وَ: أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَاءَ يَخْلُفُ طَعْمَهُ

وإن كان لون الماء في العين صافيا^(١)

واستعرض المأمون الجند فرَّ به رجل دميم، فاستنطقه، فرآه ألكن،
 فأمر بإسقاطه وقال: إن الروح إذا كانت ظاهرة كانت وسامة، وإذا كانت باطنة
 كانت فصاحة، وأراه لا ظاهر له ولا باطن...

«وبعد» فسيمر بك كثير من عبقرياتهم فيما يتصل بهذه المعاني ويمت إليها بسبب
 واصل، في باب الطبائع... وباب الصداقة والصديق... وباب عبقرياتهم
 في معاني شتى...

التقوى

وهاك اللون الأخير من ألوان البر، ولقد أسمعتك فيما أسلفنا أن التقوى

اللاكه كان من كبار علماء التابعين ولد سنة ٦٠ وتوفي سنة ١١٨ هـ

(١) خلف الماء واللبن والطعام من باب دخل: إذا تغير طعمه أو ريحه

هي عماد البرِّ وقوامه، على جميع ألوانه، أي أنه مادام هناك تقوى بمعناها الصحيح كان هناك صِلَةُ الرَّحِمِ، وكان هناك الإحسانُ، وكان هناك مكارم الأخلاق، وكان هناك الخير كله والبر في جميع ما يشتمل عليه وينتظمه، ولنورد عليك بادئ ذي بدء قولهم في التقوى والمراد بها، ثم نردف ذلك بعقوباتهم في التقوى وما يتأشب إليها... ويجرى منها على عرق...

معنى التقوى

التقوى في اللغة من الاتقاء، بمعنى اتخاذ الوقاية، وفي اصطلاحهم: صيانة النفس عما تستحق به العقوبة من فعل أو ترك، وقال أبو البقاء في كلياته: التقوى - على ما قاله علي رضي الله عنه - ترك المعصية وترك الاعتزاز بالطاعة، وهي التي يحصل بها الوقاية من النار والقوز بدار الفرار، وغاية النقي البراءة من كل شيء سوى الله، ومبدؤها اتقاء الشرك، وأوسطها اتقاء الحرام، وغايتها منتهى الطاعات، قال: وقد تُسمى التقوى خوفاً وخشية... أقول:

فإن لا يَكُنْها أو تَكُنْها فإنه أخوها غَدَتْه أمه بلبانها^(١)

وقد عقّد الإمام أبو حامد الغزالي للخوف كتاباً في كتابه الإحياء جاء فيه: إن التقوى والورع أسامٍ اشتقت من معانٍ شرطها الخوف، فإن خلت من الخوف لم تُسمَ بهذه الأسماء... أقول: ومن أروع ما قيل في الخوف قوله تعالى: إنما يخشى الله من عباده العلماء... أقول: وإذن يكون: كلما ازداد المرء علماً بالله سبحانه ازداد منه خوفاً، كما جاء في الأثر: أعلمكم بالله أشدكم له

(١) لابي الأسود الدؤلي في نبيذ التمر، واللبان بكسر اللام، يقال: هو أخوه بلبان أمه ولا يقال بلبان أمه، إنما اللبن: الذي يشرب من ناقة أو شاة أو غيرهما من البهائم.

خشية... ومن كان من العلماء لا يخشى الله ولا يرأبه في سائر أحواله، فليس من العلم بالله في كثير ولا قليل... وما أجمل ما يقول عبد الله بن همام السلولي^(١) في وصف هذا الصنف من العلماء:

إِذَا تَقَبَّرُوا لِلْقَوْلِ قَالُوا فَأَحْسَنُوا وَلَكِنْ حُسْنَ الْقَوْلِ خَالَفَهُ الْفِعْلُ
وَذَمُّوا نَسَالِدَهُمْ يَرَضِعُونَهَا أَفَارِيقَ حَتَّى مَا يَبْدُرُ لَهَا تُعْمَلُ
« قوله : إذا نصبوا الخ يريد : إذا نصبوا أنفسهم للقول وأعدوها له ،
والأصل في النَّصَب : أن يقوم رافعاً رأسه ؛ ورضع يرضع كضرب يضرب
في لغة قيس ، وكسَمِعَ يسمع في لغة أهل الحجاز ، وقوله : يرضعونها : تقرأ

(١) من التابعين ، وعداده في أهل الكوفة ، وبيناه المذكوران من آيات له قالها
للنعمان بن بشير الأنصاري عامل معاوية على الكوفة ، وكان معاوية أمر لاهل
الكوفة بزيادة عشرة دنانير في أعطياتهم فأبى النعمان أن ينفذها لم فقال عبدالله :

زِيَادَتَنَا نِعْمَانُ لَا تَحْمِرُنَنَا خَفِيَ اللَّهُ فِينَا وَالْكِتَابَ الَّذِي تَتْلُو
فِيكَ قَدْ حُمِلَتْ مِنَّا أَمَانَةٌ بِمَا عَجَزَتْ عَنْهُ الصَّلَاحَةُ الْبُزْلُ
وَإِنْ يَكُ بَابُ الشَّعْرِ يُحْسِنُ فَتَحَهُ فَلَا يَكُ بَابُ الْخَيْرِ مِنْكَ لَهُ قُفْلُ
فَقَدْ زِلْتَ سُلْطَانًا عَظِيمًا فَلَا يَكُنْ لِغَيْرِكَ جَمَاتُ النَّدَى وَاللَّكُ الْبُخْلُ
وَأَنْتَ امْرُؤٌ حَلَوُ الْأَسَانِ بَلِيغُهُ فَمَا بِالْهُ عِنْدَ الزِّيَادَةِ لَا يَجْلُو
وَقَبْلَكَ قَدْ كَانُوا عَلَيْنَا أَيْمَةٌ يَهْمُهُمْ تَقْوِيمُنَا وَهُمْ عُصَلُ

والصلاخه : الصلاب المانعة وفي الحديث : عرضت الأمانة على الجبال الصم الصلاخه
وأصل الصلخه : البعير الجسم الشديد الماضي ، والبزل : جمع بازل ، ويقال رجل بازل
على التشبيه بالبعير ، يعنون بذلك كمال عقله وتجربته واستكمال قوته . وجات : كثيرات ،
وقوله : كانوا علينا أئمة فاعل كانوا وهذا على لغة أكلوني البراغيث وإذا رجعت
الضمير في كانوا إلى المذكورين في البيت الثاني فتكون أئمة خبر كانوا ، وعصل : فالعصل
الاعوجاج وكل معوج فيه صلابه : أعصل .

بكسر الضاد وبفتحها؛ وأفاريق جمع أفراق جمع فيقه بكسر الفاء ، وهو اسم لللبن الذي يجتمع بين الحلبتين ، يريد : أنهم يرضعونها ثم يتركونها مقدار ما يجتمع اللبن فيرضعونها ، وهكذا ، والتعل بضم التاء وفتحها : خُلف زائد صغير من أخلاف الناقة وضرع الشاة لايدرُ من اللبن شيئاً ، يصفُهُم بأنهم أحرص الناس على طلب المال يستنزفونه من خزائنه حتى لم يبق منه شيء ، وإنما ذكر التعل المبالغة في الارتضاع ، والتعل لايدرُ ، وهي مبالغة حسنة في معنى الاستئصال والتفاد ،



ومما جاء في الخوف أيضاً قوله سبحانه : وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ، وقوله جل شأنه : وخافون إن كنتم مؤمنين ، وقوله : وهدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ، وقوله تعالى : إنما المؤمنون الذين إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَّتْ لُوبُهُمْ وإذا نُزِلَتْ عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ؛ وقال عز وتقدس : واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه ... قال سفيان بن عيينة : لو لم يُنزل اللهُ تعالى علينا إلا هذه الآية لكان قد أعذرنا ، أعذر : بلغ أقصى الغاية في العذر ، أى صار معذوراً عندك إذ حذرك أن لا تحذره وهو يعلم ما في أنفسنا ؛ ومن هذا المثل : من أنذر فقد أعذر ،

ومما يؤثر في باب الخوف قوله صلى الله عليه وسلم : رأس الحكمة مخافة الله .

الحكمة

وهذا الحديث الشريف - على وضوحه وجماله وإشراقه وإنارته، وعلى أنه مما كنا نستظهره إبانَ الحدائث، إذ يلتقوننا إياه أوائل التعاليم في المكاتب لا بد من التبسط في القول عليه . قال صاحب القاموس : الحكمة تأتي بمعنى العدل ^(١) والعلم ^(٢) والحلم ^(٣) والنُّبُوَّةُ ^(٤) والقرآن والإنجيل ^(٥) ووضع الشيء في موضعه وصواب الأمر وسداده ، وقال أبو البقاء في كليته - بعد أن أورد ما قال صاحب القاموس - : والحكمة في عرف العلماء : استكمال النفس الإنسانية ، باقتباس العلوم النظرية واكتساب الملكة النامة على الأفعال الفاضلة قدرَ طاقتها ، قال : وقال بعضهم : الحكمة هي : معرفة الحقائق على ما هي عليه بقدر الاستطاعة ، وهي العلم النافع المُعَبَّرُ عنه بمعرفة مالها وما عليها ، المُشار إليه بقوله تعالى : ومن يُؤتِ الحكمة فقد أُوتِيَ خيراً كثيراً . وإفراطها التجرُّبُزة ^(٥) وهي استعمال الفكر فيما لا ينبغي كالمتشابهات ^(٦) ، وعلى وجه لا ينبغي كمنخالفة

(١) ضد الجور ، فلا يميل بصاحبه الهوى حتى يجور في الحكم

(٢) أى العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه والعمل بمقتضاها

(٣) هو ضبط النفس عندهيجان الغضب (٤) فالحكمة في قوله تعالى : ويعلمه الكتاب والحكمة وقوله : وآتاه الله الملك والحكمة وقوله : وآتيناها الحكمة : بمعنى النبوة والرسالة ، كما أنها تأتي بمعنى القرآن والإنجيل ، لتضمن كل منهما الحكمة في لونها - العلية والعملية .

(٥) يقال في اللغة : رجلٌ جُرْبِزٌ : خب خداع خبيث منكر والظاهر أن الجرْبِزة

والجرْبِز والقربز معربات (٦) قال صاحب اللسان - بعد أن أورد كلاماً كثيراً في

معنى المتشابه من القرآن وفي الحديث - في صفة القرآن : آمنوا بمتشابهه واعملوا بحكمه :

الشرائع؛ وتفر يطؤها: الغباوة التي هي: تعطيل القوة الفكرية والوقوف عن اكتساب العلم... انتهى .

«وبعد» إن المُسْتَقْصَى لكل ما أوردوه من معاني هذه الكلمة - الحكمة - يرجع إلى إحكام الشيء ، أي إتقانه ، كيلا يتسرب إليه خللٌ أو فسادٌ ، وكى يبلغ ذروة الكمالُ جهْدَ الاستطاعة ، حتى قيل لكل من يُحسن دقائق الصناعات ويُثَقِّنُها : حكيم ، ومن ثم يقال للعالم العامل بعلمه : حكيم ، والرجل العاقل المُهْتَدِبُ المُوَفَّقُ : حكيم ، وللقاضي العادل في أحكامه : حكيم ، وللرجل المجرب الذي حنَّكته التجاريب ووثَّقته حتى لا يصدر عنه إلا كلُّ ما هو سَدَادٌ : حكيم ، ويقال للوواعظ والأمثال التي ينفع الناس بها : حكمة ، ولكل كلام نافع يمنع من الجهل والسَّفَهَ : حكمة ، ومن ذا تسميةُ القرآن والإنجيل وسائر الكتب المنزلة ، وكلُّ ما يحذرو على حذوِّها ، مما يضمن مراعظ وآداباً وأخلاقاً فاضلة : حكمة ، إذ كل أولئك يرتدُّ إلى معنى الإتيقان والتوثيق والإصابة والسَّدَادُ ... وإذن يكون معنى قوله صلى الله عليه وسلم : رأس الحكمة مخافة الله : أس الحكمة وقواؤها : الخوف منه سبحانه ، لأن الحكمة من شأنها أن تمنع النفس عن كل ما نهينا عنه ، ولا يحذرو المرء على العمل بها إلا الخوف منه ، عزو تقديس ، ومتى كان هذا الخوف شعاره حاسب نفسه على كل خطرة ونظرة ولذة ؛ وبذلك تكون مخافة الله آكد أسباب النجاة ولا تَتِمُّ الحكمة إلا بها ...



المشابهة : ما لم يتلق معناه من لفظه ، وهو على ضربين : أحدهما إذا رَدَّ إلى المحكم عرف معناه الآخر ، مالا سبيل إلى معرفة حقيقته ، فالمتبع له متبع للعتة لانه لا يكاد ينتهي إلى شيء تسكن نفسه اليه وراجع اللسان مادة شبه ،

هذا، ويُعجبني من الشعر في باب الخوف من الله قول محمود الورّاق (١) :

يا ناظراً يَرْنُو بعَيْنِي رافِدٍ ومُشاهِداً للأمرِ غيرُ مُشاهِدٍ (٢)
 مَنَيْتَ نَفْسَكَ ضَلَّةً وَأَبْجَتْهَا طُرُقَ الرَّجاءِ وَهَنَّ غيرُ قَواصِدِ (٣)
 تَصِلُ الذُّنُوبَ إلى الذُّنُوبِ وترْتَجِي دَرَكَ الجِنانِ بها وفَوْزَ العابِدِ (٤)
 وَنَسَيْتَ أَنَّ اللهَ أَخْرَجَ آدَمًا منها إلى الدنيا بِذَنْبٍ واحدٍ

وقال الحسن البصري : إن خوفك حتى تَلْقَى الأَمَنَ ، خير من أَمْنِكَ حتى تَلْقَى الخوفَ ... وقال : يذنبني أن يكون الخوفُ أغْلَبَ على الرَّجاءِ ، فإن الرَّجاءَ إذا غلب الخوفُ فَسَدَ القلبُ ... وقال بعضهم : قلت لِسُفْيَانَ : بلغني في قول الله تعالى : (إِلَّا مَنْ أتَى اللهَ بقلب سليم) أنه الذي يَلْقَى رَبَّهُ وليس فيه أحد غيره ، فبكي وقال : ما سمعت منذ ثلاثين سنة أحسنَ من هذا التفسير ... وقالوا : من خافَ اللهَ أخافَ اللهُ منه كلَّ شيءٍ ، ومن لم يخَفِ اللهُ أخافه اللهُ من كلِّ شيءٍ ... وقال الفضيل بن عياض : إني لَأَسْتَجِي من الله أن أقول توَكَّلْتُ على الله ، ولو توَكَّلْتُ عليه حتَّى التوكل ، ماخِفتُ ولا رَجوتُ غيره .

• وأما بعد ، فهو معلوم من الدين بالضرورة أن الله سبحانه خلق الإنسان وهو يعلم ما تَوَسَّوسَ به نفسه ، وهو أقربُ إليه من حبل الوريد (٥) ما يَلْفُظُ من قولٍ إلا لديه رقيب عتيد (٦) ، وإنَّ عليكم لحافظين كراماً كاتبين

(١) هو محمود بن الحسن الورّاق البغدادي مولى بنى زهرة يكنى أبا حسن ، شاعر كثير الشعر جيدة ، وبعثته في الحكم والمواعظ والزهد ؛ ترجم له صاحب فوات الوفيات .

(٢) يرنو : ينظر (٣) غير قواصد ، يريد : وهي حائرة غير مستقيمة

(٤) درك : اسم من الإدراك

(٥) حبل الوريد : عرق في العنق (٦) عتيد : حاضر

يعلمون ما يفعلون (١) :

إِنْ مَنْ يَرْكَبُ الْقَوَاحِشَ سِرًّا حِينَ يَخْلُو بِسِرِّهِ غَيْرُ خَالٍ
كَيْفَ يَخْلُو وَعِنْدَهُ كَاتِبَاهُ شَاهِدَاهُ، وَرَبُّهُ ذُو الْجَلَالِ (٢)

وكذلك هو معلوم ، أن الناس قواري الله في أرضه (٣) ، أى أن الناس ولا سيما الصالحون منهم - شهود الله في أرضه - لأنهم يتتبع بعضهم أحوال بعض ، فإذا شهدوا لإنسان بخير أو بشر فقد أوجب (٤) ... وبعبارة أخرى : إن على كل إنسان رقباء هم له بالميرصاد ، يُزَنُّونَ عَلَيْهِ (٥) ، وَيَجْمَعُونَ بِالْهَمِّ إِلَيْهِ ، وَلَا تَكَادُ تَخْفَى عَلَيْهِمْ خَلِيقَةٌ لَدَيْهِ :

وهما يكن عند امرئ من خايقة وإن خالها تخفى على الناس ، تعلم
أليس في نفس كل إنسان قَبَسٌ من نور الله الذى هو نور السموات والأرض ؟ والناس بهذا النور - ولا سيما الصالحون منهم ، أولئك الذين يبدو فيهم هذا النور خالصاً غير مشوب برين وطبع وغيم - يرون بعضهم من بعض ما قد يتوهم الجاهلون أنه لا يرى ، فكأن الناس لذلك شهود الله في

(١) كل هذه آيات كريمة مقتبسة من القرآن الكريم (٢) هذان البيتان لنا بعة بنى شيبان واسمه عبد الله بن المخارق بن سليمان ، شاعر بدوى كان يفد إلى ملوك بني أمية بالشام وأكثر من مدح منهم الوليد بن يزيد (٣) حديث شريف ، وقوارى : أخذ من أن الناس يقرون الناس ، أى يتبعونهم فينظرون إلى أعمالهم ، وقال الزخشرى : المسلمون قواري الله في الأرض ، أى أمناؤه وشهداؤه الميامين ، شهبوا بالقوارى من الطير وهى الخضر التى يتبعون بها

(٤) يقال : أوجب الرجل : إذا عمل عملاً يوجب له الجنة أو النار ، والموجبة : الكلمة أو الفعلة توجب لفاعلها الجنة أو النار

(٥) زناً عليه : إذا ضيق عليه ، وعامة المصريين يستعملون اليوم هذا الحرف

بمعناه الصحيح

الأرض ، فإذا شهدوا لإنسان بخير أو بشر ، فلكل نفس ما كتبت وعليها ما كتبت ، وكل تجزئ بعمله ، إن خيراً بخير وإن شراً فشر ، وهذا كله حتى لا سبيل إلى الإلحاد فيه ... وشيء آخر ، وهو أن من كان شعاره خوف الله في السر والعلن وحسنت سريرته ، رشده وحسنت سيرته ، وعن عراه الله من هذا الشعار وساءت سريرته ، غي وساءت سيرته . وجملته القول : أن خوف الله وما يستتبعه من قلة الاكتراث لما سواه من الخلق في سبيل الحق ، مما يورث صاحبه ما يظلمقرن عليه اليوم « الشجاعة الاديبة » ، فضلاً عن الجرأة والإقدام وسائر الخلال الكريمة النبيلة . نخوف الله كما ترى أس من أسس الأخلاق ، وهذا مصداق الحديث الشريف ، رأس الحكمة مخافة الله ، ...

هذا ، وقد يظن ظان أن مخافة الله مغزاهما الخوف من عقابه والطمع في ثوابه ، فمن عمل صالحاً فسكى يثاب ويجزى الجزاء الأوفى ، ومن أتبع فلكي ينجو من عذاب النار ، وهذا لعمري ، وإن عده خوفاً ، بيد أنه أدنى درجات الخوف ، وهو خوف العامة وأشبه العامة . قال بعض الحكماء : إني لأستحي من ربي أن أعبيده رجاء الجنة فأكون كاللاجير ، أو خوف النار فأكون كعبد السوء ، إن خاف عميل وإن لم يخف لم يعمل ، لكن يستخرج من حب ربي ما لا يستخرجه غيره .. وقال بعضهم : من عبد الله بعوض فهو لثيم . وقال بعض الصوفيّة : لو لم يكن لله ثواب برجي ولا عقاب يخشى لكان أهلاً أن لا يعصى ، ويذكر فلا يذمى ، بلا رغب في ثواب ولا رهب من عقاب ، لكن ليجبه ، وهو أعلى الدرجات ، أما تسمع قول موسى عليه السلام : وجمعت إليك رب لترضى ، أقول : . إذن فأفضل الأعمال ما كان

للحقِّ والخير والجمال والمثل الأعلى في ذات الله العليّ الأقدس الذي له
الاسماء الحسنى (١).

وَلْتَفْعَلِ النَّفْسُ الْجَمِيلَ لِأَنَّهُ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ لِأَجْلِ ثَوَابِهَا (٢)
أما الثواب والعقاب فالله سبحانه وما يُعَدُّ لعبده من ذلك، وحقيق بالعبد أن
يُحَسِّنَ ظَنَّهُ بِرَبِّهِ وَيَرْجُو لَدَيْهِ رَحْمَتَهُ الَّتِي وَسَّعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، وليكن كما قال محمد بن
وهيب :

وإني لأرجو الله حتى كأنني أرى بجميل الظنِّ ما الله صانع
وسيمُّ عليك تريباً طرُف من توهم في الرجاء.

عقرياتهم في التقوى

ولناخذ الآن في عقرياتهم في التقوى : قال الله سبحانه : « إن أكرمكم عند
الله أتقاكم » قال الإمام البيضاوي في تفسيره : فإن التقوى بها تكمل النفوس
وتفاضل الأشخاص ، فمن أراد شرفاً نليتيمسه فيها ، كما قال عليه الصلاة والسلام :
« مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَكْرَمَ النَّاسِ فَلْيَتَّقِ اللَّهَ ، وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَقْوَامٌ فَلْيَتَوَكَّلْ
عَلَى اللَّهِ ، وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَغْنَى النَّاسِ فَلْيَكُنْ بِمَا فِي يَدِ اللَّهِ أَوْثَقَ مِنْهُ
بِمَا فِي يَدَيْهِ ... » أقول : هذا كلامٌ عُلوَى مُعَرَّقٌ له في الصدق والحق والكمال
والمثل الأعلى .

(١) الحسنى : تأكيد الاحسن يقال : الاسم الاحسن والاسماء الحسنى . والاسماء
الحسنى معروفة وهي ٩٩ اسماً ، انظر نهاية الأرب ج ٥ ص ٢٢٦ ، ومرادنا بقولنا
« والله الاسماء الحسنى : الصفات ، وهي الوجدانية والقدرة الى آخر مسميات هذه الاسماء
الحسنى ... » وقد جاء في القرآن الكريم : « والله الاسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذنوب
يلحدون في اسمائه سيجزون ما كانوا يعملون » سورة الاعراف ،
(٢) للمعري ، وقد تقدم هذا البيت صدر باب البر والتقوى .

كَلِمَةٌ فِي التَّوَكُّلِ

«وبعد» فللمناسبة ذكر التوكل واقتراينه بالتقوى فيما أوردنا عليك من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، وإشادة الإسلام به، والحث على أن يكون شعار المؤمن في كل أسبابه، رأينا أن نُنِلمَ به وبحقيقته إماما. فنقول: التوكل: كلمة يراد بها أمران، لا يُعَدُّ التوكل توكلا على الحقيقة إلا إذا تحققت معا. فأما أول الأمرين فهو: الاعتقاد بأن الله عزَّ وتقدَّس هو وحده الذي بيده كلُّ شيء، وأنه لا سواه الذي له مقاليد السموات والأرض، وأن جميع الخلق فقراء كلَّ الفقر إلى عونه سبحانه، وأنه:

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَوْنُ اللَّهِ لَلْفَتَى فَأُولَ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ
وكل هذا مما لا يخفاء بأنه مما تقتضيه عقيدة التوحيد التي قام عليها الإسلام؛ وأما الأمر الآخر فهو: أن لا يكون المرء وُكَلَّةً، فلا يعتمد بعد الله إلا على نفسه، وهذا الأمر الثاني يكاد يكون ضَرْبَ قولهم اليوم «الاعتماد على النفس» أو قول الطغرائي:

وَإِنَّمَا رَجُلٌ الدُّنْيَا وَوَأَحَدُهَا مَنْ لَا يُعَوَّلُ فِي الدُّنْيَا عَلَى رَجُلٍ
والشطر الأول، يقتضى الاعتقاد بالقدر خيرَه وشره، والشطر الآخر يقتضى السعى والاحتياط لأمره، ولا تنافرَ بينهما ألبتَّة، وإنما هما، لدى إنعام النظر، شيء واحد يُعبَّرُ عنه بالتوكل...

جاء رجل إلى سيدنا رسول الله فقال له: إني أرسلُ نأقتى وأتوكل: فقال صلوات الله عليه: بل اعقلها وتوكل... ومرَّ الشَّعْبِيُّ بِأَبِي قَدْفِشَا فِيهَا الْجَرْبَ، فَقَالَ لِصَاحِبِهَا: أَمَا تَدَاوِي إِيَّاكَ؟ فَقَالَ: إِنْ لَنَا مَجْوَزٌ أَتَّكَلُ عَلَى دَعَائِهَا فَقَالَ: اجْعَلْ مَعَ دَعَائِهَا

شيئا من القِطْران ... وقال أبو عبيدة بن الجراح لعمر رضى الله عنه حين كره طواعين الشام ورجع إلى المدينة : أ تفرُّ من قدر الله ؟ قال : نعم ، إلى قدر الله ... فقال له أينفع الحذرُ من القدر ؟ فقال : لسناء هناك في شيء « تأمل ، إن الله لا يأمر بما لا ينفع ولا ينهى عما لا يضر » ألتى بالك ، وتدقال تعالى : ولا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ، وقال تعالى : خذوا حذرکم ... وفي كتاب كلیلة : لا يمنعُ العاقلُ يقينهُ بالقدر من تَوَقُّي الخوفِ ، بل ليجمع تصديقاُ بالقدر وأخذاً بالحزم ، وقال شاعر :

والمرءُ تلقاهُ مضياً عاً لفرصته حتى إذا فات أمرُ نائبِ القَدَرَا
وقال آخر :

إذا عبُرُوا قالوا مقاديرُ قدَّرتُ وما العارُ إلا ما تجرُّ المقاديرُ
وقال آخر :

وأولُ عجزِ القومِ عَمَّا ينوبُهُم تَدَا فَعُهُم عنه وطولُ التَّوَاكُلِ
وقالوا في المثل : من العجز الإحالةُ على المقادير ...

وإليك ما قاله الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني في شرحه على صحيح البخارى المسمى فتح البارى ^(١) تأييداً لهذا الذى قلنا فى التوكل : والمراد بالتوكل : اعتقادُ مادلت عليه الآية : وما من دابةٍ فى الأرض إلا على الله رزقها ، وليس المراد به تركُ التَّسَبُّبِ ، والاعتماد على ما يأتى من المخلوقين ، لأن ذلك قد يجرُّ إلى ضدِّ ما يُراد من التوكل ، وقد سُئِلَ أحمد - بن حنبل - عن رجلٍ جلس فى بيته أو فى المسجد وقال : لأعمل شيئاً حتى يأتينى رزقى ، فقال : هذا رجلٌ جهل العلم « تأمل » فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن الله جعل رزقى تحت ظلِّ رُجْحِي ،

وقال: لو توكلتم على الله حقّ توكله لرزقكم كما تزرق الطير تغدو وخماصاً وترووح بطاناً^(١)، فذكر أنها تغدو وترووح في طلب الرزق؛ قال: وكان الصحابة يتجرون ويعملون في نخيلهم، والقُدوة بهم... انتهى. «وبعد» فإن التوكل كما ترى وعلى ضوء هذا الذي قلنا: أُس من أُسس الأخلاق، إذ أنه يكسب صاحبه الجرأة والإقدام والشجاعة الأدبية، وأن لا يخشى في الحقّ لومة لائم، ويُنقى عنه الجبن والتخاذل والخوف من الموت والجزع لدى نزول المصائب وما يجرى هذا المجرى؛ ويكسب صاحبه كذلك خُلق الاعتماد على النفس وأن لا يتسكل بعد الله إلا على نفسه. ومصدق هذا كله قوله صلى الله عليه وسلم: من سرّه أن يكون أعزّ الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يده، ومن سرّه أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله.

عود إلى عبقرياتهم في التقوى

وقال سبحانه: ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتوكل على الله فهو حسبه، إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً «مخرجاً»: مخلصاً من مضايق الدهر، وقوله سبحانه: من حيث لا يحتسب، أي من وجه لا يخطر بباله ولا يقع في حسابه، وبالغ أمره: يبلغ ما يريد ولا يفوته مراد ولا يُعجزه مطلوب، وجعل لكل شيء قدراً: أي تقديراً وتوقيتاً، وهذا بيان لوجوب التوكل على الله وتفويض الأمر إليه، لأنه إذا علم أن كل شيء من الرزق ونحوه لا يكون إلا بتقديره وتوقيته لم يبق إلا التسليم للقدر والتوكل، ولا معنى للشُّخط وعدم الرضا، وعنه صلى الله عليه وسلم: إني لأعلم

(١) أي تغدو بكرة وهي جياح وتروح عشاء وهي ممتلئة الأجواف.

آية لو أخذ الناس بها لكفّتهم : ومن يتق الله... الآية . وقال سبحانه : يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون . « حق تقاته أي حق تقواه ، ودوا استفراغ الوضع في القيام بما أمر الله به واجتباب ما نهى الله عنه ، ومثله : فاتقوا الله ما استطعتم ، يريد : باليقوا في التقوى حتى لا تموتوا من المستطاع شيئاً ، وعن عبد الله بن مسعود : هو أن يُطاعَ فلا يُعصى ويُشكرَ فلا يُكفرَ ويُذكرَ فلا يُنسى ، وقيل : هو أن تُنزهَ الطاعات عن الالتفات إليها ، وعن تَوَقُّعِ المجازاة عليها ، وقيل : هو أن لا تأخذَه في الله لونه لائم وأن يقوم بالقسط - العدل - ولو على نفسه أو ابنه أو أبيه ، وقال سبحانه : إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون « محسنون : أي في أعمالهم ، من أحسن الشيء : أتقنه » ... وقال بزرجهر : من قورى فليقتو على طاعة الله ، ومن ضُفّ فليضمف عن مصيبة الله ... قال ابن المقفع : ليحرص البلغاء أن يزيدوا على هذه الكلمة - كلمة بزرجهر - حرفاً ، « يريد : أنها كلمة جامعة » . وقال عبد الملك بن مروان لبيته في مرّضه : أوصيكم بتقوى الله ، فإنها أزين حلة وأحصن كهف ، فقال مسلمة بن عبد الملك - وكان حاضراً - وأثرب إلى الصواب ، وأنفع في الدآب : فقال عبد الملك : هاتان لا إلا وليان ... « الحلة : كل ثوب جديد ، ولا يقال له حلة إلا إذا اجتمع معه ثوب آخر وعمامة ، والكهف : الملجأ ، وأصله كالبيت المنقور في الجبل » ، وقال الخطيب :

ولست أرى السعادة تجمّ مالٍ ولكن التقى هو السعيد

وتقوى الله خيرُ الرّادِ ذخراً وعند الله للأنسى مزيدٌ

وما لا بدّ أن يأتي : قريب ولكن الذي يمضى بعيد

وقان الأعشى في أبياته التي مدح بها سيدنا رسول الله :

أَجِدُّكَ لَمْ تَسْمَعْ وَصَاةَ مُحَمَّدٍ نَبِيَّ الْإِلَهِ حَيْثُ أَوْصَى وَأَشْهَدَا
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرَحَّلْ بَزَادٍ مِنَ الثُّنْيِ وَلَا قَيْتَ بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ قَد تَزُودَا
نَدَيْتَ عَلَى أَنْ لَا تَكُونَ مَكَانَهُ فَتُرْصِدَ لِلْمَوْتِ الَّذِي كَانَ أَرْصَدَا

« قوله : أجدك قال سيديوبه : هو مصدر كأنه قل . أجداً منك ، ولكنه لا يستعمل إلا مضافاً ، وقال الأصمعي : أجدك ، معناه : أجد هذا منك ونصبا بطرح الباء ، وقال الليث : من قال : أجدك بكسر الجيم فإنه يستحلفه بجدّه وحقيقته ، وإذا فتح الجيم استحلفه بجدّه ، وهو بجنه تقول : أجدك لا تفعل كرا ، وأجدك لا تفعل كذا . وأرصد : أعد ، وقال لبيد :

إِنَّ تَقْوَى رَبَّنَا خَيْرٌ نَفْلٌ وَيَاذَنْ اللَّهُ رَيْثِي وَعَجَلٌ
أَحْمَدُ اللَّهُ فَلَا نِدَاءَ لَهُ بِيَدَيْهِ الْخَيْرُ مَا شَاءَ فَعَلٌ
مَنْ هَدَاهُ سُبُلَ الْخَيْرِ اهْتَدَى نَاعِمَ الْبَالِ وَمَنْ شَاءَ أَضَلُّ

« النزل : الغنيمة والجمع أنمال ، ثم قل لبيد : وياذن الله وتسميله ريثي ، أي بطني ، وعجل : أي سرعتي ، فحذف ياء الإضافة للوزن : يقول ، إن الحركة والسكون بيد الله ، ولا ند له : لا مثل له ، ويديه الخير : أي بقدرته التي هي كالألة في أفعاله تعالى ، كاليدين في أفعالنا ، وثنية اليد للباغة في التشبيه ، وما شاء فعل : أي ما أراه فعله وبين ذلك بالبيت الثالث ، ... وقال أبو نؤاس :

أَخِي مَا بَالُ قَلْبِكَ لَيْسَ يَنْتَقِي كَأَنَّكَ لَا تَأْظُنُّ الْمَوْتَ حَقًّا
أَلَا يَا بَنَ الَّذِينَ فُؤُوا وَبَادُوا أَمَا وَاللَّهِ مَا ذَهَبُوا لِتَبَقِي
وَمَا أَحَدٌ بَزَادِكَ مِنْكَ أَحْظَى وَمَا أَحَدٌ بَزَادِكَ مِنْكَ أَشَقِي
وَلَا لَكَ غَيْرَ تَقْوَى اللَّهِ زَادٌ إِذَا جَمَلْتَ إِلَى اللَّهِوَاتِ تَرْتَقِي

« جعلت : يريد النفس أو الروح وإن لم يتقدم لذلك ذكر، واللّهيات جمع لهأة وهى : لحمه حمراء فى الحنك معاينة على عكدة اللسان، وقال أبو التماهية :

أطع الله بجهديك عامداً أو دون جهديك
أعط مولاك كما تطلب من طاعة عبدك

وقال بعض المتصوفة : من كان مع الله فقد هلك ، وإنما نجاح من كان الله معه ، وقال رجل للشبلى : متى يقرب العبد من ربه ؟ فزعم ثم أنشد :

من لم يكن للوصال أهلاً فكل إحسانه ذنوب

وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى ابنه عبد الله فى غيبة غابها :
أما بعد ، فإنه من اتقى الله وقاه ، ومن توكل عليه كفاه ، ومن شكره زاده ،
ومن أقرضه جزاه ، فاجعل التقوى جلاء بصرك ، وعماد ظهرك ، فإنه
لا عمل لمن لا نية له ، ولا أجر لمن لا حسنة له ، ولا جديد لمن لا خلق له ...
« قوله : ومن شكره زاده : فسيمر عليك قريبا معنى الشكر ، وقوله : ومن
أقرضه جزاه ، فالقرض فى الأصل : ما يعطيه الرجل أو يفعله ليجازى عليه ،
ولما كان الله سبحانه لا يستقرض من عوز فقد قالوا فى مثل قوله تعالى :
وأقرضوا الله قرضا حسنا ، و : من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له :
إن القرض معناه الفعل الحسن من اتباع أمر الله وطاعته ، والعرب تقول لكل
من فعل إليه خيراً : قد أحسنت قرضى وقد أقرضتنى قرضا حسنا ، وفى
الحديث : أقرض من عريضك ليوم فقرك ... يقول صلوات الله عليه : إذا
نال عريضك رجل فلا تجازه ، ولكن استبق أجره موفرا لك قرضا فى ذمته
لتأخذه منه يوم حاجتك إليه ، ... وقال عمر بن عبد العزيز : ليست التقوى
قيام الليل ولا صيام النهار والتخليط فيما بين ذلك ، ولكن التقوى ترك

مأحرّم الله وأداء ما افترض الله ، فمن رُزق خيراً بعد ذلك فهو خيرٌ ... وقال رجل للحكيم : أوصني : فقال : إن استطعت أن لا تُسبىء إلى من تُحِبُّ فافعل ، فقال : وهل يُسبىء المرءُ إلى من يُحِبُّ ؟ قال : نعم : نفسُك إن عصيت الله .

التقوى مع الجهل

قال الحسن البصري : أدركتُ يوماً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : مَنْ عَمِلَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ مَا يُفْسِدُهُ أَكْثَرَ مِمَّا يُصْلِحُهُ ... وقال أيضاً : قَصَمَ ظَهْرِي عَالِمٌ لَزُهْدَ مَعَهُ ، وَزَاهَدٌ لِعِلْمِ مَعَهُ ، هَذَا يَدْعُو إِلَى جَهْلِهِ بِزُهْدِهِ ، وَهَذَا يُتَّقَرُّ عَنْ عَلَيْهِ بِجُرْصِهِ : وَقِيلَ لِأَنُوشِرَوَانَ : أَيُّ النَّاسِ أَوْلَاهُمْ بِالسَّعَادَةِ ؟ فَقَالَ : أَفْلَهُمْ ذُنُوبًا ، قِيلَ : وَمَنْ أَفْلَهُمْ ذُنُوبًا ؟ قَالَ : أَكْثَاهُمْ عَقْلاً ... وَسَيِّدَ الْكَلَامِ فِي هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ تَعَالَى : إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ؛ وَقَدْ تَقَدَّمَ آخِراً . وَفِي الْأَثَرِ : يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قُرَاءَةُ فَسَقَةٍ وَعِبَادَةٌ جَهْلَةٌ ، وَرُكْعَةٌ مِنْ عَالِمٍ أَفْضَلُ مِنْ سَبْعِينَ رُكْعَةً مِنْ عَابِدٍ لَا عِلْمَ مَعَهُ .

التماوت والإفراط في الخشوع

والأصل في هذا المعنى قواه صلى الله عليه وسلم لرجلٍ جَدَّ في العبادة حتى غارت عيناه : إن هذا الدينَ متينٌ ، فأوْغِلَ فيه برفقٍ ، ولا تُبَغِّضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ رَبِّكَ ، فَإِنَّ الْمُنْتَبِتَ لِأَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى ، وَلَنْ يُشَادَّ هَذَا الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ ... «متين : أى شديد ، من متن متانة : أشدُّ وقوى ، قال تعالى : وَأْمُرْ لِمَنْ إِنْ كِيدَىِ مَتِينٌ ، وَقَوْلُهُ : فَأَوْغِلَ فِيهِ بَرَفَقٍ : أَي ادْخُلْ ، وَأَصْلُ الْإِيغَالِ : الْإِمْعَانُ فِي السَّيْرِ وَالْإِبْعَادُ فِيهِ يَقُولُ : سِرَّ فِي الدِّينِ بَرَفَقٍ وَلَا تَحْمِلْ

على نفسك فتكلفها ما لا تطيق فتجز وتترك العمل ، والمنبت : الذى أتعب
 دَابَّتُهُ حتى عَطِبَ ظَهْرُهُ فَبَقِيَ مُنْقَطِعاً بِهِ ، من الانبتات وهو الانقطاع ...
 ورأى عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلاً مُطَأْطِئاً رَأْسَهُ ، فقال له : ارفعْ
 رَأْسَكَ ، فإن الإسلام ليس بمريض ... ونظر يوماً إلى رجلٍ مُظْهِرِ النَّسْكِ
 مُتَمَاوِتٍ ^(١) خَفَقَهُ بِالِدَّرَةِ وقال : لَا تُمِتْ عَلَيْنَا دِينَنَا أَمَا تَكُ اللَّهُ ... ونظرت
 السيدة عائشة رضى الله عنها إلى رجلٍ كَادَ يَمُوتُ تَحَاوُفًا ^(٢) فقالت : ما لهذا ؟
 فقالوا : أحدُ القُرَاءِ ، فقالت : قد كان عمر بن الخطاب سَيِّدَ القُرَاءِ ، فكان إذا
 قال أسمع ، وإذا شئى أَسْرَعَ ، وإذا ضرب أَوْجَعَ ... وقال صلى الله عليه وسلم :-
 إن الله بعثنى بالحنيفية السمحة ولم يبعثنى بالرهبانية ، فمن رغب عن سُنتى
 فليس منى ...

قِلة اليقين فى الناس

قال الشعبي : لم يَقْسِمِ اللَّهُ بَيْنَ النَّاسِ أَذْلَ مِنَ اليقين ... وقال ابن الرومى من
 همزيتة البارعة التى بعاتب فيها أبا القاسم الشطرنجى - ونذكر من أبياتها المختارة
 ما يصح أن يذكر هنا ، كما يصح أن يذكر فى باب القناعة قال :
 مرحباً بالكفافِ يأتى هنيئاً وعلى المتعجباتِ ذبيلُ العفاء ^(٣)
 ضلّة لا مبرئى يُشمرُ فى التجمّعِ لعيشٍ دُشمِرٍ للفناء ^(٤)

(١) المتماوت : الذى يظهر من نفسه الضعف من العبادة والزهد والصوم

(٢) التخافت : تكلم الخفوت ، وهو : الضعف والسكون

(٣) الكفاف من الرزق : القوت وما كف عن الناس أى أغنى عنهم ، والمتعجبات :-

الأمور التى تتعب صاحبها فى تحصيلها ، والعفاء : الدروس وإحساء الأثر

(٤) ضل من يكسب فى جمع المال لعيش يسرع فى الزوان

دائِباً يَكْبُرُ الْقَنَاظِيرَ لِلَّوَا رِثِ وَالْعُمُرُ دَائِبٌ فِي انْقِضَاءِ (١)
حَبْذَا كَثْرَةُ الْقَنَاظِيرِ لَوْكَا نَتِ لِرَبِّ السَّكَنُوزِ كَثْرَةُ بَقَاءِ
إلى أن قال :

حَسْبُ ذِي إِرْبَةٍ وَرَأْيِي جَلِيَّ نَظَرَتْ عَيْنُهُ بِلَا غُلُوءِ (٢)
صِحَّةُ الدِّينِ وَالْجَوَارِحِ وَالْعِرُّ ضِ وَإِحْرَازُ مُسَكَّةِ الْحَوْبَاءِ (٣)
تِلْكَ خَيْرٌ لِعَارِفِ الْخَيْرِ مِمَّا يَجْمَعُ النَّاسُ مِنْ فُضُولِ الشَّرَائِ
وَلَهَا مِنْ ذَوِي الْأَصَالَةِ عَشَا قُ وَلَيْسُوا بِتَائِبِي الْأَدْوَاءِ
لَيْسَ لِلْمُكْسِرِ الْمُنْغَصِ عَيْشُ إِنَّمَا عَيْشُ عَائِشٍ بِالْهِنَاءِ
إلى أن قال :

ظَلِمْتُ حَاجَتِي فَلَاذَتْ بِحَقْوَرِ يُبِكُ فَاسْأَلْتَهَا لِكَفِّ الْقَضَاءِ (٤)
وَبِقَضَاءِ الْإِلَهِ أَحْوِطُ لِلنَّاسِ مِنْ الْأَمَّهَاتِ وَالْآبَاءِ (٥)
غَيْرَ أَنْ الْيَقِينَ أَضْحَى مَرِيضاً مَرَضاً بَاطِناً شَدِيدَ الْخَفَاءِ
مَا رَجَدْتُ أَمْرًا يُرَى أَنَّهُ يُؤَبِّنُ إِلَّا وَفِيهِ شَرِبُ أَمْتَرَاءِ (٦)
لَوْ يَصْحُحُ الْيَقِينُ مَا رَغِبَ الرَّأْيُ غِبُّ إِلَّا إِلَى مَلِيكَ السَّمَاءِ
وَعَسِيرُ بُلُوغِ هَاتِيكَ جَدَا تِلْكَ عَلِيْسَا مَرَاتِبِ الْأَنْبِيَاءِ

(١) دَائِباً من دَاب في عمله : مضى فيه بجد وتعب ، ويسكن من باب ضرب ونصر :
يجوز الأموال ، والقناظير : يعني من الذهب والفضة وما إليهما
(٢) الإِبة : الدهاء ، والغُلُوء : الغلو (٣) أي والحصول على ما يمسك الأبدان
من الغذاء والشراب ، والحوياء : النفس (٤) لاذت : لجأت واحتضنت ، والحقو
بفتح الحاء وكسرهما : الإزار أو معقده يقول : فتعلمت بأهدابك أي التجأت إليك
فسلمتها وتركتها للقضاء (٥) أحوط : أعظم حفظاً وصيانة (٦) يقول : لم أجد
أحدًا يظن أن عنده يقينا بالله إلا وفي نفسه شوب من الشك

وقال حكيم : من الدلالة على قلة اليقين ، أنك تَحَيَّرُ يوماً عن خير الدنيا بالنسيئة : طمعاً في الرِّيح ، طفيف رِيح مع مافيه من الخطر، وتَأْتِي أن تُقْرِضَ اللهَ درهماً بمائة ، مع زَعْمِكَ وقولك إن مُسْتَقْرِضَهُ مَلِيءٌ وَفِي هَكَذَا وَرَدَتْ هذه الكلمة في محاضرات الأدباء ، ويظهر أنها إما مُحَرَّفَةٌ وإما أنها مُعَاظَلَةٌ^(١) وهى على الرغم من ذلك تكاد تكون مفهومة ، فالظاهر أن قائلها يريد أن يقول: إن مما يدلُّ على قلة اليقين أنك لو خَيْرْتَ بين ربح كثير آجل نسيئته عند الله ، بأن تُقْرِضَهُ مثلاً درهماً بمائة ، وبين ربح طفيف عاجل في الدنيا قد حُقِّقَ بالخطر ، لاخترت الثاني على الأول ، مع زَعْمِكَ بأن من تقرضه - وهو الله عز وجل - مُضْطَلَعٌ بمضاعفة القرض وتوفيتك حَقِّك وإعطائك إياه وافياً...»

إصلاح الضمير

دخل حميد الطويل على سليمان بن علي وإلى البصرة فقال له : عَظَّنِي ، فقال حميد : إن كنت حين عَصَيْتَ رَبِّكَ ظَنَنْتَ أنه يراك فقد اجترأت على الله ، وإن كنت ظننت أنه لا يراك فقد كفرت ... وقالوا : إذا فسدت النية وقعت البلية ، وقال رجل لسيدنا رسول الله : لقد سمعناك يا رسول الله تقول : شَيَّبْتَنِي هود^(٢) ، فما الذى شَيَّبَكَ منها ؟ قال : قوله تعالى : فاستقم كما أمرت ... ورووا أن السيد المسيح صلوات الله عليه قال : ياربِّ ، مَنْ أَشْرَفُ النَّاسِ ؟ قال : من إذا خَلَا عِلْمَ أنى ثانيه فأَجَلَ قدرى عن أن يُظْهِرَنِي على معاصيه ... ومَرَّ

(١) معاظلة : أى عاظها قائلها : أى عقدها عجزاً عن الإفصاح أو قصداً

(٢) هود : أى سورة هود وفيها يقول الله جل شأنه لسيدنا رسول الله : فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير ، ولما كان العمل بمضمون هذه الآية الكريمة فى غاية العسر قال سيدنا رسول الله : شيبتنى هود

عمر رضى الله عنه بمملوك يرعى غنما، فقال: أتبيغى منها شاة؟ قال: ليست لي، قال: فأين العليل؟ قال: فأين الله: فاشتره عمر وأعتقه، فثمال المملوك: اللهم قد رزقتني العتق الأصغر فارزقني العتق الأكبر، أعوذ بك من قلب غائب عنك... وقال السرى السقطي^(١): بتصحيح الضمائر أعتقر الكبائر؛ وفي الأثر: تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة « أى تعرّف إليه في الرخاء بالشكر وذكّر الآلاء يعرفك في الشدة بالعصمة... » وقال بعض المتصوفة: إن الله لا يشغله عنك شيء فإن استطعت أن لا يشغلك عنه شيء فافعل... »

احتمال المكاره في العاجل رجاء المسار في الآجل

ورين جوامع الكلم في ذلك قول سيدنا رسول الله: حُفَّتِ الجنة بالمكارة وحُفَّتِ النارُ بالشهوات حُفَّتْ: أحيطت، والمكارة جمع مكردة وهي: ما يكرهه المرء ويشق عليه، والشهوات: كل ما يوافق النفس وتصبو إليه. قال الإمام القرطبي: أصل الحَفَّ: الدائر بالشيء المحيط به الذي لا يتوصل إليه إلا بعد أن يُتَخَطَّى، فثمل المصطفى المكارة والشهوات بذلك، فالجنة لا تنال إلا بقطع مفاوز المكارة والصبر عليها، والنار لا يُتَجَمَّى منها إلا بقطم النفس عن مطلوباتها، وقال ابن حجر: هذا من جوامع كلم المعطفي وبديع بلاغته في ذم الشهوات وإن مالت إليها النفوس، والحث على الطاعات وإن كرهتها وشقت عليها « ولما تاب بعض الصوفية كان لا يتهمناً بطعام ولا شراب فقالت له أمه: أرفق بنفسك، فقال: الرفق أطلب لما... وهذا كقول الربيع بن خثيم وقد صلي طول ليلته حتى أصبح وقال له رجل: أتعبت نفسك فقال: راحتها أطلب... »

(١) أحدر رجال الطريقة وخال أبي القاسم الجنيد، ترجم له ابن خلكان

ومثل هذا - وإن كان من بآية أخرى - قول العباس بن الأحنف :

سَأَطْلُبُ بَعْدَ الدَّارِ عَنْكُمْ لِتَقْرُبُوا وَتَسْكُبُ عَيْنَايَ الدُّمُوعَ لِتَجْمُدَا^(١)

وقول الآخر :

تَقُولُ سُلَيْمَى لَوْ أَقْرَتَ بِأَرْضِنَا وَلَمْ تَدْرِي أَنِي لِلْمَقَامِ أَطُوفُ

مراعاة الدين والدنيا معاً

قال تعالى : ولا تَدَسَّ نصيبك من الدنيا ... وقال سيدنا رسول الله : ليس بخيركم من ترك دُنْيَاهُ لِآخِرَتِهِ ، ولا آخِرَتَهُ لِدُنْيَاهُ ، حتى يُصِيبَ مِنْهُمَا جَمِيعًا ، فإن الدنيا بلاغ إلى الآخرة ، ولا تكونوا كَلَّاءً عَلَى النَّاسِ ... « كَلَّاءٌ : عِيَالًا وَثِقْلًا » ، وكان محمد بن علي بن عبد الله بن عباس يقول : اللهم أَعِنِّي عَلَى الدُّنْيَا بِالغَنَى ، وَعَلَى الآخِرَةِ بِالتَّقْوَى . وقال مروان بن أبي حفصة لعمارة بن حمزة^(٢) : أَنْشَدْتُ المَأْمُونَ قَوْلِي :

أَضْحَى إِمَامُ الْهُدَى الْمَأْمُونُ مُشْتَغِلًا بِالدِّينِ وَالنَّاسِ بِالدُّنْيَا مَشَاغِلُ
فَلَمْ يَهْتَمَّ لِذَلِكَ إِفْقَالِ عِمَارَةٍ : مَازِدَتْ عَلَى أَنْ صَيَّرَتْهُ عَجُوزًا مُعْتَكِفَةً فِي مِحْرَابِهَا ،

(١) كنى بالجمود عن السرور ... وللنقاد في هذه الكناية كلام حسن انظره إذا شئت في شرحنا على النخيص

(٢) شخصية ضخمة ، كان أديبا وكان كاتباً وكان جواداً كريماً وكان من سروات الناس وكان تياها معجباً معتداً بنفسه وكان في زمن السفاح والمنصور وبقى الى زمن المأمون وتولى الولايات العظيمة في أيامهم وكان من شدة اعتداده بنفسه إذا أخطأ يمضى على خطائه ويأنف من الرجوع ويقول : نقض أبرام في ساعة واحدة ! الخطأ أهون من ذلك ، انظر ترجمته في معجم الأدباء لياقوت وهي زاخرة بكل ما يطرب ويعجب من سيرة هذا عمارة بن حمزة ،

فَمَنْ لَامُورِ الْمُسْلِمِينَ أَهْلًا قَلْتَ كَمَا قَالَ جَرِيرٌ :

فَلَا هُوَ فِي الدُّنْيَا مُضِيعٌ نَصِيْبَهُ

وَلَا عَرَضُ الدُّنْيَا عَنِ الدِّينِ شَاغِلُهُ !

والمشهور في هذا المعنى قول الفاروق رضي الله عنه : أَعْمَلْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ

أَبَدًا وَأَعْمَلْ لِآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غَدًا... وقال الشاعر :

وَاللَّهِ مِنِّي جَانِبٌ لِأَضْيَعُهُ وَلِلَّهِ وَمِنِّي وَالْخَلَاعَةُ جَانِبٌ

وسيمر بك كثير من عبقرياتهم في هذا المعنى، في مواضع أخرى من

هذا الكتاب .

الرجاء والجمع بينه وبين الخوف من الله

قال تعالى : فِي صِفَةِ الْمُؤْمِنِينَ : يَرْجُونَ رَحْمَةَ رَبِّهِمْ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ، وقال حكيم :

أَرْجُ إِذَا خِفْتُ وَخَفْتُ إِذَا رَجَوْتُ ، وَكُنْ كَالْمَرْأَةِ الْحَامِلِ لَيْسَ رَجَاؤُهَا أَنْ تَلِدَ

وَلِدَاءُ ذِكْرًا بِأَكْثَرِ مِنْ خَوْفِهَا أَنْ تَلِدَ أُنْثَى . وقريب من هذا قول رجل لابنه :

خَفِ اللَّهُ خَوْفًا لَا يَمْنَعُكَ مِنَ الرَّجَاءِ ، وَارْجُ رَجَاءً لَا يَمْنَعُكَ مِنَ الْخَوْفِ ، فإلؤمن

بِاللَّهِ قَلْبَانِ : يَرْجُوهُ أَحَدُهُمَا وَيَخَافُ الْآخَرَ وَقَالَ :

أَنَا بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ مِنْهُ وَاقِفٌ بَيْنَ وَعْدِهِ وَالْوَعْدِ

وقال أبو نؤاس :

لَا تَحْظُرُ الْعَفْوُ إِن كُنْتَ إِتْرَةً أَحْرَجًا فَإِنِ حَظَرَكَ كُ بِالْدِينِ إِذْرَاءُ

وقال أيضا :

يَا كَثِيرَ الذَّنْبِ عَفْوِ اللَّهِ مِنْ ذَنْبِكَ أَكْثَرُ

وقال :

تَبَسَّطْنَا عَلَى الْآثَامِ لَمَّا رَأَيْنَا الْعَفْوَ مِنْ تَمَرِ الذَّنُوبِ

وقال :

تَكْتَبِرُ مَا اسْتَطَعْتَ مِنَ الْخَطَايَا فَإِنَّكَ بِالْبَيْعِ رَبًّا غَفُورًا
سَتُبْصِرُ إِنْ وَرَدَتْ عَلَيْهِ عَفْوًا وَتَلْقَى سَيِّدًا مَلِيكًا كَبِيرًا
تَعْتَضُ نَدَامَةً كَقَمِيكَ عَمَّا تَرَكْتَ مَخَافَةَ النَّارِ السُّرُورًا

وفي الأثر : مَا أَحْبُّ أَنْ لِي الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا بِهَذِهِ الْآيَةِ : قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ
اسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذَّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ
هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ... وقال ابن عباس لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما :
أَيُّ آيَةِ أَرْجَى ؟ قال : إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ
يَشَاءُ ، فقال : إِنَّ هَذِهِ لَمَرْجُوءَةٌ ، وَأَرْجَى مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى : إِنَّ اللَّهَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ
عَلَى ظُلْمِهِمْ ... وقال أعرابي لابن عباس : مَنْ يَحْسِبُ الْخَلْقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ قال :
يَحْسِبُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى قال : نَجُونَا وَرَبُّ الْكَعْبَةِ ، فقال : كَيْفَ ! قال : إِنَّ
الْكَرِيمَ إِذَا قَدَّ غَفَرَ ... وسمع أعرابي عبد الله بن عباس يقرأ قول الله
تَعَالَى : وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةِ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ، فقال : وَاللَّهِ مَا أَنْقَذَنَا مِنْهَا
وَهُوَ يَرِيدُ أَنْ يُلْقِيَنَا فِيهَا ! فقال ابن عباس : خذوه من غير فقيه ...

العبادة لا طلبا للثواب ولا خوفا من العقاب

وقد تقدم لنا آنفا قول في ذلك وتزيد فتور دطرقا من عبقرياتهم في هذا
المعنى : قال الشَّيْبَلِيُّ : مَنْ عَبَدَهُ رَجَاءَ الْجَنَّةِ فَهُوَ عَبْدُهَا ، أَوْ خَوْفَ النَّارِ ، فَهُوَ
عَبْدُهَا ، لِأَنَّ مِنَ خَافَ شَيْئًا أَوْ رَجَاهُ فَهُوَ مَعْبُودُهُ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : مَنْ عَبَدَ

الله بِعَوْضٍ فَهُوَ لَيْثِيمٌ ، وَقَالَ آخِرُ : اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي أَعْبُدُكَ خَوْفًا مِنْ نَارِكَ فَأَحْرِقْنِي ، أَوْ طَمَعًا فِي جَنَّتِكَ فَأَحْرِقْنِيهَا ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي أَعْبُدُكَ حُبًّا لَكَ وَشَوْقًا إِلَى لِقَائِكَ فَأَجْحِبْنِيهِ ... وَقِيلَ لِرَابِعَةِ الْعَدْوِيَّةِ : مَا لَكَ لَا تَسْأَلِينَ اللَّهَ الْجَنَّةَ فِي دُعَائِكَ ؟ فَقَالَتْ : الْجَارُ ثُمَّ الدَّارُ ... « تَعْنَى بِالْجَارِ : ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » وَقَدْ أوردنا بيت المَعْرِي :

ولتفعل النفسُ الجميلَ لأنه خَيْرٌ وأحسنُ للأجلِ ثوابها

غير مرة فيما أسلفنا، وقال بعضهم في قوله صلى الله عليه وسلم : أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبُؤْلَةُ ، قَالَ : لِأَنَّهُمْ فِي سُغْلٍ فَكَهْوَنٌ ، شَغَلَهُمُ النَّعِيمُ عَنِ الْمُنْعَمِ ، وَهَذَا رَضِيَ بِالْجَنَّةِ عَنِ اللَّهِ فَهُوَ أَبْلَهُ . أَقُولُ : حَدِيثٌ : أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبُؤْلَةُ : حَدِيثٌ ضَعِيفٌ « انظُرْ شَرْحَ الْجَامِعِ الصَّغِيرِ لِلنَّوَاوِيِّ » وَعَلَى أَنَّهُ ضَعِيفٌ فَقَدْ أَوْلَاهُ تَأْرِيلاً حَسَنًا : فَقَالَ الْأَزْهَرِيُّ : الْأَبْلَةُ : الَّذِي طُبِعَ عَلَى الْخَيْرِ ، فَهُوَ غَافِلٌ عَنِ الشَّرِّ لَا يَعْرِفُهُ - أَقُولُ : أُرِيدُ بِعَرَفِهِ وَلَكِنْ يَتَجَنَّبُهُ - وَقَالَ النَّضْرُ بْنُ شُمَيْلٍ : الْأَبْلَةُ : الْمَيْتُ الدَّاهِ ، أَيْ أُنْ شَرَّهُ مَيْتٌ لَا يَنْبَغُ لَهُ . وَالْمَرْأَةُ بِأَهَاءِ ، قَالَ الشَّاعِرُ :

ولقد لهوتُ بِطِفْلَةٍ مَيْيَالَةٍ بَلْهَاءُ تُظَلِّمُنِي عَلَى أَسْرَارِهَا

أَرَادَ : أَنَّهُ غَرَّ لَا دَهَاءَ لَهَا فَهِيَ تَخْبِرُنِي بِأَسْرَارِهَا وَلَا تَفْطَنُ لِمَا فِي ذَلِكَ عَلَيْهَا . وَقَالَ الزُّبَيْرِيُّ بْنُ بَدْرٍ : خَيْرُ أَوْلَادِنَا الْأَبْلَةُ الْعَقُولُ ، يَعْنِي : أَنَّهُ لِكِبْدَةِ حَيَاتِهِ كَالْأَبْلَةِ وَهُوَ عَقُولٌ « مُبَالِغَةٌ مِنَ الْعَقْلِ » وَقَالَ الزُّبَيْرِيُّ فِي صِفَةِ الْأَصْلِحَاءِ : هَيِّنُونَ كَيْنُونَ ، غَيْرَ أَنَّ لَاهِرَادَةَ فِي الْحَقِّ وَلَا دَهَانَةَ ، بَلْهُ ، عَوَّضَهُمْ عَلَى الْحَقَائِقِ يُعْمَرُ الْأَلْبَابَ وَالْأَذْهَانَ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ أَعْمَلُوا أَمْرَ دُنْيَاهُمْ فَجَهِلُوا حَقِّقَ التَّصَرُّفِ فِيهَا فَأَقْبَلُوا عَلَى آخِرَتِهِمْ فَشَغِلُوا بِهَا فَاسْتَحَقُّوا أَنْ يَكُونُوا أَكْثَرَ أَهْلِهَا .

الرياء

الرياء : ترك الإخلاص في العمل بملاحظة غير الله فيه ؛ ومن عقوباتهم فيه : قال سيدنا رسول الله : إن أخوف ما أخاف على أمّتي الرّياء الظاهر والشّهوة الخفية . وقالوا : أعظم الرّياء حبّ المَحْمَدَة . وقالوا إذا عمل الرجل العمل وكتّمه وأحبّ إعلام الناس أنه كتّمه ، فذلك أفيح الرّياء ، وقال أبو نواس :

وإذا نزعْتَ عن الغواية فليكن لله ذاك النَّزْعُ للناس

وقال لقمان لابنه : اتق الله ولا تترى الناس أنك تخشاه ليُكرِموك ...
وقال بعضهم : كان الناس يُراؤن بما يفعلون فماروا يُراؤن بما لا يفعلون .
وقالوا : ما الدخان بأدلّ على النار من ظاهر أمر الرجل على باطنه ... وقالوا
في وصف المرأى : له سمّتُ أبي ذرّ على قلب أبي جهل ^(٢) وقال صلى الله
عليه وسلم فيمن تنسك طمعا في عرض الدنيا : أكثُرُ مُنافِقِي هذه الأُمَّة
قَرَأُوهَا ، قال ابن الأثير : أى أنهم يحفظون القرآن نفيا للهمة عن أنفسهم
وهم مُعتقدون بتضييعه ^(٣) ، وكان المنافقون في عصر النبي بهذه الصفة . وقال

(١) إذا أردت التوسع في القول على الرياء، وحقيقته وأنواعه وعلاجه فعليك بإحياء

علوم الدين للغزالي

(٢) أبو ذر الغفاري هو الصحابي الجليل الزاهد الورع الصادق اللهجة الذي قال
فيه سيدنا رسول الله : ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء . أصدق لهجة من أبي ذر وقال فيه
سيدنا علي : أبو ذر وعاء مليّ علما ثم أوكى عليه ، أوكى عليه أى شد بالوكا . وهو الخيط
يشد به قم القربة ، توفي سنة ٢١ هـ أما أبو جهل فهو عمرو بن هشام أعدى أعداء سيدنا
رسول الله قتل في غزوة بدر (٣) أى مضمرون عدم العمل به

الزخشرى : أراد بالنفاق الرياء ، لأن كلا منهما إرادة مافى الظاهر خلاف مافى الباطن . وقال الغزالي : أحذر من خصال القراء الأربعة : الأمل والتعجلة والكبر والحسد ، قال : وهى علة تعترى سائر الناس عموماً والقراء خصوصاً ، ترى القارئ يطول الأمل فيوقفه في الكسل ، وتراه يستعجل الخير فيقطع عنه ، وتراه يحسد نظراءه على ما آتاهم الله من فضله فرجماً يباع به مبالغاً يحمله على فضائح وقبائح لا يقدم عليها فاسق ولا فاجر . وقال الفضيل بن عياض لابنه : اشترؤوا داراً بعيدة عن القراء ، مالى والقوم إن ظهرت منى زلة فتلوني ، وإن ظهرت على حسنة حسدوني ، ولذلك ترى الواحد منهم يتكبر على الناس ويستخف بهم مغبساً وجهه كأنما يمن على الناس بما يصلى زيادة ركعتين ، أو كأنما جاءه من الله منشوراً بالجنة والبراءة من النار ، أو كأنه استيقن السعادة لنفسه والشقاوة لسائر الناس ، ثم دو مع ذلك يلبس لباس المتواضعين ويتماوت ، وهذا لا يليق بالكبر والترقع ولا يلائمه لكن الأعمى لا يبصر ... أقول : كل ما قالوه فى القراء مما يصح أن يقال فى علماء الدين وفى المتتسكين ، لأنه يقال تقرأ فلان أى تنقأ ، ويقال : تقرأ : أى تنسك ، قال زيد بن تركي الزبيدي ، وقال القراء : أنشدنى أبو صدقة الدبيري :

ولقد عَجِبْتُ لكَاعِبِ مَوْدُونَةٍ أطرافها بالحنلى والحناء

بيضاء تططاد القوي وتستبي بالحسن قلب المسلم القراء

« مودونة : مدينة وأطرافها نائب فاعل مودونة ، ورووا أن بلال بن أبى بردة وفد على عمر بن عبد العزيز فجعل يديم الصلاة فقال عمر : ذلك التصنع ، فقال له العلاء : أنا آتيتك بخبره ، فجاءه وهو يصلى فقال له : مالى عندك إن بعثت أمير المؤمنين على توليتك العراق ؟ قال عمالتى سنة أى وظيفتى ومرتبى . وكان مبلغه عشرين

ألف درهم ، فقال : اكتبْ به خَطَّكَ ، فكتب إليه ، فجاء الملاء إلى عمر فأخبره ، فقال : أراد أن يُغرَّنَا بالله ... ودخل على أبي جعفر المنصور رجلٌ بين عيديه كركبة البعير - وذلك يكون من أثر السجود - يريد القضاء ، فقال المنصور : إن كنت أبررت الله بهذا فما ينبغي أن نشغلك عنه ، وإن كنت أردت خداعنا فما ينبغي أن نتخذ لك . وقال شاعر :

لا تضحَ - بنَ صحابةٍ حلقوا الشواربَ للطمع
يبكى وُجُلُ بكَائه ما للفريسة لا تقعُ

وقال آخر :

عمرُوا ووضِعَ التَّصْنَعُ مِنْهُمْ ومكانُ الصلاحِ مِنْهُمْ خرابُ
ويروى هذا البيت على وجه آخر ...

ورَوُوا أن بعض الناس كان يبيع زكاته من الفقير ويسترجعها منه بدرهم أو درهمن . ويروى أغربُ من ذلك وأقعدُ في باب الحيل الشرعية المحرمة ، وذلك أن أحد مشيختنا الذين تولوا مشيخة الإسلام والإفتاء في الجبل الغابر بمصر - وكان غنياً ثرياً - كان يحتمل في زكاة المال بأن يضع قيمة ما يجب عليه أن يزكاه عن ماله في العياب « الزكائب » المملوءة قحاشم يُفهم الفقراء أن هذه هي زكاتهم ثم يشتريها منهم بشمن مُغرٍ ، وبذلك يظن أنه قد قام بفريضة الزكاة ويخادعون الله وهو خادعهم .

التوبة

التَّوْبَةُ : الرجوع عن الذنب ، يقال : تاب إلى الله يتوبُ توبةً وتَوَّاباً وتَوَّاباً : أناب ورجع عن المعصية إلى الطاعة ، وتاب الله عليه : وَفَّقَهُ إلى التوبة أو

عاد عليه بالمغفرة ، وقال عليُّ بن أبي طالب رضى الله عنه : التوبة على أربعة دعائم : استغفار باللسان ونية بالقلب وترك بالجوارح وإضمار أن لا يعود .
وفي الحديث : من تاب قبل دونه بفوق ناقة حرم الله وجهه على النار .
« الفواق : أن تُحلب الناقة ثم تُترك لحظة يرَضُّها الفصيل لتدر ثم تحلب »
وقال عز وجل : يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا . التوبة النصوح : الخالصة التي لا يُعاوَد بعدها الذنب ، وقال تعالى : إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليهما حكيما ، وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموتُ قال إني مُتبت الآن . يقول سبحانه : إنما قبول التوبة كالمحترم على الله لمن أذنب بجهالة وسفه - فإن ارتكاب الذنب سفه وتجاهل ، ومن ثم قيل : من عصى الله فهو جاهل حتى ينزع عن جهالة - ثم يتوبون قبل الموت قال عليه السلام : إن الله يقبل توبة عبده ما لم يُغرغر ، قال المفسرون : وسماه قريبا لأن أمد الحياة قريب ، أو قبل أن يُشرب في قلوبهم حبه فيتعدّر عليهم الرجوع ،

المبادرة إلى التوبة

وقد حثوا مع ذلك على المبادرة بالتوبة والإفلاع عن المعاصى فرووا أنه قيل لرجل : أُرِص ، فقال : أتحذركم سوف ، وقال شاعر :
والمرءُ مرَّتَهَنُ بسوفٍ وأيتى . وهلاكه في سوفه والليت
وقال آخر :
أُسوفُ توبتي خمسين عاما وظنى أن مثل لا يتوبُ

وقال بعضهم : نحن لا نريد أن نموتَ حتى نتوبَ ولا نتوبَ حتى نموتَ...
وقال بعضهم لرجل : عِظْنِي ، فنال : قد قَطَعْتَ عَاقَةَ سَفَرِكَ ، فإن استطعت
ألا تَصِلَ في آخره فافعل... وقال مُصَعَّب بن الزبير : اُدْفَع سَطْوَةَ اللَّهِ
بسرعة السُّزُوع ، وحسن الرجوع ، فَيُوشِكُ أن المُنَايَا تَسْبِقُ الوَصَايَا ، وقالوا في
قوله تعالى : بل يُريد الإنسانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ : يُكْثِرُ الذنوبَ ويؤخر التوبةَ
أو يُسَوِّفُ بالتوبةَ ويقدم الأعمال السيئة ، وقال مُورِّج السدوسي (١) : فَجَرَ :
إذا ركب رأسه ، فضى غير مُكْتَرِثٍ ، وقوله : لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ : لِيَبْضُ أَمَامَهُ رَاكِبًا
رَأْسَهُ... وقال سيدنا رسولُ الله لرجل وهو يَعِظُهُ : اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ :
حَيَاتِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ ، وَشَبَابَكَ
قَبْلَ هَرَمِكَ ، وَرِغْنَكَ قَبْلَ فَقْرِكَ . « اغتنم حياتك قبل موتك : اغتنم ماتأقي
نفعه وثوابه بعد موتك . وصحتك قبل سقمك : اغتنم العمل حال الصحة
فقد يمنع مانع كالمرض فتنقذم بهير زاد . وفراغك قبل شغلك : اغتنم فراغك
في هذه الدار قبل شغلك بأهوال ما بعد الموت ، أى اغتنم فرصة الإمكان
لعلك تسلم من الهوان . وشبابك قبل هرمك : اغتنم الطاعة وفعل الخير حال
قدرتك قبل هجوم عجز الكبر عليك فتندم على ما فرطت في جنب الله .
ورغناك قبل فقرك : اغتنم الإحسان والتصدق بفضول مالك قبل أن تنزل
جائحةُ تُفْقِرَكَ . ولك أن تقول : إن هذه الوصية الكريمة مغزاها عامٌّ شامل
يراد بها المبادرة إلى العمل وانتهاز الفرص قبل فواتها ، وقال الشاعر .
إذا أنت لم تزرع وأبصرت حاصدًا نَدَيْتَ عَلَى التفریط في زَمَنِ البَنَدْرِ
وقال أبو العتاهية :

فَواعِبًا كَيْفَ يُعْصَى المَلِيكَ أُمُّ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الجَا حِد

(١) نحوى بصرى ، أخذ عن الخليل ؛ توفي هو وأبو نواس في يوم واحد سنة ١٩٥

ولله في كلِّ تحريكه وتسكينة في الورى شاهدٌ
وفي كلِّ شيء له آيةٌ تدلُّ على أنه واحدٌ

وقال الآخر:

تَرَجُّو النَّاجَةَ ولم تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا إنَّ السَّفِينَةَ لا تَجْرِي على اليَدَينِ
وجاء حبيب بن الحارث إلى سيدنا رسول الله فقال: إني مُقَارِفٌ للذنوب،
فقال: تُبِّ، فقال: إني أتوب ثم أعود، فقال: كلما أذنبت ذنباً فُتِب، فَمَقُورٌ
الله أكبر من ذنوبك. وفي الحديث: إن الرجل لِيُذْنِبُ الذَّنْبَ فَيَدْخُلُ به الجنة،
فَقِيلَ: وكيف يارَسُولَ الله؟ قال: يَكُونُ نُصَبَ عَيْنِهِ خائفاً منه حتى يَدْخُلَ
الجنة... واجتمع ثلاثة من الحكماء عند كِسْرَى فتذاكروا في شرِّ الأشياء فقال
أحدهم: الهمُّ يَقْتَرِنُ بِالْعَدَمِ - الفقر - وقال الثاني: سُقْمُ البدنِ ودوامُ الحزنِ،
وقال الثالث: دُنُوُّ أَجَلٍ وسوءُ عملٍ... فَحَكَمَ لهذا... ودعا بعض الصالحين
فقال: أَعُوذُ بالله من وَقُوعِ المَنِيَةِ ولِما أَبْغَى الأُمْنِيَةِ... وقال حكيم:
الأيامُ صحائفُ أَجَالِكُمْ فأورِدعوها أَجَلِ أفعالِكُمْ... وقال عليُّ بنُ الحسينِ رضِيَ اللهُ
عَنْهُما: عَجِبْتُ لِمَنْ يَحْتَمِي عن الطعامِ لِمَضَرَّتِهِ ولا يَحْتَمِي عن الذنوبِ لِمَعْرَتِهِ!
وقال بعضهم حضرتُ مجلسَ الشُّبْلِيِّ^(١) فقام إليه رجلٌ من أصحابه وقال له:
أَوْصِنِي، فقال له: لقد أوصاك الشاعر بقوله:

قالوا تَوَقَّ رِيارَ الحَيِّ إنْ لَمْ يَمُتْ
عَيْنًا عَلَيْكَ إِذا ما نِمْتَ لَمْ تَمُتْ

(١) الشبلي - وقد تكرر ذكره في هذا الكتاب - هو أبو بكر دلف بن جحدر، والشبلي:
نسبة إلى شبله، بلدة من بلاد ماوراء النهر - سمرقند وبخارى وما إلىهما - كان في مبدأ
أمره واليا لإحدى الولايات ثم تاب وتصرف وبلغ المبالغ في ذلك، كان جليل القدر
مالكي المذهب وصحب الشيخ أبا القاسم الجنيد ومن في عصره من الصالحين توفي سنة
٣٣٤ هـ ببغداد وعمره سبع وثمانون سنة

وقال يحيى بن معاذ : اجتناب السيئات أشد من اكتساب الحسنات ...
وسمع الحسن البصري رجلا يقول : اللهم اجنلنا منك على حذر ، فقال : إنه فَعَل
ذلك ، أليس قد سترَ عنك أجلك ، فلست من حياة ساعة على يقين !

الاستغفار

قال علي بن أبي طالب : العَجَبُ لِمَنْ يَنْتَظِرُ ومعه النجاة : الاستغفار ... وقالوا
لاصغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار . وقال حكيم : أيها السلاطين ،
لا بُدَّ لكم من المعاصي الكبار فافعلوا بإزاتها طاعات عظيمة ، أيها الأوساط ،
يُمْكِنُكم الطاعات العظيمة ، كالمصالح التي لا يَقْدِرُ عليها إلا السلاطين ، فلا تركبوا
المعاصي الكبيرة ... وقال بعضهم : سمعتي راهبٌ أقول : أستغفر الله ، فقال :
يا قتي ، سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين ... ويدل على ما قاله قوله صلى
الله عليه وسلم : المستغفر باللسان المصيرُ على الذنب كالمستَهزئِ بربه . وقال
الربيع بن خثيم : لا يقولنَّ أحدكم : أستغفر الله وأتوبُ إليه فيكون ذنباً
جديداً إذا لم يفعل ، ولكن ليقل : اللهم ، تَبَّ عليَّ واغفر لي ، فقيل : ولم ؟
فقال : أتته عمّا ينهاك عنه فإنه يغفر لك ... وقال عمر رضى الله عنه : لم أرَ
أشدَّ طلباً وأسرعَ دَرَكا من حسنةٍ حديثةٍ لذنْبٍ قديم . « دركا بسكون الراء
وتحتها : الحافا وإدراكا » ... وسئل بعض المجان : كيف أنت في دينك؟ قال : أخرقه
بالمعاصي وأرغمه بالاستغفار ...

« وأما بعد ، فلو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها
من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجلٍ مُسمًى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان
بعبادته بصيرا ^(١) .

(١) آية كريمة والآية : ولو يؤاخذ الله الناس... الآية

يَا مَنْ يَرَى مَدَّ الْبُعُوضِ جَنَاحَهَا فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ الْأَثِيلِ
وَيَرَى عُرُوقَ نِيَابِطِهَا فِي تَحْرِمَا وَالْمُخِّ فِي تِلْكَ الْعِظَامِ النَّحْلِ
أَغْفِرْ لِعَبْدٍ تَابَ مِنْ قَرَطَاتِهِ مَا كَانَ مِنْهُ فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ (١)

عقريات شتى

في الخوف والتقوى

ورد في الحديث الصحيح: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا، ولما سأل لكم الطعام ولا الشراب لضحكتم قليلا: أي لم تضحكوا ألبتة إذ القلب ههنا بمعنى العدم... وجاء في خطبة لسيدنا رسول الله: أيها الناس، إن لكم معالِمَ فاتتوها إلى معالِمِكُمْ، وإن لكم نهايةً فاتتوها إلى نهايتِكُمْ، فإن العبد بين مخافتين: أجلٌ قد مضى لا يدري ما الله فاعلٌ فيه، وأجلٌ باقٍ لا يدري ما الله قاضٍ فيه، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دُنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر ومن الحياة قبل الممات، فالذي نفَسٌ محمدٍ بيده، ما بعد الموت من مُستعْتَبٍ، وما بعد الدنيا من دارٍ إلا الجنة والنار... «معالم جمع معَلَمٌ، وهو ما جعل علامة للطرق والحدود، ضربه مثلا لأحكام الله وحدوده

(١) هذه الآيات لجار الله الزمخشري أنشدتها في الكشف عند تفسير قوله تعالى: إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا مابعوضة فما فوقها، ونسبها إلى بعضهم، وكان قد أوصى أن تكتب على لوح قبره، يقول: يا الله، يا مبصر الحقيقت حتى مد البعوض جناحها في ظلمة الليل، اغفر لي الخ والبهيم: المظلم، لانهايم الأشياء فيه، والليل أفعال تفضيل من الليل وإن كان جامداً، للبالغ في الظلمة، والنياط: عرق غليظ منوط بالقلب تتصل به عروق دقيقة. والنجر: أسفل العمق، والمخ: مائي وسط العظام، والنحل: جمع ناحل أي دقيق، والقرطات: ذنوبه التي قرطت منه، وما كان: مفعول اغفر، والزمان الأول: زمن الشباب. وقد تمثل المؤلف بهذه الآيات كما تمثل الزمخشري

« ومن يتعدَّ حدودَ الله فقد ظلم نفسه »، ومستعتب : مصدره يمي معناه طلب الرضا ، تقول : استعبت فلانا : إذا طلبت منه العتي ، وهي الرضا ، يريد : ليس بعد الموت من استرضاء ، لأن الأعمال بطلت وانقضت زمانها ، وما بعد الموت دارٌ جزاء لدار عمل ،

وقال أبو العتاهية :

يا عجباً للناس لو فكروا وحاسبوا أنفسهم أبصروا
وعبروا الدنيا إلى غيرها فإنما الدنيا لهم مغبيرٌ
الخيرُ مما ليس يحقُّ هو المعروف والشَّرُّ هو المنكرُ
والوعدُ الموتُ وما بعده الحشرُ فذاك الموعدُ الأكبرُ
لا نخز إلا نخرَ أهلِ التُّقى عدا إذا ضمهم المحشرُ
ليعلنَّ الناسُ أن التُّقى والبرَّ كانا خيرَ ما يذخرُ
عجبتُ الإنسانَ في نفسه وهو عدا في قبره يُقبرُ
مابال من أوله نُظفَةٌ وجيفةٌ آخره يفتخرُ
أصبح لا يملك تقديمَ ما يرجو ولا تأخيرَ ما يحذرُ
وأصبح الأمرُ إلى غيره في كلِّ ما يقضى وما يقدرُ

« أما قوله : يا عجباً للناس لو فكروا ١٠٠٠ أبيت ، فأخوذٌ من قولهم : الفكرة مرآةٌ تريك حسنك من قبيحك ؛ ومن قول لقمان لابنه : يا بُنَيَّ ، لا يبغي لعاقل أن يُخلى نفسه من أربعة أوقات ، فرقتُ منها يناجي فيه ربه ، ووقتٌ يحاسبُ فيه نفسه ، ووقتٌ يكسبُ فيه لمعاشه ، ووقتٌ يُخلى فيه بين نفسه وبين لذتها ليستعين بذلك على سائر الأوقات . وقوله : وعبروا الدنيا إلى غيرها ١٠٠٠ أبيت - مأخوذ من قول الحسن البصري : أجعل الدنيا كالقنطرة تجوزُ عليها ولا تعمُرُها -

وقوله: الخير مما ليس يخفى ... ألبيت ، مأخوذ من حديث عبد الله بن عمرو ابن العاص ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عبد الله ، كيف بك إذا بقيت في حُثالة من الناس ^(١) مَرَجْتَ عُهُودَهُمْ وَأَمَانَتَهُمْ ^(٢) وصَارَ النَّاسُ هَكَذَا ، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ ؟ فقلتُ : مُرْتَنِي ، يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَالَ : مُخَذَّ مَاعَرَفَتَا وَدَعَّ مَا أَنْكَرْتَ وَعَلَيْكَ بِخَوْيَصَةِ نَفْسِكَ وَإِيَّاكَ وَعَوَامَّهَا ^(٣) ... وقوله : لِيَعْلَمَنَّ النَّاسُ ... ألبيت ، مأخوذ من حديث أبي هريرة : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إِذَا حُشِرَ النَّاسُ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ نَادَى مُنَادٍ مِنْ قَبْلِ الْعَرْشِ : لِيَعْلَمَنَّ أَهْلُ الْمَوْقِفِ مَنْ أَهْلُ الْكِرَامِ الْيَوْمَ ؟ : لِيَقِمَ الْمُتَّقُونَ ، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ : إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَاقِمُ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ صَدْرَ بَابِ الْبِرِّ أَنْ الْأَخْطَلُ سَبَقَ أَبَا الْعَنَابِيَةِ فِي هَذَا بِقَوْلِهِ :

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخرا يكون كصالح الأعمال
وقوله : ما بال من أوله نطفة ... ألبيت ، مأخوذ من قول علي رضي الله عنه : وما ابنُ آدمَ والفخر وإنما أولُه نطفة وآخره جيفة ، لا يبرزُقُ نفسه ، ولا يدفعُ حَتْفَه ، وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله عليه يقول : أيها الناس إنما خُلِقْتُمُ الْأَبَدَ ، وَلَكِنَّمْ تَنْقَلَوْنَ مِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ ... وقال مالك بن دينار ^(٤) :

- (١) أصل الحُثَالَة : ما يبقى في الإِنَاءِ من ردى الطعام ، وحثالة النمر : أردؤه وما لا خير فيه ، ضربه رسول الله لردال الناس وشرارهم
(٢) مَرَجْتَ عُهُودَهُمْ : اختلفت وذهبت بهم كل مذهب ، ومرج : كطرب ، أما مرج الماء بمعنى سال فلم يكن له مانع ، فبابه نصر .
(٣) خَوْيَصَة : تصغير خاصة ، يأمره صلى الله عليه وسلم بمجاهدة نفسه ويحذر مشاركة العامة في أعمالها (٤) كان عالما زاهدا لا يأكل إلا من عمل يده مات سنة إحدى وثلاثين بالبصرة .

جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم... وقال على رضى الله عنه : مَنْ سَرَهُ
 الْغِنَى بِمَا مَالٍ ، وَالْعِزُّ بِمَا سُلْطَانٍ ، وَالكَثْرَةُ بِمَا عَشِيرَةٍ ، فَلْيُخْرِجْ مِنْ ذَلِكَ
 مَعْصِيَةَ اللَّهِ إِلَى عِزِّ طَاعَتِهِ ، فَإِنَّهُ وَاجِدٌ ذَلِكَ كُلَّهُ ... وقال يزيد بن الصَّقِيلِ الْعَقِيلِيُّ -
 وَكَانَ يَسْرِقُ الْإِبِلَ فِي عَهْدِ بَنِي أُمَيَّةٍ ثُمَّ تَابَ وَقُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - :

أَلَا قُلْ لِأَرْبَابِ الْخَائِضِ أَهْمِلُوا فَقَدْ تَابَ يَمَّا تَعْلُونَ يَزِيدُ
 وَإِنَّ امْرَأًا يَنْجُو مِنَ النَّارِ بَعْدَمَا تَزَوَّدَ مِنْ أَعْمَالِهَا لَسَعِيدُ

« الخائض جمع مخاض - ومخاض واحدٌ خَلْفَةٌ - الناقة استبان حملها - فخائض
 جمع الجمع، ومخاض! جمع على غير واحد، كما تقول: امرأة ونساء، وقوله: أهملوا:
 أى آسروا إبلكم، » وفي هذا الشعر:

إِذَا مَا الْمَنِيَا أخطأتك وصادفت حميمك فاعلم أنها ستعود

وفي معنى هذا البيت ما يروى عن محمد بن الحنفية - ابن الإمام علي - أنه
 كان يقول - إذا مات له جارٌ أو حميم - : «أولى لي ، كِدْتُ وَاللَّهِ أَكُونُ
 السَّوَادَ الْمُخْتَرَمَ ... » «أولى لي ، مثله : «أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى ، وهى
 كلمة تهديد ووعد ، معناها : قاربك ماتكراه ، أو الشرُّ أقرب إليك ، والسوادُ :
 شخص الإنسان وكلُّ شيء من متاع وغيره ، وفي الحديث : إذا رأى أحدكم سواداً
 بليس فلا يكن أجبن السوادين ، فإنه يخافك كما تخافه ، والمحترم - من اخترمته
 المنية : أخذته من بين أصحابه ... »

وقال أبو نواس :

ولقد نهزتُ مع الغواةِ بدلوهم وأسمتُ سُروحَ اللهبِ حيث أساموا
 وبلغتُ ما بلغَ امرؤُ بشبابه فإذا عُصارةُ كلِّ ذاكِ أرقامُ

« أثم كسّلام : عقاب الإثم وجزاؤه ، ونهزت بدلوهم يقال : نهزت بالدلو في البئر : إذا حرّكتها لتمتلي... وهو هنا على المثل ... يقول أبو نواس : لقد غَوَيْتُ زماناً مع العَوَاةِ وهَوْتُ كما هَوُوا وخلصتُ عِذارِي كما خَلَعُوا عِذارَهُمْ وبلّغتُ شبابِي المبالغ ، من اللهو والبغى والفساد ، وأنلتهُ أقصَى ما يشتهي من شهوات الحياة الدنيا ، فوجدتُ كلَّ ذلك ضلالاً في ضلالٍ وعبثاً في عبثٍ وظلماتٍ بعضها فوق بعض ، وما جنّيتُ من ورائه إلا المرَّ والحنظل ، من الأدواء والأسقام والبُعد عن ملكوت الله وقُدسيته ، وكلَّ ما تُورثُه المعاصي من الدَس والطنع والرِّين ، وإنَّ في ذلك لَعِبْرَةٌ لِمَن أَعْتَبَرَ »

وقال هشامُ بنُ عبد الملك - وهو من الآيات المنفردة القائمة بنفسها - :

إذا أنتَ لم تَعِصِ الهوى قَادَكَ الهوى

إلى بعض ما فيه عليك مقال

وهذا بكلام الملوك أشبه ، ومن كلمة للسيدة عائشة رضي الله عنها : مَنْ أَرْضَى الله يَسْخِطِ الناس ، كَفَاهُ اللهُ ما بينه وبين الناس ، وَمَنْ أَرْضَى الناس يَسْخِطِ اللهُ ، وَكَأَنَّ اللهُ إلى الناس ، وَمَنْ أَصْلَحَ سِرِّيَّتَهُ ، أَصْلَحَ اللهُ عِلَانِيَتَهُ . وفي حديث الدعاء : لَا تَبْكُنِي إلى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ فَأَهْلِكَ ... تَوْلَانَا اللهُ بِرِعَايَتِهِ الصَّمَدَانِيَّةِ إِنَّهُ سَمِعَ الدَّعَاءَ ...

الباب الثاني

في الشكر والحمد والثناء

وهذا بابُ الشكر بابٌ له مكانته فيما خلفوه لنا من آدابٍ وذخائرٍ، وإنَّ بينه وبين البر على جميع ألوانه لرحماً ماسَّةً وقرابةً قرينةً، ومن ثم جعلناه ردِّفاله، وأفردنا له هذا الباب.

معنى الشكر

والشكر: مُقابلةُ النعمة بالقول والفعل والنية، فيُثني المُنعمُ عليه على المنعم بلسانه، ويُذِيبُ نفسه في طاعته، ويعتقد أنه موليها؛ وهو من شكَّرت الإبل تشكُّر: إذا أصابت مَرَعَى فسمَّنت عليه. وإذن يكونُ معنى شكر العبدِ لربه: أن يَحَدَّ العبدُ جُهدَه في طاعةِ الله، ويؤدِّي ما وُظِّفَ اللهُ عليه من عبادته، ويعتقد أنه هو وحده وليُّ نعمته، وأن يُكثِرَ من الثناء عليه عزَّ وتقدَّس... وقد جاء الشكورُ وصفاً لله عز وجل، ومعناه أنه يزكو عنده القليلُ من أعمالِ العباد فيضاعفُ لهم الجزاء، وقد يكونُ معناه: المغفرة... هذا؛ وإن فرقا بين الشكر والحمد، فالشكر لا يكون إلا عن يدٍ، والحمد عن يدٍ وعن غير يدٍ وأنشدوا لابنِ نُخَيْلَةَ (١):

(١) شاعر إسلامي، وكان أسود، والرجز أغلب عليه من الشعر، وسمى أبا نخيلة لأن أمه ولدت له تحت نخلة فهو اسمه، ويمدح بهذا الشعر مسلمة بن عبد الملك يقول في أولها: أَمْسَلَمَ إني يا ابنَ كلِّ خليفَةٍ ويا فارسَ الهيجا ويا قمرَ الأرض وقوله: فنبهت من ذكرى وما كان خاملاً: أخذه أبو تمام فكشف معناه وحسنه بالصناعة

شَكَرْتُكَ إِنَّ الشُّكْرَ حَبْلٌ مِنَ الثَّقَى وَمَا كُلُّ مَنْ أَوْلَيْتَهُ نِعْمَةً يَقْضِي
فَبَهَّتَ مِنْ ذِكْرِي وَمَا كَانَ خَائِلًا وَلَكِنْ بَعْضُ الذِّكْرِ أَنْبَهُ مِنْ بَعْضِ
قَالَ ابْنُ سَيِّدِهِ : وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الشُّكْرَ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنِ يَدِهِ ، أَلَا
تَرَاهُ يَقُولُ : وَمَا كُلُّ مَنْ أَوْلَيْتَهُ نِعْمَةً يَقْضِي ؟ أَيْ لَيْسَ كُلُّ مَنْ أَوْلَيْتَهُ نِعْمَةً
يَشْكُرُكَ عَلَيْهَا ... وَيُقَالُ : شَكَرَهُ وَشَكَرَ لَهُ ، وَبِاللَّامِ أَفْضَحُ ، وَتَقُولُ : شَكَرْتُ
نِعْمَةَ اللَّهِ ، وَرِنِعْمَتِهِ ، وَتَشَكَرَ لَهُ بِلَاءَهُ ، كَشَكَرَهُ ، وَتَشَكَرَ لَهُ مِثْلُ شَكَرَ لَهُ ،
هَذَا خِلَاصَةٌ مِمَّا قَالَهُ عُلَمَاءُ اللُّغَةِ . وَقَالَ أَبُو الْبَقَاءِ فِيهَا قَالَ ، إِذَا طَالَ : الشُّكْرُ :
عِرْفَانُ الْإِحْسَانِ ، وَمِنْ اللَّهِ الْمَجَازَاةُ ، وَأَصْلُ الشُّكْرِ : تَخَوُّرُ النِّعْمَةِ وَإِظْهَارُهَا
وَحَقِيقَتُهُ : الْعَجْزُ عَنِ الشُّكْرِ ، إِلَى أَنْ قَالَ : وَالشُّكْرُ الْعُرْفِيُّ : صَرْفُ الْعَبْدِ
جَمِيعَ مَا نَعِمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ مِنَ السَّمْعِ وَالبَصْرِ وَالكَلَامِ وَغَيْرِهَا ، إِلَى مَا خَلَقَ لَهُ
وَأَعْطَاهُ لِأَجَلِهِ ، كَصَرْفِ النَّظَرِ إِلَى مَصْنُوعَاتِهِ ، وَالسَّمْعِ إِلَى تَلَقُّي إِنْذَارَاتِهِ ،
وَالذَّمِّ إِلَى فَهْمِ مَعَانِيهَا ، وَعَلَى هَذَا الْقِيَاسِ ، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ، إِلَى أَنْ قَالَ :
وَتَوْفِيقَةُ شُكْرِ اللَّهِ صَعْبٌ ، وَلِذَلِكَ لَمْ يُشْتَنِ بِالشُّكْرِ مِنْ أَوْلِيَانِهِ إِلَّا عَلَى إِبْرَاهِيمَ
صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، إِذْ قَالَ سُبْحَانَهُ : إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ
يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ؛ وَعَلَى

فَقَالَ مِنْ آيَاتِ يَمْدَحِهَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الزُّبَيْرِيُّ :

لَقَدْ زِدْتُ أَوْضَاحِي امْتِدَادًا وَلَمْ أَكُنْ

بِهِمَا وَلَا أَرْضِي مِنَ الْأَرْضِ بِجَهْلًا

وَلَكِنْ أَبَادٍ صَادَفْتَنِي جِسَامُهَا أَغْرَّ فَأَوْفَتْ بِي أَغْرَّ مُجْجَلًا

وَالْأَوْضَاحُ جَمْعُ وَضْعٍ وَهُوَ الْبَيَاضُ ، وَالبَهِيمُ : الْأَسْوَدُ ، وَالمُجْجَلُ : أَرْضٌ بِلَا أَعْلَامٍ

وَهَذَا عَلَى الْمَثَلِ ،

نوح عليه السلام إذ قال: إنه كان عبداً شكوراً... ونزيد هذا تأكيداً وتبييناً
 بإيراد كلمة الراغب في الذريعة، قال الراغب - مع شيء من التصرف - :
 الشكر تصورُ المنعم عليه النعمة، وإظهارها، وإضادته الكفرُ، وهو - أي الكفر -
 من كَفَرَ الشيءَ : غَطاه ، ودأبُه شكور : أي مُظهِرَةٌ بِسْمَتِهَا إِسْدَاءَ صَاحِبِهَا
 إِلَيْهَا ؛ وقيل : أصله من عينُ شَكَرَى : أي مُتَمَلِّئَةٌ ، فالشكر هو : الامتلاء من
 ذكر المنعم عليه المُنْعِمَ ، ومن هذا الوجه قيل : هو أبلغ من الحمد ، لأن الحمد
 ذِكْرُ الشَّيْءِ بِصِفَاتِهِ ، والشكر : ذكر الشيء بصفاته وبنعمه ، فالشكر على ثلاثة
 أَضْرِبٍ : شُكْرٌ بِالْقَلْبِ ، وهو تصورُ النعمة ، وشُكْرٌ بِاللِّسَانِ ، وهو الثناء على المنعم ،
 وشُكْرٌ بِسَائِرِ الْجَوَارِحِ ، وهو مكافأته بقدر استحقاقه ؛ وهو أيضاً باعتبار الشاكر
 والمشكور : ثلاثة أَضْرِبٍ : شُكْرُ الْإِنْسَانِ لِمَنْ هُوَ فَوْقَهُ ، وذلك يكونُ بِالْخِدْمَةِ
 وَالثَّنَاءِ وَالدُّعَاءِ ، وشُكْرٌ لِنَظِيرِهِ ، وهو بالمكافأة ، وشُكْرٌ لِمَنْ هُوَ دُونَهُ ، وهو
 بِالثَّوَابِ وَالْإِفْضَالِ . وشُكْرُ الْعَبْدِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ هُوَ : مَعْرِفَةُ نِعْمَتِهِ وَحِفْظُ جَوَارِحِهِ
 بِمَنْعِهَا مِنْ اسْتِعْمَالِ مَا لَا يَنْبَغِي . ثم قال : وشُكْرُ الْمُنْعِمِ فِي الْجَمَلَةِ وَاجِبٌ بِالْعَقْلِ ،
 كما هو بالشرع ، - وهذه مسألة كلامية انظرها في كليات أبي البقاء ، - وأوجبها
 شُكْرُ الْبَارِي تَعَالَى ، ثم شُكْرُ مَنْ جَعَلَهُ سَبِيلاً لَوْصُولِ خَيْرٍ إِلَيْكَ عَلَى يَدِهِ ، ولهذا
 قال عليه الصلاة والسلام : لَا يَشْكُرُ اللَّهُ مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ ؛ قال : وقال
 بعضهم : كُلُّ نِعْمَةٍ يُمَكِّنُ شُكْرُهَا إِلَّا نِعْمَةَ اللَّهِ ، فَإِنْ شُكِرَ نِعْمَتُهُ نِعْمَةٌ مِنْهُ ،
 فيحتاج العبد أن يشكر نعمة الشكر ، كما شكر أصل النعمة ، وهكذا حتى يُودَى
 ذلك إلى ما لا يتناهى ، ومن هذا أخذ الشاعر الذي يقول :

إذا كان شكري نعمة الله نعمةً علىَّ له في مثلها يجب الشكرُ
 فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله وإن طالت الأيام وأتصل العمرُ

ولهذا قيل: غايةُ شكر الله تعالى الاعترافُ بالتَّجَرُّعِ عنه، بل قد قال الله تعالى: وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها، وأيضا فكلُّ ما يفعلُ الله بعبده فهو نعمة منه، وإن كان بعض ذلك يُعَدُّ بليَّةً، ولهذا قال بعض الصالحين: يَأْمَنُ مَنْعُهُ عطاءً وِبَلَاؤِهِ نِعْماءٌ^(١)... ولأجل صعوبة شكر الله قال عز وجل: وقليل من عبادي الشكور...

عبقرياتهم في الشكر

حُثُّهم على الشكر

قال حكيم: إذا قُصِرَتْ يَدُكَ عَنِ الْمَكَاوِفَةِ فَلْيَطَّلْ لِسَانُكَ بِالشُّكْرِ؛ وقالوا: النِّعَمُ إِذَا شُكِرَتْ قَرَّتْ وَإِذَا كُفِرَتْ قَرَّتْ. والأصل في هذا قوله تعالى: وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ... وقالوا: النِّعَمُ وَحَشِيَّةٌ فَاشْكُرُوا بِالشُّكْرِ، يقال: شَكَلْتُ الدَّابَّةَ يَشْكُلُهَا: شَدَّتْ قَوَائِمَهَا بِجَبَلٍ، واسم ذلك الجبل: الشِّكَالُ، وقال ابن المقفع: اسْتَوْثِقُوا عُرَى النِّعَمِ بِالشُّكْرِ. «العُرَى جمع عُرْوَة، والعُرْوَة في الأصل تقال لعُرْوَة الدَّلْوِ وَالْكَوْزِ وَنَحْوِهِ، أَيْ مَقْبَضِهِ. وَلِعُرْوَة الْمَزَادَةِ أَيْ أذُنِهَا. وَلِعُرْوَة الْقَمِيصِ: مَدْخَلُ زُرِّهِ، وَلِعُرْوَة النَّبَاتِ: مَا بَقِيَ لَهُ خَضِرَةٌ فِي الشَّيْءِ تَرَعَاهَا الْإِبِلُ إِذَا أَجْدَبَ النَّاسُ، وَمِنْ

(١) هذا كلام بعيد الغور غاية في النفاسة، وقد بما قرأت كلاما لا أذكر لفظه بيدان معناه لا يزال عالقا بذهني، وهو أن الإنسان قد يظن أن حرمانه الجاه أو المال أو ما إليهما، شرونة، ولكنه في الحقيقة نعمة، إذ لو أعطى ما يشتهي من المال أو الجاه لسادت حاله وكان هذا المال أو الجاه مما يفسده لئما يصلحه ومن ثم حثوا على أن يرضى الإنسان بما أعطى ويعتد ذلك مدرجة إلى صلاحه وحسن حاله وأن ما أعطاه الله إياه مهما كان قليلا هو الخير كل الخير في الواقع ولا خير في غيره ولا صلاح...

هذا استعاروا العروة لكل ما يلجأ إليه ويُعَوَّل عليه ويوثق بهرُ يُتَمَسَّكُ؛ فيقال لقادة الجيش: العُرَى، والصحابة رضوان الله عليهم: عُرى الإسلام، وقوله تعالى: فقد آتَمَسَكَ بالعروة الوثقى لا انفِصامَ لها؛ شُبِّهَ ما يُعْتَصَمُ به من الدين بالعروة التي يُتَمَسَّكُ بها ويلجأ إليها، والوُثْقَى: المُحْكَمَةُ، فقول ابن المقفع: استوثقوا: أي أحكموها، وقال البحترى:

يزيد تفضلاً وأزيد شُكراً وذلك دأبه أبداً ودابي

وقال عمرو بن مسعدة: لا تَصْحَبَ من يكون استمتاعه بمالكٍ وجاهك أكثرَ من إمتاعه لك بشكر لسانه وفوائد عمله. وقال يحيى بن أكرم: كنت عند المأمون فأنى برجل تُرْعَدُ فرائضه، فلما تَئَمَّلَ بين يديه قال المأمون: كَفَرْتَ نعمتي ولم تشكر معروفى! فقال: يا أمير المؤمنين، وأين يقعُ شُكْرِى فى جنب ما أنعم الله بك علىّ أقال يحيى: فنظر إلى المأمون وقال مُتَمَثِّلاً:

ولو كان يَسْتَفْنِي عن الشُكْرِ ماجدٌ لِرَفْعَةِ نَدْرِ أو عُلُوِّ مَكَانِ
لَمَّا أَمَرَ اللهُ العِبَادَ بِشُكْرِهِ فقال: أشكروا لى أيها الثَّقَلَانِ
ثم التفتَ إلى الرجل وقال: هَلَّا قُلْتَ كما قال أضرَمُ بنُ حُمَيْدٍ:

مُلِكْتُ حَمِيدِي حَتَّى إِنَّنِي رَجَلٌ كُلِّي بِكُلِّ ثَنَاءٍ فِيكَ مُسْتَفْعِلٌ
حُوِّلَتْ شُكْرِي لِمَا حُوِّلَتْ مِنْ نَعَمٍ فُحِرْتُ شُكْرِي لِمَا حُوِّلَتْ لِي خَدَمٌ
وقريب من هذا قول أبي الفتح البُستى:

لئن عجزت عن شكر برك قوتى وأتوى الورى عن شكر برك عاجز
بأن ثنائى واعتقادى وطاقتى لأفلاك ما أوايتها مرا كز
ومن أروع ما قيل فى الشكر قول البُحترى:

فلو كان للشُكْرِ شَخْصٌ يَبِينُ إذا ماتَ مَلَهُ النَّاظِرُ

لَبَيْتُهُ لَكَ حَتَّى تَرَاهُ فَذُنُومَ أَنَّى أَمْرُؤُ شَاكِرٍ
وَلَكِنَّه سَاكِنٌ فِي الضَّمِيرِ يُحَسِّرُكَ السَّكِيمُ السَّائِرُ

وقال عبدُ الله بنُ الزبيرِ الأَسدي في عمرو بنِ عثمان بنِ عفان - لما زاره فنظر
عمرو فرأى تحت ثيابه ثوباً رثياً ، فدعا وكيله وقال : اقترض لنا مالاً ، فقال : هيات
ما يُعطينا التُّجَّارَ شيئاً ، قال : فأرجعهم ماشوا : فاقترض له عشرة آلاف فوجه
بها إليه مع ثوبٍ ثياب « التخت : وعاء تصان فيه الثياب » - :

سَأَشْكُرُ عَمْرًا مَا تَرَاخَتْ مَنِيَّتِي أَيَادِي لَمْ تُتَمَنَّ وَإِنْ هِيَ جَلَّتِ
قَتَى غَيْرُ مَحْجُوبِ الْغِنَى عَنْ صَدِيقِهِ وَلَا مُظْهِرِ الشُّكُوفِ إِذَا النُّعْلُ زَلَّتِ
رَأَى خَلَّتِي مِنْ حَيْثُ يُخْفَى مَكَانَهَا فَكَانَتْ قَدَى عَيْنِيهِ حَتَّى تَجَلَّتِ

د قوله : سأشكر : فالعرب تستعمل السين إذا أرادت تكرار الفعل
وتأكيده ولا تريد التنقّس فيه . ولم تمنن : لم يتبعها من ، وإذا النعل زلت :
يريد : إذا زلت قدمه في مزالق الدهر فلا يجد مركباً يقيه مصرع السوء
ولا متمكاً يعتمد عليه في نهضته ، والخلة : الحاجة ، وقوله من حيث يخفى
مكانها : أي من حيث لا يدركها لحاظ غيره ، وفكانت قدى عينيه : أبرع كلمة
في معنى الاهتمام بالحاجة ، ...

وقال ابن عَنقاء الفَزَارِيُّ في حُمَيْلَةَ الفَزَارِيِّ - وكان قد وصله بنصف ما!

لما رأى من رَثَائِهِ حَالِهِ ، وكان عميلة غلاماً جميلاً - :

رَأَى عَلِيَّ مَابِي حُمَيْلَةَ فَاشْتَكَى إِلَى مَالِهِ حَالِي أَسْرًا كَمَا جَهَرَ
دَعَانِي فَأَسَانِي وَلَوْ ضَنَّ لَمْ أُلْمُ عَلَى حِينِ لَا بَدْوٍ يُرْجَى وَلَا حَضْرُ
غُلَامٌ رَمَاهُ اللَّهُ بِالْخُسْرِ يَا فِعا لَهُ سَيْمِيَاءُ لَا تَشُقُّ عَلَى الْبَصْرِ
كَأَنَّ الشَّرِيًّا عَلَّقَتْ فِي جَبِينِهِ وَفِي خَدِّهِ الشُّعْرَى وَفِي وَجْهِهِ الْقَمَرُ

إِذَا قِيلَ الْعُورَاءُ أَعْضَى كَأَنَّهُ ذَلِيلٌ مُبْلَا ذُلًّا وَلَوْ شَاءَ لَا تَبَصَّرُ
وَمَا رَأَى الْمَجْدَ اسْتَعِيرَتْ ثِيَابَهُ تَرَدَّى رِداءً وَاسِعَ الذَّلِيلِ وَأُتْرِرُ
فَقَلتْ لَهُ خَيْرًا وَأُتْنِيَتْ فِعْلَهُ وَأَوْفَاكَ مَا اسْدَبَتْ مَنَ ذَمًّا أَوْ شُكْرًا

« السيام والسيما والسيما والسيما : العلامة يُعرف بها الخير والشر ،
وقوله : لا تشقُّ على البصر يريد : لا تؤذيه بل يُسرُّها ، والهُرْيَاءُ : من الكواكب
كثيرة الأنجم مع صغر مرآتها ، والشعري يريد بها الشعري العبور ، وهو كوكبه
نير خلف الجوزاء يطلع في صميم الحر . والعوراء : الكلمة القبيحة ،
وأغضى : أطبق أجفانه حياءً ونبلا ؛ واستعيرت ثيابه : كنى بذلك عن
قلة الأجداد »

العجز عن الشكر

قال بعضهم :

أَيَادِي لَا أَسْطِيعُ كُنَّةَ صِفَاتِهَا وَلَوْ أَنَّ أَعْضَائِي جَمِيعًا تَسَلَّمُ
وقال آخر :

وَلَوْ أَنَّ لِي فِي كُلِّ مَنبِتِ شَعْرَةٍ لِسَانًا يَبُتُّ الشُّكْرَ فَيْكَ لَقَصَّرَا

وقال بعضهم : شكري لا يقع من نعمة الظاهرة : موقع النقطة من الدائرة .

وقال أبو نواس :

قَدْ قَلتُ لِلْعَبَاسِ مُعْتَذِرًا عَن ضَعْفِ شُكْرِيهِ وَمُعْتَرِفًا

أَنْتَ امْرُؤٌ جَلَلْتَنِي نِعْمًا أَوْهَتْ قُوَى شُكْرِي فَقَدْ ضَعُفَا

فَالِيكَ مِنِّي الْيَوْمَ تَقْدِيمَةً تَلَقَّاكَ بِالتَّضَرُّجِ مُنْكَشِفًا

لَا تُسَدِّدِينَ إِلَيَّ عَارِيَةً حَتَّى أَقُومَ بِشُكْرٍ مَا سَأَلَا

«شكريه : شكرى إياه» وقال المتنبي :

ولم تَمَلَّ تَفَقُّدَكَ المَوَالِي ولم نَذُمَّ أَيَادِيكَ الجِسامَا
ولكنَّ الغُيُوثَ إِذَا تَوَالَتْ بأرْضِ مُسَافِرِ كِرَةِ المَقَامَا

«الموالي جمع، ولى : العبد، وتروى الموالى : أى الذى يلى بعضه بعضاً، والأيادى : النعم، والجسام : العظام، وقوله ولكن الغيوث ... البيت، فالغيوث جمع غيث : المطر، وتوالت : تابعت، والمقام : الإقامة؛ يقول : إن المسافر إذا كثرت عليه المطر مَلَّ إقامته واحتباسه، لأجل المطر، كذلك نحن، عطاياك تتوالى علينا وأنت قيدتنا يا حسانك وأنا مسافر أريد الارتحال ولولا هذا لم أَمَلَّ نعمتك، والمطر يسأله كل أحد إلا المسافر...» وقال البُحْتَرى وأبدع :

أَحْجَلْتَنِي بِنَدَى يَدَيْكَ فَسَوَدَتْ ما بَيْنَنَا تِلْكَ اليَدُ البَيْضَاءُ
وقَطَعْتَنِي بِالْجُودِ حَتَّى إِنِّي مُتَخَوِّفٌ أَنْ لا يَكُونَ لِقَاءُ
صِلَّةٌ عَدَدَتْ فِي النَّاسِ وَهِيَ تَطِيعَةٌ عَجَبٌ، وَرِيحٌ رَاحَ وَهُوَ جَفَاءُ
وقال أيضاً :

إِيهًا بِالْفَضْلِ شُكْرِي مِنْكَ فِي نَصَبٍ أَقْصَرُ فَمَالِي فِي جَدْوَالِكَ مِنْ أَرْبِ
لَا أَقْبَلُ الدَّهْرَ نَيْلًا لا يَقُومُ بِهِ شُكْرِي وَلَوْ كَانَ مُسَدِّدِهِ إِلَى أَبِي

ومن ألفاظهم فى ذلك : شُكْرُهُ شَأْوٌ بَعِيدٌ لا تَبْلُغُهُ أَشْوَاطِي ، ولا أَتَلَفِي
التفريط فيه يافراطى «الأشواط جمع شوط : الجرى مرّة إلى غاية تقول : عدا
- جَرى - شوطاً ، أى طَلَقاً» وعندى له مَبَارَةٌ أُعْجَزَنِي شُكْرُهَا ، كما عَوَزَنِي حَضْرُهَا
«مبار جمع مبرة» وقال بعض الشعراء فى الصاحب بن عباد :

وَقَدْ نَا لِنَشْكُرَكَ كَافِيَ الكُفَاةِ وَنَسَأَلُهُ الكَفَّ عَنْ بَرِّنا

فقال بعض الحاضرين : قد كُفِّيت ، فإن الصاحب صار لا يُعطى شيئاً ...

من لا تخفى أياديه

قال نصيب^(١) :

فَعَا جُوا فَأَنْتُوا بِالذِي أَنْتَ أَهْلُهُ وَلَوْ سَكَتُوا أَثْنْتُ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ
وقال بعضهم :

وَكَيْفَ بِكَفْرَانِي صَنَائِدَهُ الَّتِي إِذَا جُجِدْتُ يَوْمًا أَقْرَبَهَا جِلْدِي
ومثله :

وَإِذَا سَكَتُ فَإِنَّ أَنْطَقَ مِنِّي فِي عَنِّي يَدُ الْمَعْرُوفِ وَالْإِحْسَانِ

وقالوا في أمثالهم : لسانُ الحال أفصح من لسانِ الشكر ... ومن كلمة للجاء حظ : نحن نُزَخْرِفُ باللسان ، والناسُ يَقْضُونَ بالعيان ، وفي أمرنا أثرٌ ينطقُ عنا ، ويتكلم إذا سكتنا ...

الشكر بقدر الاستحقاق

وَعَتَبُهُمْ مَن شَكَرُوهُ وَلَمَّا يَسْتَوْجِبُ

قال علي بن أبي طالب : اثناء من غير الاستحقاق مآق ، والتقصير عن

(١) هو نصيب بن رباح من أهل ودان وكان عبداً لرجل من كنانة هو وأهل بيته ، وكان أهل البادية يدعونه «النصيب» تفخيماً له وكانت أمه أمة سوداء وكان شاعراً فخلاً نصيحاً مقدماً في النسيب والمدح وكان أثيراً عند الملوك ، وهذا البيت من أبيات له في سليمان بن عبد الملك وأول الأبيات :

أَقُولُ لِرَكْبٍ صَادِرِينَ لَقِيْتُهُمْ فَفَازَاتِ أَوْشَالٍ وَمَوْلَاكَ قَارِبُ
فَقُورًا خَبَرُونِي عَنْ سُلَيْمَانَ إِنِّي لِمَعْرُوفِهِ مِنْ أَهْلِ وَدَانَ طَالِبُ
فَعَا جُوا

وقفا : أي خلف والعرب تقول : لقيت فلانا قفاً العقبه أو النية : أي خلفها ، ومولاك يخاطب سليمان ويريد بالمولى نفسه ولعله يريد بذات أوشال : موضعاً بعينه ، والقارب في الأصل : طالب الماء ليلاً ،

الاستحقاق عبيّ وحَسَدٌ، وقال رجل لابن الأعرابي: إن نُضِيباً - الشاعر الذي تقدم ذكره - يقول: إنما تُمدح الرجال على قدر ثوابها، فقال: إن العرب تقول: على قدر رِيحِكُمُ تَمَطُّرون... وقال صاحب بن عبّاد:

وَإِذَا الصِّدِيقُ أَدَامَ شُكْرِي لَلَّتِي لَمْ آتِهَا إِلَّا عَلَى التَّقْدِيرِ
أَيَقْنْتُ أَنَّ التَّعْتَبَ بَاطِنُ أَمْرِهِ فَسَكَتُ مُحْتَشِمًا عَلَى التَّقْصِيرِ

من لم يَرَدَّعَهُ خَوْفُهُ عَنِ الشُّكْرِ

بَعَثَ أَبُو جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ إِلَى شَيْخٍ مِنْ بَطَانَةِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَاسْتَحْضَرَهُ وَسَأَلَهُ عَنِ تَدْبِيرِ هِشَامِ وَأَحْوَالِهِ، فَأَقْبَلَ الشَّيْخُ يَقُولُ: فَعَلَّ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَقَالَ يَوْمَ كَذَا رَحِمَهُ اللَّهُ، فَقَالَ الْمَنْصُورُ: قُمْ لِعَنِّكَ اللَّهُ، أَتَطَّأُ بِسَاطِي وَتَتَرَحَّمُ عَلَيَّ عَدُوِّي! فَقَالَ الشَّيْخُ: إِنَّ نِعْمَةَ عَدُوِّكَ لِقِلَادَةٌ فِي عُنُقِي لَا يَنْزِعُهَا إِلَّا غَاسِلِي، فَقَالَ الْمَنْصُورُ: أَرْجِعْ إِلَى حَدِيثِكَ، فَإِنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ غَرَسَ شَرِيفَ وَابْنَ حُرَّةٍ... وَلَمَّا قُتِلَ مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ يَزِيدَ بْنَ الْمُهَاجِرِ أَمْرًا بَانَ بِحَضْرَةِ الشُّعْرَاءِ لِيَقُولُوا فِي ذَلِكَ، فَلَمْ يَأْلُوا أَنْ ذَكَرُوهُ بِأَقْبَحِ مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ، مَا خَلَا رَجُلًا مِنْ بَنِي دَارِمٍ فَإِنَّهُ قَالَ: لَا أَذْمُرُ رَجُلًا لِأَنَّكَ رَيْعًا وَلَا مَالًا وَلَا أَثَانًا إِلَّا مِنْهُ وَلَوْ قَطَّعْتُ إِرْبَابًا إِرْبَابًا^(١)، وَاقْدَرْتُ نَيْتَهُ بِأَحْسَنِ مَا يُرْتَى بِهِ رَجُلٌ - وَأَنْشَدَ أَيْتَانًا رَائِعَةً - فَجَزَاهُ مَسْلَمَةَ خَيْرًا وَقَالَ: إِذَا اصْطَنَعَ فَلْيُصْطَنِعْ مِثْلُ هَذَا... أَقُولُ: لَا أَدْرِي: أَمْ مَوْقِفٌ هُوَ لَوْلَا الْبَرَّةُ الْإَوْفِيَاءُ الشُّجْعَانُ الصَّرْحَاءُ يُعْجِبُ الْمَرْءَ، أَمْ بِأَوْلِيَّتِكَ الْمَلُوكِ الَّذِي يَقْدَرُونَ هَذَا الْوَفَاءَ وَيَطْرَبُونَ لَهُ وَلَوْ كَانَ فِي جَانِبِ أَعْدَائِهِمْ فَاللَّهُ دَرُّ أَوْلِيَّتِكَ النَّاسِ الَّذِينَ شَرَفُوا الْإِنْسَانِيَّةَ بِهَذِهِ الْخَلَائِقِ الْكَرِيمَةِ النَّبِيلَةِ، بَيْنَمَا غَيْرُهُمْ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ وَالْجَبَنِ وَالزَّلَالَةِ قَدْ كَلَّمُوا^(٢) الْإِنْسَانِيَّةَ

(٢) كَلَّمُوا: جَرَحُوا

(١) إِرْبَابًا إِرْبَابًا: عَضُوا عَضُوا

وهوَّأَ بها إلى الحضيض الأوهَد ...

شكر من همَّ بإحسان ولم يفعل

وقالوا : من لم يشكُرْ على حُسن النية ، لم يشكُرْ على إساءة العطيَّة .

وقال شاعر :

لاشكرَنَّكَ معروفًا همَّتَ به إنَّ اهتِماكَ بالمعروفِ معروفُ
ولا أذُمَّكَ إن لم يُمضِهِ قدرٌ فالشيءُ بالقدرِ المحتومِ مصروفُ

ثَقُلُ الشُّكْرِ وَالْحَمْدِ

وقال أبو تمام في ثقل الشكر والحمد من آيات له في الحسن بن وهب :

والحمدُ شَهِدٌ لا تَرى مُشْتارَه يَجْنِيهِ إِلَّا مِنْ نَقِيعِ الحَنْظَلِ (١)

غُلٌّ لِحامِلِهِ وَيَجْسِبُهُ الَّذِي لم يُوهِ عاتِقُهُ خَفِيفَ الحَمَلِ (٢)

وقيل لبعض الصالحين : مالك لا تطلب الدنيا ؟ فقال : من خاف السؤال

عن الشكر طابت نفسه عن المال ...

وقال أبو العتاهية :

ما فاتني خيرٌ أمرِي وَضَعْتُ عني يَداهُ مؤونة الشُّكْرِ

ترغيبهم في الثناء ووصفهم إياه بالبقاء

وتفضيلهم إياه على المال والعطاء

قال عمر بن الخطاب لابنة هريم بن سنان ممدوح زهير بن أبي سلمى :

(١) المشتار : مستخرج العسل ، والشهد : بفتح الشين وضمها : العسل في شمعها

(٢) الغل : القيد ، والحمل : الحمل

ما رَهَبَ أبوكَ لُزْهَيْرٍ؟ فنالت: أموالا فَنِدَيْتُ وَأَثوابا بَلَيْتُ وَأَشياءَ انْتَسَيْتُ،
 فقال الفاروق: لكن ما أعطاكوه زهيرٌ لا يَفْنَى ولا يُنْسَى ... وكتب
 أرسطو إلى الإسكندر المقدوني: إِنَّ كُلَّ عَقِيلَةٍ (١) يَأْتِي عَلَيْهَا الدَّهْرُ، فَيُخْلِقُ
 أَثَرَهَا وَيُمِيتُ ذِكْرَهَا، إلا ما رَسَخَ في القلوب، من الذِّكْرِ الحَسَنِ يتوارثُهُ
 الأَعقابُ. وقالوا: في الثناء الباقي على الدهر، خَلَفَ مِنْ نَفادِ العَمْرِ.
 قال الشاعر:

وَإِنِّي أَحِبُّ الخُلْدَ لوَ اسْتَطِيعَهُ وَكالحُلْدِ عِنْدِي أَنْ أُبَيِّتَ وَلَمْ أَلَمْ
 وَقِيلَ لِلبُرِّجَمَهَرِ حِينَ كَانَ يُقْتَلُ: تَكَلِّمْ بِكَلَامٍ نَذَكَرَهُ، فقال: الكلام
 كثير، وَلَكِنْ إِنْ أَمَكَّنَكَ أَنْ تَكُونَ حَدِيثًا حَسَنًا فَاؤْمَلْ.

وَمَا رَضِعَ الوَازِرُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ الزِيَّاتِ فِي التَّشْوَرِ قَالَ لَهُ خاتَمُهُ:
 يَا سَيْدِي، قَدْ صِرْتَ إِلَى ما صِرْتَ وَلَيْسَ لَكَ حَامِدٌ أَقَالَ: وَمَا نَفَعُ البَرَامِكَةَ
 مِنْ صَنِيعِهِمْ، قَالَ: ذِكْرُكَ لِهَمِّ السَّاعَةِ، فقال: صدقت ... وقال شاعر:

لَمَنْ طَبَّتْ نَفْسًا عَنْ ثَنَائِي فَأَيُّ لِأَطِيبِ نَفْسًا عَنْ نَدَاكَ عَلَى عُسْرِي
 خَلَسْتُ إِلَى جَدِّوَاكَ أَعْظَمَ حَاجَةً عَلَى شِدَّةِ الإِعْسَارِ مِنْكَ إِلَى سُكْرِي
 وقال أبو تمام:

وَمُحَجَّبٌ حَارَلَتْهُ فوجدَهُ نَجْمًا عَنِ الرَّكْبِ العُفَاةِ شَسوعَا
 أَعَدَمْتُهُ - لَمَّا عَدِمْتُ نَوَالَهُ - سُكْرِي فَرُحْنَا مُعْدِمِينَ جَمِيعَا

وقال عوف بن محلم الشيباني:

قَتَى يَتَّقِي أَنْ يَخْدِشَ الدَّمَّ عِرْضَهُ وَلَا يَتَّقِي حَدَّ السُّبُوفِ البَوَارِ

(١) العقيلة في الاصل: المرأة الكريمة النفيسة ثم استعمل في الكريم من كل شيء.
 في الذوات والمعاني. وعقائل الإنسان: كرامته أمواله، وهو المراد هنا

وقال حكيم: من أحبَّ الشاءَ، فليصبر على بذل العطاء، وليوطن نفسه على الحقوق المرة، وعلى احتمال المؤنة... وقال الشاعر في هذا المعنى:
ما أعلم الناس أن الجودَ مكسبةٌ للحمْدِ كنهه يأتى على النَّسبِ

تسهيل القول على الشاكرين

بتوافر ما يشكر عليه وعكس ذلك

قيل للفرزدق: أحسن الكُتُبِ في الهاشميات، فقال: وَجَدَ آجُرًا وَجِصَّةً
فبني... وقال شاعر:

مَا لَقِينَا مِنْ جُودِ فَضْلِ بْنِ يَحْيَى تَرَكَ النَّاسَ كُلَّهُمْ شُعْرَاءَ
وقال ابن الرومي:

كُرِّمْتُمْ بِجَاشِ الْمُفْحَمُونَ لِمَدْحِكُمْ إِذَا رَجَزُوا فِيكُمْ أَيْبَتُمْ فَقَصَدُوا
كَمَا أَزْهَرَتْ جَنَاتُ عَدْنٍ وَأَثْمَرَتْ فَأَضْحَتْ وَعُجِمَ الطَّيْرُ فِيهَا تُغَرَّدُ
وعما كتبه بعضهم: فَتَحَتْ شَيْئُهُ عَلَى الْمُدَّاحِ مُسْتَعْلَقَاتِ الْكَلَامِ...
وقال أبو تمام:

مَلِكٌ إِذَا مَا الشُّعْرُ حَارَ بِيَلْدَةٍ كَانَ الطَّرِيقَ إِظْرَفَهُ الْمُتَحِيرُ
وقال المتنبي:

يَا أَيُّهَا الْمُحْسِنُ الشُّكُورُ مِنْ جِهَتِي وَالشُّكْرُ مِنْ قِبَلِ الْإِحْسَانِ لَا قَبِيلِي
وقال ابن طباطبا^(١) فيمن يُستفاد منه ما يمدح به:

(١) ابن طباطبا: هو أبو القاسم أحمد الشريف الحسيني المصري نقيب الطالبيين بمصر، ترجم له ابن خلكان، وطباطبا: لقب جده إبراهيم، وذكره الثعالبي في الينبئة توفي سنة ٥٣٤٥ هـ

لَا تُنْكِرُنْ إِهْدَاءَنَا لَكَ هُنَاطًا مِنْكَ اسْتَفْدْنَا حُسْنَهُ وَنِظَامَهُ
فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَشْكُرُ فِعْلَ مَنْ يَتْلُو عَلَيْهِ وَحْيَهُ وَكَلَامَهُ
وقال القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني ^(١) فيمن يليق به مدحه :
وَأَرَى الْمَدِيحَ إِذَا عَدَاكَ نَقِيصَةً فَأَعَافَهُ وَلَوْ أَنَّهُ فِي حَاتِمِ
فَإِذَا امْتَدَحْتَ سِوَاكَ قَالَ الشُّعْرَى لَمْ تَرَعْ حَقِّي إِذَا بَحَثَ مَحَارِمِي
ووصف أعرابيُّ رجلاً مجمأً على مدحه : كَأَنَّ الْأَلْسَانَ وَالْقُلُوبَ رِيضَتْ
لَهُ ، فَمَا تُعَقِّدُ إِلَّا عَلَى وَدِّهِ ، وَلَا تَنْطِقُ إِلَّا بِحَمْدِهِ . وقال البحترى :
وَأَرَى الْخَلْقَ مُجْمَعِينَ عَلَى فَضْلِهِ مِنْ بَيْنِ سَيِّدٍ وَمَسُودٍ
عَرَفَ الْجَاهِلُونَ فَضْلَكَ بِالْعِزِّ لَمْ وَقَالَ الْجُهَّالُ بِالْإِقْلِيدِ
وقال ابن الرومي :

يَأْمَنُ إِذَا قَاتُ فِيهِ صَالِحَةٌ عِنْدَ عَدُوِّ أَقْرَبِ وَاعْتَرَفَا

وقال البحترى في المُسْتَفْنَى عن المدح لكثرة فضله :

جَلَّ عَنِ مَذْهَبِ الْمَدِيحِ فَقَدْ كَادَ يَكُونُ الْمَدِيحُ فِيهِ هِجَاءً

وقال المتنبي :

تَجَاوَزَ قَدْرَ الْمَدْحِ حَتَّى كَانَهُ بِأَكْثَرِ مَا يُبْتَنَى عَلَيْهِ يُعَابُ

حَبُّ الْمُنْعِمِ أَنْ يُرَى أَثَرُ إِعْنَامِهِ

قال سيدنا رسول الله صلوات الله عليه : إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ أَنْ يُرَى أَثَرُ

(١) هو القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني الفقيه الأديب الشاعر صاحب كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه وصاحب الأبيات المشهورة التي أولها : يقولون لي فيك أنقباض وإنما رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجماً

نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ ... قَالَ الْإِمَامُ الْمَنَارِيُّ فِي شَرْحِهِ عَلَى الْجَامِعِ الصَّغِيرِ :
 قِيلَ مَعْنَى يُرَى : مُزِيدُ الشُّكْرِ لِلَّهِ تَعَالَى ، بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَالشَّوَاءِ وَالذِّكْرِ لَهُ بِمَا
 هُوَ أَهْلُهُ ، وَالْعَطْفُ وَالتَّرْحُمُ ، وَالْإِنْفَاقُ مِنْ فَضْلِ مَا عِنْدَهُ وَأَحْسِنُ كَمَا أَحْسَنَ
 اللَّهُ إِلَيْكَ ، وَالخَلْقُ كُلُّهُمْ عِيَالُ اللَّهِ ، وَأَحَبُّهُمْ إِلَيْهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ ، فَيُرَى أَثْرُ
 الْجِدَّةِ عَلَيْهِ زِيًّا وَإِنْفَاقًا وَشُكْرًا ، إِلَى آخِرِ مَا قَالَ ، وَهَكَذَا يُحِبُّ النَّاسُ أَنْ
 يُرَى أَثْرُ إِعْنَائِهِمْ عَلَى مَنْ يُنْعِمُونَ عَلَيْهِمْ ، رَوَى أَبُو هِلَالٍ الْعَسْكَرِيُّ عَنْ
 الْعَتْبِيِّ مَا يَلِي : أَرَادَ جَمْفَرُ بْنُ يُحْيَى حَاجَةً كَانَ طَرِيقُهُ إِلَيْهَا عَلَى بَابِ الْأَصْمَعِيِّ
 فَوَدَّعَ إِلَى خَادِمٍ لَهُ كَيْسًا فِيهِ أَلْفُ دِينَارٍ وَقَالَ : إِنِّي سَأَعْرِجُ فِي رَجْعَتِي عَلَى
 الْأَصْمَعِيِّ ، ثُمَّ سَيُحَدِّثُنِي وَيُضْحِكُنِي ، فَإِذَا ضَحِكْتُ فَضَعِرَ الْكَيْسُ بَيْنَ يَدَيْهِ ،
 فَلَمَّا رَجَعَ وَدَخَلَ إِلَيْهِ رَأَى جُبًّا مَكْسُورًا^(١) الرَّأْسِ وَجِرَّةً مَكْسُورَةَ الْعُنُقِ ،
 وَقِصْعَةً مُشَعَّبَةً ، وَجَفْنَةً أَعْشَارًا ، وَرَأَى عَلَى مُصَلًّى بِالِ عَلَيْهِ بَرْنِكَانَ^(٢)
 أَجْرُدًا ، فَغَمَزَ عُلَامَتَهُ أَنْ لَا يَضَعُ الْكَيْسَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَلَمْ يَدْعِ الْأَصْمَعِيَّ شَيْئًا
 مِمَّا يُضْحِكُ الشُّكْلَانَ وَالغَضْبَانَ إِلَّا أَوْرَدَهُ عَلَيْهِ ، فَلَمْ يَتَبَسَّمْ ، ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ
 لِرَجُلٍ يُسَاطِرُهُ : مَنْ اسْتَرَعَى الذَّنْبَ ظَلَمَ ، وَمَنْ زَرَعَ السِّبْخَةَ^(٣) حَصَدَ الْفَقْرَ ،
 إِنِّي وَاللَّهِ لَمَّا عَلِمْتُ أَنَّ هَذَا يَكْتُمُ الْمَعْرُوفَ بِالْفِعْلِ مَا حَفِلْتُ بِنَشْرِهِ
 لَهُ بِاللِّسَانِ ، وَأَيْنَ يَقَعُ مَدِيحُ اللِّسَانِ مِنْ آثَارِ الْعِيَانِ ! إِنْ اللِّسَانُ قَدْ
 يَكْذِبُ ، وَالْحَالُ لَا تَكْذِيبُ ، وَلِلَّهِ دَرُّ نُصَيْبٍ حَيْثُ يَقُولُ :

فَعَاوُجُوا فَأَتْنُوْنَا بِالذِّي أَنْتَ أَهْلُهُ وَلَوْ سَكَنُوا أَتْنْتُ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ

ثُمَّ قَالَ : أَعْلَمْتُ أَنَّ نَاوُوسَ أَبْرِيْزَ أَمْدَحَ لِأَبْرُوِيْزَ مِنْ زَهْرٍ لَّآلِ سِنَانٍ !

(١) الحب : الحايية ، فارسي معرب (٢) برنكان على وزن زعفران :

ضرب من الاكسبة . (٢) أرض سبخة : ذات ملح ونز

وقالت الحكماء : لسان الحال أصدق من لسان الشكر : وقد أجاد ابن الرومي في هذا المعنى فقال :

حالي تبوح بما أوليت من حسن فكُل ما تدعيه غير مردود
كلّي هجاءٌ وقتلي لا يحل لكم فما يداويكم مني سوى الجود
وقالوا : شهادات الأحوال أعدل من شهادات الرجال

لَا يَمْدَحُونَ إِلَّا إِذَا أُعْطُوا

واعتذارهم عن ذلك

قالت بنو تميم لسلامة بن جندل : مجدنا بشعرك ، فقال : افعلوا حتى أنني ، ونحوه قول عمر بن معديكرب :

فلو أن قومي أنطقني رماحهم نطقت ولكن الرماح أجرت
وأجرت : قطعت ، يقول : لو قاتل قومي أو أبوا لذكرت ذلك وغفرت
به ، ولكن رماحهم أجرتني : أي قطعت لساني عن الكلام بفرارهم ، أراد
أنهم لم يقاتلوا

وقال بعض الأكارب لابي هفان ^(١) : مالك لا تمدحني ؟ فقال :

لسانُ الشكرِ تُنطقُهُ العظايا ويخرسُ عند مُنقطعِ النوالِ
وعاتب يوماً محمد بن عبد الملك الزيات الوزير أبا تمام على مدحه سواء
فاعتذر إليه بأبيات يقول فيها :

أما القوافي فقد حصدت عذرتها فما يصاب دم منها ولا سلب

(١) أبو هفان : هو عبد الله بن أحمد بن حرب المهزبي العبدي ، راوية عالم بالشعر والغريب ، وشعره جيد إلا أنه مقل وهو من شعراء الدولة الهاشمية .

مَنَعْتَ إِلَّا مِنَ الْأَكْفَاءِ نَاكِحَهَا وَكَانَ مِنْكَ عَلَيْهَا الْعَطْفُ وَالْحَدَبُ
 وَلَوْ عَصَلْتَ عَنِ الْأَكْفَاءِ أَيْمَهُمَا وَلَمْ يَكُنْ لَكَ فِي أَطْهَارِهَا أَرْبُ
 كَانَتْ بَنَاتٍ نُصِيبُ حِينَ ضَنَّ بِهَا عَلَى الْمَوَالِي وَلَمْ تَحْفَلِ بِهَا الْعَرَبُ

« العذرة : البكارة ، والحذب : الإشفاق ، وعصل الأيتم : فالأيم : التي لا زوج لها بكر كانت أو ثيبا والجمع : أيايم وأيايم ، وتصل الرجل أيمه يعضلها ويعضلها عضلا : منعهما الزواج طلبا قال تعالى : فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن ، نزلت في معقل بن يسار المزني - وكان زوج أخته رجلا فطلقها ، فلما انقضت عدتها خطبها ، فآلى أن لا يزوجه إياها ورغبت فيه أخته فنزلت الآية ... وكان نصيب الشاعر الأسود له بنات وكان يرغب عن أن يزوجهن من الموالى ، والعرب لا ترغب فيهن ، فبقين بلا زواج ، قيل له يوما : ما حال بناتك ؟ فقال : صبت عليهن من جلدي فكسدن علي ... ، وكتب هذا الوزير الزيات إلى أبي تمام يوما يحتج عليه بأنه يمدح غيره وأنه لو اقتصر عليه لأغناه وأن كثرة مدحه الناس زهدته فيه :

رَأَيْتُكَ تَسْمَحُ الْبَيْعَ سَهْلًا وَإِنَّمَا يُغَالِي إِذَا مَاضَنَّ بِالشَّيْءِ بَائِعُهُ
 هُوَ الْمَاءُ إِنْ أَجْمَمْتَهُ طَابَ وَرُدُّهُ وَيَفْسُدُ مِنْهُ مَا تُبَاحُ شَرَائِعُهُ
 فَكُتِبَ إِلَيْهِ أَبُو تَمَامٍ :

أَبَا جَعْفَرٍ إِنْ كُنْتَ أَصْبَحْتَ شَاعِرًا أَسْأَلُ فِي بَيْعِي لَهُ مَنْ أَبَايُهُ
 فَتَدَ كُنْتَ قَبْلِي شَاعِرًا ذَارِوِيَّةً تُسَآهُلُ مَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ بَضَائِعُهُ
 وَصِرْتَ وَزِيرًا وَالْوَزَارَةَ مَشْرَبٌ يَغْصُ بِهِ بَعْدَ اللَّذَازَةِ كَارِعُهُ
 وَكَمْ مِنْ وَزِيرٍ قَدْ رَأَيْنَا مُسَاطًا رَأَيْنَاهُ قَدْ سُدَّتْ عَلَيْهِ مَطَالِعُهُ
 وَلِلَّهِ قَوْسٌ لَا تَطِيئُ سِهَامُهَا وَلِلَّهِ سَيْفٌ لَا تُفْلِلُ مَقَامُهُ

« يقول: إن سهام الله مصيبة لا تُخطئ وسيقه لا يثلم ألبتة، فهو الذي جعلك
موزيرا ولو شاء لأزلك عن دستك »

حشتم على الشكر ولو لمن ليس على دينهم

قال رجلٌ لسعيد بن جبير: المجوسىُّ يُولِينى خيرا فأشكره، ويُسَلِّمُ علىَّ فأردُّ عليه؟ فقال سعيد: سألتُ ابنَ عباسٍ عن نحوِ هذا، فقال لى: لو قال لى
فرعونُ خيرا لرددت عليه... وسَلَّم نصرانيُّ على الشَّعْبِيِّ، فقال الشَّعْبِيُّ:
وعليك السلام ورحمةُ الله، فقال له رجلٌ: سبحان الله، تقول لهذا النصراني
ورحمة الله! فقال الشَّعْبِيُّ: أليس فى رحمة الله يعيشُ؟ قال: بلى، قال: فما
وجهُ الإنكارِ على عافاك الله ورحمنا وإياك برحمته؟

استحياءُهم من المدح

ولا سيما إذا كان مُتكلفاً أو مُبالغاً فيه

سمع سيدنا رسول الله رجلاً يُثْنى على آخر، فقال: قَطَعْتَ مَظَاه، لو سمع
مأفأح «المطا: الظهر»، وقالوا: استحياءُ الكريم من المدح أكثرُ من استحياء
اللتيم من الذم... وأثنى رجلٌ على هشام بن عبد الملك، فقال: إنا نكفره المدح،
فقال: لستُ أمدحك ولكنى أحمدُ الله فىك... وكان أبو بكر الصديق
رضوان الله عليه يقول إذا مُدِح: اللهم: أنت أعلم مِنى بنفسى منهم،
اللهم، اجعاني خيرا مما يحسبون، واغفرلى ما لا يعلمون، ولا تؤاخذنى
بما يقولون... وكان رجلٌ يُكثِرُ الثناء على على بن أبى طالب رضى الله
عنه، وعَلِمَ من قلبه خلافَ قوله، فقال له: أنا دونَ ماتقول، وفوق
مافى نفسك؛ وقال الجاحظ: شرُّ الشكر، ثناءُ المواجهِ لك المُسرِفِ فى مدحك،

وخَيْرُهُ، ثناء الغائب عنك ، المقتصد في وَصْفِكَ . وقالوا : كُنْ من أفرط في
تزكيتك أَحَدَرَ من أفرط في الزراية بك . وقالوا : مَنْ مَدَحَ الرَّجُلَ بِمَا لَيْسَ
فِيهِ فَقَدْ بَالَعَ فِي ذَمِّهِ . وقال أبو فراس الحمداني :

وَلَا تَقْبَلَنَّ الْقَوْلَ مِنْ كُلِّ قَاتِلٍ سَأَرَضِيكَ مَرَأَى لَسْتُ أَرْضِيكَ مَسْمَعًا

وقال الفضيل بن عياض : لَوْ شِئْتُمْ رَائِحَةَ الذُّنُوبِ مِنْي مَا قَرِبْتُمْونِي ...

وَأَنْبَى عَلَى زَاهِدٍ ، فَقَالَ : لَوْ عَرَفْتَ مِنْي مَا عَرَفْتَ مِنْ نَفْسِي لَا بَغَضْتَنِي .
وقال المتنبي :

يُحَدِّثُ عَنْ فَضْلِهِ مُكْرَهًا كَأَنَّ لَهُ مِنْهُ قَلْبًا حَسُودًا

من يمدح نفسه

خطب معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه خطبة حسنة ، فقال : هل من
خليل ؟ فقال رجل من عُرْضِ النَّاسِ : خَلِيلُ الْخَلَلِ الْمُنْخَلِ ، فَاسْتَدْعَاهُ وَقَالَ :
مَا ذَاكَ الْخَلَلُ ؟ قَالَ : إِعْجَابُكَ بِهِ وَمَدْحُكَ لَهُ ... وَقِيلَ لِلْحَكِيمِ : مَا الَّذِي لَا يَحْسُنُ
وَإِنْ كَانَ حَقًّا ؟ قَالَ : مَدْحُ الرَّجُلِ نَفْسَهُ ... وَقَالَ مَعَاوِيَةُ لِرَجُلٍ : مَنْ سَيِّدُ
قَوْمِكَ ؟ فَقَالَ : أَنَا ، فَقَالَ لَهُ : لَوْ كُنْتَ كَذَلِكَ لَمْ تَقُلْهُ ... وَمَنْ طُرِفَهُمْ
فِي ذَلِكَ مَارَوْى عَنْ بَعْضِ الشُّعْرَاءِ أَنَّهُ سُئِلَ : كَيْفَ أَصْبَحْتَ ؟ فَقَالَ : أَصْبَحْتُ
وَإِنَّهُ أَظْرَفَ النَّاسِ وَأَشْعَرَ النَّاسِ وَأَدَبَ النَّاسِ ، فَقَالَ السَّائِلُ : أَسَكَتَ حَتَّى
يَقُولَ النَّاسُ ذَلِكَ ، فَقَالَ : أَنَا مُنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَةً أَتَنْظُرُ أَنْ يَقُولَ النَّاسُ وَلَيْسُوا
يَقُولُونَ ... وَمَدَحَ أَعْرَابِيٌّ نَفْسَهُ فَعُوتِبَ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ : أَأَكَلَهُ إِلَيْكُمْ إِذْنُ وَاللَّهِ
لَا تَقُولُوا أَبَدًا ...

عذر من يُضطرّ إلى مدح نفسه

قال ابن الرومي في ذلك :

وعَزَبْتُ عَلَى مَدْحِي لِنَفْسِي غَيْرَ أَنِّي جُشِّمْتُهُ بِاللِّدَالَةِ
وَهُوَ عَيْبٌ بِكَادٍ يَسْقُطُ فِيهِ كُلُّ حُرٍّ يُرِيدُ يُظْهِرُ حَالَهُ

ووصف لأبي جعفر المنصور بعض الأفاضل ، فأمر بإشغاصه إليه ؛ فلما دخل
قال له : أعالمُ أنت ؟ فقال : أكرهُ أن أقول : نعم ، وفيه ما فيه ، أو أقول : لا ،
فأكون جاهلا . فأعجب المنصور بجوابه وألزمه المهدي

نهيهم عن المدح قبل الاختبار

قالوا : لا تعرف قبل أن تعرف «أى لا تمدح قبل التجربة» وأصل الهَرْف :
الهديان قال الأزهرى : الهَرْف : شبه الهديان من الإعجاب بالشيء يقال : هو
يهرف بفلان نهاره كله هَرْفاً ، وقالوا : لا تحمدنَّ أمةً عامٍ شرايها ، ولا حرّة
قبل بنائها « قبل الدخول بها » ... وقال رجل لعمر رضى الله عنه : إن فلاناً
رجلٌ صدق ، فقال : هل سافرت معه ، أو ائتمنته ؟ قال : لا ، فقال :
إذن لا تمدحه ، فلا علم لك به ، لعلك رأيتَه يرفعُ رأسه ويخفضه في المسجد

ختام الباب

عقريات شتى في الشكر

قال أبو ذرّ : قلتُ للنبيّ صلى الله عليه وسلم : الرجلُ يَعْمَلُ الْعَمَلَ وَيُحِبُّهُ
الناسُ ؟ قال : تلك عاجلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ ... وقال صلوات الله عليه :
إذا أردتُم أن تعملوا مالم للعبد عند الله فانظروا ماذا يتبعه من الشاء ...

وقال شاعر :

عُثْمَانُ يَعْلَمُ أَنَّ الْحَمْدَ ذُو مَنِّينٍ لَكِنَّهُ يَشْتَهِي حَمْدًا بِمَجَانٍ
وَالنَّاسُ أَكْيَسُ مِنْ أَنْ يَحْمَدُوا رَجُلًا

حَتَّى يَرَوْا قَبْلَهُ آثَارَ إِحْسَانٍ

وقال معاوية بن أبي سفيان يُعَارِبُ قُرَيْشًا:

إِذَا أَنَا أُعْطِيتُ الْقَلِيلَ شَكَوْتُمْ وَإِن أَنَا أُعْطِيتُ الْكَثِيرَ فَلَا تُشْكُرُ
وَمَا لُمْتُ نَفْسِي فِي قَضَاءِ حُقُوقِكُمْ وَقَدْ كَانَ لِي فِيهَا اعْتَذَرْتُ بِهِ عُذْرُ
وَأَمْنُكُمْ مَالِي وَتُكْنَمُ رِعْمَتِي وَتَشْتِمُ عَرِضِي فِي مَجَالِسِهَافُهُرُ^(١)
إِذَا الْعُذْرُ لَمْ يُقْبَلْ وَلَمْ يَنْفَعِ الْآسَى وَضَاقَتْ قُلُوبُ مَنْهُمْ حَشْوُهَا الْغَمْرُ^(٢)
فَكَيْفَ أَدَاوِي دَاءَكُمْ وَدَوَاؤَكُمْ يَزِيدُكُمْ غَيْبًا ! فَقَدْ عَظُمَ الْأَمْرُ^(٣)
سَاحِرٌ مَعَكُمْ حَتَّى يَذِلَّ صِعَابُكُمْ وَأَبَاحُ شَيْءٍ فِي صَلَاحِكُمُ الْفَقْرُ^(٤)

وقال ابن الرومي :

كَمْ مِنْ يَدٍ بِيضَاءَ قَدِ اسْدَيْتَهَا تَنَنِي إِلَيْكَ عِنَانٌ كُلُّ وَدَادٍ
شَكَرَ إِلَاهَهُ صَنَائِمًا أَوْلَيْتَهَا سَلَكَتْ مَعَ الْأَرْوَاحِ فِي الْأَجْسَادِ

وقال الشريف الرضي :

أَلْبَسْتَنِي رِعْمًا عَلَى رِعْمٍ وَرَفَعْتَ لِي عَلَمًا عَلَى عِلْمٍ
وَعَلَوْتُ بِي حَتَّى مَشَيْتُ عَلَى بُسْطٍ مِنَ الْأَعْنَاقِ وَالْقِمَمِ
فَلَا شُكْرَنَّ يَدَيْكَ مَا شَكَرْتَ خُضِرُ الرِّيَاضِ مَصَانِعَ الدِّيمِ

(١) فُهْرُ : هو فُهْرُ بِنِ غَالِبِ بِنِ النَّضْرِ بِنِ كِنَانَةَ ثُمَّ سَمِيَ بِهِ الْفَيْلَةُ وَقُرَيْشُ كُلُّهُمْ يَنْسِبُونَ إِلَيْهِ (٢) الْآسَى : الْعِلَاجُ وَالِدَوَاءُ وَالْإِصْلَاحُ وَالْعَدْلُ ، وَالغَمْرُ : الْحَمْدُ

(٣) الْغَى : الضَّلَالُ (٤) يَذِلُّ : يَنْقَادُ

فالحمدُ يُبقي ذِكْرَ كُلِّ قِيٍّ وَيُبَيِّنُ قَدْرَ هَوَاقِعِ السَّكْرَمِ
وَالشُّكْرُ مَهْرٌ لِلصَّنِيْعَةِ إِنْ طَلِبَتْ مُهُورُ عَقَائِلِ النَّعْمِ-

« القم جمع قفة : أعلى الرأس وأعلى كل شيء ، والديم جمع ديمة :
المطر الذي ليس فيه رعد ولا برق يدوم ثلث نهار أو ثلث ليل فأكثر ،
والصنيعة : ما أسديت من معروف ، والعقائل : كرائم الأموال ، وقال
رجل لبعض ذوى السلطان : المواجهَةُ بالشكر ضَرْبٌ من الملقى ، مسوبٌ
من عُرفِ إليه إلى التَّخَلُّقِ ، وأنت تمنعني من ذلك ، وترفع الحال بيننا عنه ،
ولذلك تَرَكْتُ إِقَاءَكَ بِهِ ، غيرَ أني مِنَ الإِعْتِرَافِ بِمَعْرِفِكَ ، ونَشْرٍ مَا تَطْوِي
منه ، والإشادة بذكره عند إخوانك ، والانتساب إلى التقصير مع الإطتاب
في وصفه ، على ما أرجو أن أكون قد بلغتُ به حالَ المُحْتَمَلِ لِلصَّنِيْعَةِ
النَّاهِضِ بِحَقِّ النَّعْمَةِ . وقال أبو يعقوب الخَرَمِيُّ :

زاد معروفك عندي عِظْمًا أَنَّهُ عِنْدَكَ مَحْقُورٌ صَغِيرُ
تَنَاسَاهُ كَانَ لَمْ تَأْتِهِ وَهُوَ عِنْدَ النَّاسِ مَشْهُورٌ كَبِيرُ
وقال بعضهم : لا تثنق بِشُكْرٍ مِنْ تُعْطِيهِ حَتَّى تَمْنَعَهُ ، فإن الصابر هو
الشَّاكِرُ ، والجازع هو الكافر ... وقال الشاعر :

إِذَا أَنَا لَمْ أَشْكُرْ عَلَى الْخَيْرِ أَهْلَهُ وَلَمْ أَذُمَّ الْجَبْسَ اللَّيْمَ الْمَذْمَمًا (١)
فَقِيمَ عَرَفْتُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ بِاسْمِهِ وَشَقَّ لِي اللَّهُ الْمَسَاحَ وَالْقَمَا
وقال ابنُ التَّوَّعَمِ (٢) : كلُّ من كان ، جوْدُهُ يَرْجِعُ إِلَيْهِ ، وَلَوْلَا رُجُوعُهُ
إِلَيْهِ لَمَا جَادَ عِيَاكَ ، وَلَوْ تَهَيَّأَ لَهُ ذَلِكَ الْمَعْنَى فِي سِوَاكَ لَمَا قَصَدَ إِلَيْكَ ،
فليس يجبُ له تَمْلِيكَ شُكْرُ ، وَإِنَّمَا يوصفُ بِالْجُودِ فِي الْحَقِيقَةِ وَيُشْكِرُ عَلَى

(١) الجبس : النذل الذوق . (٢) هو عقبة بن التوعم من رجال الحديث

النَّفْعِ فِي حُجَّةِ الْعَقْلِ ، الذِّي إِنْ جَادَ عَلَيْكَ فَلَاكَ جَادٌ ، وَنَفَعَكَ أَرَادَ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَرْجِعَ إِلَيْهِ جُودُهُ بِشَيْءٍ مِنَ النَّفْعِ عَلَى جِهَةٍ مِنَ الْجِهَاتِ ، وَهُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ لِأَشْرِيكَ لَهُ ، فَإِنْ شَكَرْنَا النَّاسَ عَلَى بَعْضِ مَا جَرَى لَنَا عَلَى أَيْدِيهِمْ ، فَلِأَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا التَّعَبُّدُ ، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِتَعْظِيمِ الْوَالِدِينَ وَإِنْ كَانَ شَيْطَانَيْنِ ، وَتَعْظِيمِ مَنْ هُوَ أَسْنُ مِنَّا وَإِنْ كُنَّا أَفْضَلَ مِنْهُ . وَالْآخَرُ : لِأَنَّ النَّفْسَ مَا لَا تُحْتَصِلُ الْأُمُورَ وَتُمَيِّزُ الْمَعَانِيَ ، فَالسَّابِقُ إِلَيْهَا حُبٌّ مَن جَرَى لَهَا عَلَى يَدَيْهِ الْخَيْرُ وَإِنْ كَانَ لَمْ يُرِدْهَا وَلَمْ يَقْصِدْ إِلَيْهَا . أَلَا تَرَى أَنَّ عَطِيَّةَ الرَّجُلِ صَاحِبَهُ لَا تَخْلُو أَنْ تَكُونَ لِلَّهِ أَوْ لِغَيْرِ اللَّهِ ، فَإِنْ كَانَتْ لِلَّهِ فَثَوَابُهُ عَلَى اللَّهِ ، وَكَيْفَ يَجِبُ فِي حُجَّةِ الْعَقْلِ شُكْرُهُ وَهُوَ لَوْ صَادَفَ ابْنَ سَدِيلٍ غَيْرِي لَمَا أُعْطَانِي ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ إِعْطَاؤُهُ إِيَّايَ لِلذَّكْرِ ، فَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ فإِنَّمَا جَعَلَنِي سُلْبًا إِلَى حَاجَتِهِ وَسِبْأً إِلَى بُغْيَتِهِ ، أَوْ يَكُونَ إِعْطَاؤُهُ إِيَّايَ طَلْبًا لِلْمُكَافَأَةِ فَإِنَّمَا ذَلِكَ تِجَارَةٌ ، أَوْ يَكُونَ إِعْطَاؤُهُ لِخَرْفِ يَدِي أَوْ لِسَانِي أَوْ اجْتِرَارِ مَعُونَتِي وَنُصْرَتِي ، وَسَبِيلُ هَذَا مَعْرُوفٌ ، أَوْ يَكُونَ إِعْطَاؤُهُ لِلرَّحْمَةِ وَالرِّفْقَةِ وَلِمَا يَجِدُ فِي ثَوَابِهِ مِنَ انْتِصَرِ وَالْأَلَمِ ، فَإِنَّمَا دَاوَى بِتِلْكَ الْعَطِيَّةِ مِنْ دَائِهِ ، وَرَفَقَهُ مِنْ خِنَاقِهِ ... وَقَالَ بَشَارُ بْنُ بُرْدٍ :

أُنِّي عَلَيْكَ وَلى حَالٌ تُكَدِّبُنِي فَمَا أَقُولُ فَاسْتَحْيِ مِنَ النَّاسِ
 قَدَوْتُ إِنْ أَبَاحَ قِصِّ لَأَكْرَمُ مَنْ بَمَشْيِ نِخَاصِنِي فِي ذَاكَ إِفْلَاسِي
 وَكَانَتِ السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَثِيرًا مَا تَمَثَّلُ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ :
 يَجْزِيكَ أَوْ يُثْنِي عَلَيْكَ وَإِنْ مِنْ أُنِّي عَلَيْكَ بِمَا فَعَلْتَ كَمَنْ جَزَى
 وَقَالُوا : خَمْسَةُ أَشْيَاءَ ضَائِعَةٌ : سِرَاجٌ يُوقَدُ فِي شَمْسٍ ، وَهَطْرٌ جُودٌ فِي
 سَخِيَّةٍ ، وَحَسَنَاءُ تُزْفُ إِلَى عَيْنَيْنِ ، وَطَعَامٌ اسْتُجِيدَ وَوُدٌّ إِلَى سَكْرَانَ ،
 وَمَعْرُوفٌ صُنِعَ إِلَى مَنْ لَا شُكْرَ لَهُ ...

الباب الثالث

في الصبر وعبرياتهم فيه ، وفي الدنيا وأكدارها ، وفي هادم اللذات
ماذا يراد بالصبر في هذا الباب ؟

قال علماء اللغة : الصبرُ : نقيض الجزع ، أو حبسُ النفس عند الجزع ،
يقال : صبرَ فلانٌ عند المصيبة يصبرُ صبراً ، وصبرتهُ أنا : حبستهُ ، والتَّصَبُّرُ :
تكلفُ الصبرِ ، قال عمر رضي الله عنه : أفضلُ الصبرِ : التَّصَبُّرُ ... وقال الراغب
الأصفهاني في الذريعة : الصبرُ ضربانٍ : جِسْمِيٌّ ونَفْسِيٌّ ، فالجِسْمِيٌّ : هو تحمُّلُ
المشاقِّ بقدر القوَّة البدنية ، وأكثرُها لذوى الجسوم الحُشِنَةِ ، وليس ذلك
لفضيلة تامَّة ، وذلك في الفعل كالمشى ورَفْعُ الحجر ، وفي الانفعال كالصبر
على المرض ، والنفسِيُّ - وبه تُملَقُ الفضيلة - ضربانٌ : صبرٌ عن تناول
مُشْتَهَى ، ويقال له : العِفَّةُ ؛ وصبر على تحمل مكرهه أو تحبُّوب ، وهذا
تختلف أسماءه بحسب اختلاف مواقفه ، فإذا كان في نزول مُصِيبَةٍ فإنه مما
استبَدَّ به اسم الصبر ، وضده الجزع والهلع والحزن ، وإن كان في احتمال
غَنَى فقد سُمِّيَ ضبط النفس ويُضادُّه الدَّقَعُ والبَطَرُ ، ^(١) وإن كان في محاربة
سُمِّيَ شجاعةً ويضادُّه : الجبن ، وإن كان في إمساك النفس عن قضاء وطر
الغضب سُمِّيَ حِلْباً ، ويضادُّه : التذمُّرُ ^(٢) ، وإن كان في نائبةٍ مُضْجِرَةٍ سُمِّيَ
سَعَةً الصدر ؛ ويضادُّه ضيق الصدر والضجر والتبرُّم ، وإن كان في إمساك كلام

(١) الدقع : الرضا بالدون من المعيشة وسوء احتمال الفقر ، والبطر : الطغيان في النعمة

(٢) التذمر : التغضب ومنه : فلان حامى الذمار وهو كل ما يلزمك حفظه وحياطته .

وحياته وما يجب على أهله التذمر له والغضب من أن ينال منه

في الضمير سُمِّي كتمان سرّ، وبيضاؤه : الإفشاء، وإن كان في الإمساك عن فضولات العيش سمي قناعة وزهداً، وهذا يضاؤه : الحرص والشره...
«وبعد، فما أنت ذا ترى مما أوردنا عليك من كلام الراغب: أن الصبر ألوانٌ، ومن أخص ألوانه : الصبر على المصائب، ذلك الذي يضاؤه الجزع وهذا اللون هو الذي سوف نتصدى له في هذا الباب، أمّا سائر الألوان فإن لكل منها باباً لقد عقدناه فيما يلي هذا الباب من الأبواب.

عقرياتهم في الصبر

قال الراغب في فصل عنوانه «مداواة الغم وإزالة الخوف، مع شيء من التصرف : خَلِيقٌ بِالْإِنْسَانِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الدُّنْيَا جَمَّةٌ الْمَصَائِبِ رَنَقَةٌ الْمَشَارِبِ تَشْمِرُ لِلْبَرِيَّةِ أَضْعَافُ الْبَلِيَّةِ^(١)، فيها مع كلِّ أُنْقَمَةِ عَصَّة^(٢)، ومع كلِّ جُرْعَةٍ شَرْقَةٌ^(٣)، فهي عَدْوَةٌ وَمَحْبُوبَةٌ كما قال أبو نواس :

إِذَا امْتَحَنَ الدُّنْيَا لِبَيْبٍ تَكَشَفَتْ لَهُ عَنْ عَدْوٍ فِي ثِيَابِ صَدِيقِي
وَمَا رَوَى عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ : مَا مَثَلْنَا مَعَ الدُّنْيَا إِلَّا كَمَا قَالَ كَثِيرٌ :

أَسَيْبِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لِأَهْلُومَةٍ لَدَيْنَا وَلَا مَقْلِيَّةً إِنْ تَقَلَّتِ^(٤)

(١) البرية : الخلق، وأضعاف البلية يريد البلية مضاعفة والبلية : المحنة

(٢) العصاة : الشجى - ما ينشب في الخلق من عظم وغيره

(٣) الجرعة من الماء : حسوة منه، والشرقة : الغصة ولكنه بالماء والريق ونحوهما

قال عدى بن زيد :

لَوْ بَغَيْرِ الْمَاءِ حَلَقْتِي شَرِيقٌ كُنْتُ كَالْغَصَّانِ بِالْمَاءِ ائْتِصَارِي

(٤) مقليّة : مكروهة، وهتات بحذف إحدى التامين وتقلب التوى : تبغض، خاطب

كثيرم غائب

فما أحدٌ فيها إلا وهو في كلِّ حالته غَرَضٌ لِسِمَاهَا :
 تَنَاضُلُهُ الْآفَاتُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ فَتُخِطُّهُ يَوْمًا وَيَوْمًا تَصِيبُهُ ^(١)
 وقال بعض الحكماء : أسباب الحزن فقد محبوب أو فوت مطلوب ،
 ولا يسلم منهما إنسان ، لأن الثبات والدوام معدومان في عالم الكون والفساد .
 فمن أحب أن يعيش هو وأهله وأحبابه سالمين فهو غير عاقل ، لأنه يريد
 أن يملك ما لا يملك ، ويوجد له ما لا يوجد ، فحقيق بالمرء أن لا يتخلى قلبه
 من الاعتبار بما يرى ، من ارتجاع لودائعها من أربابها ، وحلول لوائبها
 بأصحابها .

ثم من حقه أن يقلل من اقتناء ما يورثه الحزن ، فقد قيل للحكيم : لم
 لانغم ؟ فقال : لأنى لم أقتن ما يغمنى فقدته ، أخذه الشاعر فقال :

فمن سره أن لا يرى ما يسوؤه فلا يتخذ شيئاً يخاف له فقداً

وقيل للحكيم : هل الإنسان أن يعيش آمناً ؟ قال : نعم ، إذا احتسب من
 الخطيئة ، وقنع بحلاله ، ولم يحزن لما هو واقع به لاحتماله . واعلم أن الجزع
 على مافات لا يعلم ما تشعت ولا يُبرم ما انتكت ؛ فأما غمه على المستقبل فلا
 يخلو من ثلاثة أوجه : إما في شيء ممتنع كونه ، أو واجب كونه ، أو ممكن ،
 فإن كان على ما هو ممتنع كونه فليس ذلك من شأن العقلاء ، وكذلك إذا كان
 من قبيل الواجب كونه ، كالموت الذى هو حتم فى رقاب العباد ، وإن كان
 ممكناً كونه فإن كان من الممكن الذى لا سبيل إلى دفعه كما كان الموت قبل
 الهرم فالحزن له جهل ، واستجلاب غم ، وإن كان من الممكن الذى يصح
 دفعه فالوجه أن يحتمل إلى دفعه بفعل غير مشوب بحزن ، فإن دفعه وإلا

(١) ناضله مناقلة فضله : باراه فى الرى فغابه

تلقاه بصبرٍ، وليتحقق قوله عز وجل: ما أصاب من مُصيبةٍ في الأرض ولا في أنفسكم، فمن علم أن ما جرى في حكمه، وسبق في عليه لاسيلا إلى أن لا يكون، هانت عليه الثوب، واعلم أن الذي يغتر الناس هو حسن ظنهم باغترار الآفات، واغترارهم حالة بعد حالة بصفاء الأوقات، ولو تأملوها لتحقوا أنها كما قال على رضي الله تعالى عنه: ما قال الناس لقرم طوبى لكم إلا وقد خبأ الدهر لهم يوم سوء:

إن الليالي لم تحسن إلى أحدٍ إلا أساءت إليه بمد إحسانٍ

انتهى كلام الراغب، ومن أبدع ما قيل في الصبر والجزع قول ابن الرومي:

أرى الصبر محموداً وعنه مذاهبٌ فكيف إذا لم يكن عنه مذهبٌ^(١)

هناك يحق الصبر والصبر واجبٌ وما كان منه كالضرورة أوجبٌ^(٢)

فشد أمرؤ بالصبر كفاً فإنه له عصمة أسبابها لا تقضب^(٣)

هو المهرب المنجي لمن أهدقت به مكاره دهرٍ ليس منهن مهربٌ^(٤)

أعد خلافاً فيه ليس لعاقِلٍ

من الناس - إن أنصفن - عنهن مرغبٌ^(٥)

لبوس جمالٍ، جنة من شماتة شفاء أتي يُفنى به ويثوب^(٦)

(٢٠١) يقول: إن صبر الإنسان على ما يناله من مكروه أو عما يربد نيله من

محبوب: محمود، ولو أنه يجد طرقاً كثيرة يتخلص بها من المكروه أو يحصل بها على

الغائب، فكيف إذا لم يجد وسيلة إلى إزالة المكروه أو إدراك المرغوب؟ لا شك

أن الصبر إذن واجب وما كان منه أشبه بالضرورة أنظم وجوبا

(٤٠٢) فشد أمرؤ بالصبر كفاً يقول: تخليق بالمرء أن يستظهر بالصبر على تحمل

المكروه، إذ أن الصبر عصمة وثيقة لا تتمتع حبالها فنع الملاجأ هو لمن أحاطت به

نوائب الدهر التي لا يحصى عنها

(٦٠٥) يقول: إن في الصبر خلافاً لا يليق بعاقِلٍ أن يتركها إذا كان هناك إضاف

فِيَا عَجَبًا لِلشَّيْءِ هَدَىٰ خِلَالَهُ وَتَارَكَ مَا فِيهِ مِنَ الْحِظِّ أَعْجَبُ
 وَقَدْ يَتَّظَنَّى النَّاسُ أَنْ أَسْأَلُهُمْ وَصَبْرُهُمْ فِيهِمْ يُطْبَاعُ مُرْغَبٌ (١)
 وَأَنْهُمَا لَيْسَا كَشَيْءٍ مُّصَرَّفٍ يُصَرِّفُهُ ذُو نَسْكَبَةٍ حِينَ يُنْكَبُ
 فَإِنْ شَاءَ أَنْ يَأْتِيَ أَطَاعَ لَهُ الْآسَى وَإِنْ شَاءَ صَبْرًا جَاءَهُ الصَّبْرُ يُجْلَبُ
 وَلَكِنْ ضَرُورِيَانِ كَالشَّيْءِ يُبْتَلَى بِهِ الْمَرْءُ مَغْلُوبًا وَكَالشَّيْءِ يَذْهَبُ
 وَأَيْسَابُ كَمَا ظَنُّوهُمَا ، بَلْ كِلَاهُمَا لِكُلِّ لَيْبٍ مُّسْتَطَاعٌ مُّسَبَّبٌ (٢)
 يُصَرِّفُهُ الْمُخْتَارُ مِنَّا ، فَتَارَةً يُرَادُ فَيَسْأَلُنِي أَوْ يُذَادُ فَيَذْهَبُ (٣)

ومعدلة، وهذه الخلال هي : أن الصبر لبوس جمال ، أى أنه زينة وحلية جميلة ، وأنه جنة من شمانية ، أى وقاية من فرح الأعداء بما يصاب به المرء :

وتجلى للشماتين أربهمُ أنى لرب الدهر لا أتضععُ
 وأنه شفاء أسى ، أى مذهب للحزن ، وأنه يثنى به ، أى أنه مدرجة للحصول على الثناء ، وأنه يثوب ، أى يجازى عليه

(١) يتظنى أصلها : يتظن ، أى يعملون الظن ، أى يذهبون مع ظنهم ، والآسى : الحزن ، وطباع : أى طبع ، يقول : وقد يظن الناس أن الحزن والصبر طبع ، لا حيلة لمن طبعه الحزن فى أن يصبر ، ولا لمن طبعه الصبر أن يحزن ، ثم قال فى البيت التالى : وأن كلا الحزن والصبر ليسا من الأشياء التى يمكن تحويلها من حال إلى حال حتى يحولها المنكوب المصاب فإذا أراد الحزن أطاعه الحزن وإن أراد الصبر والتجلد جلبا إليه - وهذا معنى قوله فإن شاء ... البيت ، ثم قال : ولكن يظن الناس أن كلا من الآسى والصبر ضروريان كأن الحزن شئ يملك على الإنسان أمره لا حيلة له فى التخلى عنه وكذلك الصبر ترى الإنسان يصبر كما لو ضاع منه شئ لا بد أن يتحمل فقده أى يصبر على ضياعه ثم فند هذا بقوله : وليسا كما ظنوهما ... الآيات

(٢) يقول : وليس الحزن والصبر كما يظنهما الناس وإنماهما بما يقدر عليه ومن المستطاع التصرف فيهما والتسبب لتحويل كل منهما وتركه إلى الآخر

(٣) المختار : ذو الإرادة ، ويزاد : يدفع ويبعد

- إذا احتجَّ مُخْتَجٌّ عَلَى النَّفْسِ لَمْ تَكْذُ عَلَى قَدَرٍ يُمَنِّي لَهَا تَتَعَتَّبُ (١)
 وساعدها الصَّبْرُ الْجَمِيلُ فَأَقْبَلَتْ إِلَيْهَا لَه طَوْعًا جَنَائِبُ تُجَنَّبُ (٢)
 وَإِنْ هُوَ مَنَّاها الْإِبَاطِيلَ لَمْ تَزَلْ تُقَاوِلُ بِالْعَتَبِ الْقَضَاءُ وَتُغْلَبُ (٣)
 فَتُضْحِي جَزْوَةً إِنْ أَصَابَتْ مُصِيبَةٌ وَتُسَمِّي هَلْوَةً إِنْ تَعَذَّرَ مَطْلَبُ (٤)
 فَلَا يَعْدِرَنَّ التَّارِكُ الصَّبْرَ نَفْسَهُ بَأَنْ قِيلَ: (إِنَّ الصَّبْرَ لَا يُتَكَسَّبُ) (٥)

وقال الأصمعيُّ: أحسن ما قيل في الصبر مع الشرح قول أبي ذؤيب الهذلي:

وَتَجَلَّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِنَّ أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعُّعُ
 حَتَّى كَأَنِّي لِلْحَوَادِثِ مَرْوَةٌ بِصَفَا المَشَقِّ كُلِّ يَوْمٍ تُقْرَعُ

«لا أتضعع: لا أذلُّ ولا أخضع، وريب الدهر: صرْفُهُ، والمروة واحدة

المرو وهي: حجارة بيض براقه يقدر منها النار: ومررة المسعى التي تذكر مع

الصفاء في الحج- وهي أحد راسيهِ الَّذِينَ يَنْتَهِي السَّعْيُ إِلَيْهَا- سميت بذلك، وبصفا

(١) يعني: يقدر يقول: إذا أقمت للنفس الدلائل على أن الصبر اختياري مكتسب
 ثم ألمت بها المصائب فإنها تقتع ولا تعتب على القضاء والقدر

(٢) الجنائب جمع جنيب وهو الفرس يجنب إلى الفرس حتى إذا فتر المركوب ركب
 المجنوب، وله متعاقب بجنائب أي جنائب للصبر، يقول: متى اطمأنت النفس إلى الدليل
 على أن الصبر مكتسب وتركت عتاب القدر ساعدها على تحمل مصائبها صبر جميل
 يواتها مسعفا

(٣) يقول: أما إذا تركت النفس تذهب مع الأوهام والاباطيل فإنها لاتزال في
 عتب على القضاء والقدر مما أصابها ولا تزال آتتبع عينا وبلا فائدة حتى تقهر وتغلب
 (٤) الهلوع: الجزوع جزعا شديدا يقول: فيشتد جزعها إذا أصابتها مصيبة ويشتد
 أكثر إذا فاتها مطلب من مطالبها

(٥) يقول: لا عذر لمن يترك الصبر اغترارا بقول القائل: إن الصبر طبع غير
 مكتسب إذ ظهر أن هذا القول باطل وأن الحق أن الصبر اكتسابي

المشقر يروى : بصفا المشرق ، أما المشقر فهو : موضع أو حصن بالبحرين قديم بناه كسرى ، والمشرق فهو : جبل بسوق الطائف ، والصفاء : جمع صفاة : صخرة ملساء وبه سمي أحد جبلي المسعى ؛ وهذان البيتان من قصيدة أبي ذؤيب ^(١) التي يرثي بها بنيه الخمسة وقدماتوا في عام واحد ، وأولها :

أَمِنَ الْمُنُونِ وَرَيْبِهِ تَوَجَّعُ وَالذَّهْرِ لَيْسَ بِمُعْتَبٍ مَن يَجْزَعُ ^(٢)
 قَالَتْ أُمَامَةٌ : مَا لِحِسْمِكَ شَاحِبًا مُنْذُ ابْتُلَيْتَ وَمِثْلُ مَالِكٍ يَنْفَعُ ^(٣)
 أَمْ مَا لِحِسْمِكَ لَا يَلَائِمُ مَضْجَعًا إِلَّا أَقْضَ عَلَيْكَ ذَاكَ الْمَضْجَعُ ^(٤)

يروى أن عبد الله بن عباس رضى الله عنه استأذن على معاوية في مرض موته ليعودته ، فأدهن واكنحل - أى معاوية - وأمر أن يقعد ويسند وقال : إنذّنوا له ، وأيسلم قائما ولينصرف ، فلما سلم عليه وولى ، أنشد معاوية قول أبي ذؤيب : وتجلدى للشامتين ... ألبيت ؛ فاجابه ابن عباس على الفور :

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ
 ثُمَّ مَا خَرَجَ مِنْ دَارِهِ حَتَّى سَمِعَ نَعِيَهُ ... وَقَالَ ضَابِيُّ بْنُ الْحَارِثِ الْبُرْجُمِيُّ
 آيَاتِ قَالَهَا فِي سِجْنِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

وَرُبَّ أُمُورٍ لَا تَضِيرُكَ ضَيْرَةٌ وَلِلْقَلْبِ مِنْ مَخْشَاتِهِنَّ وَجِيبُ
 وَلَا خَيْرَ فِي مَنْ لَا يُوْطِنُ نَفْسَهُ عَلَى نَائِمَاتِ الذَّهْرِ حِينَ تَنْوُبُ

- (١) أبو ذؤيب الهذلي : شاعر مخضرم أدرك الإسلام وأسلم
 (٢) المنون هنا : الدهر فلذلك ذكره ، ومن أراد به المنية أثنه ، معتب : مزيل عتبة ،
 أى مريض (٣) ومثل مالك ينفع ، يقول : ما لجسمك شاحبا ومثل مالك
 لا يكون معه هزال ولا شحوب لأنه واسع مبدول
 (٤) إلا أقض عليك ذلك المضجع : أى تجده كأن فيه قضة وهى : الحصى الصغار

« قوله : لا تضيرك ضيرة ، فالعرب تقول : ضارَهُ يضيره ضيراً وضيرةً -
 المرّة من الضير - ولا ضيرَ عليك ، وضرةً يضره ولا ضرراً عليه ، والمخشاة :
 مصدر خشيه يخشاه خشية ومخشاة ومخشية : خافه ، وفي معنى هذا البيت يقول
 أبو العتاهية :

وقد يهلك الإنسان من بابِ أَمْنِهِ وَيَنْجُو بِإِذْنِ اللَّهِ مِنْ حَيْثُ يُخْذَرُ
 والأصل في هذا قوله عز وجل : وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ
 فِيهِ خَيْراً كَثِيراً ، وقوله : ولا خير فيمن لا يوطن نفسه ... البيت : نظيره
 قول كثير عزة :

أقول لها : يا عَزْرُ ، كلُّ مُصِيبَةٍ إِذَا وُطِنَتْ يَوْمَئِذٍ لَهَا النَّفْسُ ذَاتَ

قال عبد الملك : لو قال كثير هذا البيت في صفة الحرب لكان أشعر الناس ،
 وفي الأثر : للمبحن أوقاتٌ ولها غايات ، واجتهاد العبد في محنته قبل إزالة الله لها ،
 زيادة فيها قال تعالى : إن أرادني الله بضرٍ هل هُنَّ كاشفاتُ ضره أو أرادني
 برحمة هل هُنَّ مُمسيكاتُ رحمته ، قل حسبي الله عليه يتوكل المؤمنون ...
 وقالوا : الممتحن كالمُختنق كلما ازداد اضطراباً ازداد اختناقاً ... وحكى عن
 بعض الصالحين : أن ابناً له مات فلم ير به جزع ، فقيل له في ذلك فقال : هذا أمرٌ
 كنا نتوقعه ، فلما وقع لم ننكره ... وقالوا : بمن أراد طول البقاء فليوطن نفسه
 على المصائب ؛ وقالوا : المصيبة للصابر واحدة وللجارع اثنتان ، وقال أكرم بن
 صَيْفِي : حيلةٌ من لا حيلة له : الصبر . وسيد الكلام في الصبر قول المصطفى
 صلوات الله عليه : لو كان الصبرُ رجلاً لكان رجلاً كريماً الكريم ضد اللئيم ،

عود إلى أسباب الحزن

وقال الفيلسوف أبو يعقوب الكندي: أسباب الحزن: فقدُ محبوب، أو موتُ مطلوب، ولا يسلمُ منهما إنسانٌ، لأن الثباتَ والدوامَ معدومان في عالم الكونِ والفساد؛ وقال الحسن البصري: الدنيا دارُ غُومٍ، فمن عوجِلَ فُجِعَ بنفسه، ومن أُجِّلَ فُجِعَ بأجابه؛ وقال بعض الفلاسفة: من أراد أن لا يُصابَ بمُصيبةٍ، فقد أرادَ ألا يكون، لأن المصائبَ في عالم الكونِ والفساد طبعَ بالطبع؛ فيدبني أن يكونَ منا على بال: أن جميع الأشياء التي تصل إلينا كانت قبلنا لغيرنا، فانتقلت إلينا على شريطة ما كان لمن قبلنا... وقيل لسقراط: مالك لا تجزع؟ قال: لأنني لأفتني ما يحزني فقدته... وقال ابن الرومي في هذا المعنى:

وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ لَا يَرَى مَا يَسُوؤُهُ فَلَا يَتَّخِذْ شَيْئًا يَخَافُ لَهُ فَقْدًا
أقول: يريدون بذلك: أنه لا بُدَّ في هذه الدنيا من المصائب مادام، هناك قُنْيَةٌ من مال وولد وما إليهما من كل ما هو مُستهدَف لسهام الأيام، ومن أراد أن لا يصابَ فلا يقتنى ما يسوؤه فقدته - والقنْيَةُ لا بُدَّ منها في هذه الحياة الدنيا، وإذْ ن لا بُدَّ من توطين النفس وإعدادها لتلقّي المصائب... وإذا كان هناك مَنْ يترامى بمثل هذا الكلام إلى الحثِّ على الزهد، فهذا مرَمَى آخر، منهم مَنْ يفزعُ إليه لمثل هذا الغرض - تَوَقَّى المصائب ما أمكن - ولا غراضٍ أخرى تراها بعدُ... وقالوا: الجزعُ منقصةٌ للحياة، ومن أعان على نُقصانِ حياته، فقد عظمت خطيئته... وقالوا: التأسف على الفائت تضييع وقتٍ ثانٍ، إن كنتَ جازعًا لما أفلتَ منك فاجزعْ على ما لم يصلْ إليك؛ وقال

على كرم الله وجهه : الصبر مَطِيئَةٌ لا تَكْبُورُ ، والقناعةُ سَيْفٌ لا يَنْبُورُ . وقال
 عمر رضى الله عنه : لو كان الصبرُ والشكرُ بَعِيرَيْنِ ما بَايْتُ أَيُّهُمَا رَكِبْتُ ؛
 وقيل : الصبرُ يُنَاضِلُ الحَدَثَانِ ، والجَزَعُ من أَعْوَانِ الزَمَانِ ، وما فى الشكرى
 إلا أن تُحْزِنَ صَدِيقَكَ وَتُشْمِتَ عَدُوَّكَ ؛ وقيل : اجْعَلْ صَبْرَكَ على النوائب
 كِفَاءً شُكْرَكَ على المَوَاهِبِ ، الصبرُ عند النِقَمِ ، والشكرُ عند النِّعَمِ ، وقال
 حكيمٌ : جَمِيعُ مَكَارِهِ الدُّنْيَا تَنْقَسِمُ قَسْمَيْنِ ، ضَرْبٌ فِيهِ حَيْلَةٌ ، فَالاضْطْرَابُ ^(١)
 دَوَاؤُهُ ، وَضَرْبٌ لَاحِيْلَةٌ فِيهِ ، فَالصَّبْرُ شِفَاؤُهُ ، وَقَالَتِ الفُرْسُ : كَلِمَتَانِ
 يَقُولُهُمَا العَاقِلُ عِنْدَ نَائِبَتِهِ : إِحْدَاهُمَا : هَذِهِ الحَالُ خَيْرٌ مِمَّا هُوَ شَرٌّ مِنْهَا ،
 وَالأُخْرَى : اءَلَّ اللهُ أَنْ يَجْعَلَ فى هَذَا المَكْرُوهِ خَيْرًا اءَلَّ اللهُ أَنْ يَقُولَهُمَا الجَاهِلُ :
 لَعَلَّ مَا أَصَابَنِى يَدْعُو إلى شَرِّ مَنِّهِ ! وَالأُخْرَى : لَوْ كَانَ بَدَلَ كَذَا كَذَا مِنْ
 المَصِيبَةِ اءَلَّ اللهُ وَقَالُوا : الصَّبْرُ على مَرَارَةِ العَاجِلِ ، يُفِضُ إلى حَلَاوَةِ الآجِلِ ،
 إِنَّكَ لا تَنَالُ قَلِيلَ مَا تُحِبُّ إِلا بِالصَّبْرِ على كَثِيرِ مَا تَكْرَهُ ، وَقَالُوا : لِكُلِّ شَيْءٍ
 ثَمْرَةٌ ، وَثَمْرَةُ الصَّبْرِ الظَّفَرُ ، وَالصَّبْرُ كَأَسْمِهِ ، وَعَاقِبَتُهُ العَسَلُ ، . وَالصَّبْرُ على
 المَصِيبَةِ مُصِيبَةٌ على الشَّامِتِ . وَقَالَ عَلى : إِنْ صَبِرْتَ فَأَنْتَ مَا جُورَ ، وَإِنْ جَزِعْتَ
 جَرَى عَلَيْكَ المَقْدُورُ .

حشهم على تصوّر المصائب

والاستعداد لها كفى تخيف وطأتها

وقالوا فى ذلك : من كان مُتَوَقِّعًا ، لم يُلَفَّ مُتَوَجِّعًا ، وقال بعضهم

(١) الاضطراب : يريد : الحركة والاحتياال فى دفعه

- قيل لابن الرومي، ولم أرها في ديوانه، وإن كانت أشبه بمذهب ابن الرومي:-

ألم تر رُزءَ الدَّهْرِ مِنْ قَبْلِ كَوْنِهِ كِنْفًا حَا إِذَا فَكَّرْتَ فِي الْخَلَوَاتِ
فَا لَكَ كَلْمِيَّ فِي مَا مَنِ لَهُ يَبْدُلُ أَتْنَهُ غَيْرَ مُرْتَقِبَاتِ
فَإِنْ قُلْتَ مَكْرُوهٌ أَنَانِي فُجَاءَةٌ فَمَا فُوجِدَتْ نَفْسٌ مَعَ النَّحَطَاتِ
وَلَا عُرِقَتْ نَفْسٌ بِبَلْوَى وَقَدْرَاتِ عِظَاتٍ مِنَ الْإِيَامِ بَعْدَ عِظَاتِ
إِذَا بُعِثَتْ أَشْيَاءٌ قَدْ كَانَ مِثْلُهَا قَدِيمًا فَلَا تَعْتَدُهَا بَقَاتِ

وهذه الآيات من الوضوح والإنارة بحيث لا يعوزها شرح ، وقالوا :
ما أمتنع الدهر إلا ليمع ، ولا أعطى إلا ليسترّد ، ولولا اغترار الجاهل
بعوائده ، خلّت النفوس من الحسرة على نواتبه ، وقالوا : لا تُخِلْ فِكْرَكَ
مِنْ عَوَارِضِ الْفِكْرِ وَخَوَاطِرِ الذِّكْرِ فِيمَا تَعْرُوكَ بِهِ الْإِيَامُ ، من ارتجاع
ودائرها ، وحلول وقائمها ، - وهذا ما قاله ابن الرومي آنفا ،

الغمّ يورث السقم والهَرَمَ

قال المتنبي :

وَالْهَمُّ يَخْتَرِمُ الْجِسْمَ نَحَافَةً وَيُشِيبُ نَاصِيَةَ الصَّبِيِّ وَبِهِرَمَ

« يخترم : يستأصل ويقنطع ، والجسيم : العظيم الجسم ، والنحافة : الهزال ،
والناصية : شعر مقدم الرأس ، يقول : إن الحزن إذا استولى على
المرء أذهب جسم النظيم الجسد وهزله حتى يأتي عايه من الهزال ، ويشيب
الصبي قبل الاوان حتى يصير كالهَرَم من الضعف والعجز » ... وسئل عبد الله
ابن عباس عن الحزن والغضب فقال : أصلاهما واحد ، وذلك وقوع الأمر

على خلاف المحبة ، فأما فرعاها فمختلِفان ، فالمكروهُ مَمَّنْ فوقك ينتج حزنا
وممن دونك يُنتِجُ غضبا

• فحزنٌ كلُّ أخِي حُزْنٍ أَخُو الغَضَبِ (١) *

الحزن يبلى بتقادم العهد

وقالوا في الحزن يبلى بعد انقضاء مدة : الحُزْنُ يَنْضُو عن ابن آدم كما
يَنْضُو الصَّبْغُ عن الثوب (٢) ولو بَقِيَ لَقَتَلَهُ .

وقال المتنبي :

إِذَا اسْتَقْبَلَتْ نَفْسُ الْكَرِيمِ مُصَابَهَا بِجُبْتٍ ثَلَّتْ فَاسْتَدْبَرَتْهُ بِطِيبِ
وَاللَّوْاجِدِ الْمَكْرُوبِ مِنْ زَفْرَاتِهِ سُكُونٌ عَزَائِهِ أَوْ سُكُونٌ لُغُوبِ

« قوله : إذا استقبلت ... البيت ، فالمصاب مصدر بمعنى الإصابة ، والجُبْتُ
هنا : الجزع ، والطيب هنا : الصبر وترك الجزع ، وثنت : صرفه - أي الجزع -
النفس ، يقول : إذا جزع الكريم - ضد اللثيم - في أول نزول المصيبة ،
وراجع أمره ، عاد إلى الصبر والتسليم ، ومَن لم يُوطَّنْ نفسه على المصيبة في
أول الأمر صَعُبَ عليه عند وقوعها . وقوله : وللواجد المكروب ... البيت

(١) للمتنبي في مرثيته التي يرنى بها أخت سيف الدولة وأوله :

جَزَاكَ رَبُّكَ بِالْأَحْزَانِ مَغْفِرَةً حُزْنٌ كُلُّ أَخِي حُزْنٍ أَخُو الغَضَبِ

يقول : غفر الله لك أحزانك إذا حزنت بما يستغفر منه ، لأن الحزن كالغضب ممن هو دونك إذا
أصابك بما تكرهه والحزن ممن هو فوقك ، والإنسان إذا حزنت على مصيبة تصديه فكأنه يغضب
على القدر حيث لم يجر بمراده ، والغضب على المقدر مما يستغفر منه

(٢) يقال : نضى الخضاب ونضوا : ذهب لونه ونصل

يقول : لا بُدَّ للهِجْزِ مِنْ سَكُونٍ ، إِمَّا أَنْ يَسْكُنَ عَزَاءً ، أَوْ يَسْكُنَ إِعْيَاءً ،
وَإِذَنْ فَحَقِيقٌ بِالْعَاقِلِ أَنْ يَسْكُنَ تَعَزُّبًا ، كَمَا قَالَ مَجْمُودُ الْوَرَّاقِ :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَسَلْ أَصْطِبَارًا وَحِسْبَةً سَلِمَتْ عَلَى الْإَيَّامِ مِثْلَ الْبِهَائِمِ -
وَكَأَنَّ قَالَ أَبُو تَمَّامٍ :

أَنْصَبِرُ لِلْبَسَلَوَى عَزَاءً وَحِسْبَةً فَتُوجَّرُ أَمْ تَسْلُوا سُلُوبَ الْبِهَائِمِ
« الحسبة : طلب الأجر والثواب ،

وَمِنْ أَحْسَنِ مَا قِيلَ مِنَ الشَّعْرِ الْقَدِيمِ ، فِي أَنَّ الْحَزْنَ يَبْلِي إِذَا تَقَادَمَ عَهْدُهُ
قَوْلُ أَبِي خِرَاشٍ الْهَذَلِيِّ - شَاعِرِ مَخْضَرَمِ أَسْلَمَ وَهُوَ شَيْخٌ كَبِيرٌ ، يَوْمَ حَنْزِينِ - :
عَلَى أَنَّهَا تَعْفُو السُّكُومُ ، وَإِنَّمَا نُؤَكَّلُ بِالْأَذْنَى وَإِنْ جَلَّ مَا يَمْضِي
وَقَبْلَ هَذَا الْبَيْتِ :

حَدَّثْتُ إِلَهِي بَعْدَ عُرْوَةَ إِذْ نَجَا خِرَاشٌ ، وَبَعْضُ الشَّرَّاهُونَ مِنْ بَعْضِ
فَوَاللَّهِ : مَا أَنْسَى قَبِيلًا رُزْنَتَهُ بِجَانِبِ قَوْسِي مَا مَشَيْتُ عَلَى الْأَرْضِ
عَلَى أَنَّهَا تَعْفُو الْكَلَامَ ... أَلْبَيْتِ

وَلَمْ أَدْرِ مَنْ أَلْتَقَى عَلَيْهِ رِدَاءَهُ عَلَى أَنَّهُ قَدْ سُلِّ عَنْ مَا جَدَّ نَحْوِ
وَكَانَ مِنْ حَدِيثِ هَذَا الشَّعْرِ ، أَنَّ عُرْوَةَ بْنَ مُرَّةَ أَخَا أَبِي خِرَاشٍ ، وَخِرَاشُ
ابْنَ أَبِي خِرَاشٍ ، اصْطَجَبَا فِي مُتَصَرِّفٍ لِهَمَّا ؛ فَأَسْرَمَا بَطْنَانَ مِنْ
نَمَالَةٍ : بَنُو رَازِمٍ وَبَنُو بِلَالٍ - وَكَانَا مَوْتُورَيْنِ - فَاخْتَلَفُوا فِي الْإِبْقَاءِ
عَلَيْهِمَا وَقَتْلَهُمَا ، فَقالَ بَنُو بِلَالٍ إِلَى قَتْلِهِمَا ، وَتَفَاقَمَ الْأَمْرُ بَيْنَهُمَا فِي ذَلِكَ ، إِلَى
أَنْ صَارَ يُودَى إِلَى الْمَقَاتِلَةِ ، فَتَفَرَّدَ أَوْلَاكَ بَعْرُوتَ فَقَتَلُوهُ ، وَتَفَرَّدَ دَوْلَاءُ بَخْرَاشِ
فَخَلَّاهُ رَاحِدٌ مِنْهُمْ ؛ مُسْتَهْزِئًا لِلْفُرْصَةِ فِي الْإِسْدَاءِ ، فَقَالَ لَهُ : كَيْفَ دَلِيلَاكَ ؟
فَقَالَ : قِطَاةٌ ، فَأَلْتَقَى عَلَيْهِ رِدَاءَهُ وَقَالَ : أَنْجُوْهُ ، فَمَرَّ لِطَبِيبِهِ ، فَلَمَّا انْحَرَفُوا لِلنَّظَرِ

في أمره قال لهم مُمَسِّكُهُ إِنَّهُ أَفَلَتَ ، فطرده - أَيْ تَبِعُوا خِرَاشًا - فَأَعْيَاهُمْ ، فلما وصل خِرَاش إلى أبيه وَخَبَّرَهُ بِمَا جَرَى عَلَى عُرْوَةٍ وَبِمَا آتَفَقَ مِنْ صَاحِبِهِ فِي بَابِهِ ، ائْتَصَّ قِصَّتَهُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ ... وَقَوْسِي اسْمُ مَكَانٍ ، وَقَوْلُهُ : عَلَى أَنَّهَا تَعْفُو الْكَلَامَ ... أَلَيْتَ فَإِنَّ هَذَا يَجْرَى مَجْرَى الْإِعْتِذَارِ مِنْهُ وَالِاسْتِدْرَاكِ عَلَى نَفْسِهِ فِيهَا أَطْلَقَهُ مِنْ قَوْلِهِ : «لَا أُنْسِي قَتِيلًا رُزْمَتَهُ مَا مَشَيْتَ عَلَى الْأَرْضِ ، أَيْ مَدَّةَ حَيَاتِي ؛ وَالضَّمِيرُ فِي أَنَّهَا : لِلْقِصَّةِ ، وَخَبْرُ أَنَّ : الْجُمْلَةُ بَعْدَهَا ؛ وَالْعَفَاءُ : الدَّرُوسُ وَالذَّهَابُ ؛ وَالْكَلُومُ جَمْعُ كَلْمٍ ؛ وَيَعْنِي بِهِ : الْحَزَّ عِنْدَ ابْتِدَاءِ الْفَجِيعَةِ ، وَجَلَّ : عَظُمَ ؛ يَقُولُ : لَا أُنْسَاهُ وَلَوْ طَالَ عَهْدُهُ وَعَفَتْ آثَارُهُ ؛ وَإِنَّمَا قَالَ هَذَا لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يُؤَكِّلُ بِالْجَزَعِ الْمَصِيبَةَ الْقَرِيبَةَ الْعَهْدُ ؛ فَأَمَّا الْمُتَقَادِمُ مِنَ الْأَرْزَاءِ فَإِنَّ مُضَى الزَّمَنِ يُعْفِيهِ . وَقَوْلُهُ : وَلَمْ أَدْرَ ... أَلَيْتَ ؛ قَالَ الْأَصْمَعِيُّ وَأَبُو غَيْبَةَ لَا نَعْرِفُ مَنْ مَدَحَ مِنْ لَا يَعْرِفُهُ غَيْرَ أَبِي خِرَاشٍ ،

التأسي بمن مصابه كمصاب المصاب أو يُرَبِّي عليه

وقولهم في عكس ذلك

أما قولهم في عكس ذلك فأحسن ما قيل فيه قول ابن الرومي :

ليس تأسو كلوم غيري كلومي مابه مابه وما بي وما بي

«تأسو» : تُدَاوِي ، وَالْكَلُومُ : الْجُرُوحُ ، وَقَبْلَ هَذَا الْبَيْتِ - وَهِيَ آيَاتُ يَتَدُبُّ

بِهَا الشَّبَابُ - :

يا شبابي ا وَايْنَ مَنِّي شَبَابِي ؟ أَذْتَنِي رِحَابُهُ بِانْقِضَابِ

لُفِّ نَفْسِي عَلَى نَعِيمِي وَهَوِي تَحْتَ أَفْنَانِهِ اللَّدَانِ الرَّطَابِ

وَمُعَزِّي عَنِ الشَّبَابِ مُوسَى بِمَشِيْبِ اللَّدَاتِ وَالْأَثْرَابِ

قلت - لما اتتحي بعد أساءه من مُصابٍ شبابه فمصابٍ :
 ليس نأسوكلوم غيرى كلومى أليت
 وأما قولهم فى الناسى بمن مصيبته كمصاب المصاب أو تُربى عليه فمن ذلك
 قول أفلاطون لرجل رآه مغموماً : لو أحضرت قلبك ما فيه الناس من
 المصائب ، لقلّ همك ... « انظر مقالة الكاتب أديسون آخر هذا الباب » ...
 وقالت الخنساء :

ولولا كثرة الباكين حولى على إخوانهم لقتلتُ نفسى
 وما ييسكون مثل أخى ولكن أسألى النفس عنه بالتأسى
 وقال حريث بن سلمة بن مرارة بن مُحفص ، أحد بنى خزاعى بن مازن -
 شاعر جاهلى :-

ولولا الأتسى ما عشتُ فى الناس بعده ولكن إذا ماشئتُ جاؤ بنى مثلى

« عروة بن الزبير »

« مثل أعلى للصبر والناسى ،

كان عروة بن الزبير ، أحد الفقهاء السبعة بالمدينة ، وابن الزبير بن العوام
 - أحد العشرة المشهود لهم بالجنة وابنِ صفيّة عمّة سيدنا رسول الله - وشقيق
 عبد الله بن الزبير - الذى ولى الخلافة فى الحجاز حينما من الدهر أزمان بنى أمية
 والذى تولى قتله الحجاج - وأم عروة أسماء بنت أبى بكر الصديق - وهى ذات
 النطاقين ^(١) ، وخالته عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ، وكان عالماً صالحاً ،

(١) النطاق : شقة أو ثوب تلبسه المرأة ثم تشد وسطها بحبل ثم ترسل الأعلى على
 الأسفل إلى الركبة عند معاناة الأشغال لئلا تعثر فى ذيلها ، وكان لاسماء نطاقان تلبس

أقول : كان عروة هذا من قوة الإيمان والتسليم والرضا بالقدر خيريه وشره ورجحان العقل ، بحيث يُعدُّ مثلاً أعلى للصبر والتسلي ، وذلك أنه وقد من المدينة على الوليد بن عبد الملك بِدِمَشْقَ - عاصمة الامويين - وكان معه ابنه محمد - وكان من أجمل الناس ، فيقال : إن الوليد عانته - أصابه بعينه - فدخل محمد دارَ الدواب ، فضربته دابةً فخرَّ مَيِّتاً ، ووقعت في رجل عروة الأكلة - داء في العضو يأكل منه - ولم يدع ورده تلك الليلة ، فقال له الوليد : أقطعها وإلا أفسدت عليك جسدك ، فلما دُعِيَ الجزار ليقطعها قال له : نَسَقِيكَ الحمرَ حتى لا تجرد لذلك ألساً ، فقال : لأستعين بحرام الله على ما أرجو من عافية ، قالوا : نَسَقِيكَ المُرْقِدَ « دواء يُرْقِدُ شاربَه كالآفيون » قال : ما أحب أن أسلبَ عضواً من أعضائي وأنا لا أجد ألمَ ذلك فأحتسبه « أحتسبه : أطلب به الأجر » . ودخل عليه قوم أنكرهم فقال : ما هؤلاء ؟ قالوا : يُمسكونك فإن الألم رُبَّمَا يعزبُ معه الصبر « يعزب : يبعد » قال : أرجو أن أكفيكم ذلك من نفسي ، فقُطِعت كعُبه بالسكين ، حتى إذا بلغ العظم وُضع عليها المِششار ، فقُطِعت وهو يُهلل ويكبر « يهلل : يقول : لا إله إلا الله ، ويكبر : يقول : الله أكبر » ثم إنه أغلَى له الزيت في مغارف الحديد ، فحَسِمَ به ، فقُشِيَ عليه ، فأفاق وهو يمسحُ العرق عن وجهه ، ولما رأى القدمَ بأيديهم دعاها فقَلَّباها

أحدهما وتحمل في الآخر الزاد إلى سيدنا رسول الله وأبي بكر وهما في الغار ، فلذلك سميت ذات النطاقين ، ورويت عائشة : أن النبي صلوات الله عليه لما خرج مع أبي بكر مهاجرين صنعنا لهما سفرة طعام المسافر ، في جراب دوعاء من جلد ، فقُطِعت أسماء بنت أبي بكر من نطاقها وأوكت به الجراب وشدته بالوكاء : الحبل الذي يشد الوعاء ، فلذلك كانت تسمى ذات النطاقين

في يده ، ثم قال : أما والذي حَمَلَنِي عَلَيْكَ ، إِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنِي مَاشَيْتُ بِكَ إِلَى حَرَامٍ ، وَلَمَّا دَخَلَ ابْنُهُ إِصْطَبَلَ الْوَلِيدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ وَقَتَلْتَهُ الدَّابَّةَ كَمَا تَقَدَّمَ لَمْ يُسْمِعْ فِي ذَلِكَ مِنْهُ شَيْءٌ إِلَّا قَوْلَهُ « لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ، وَلَمَّا قُطِعَتْ رِجْلُهُ قَالَ : اللَّهُمَّ ، إِنَّهُ كَانَ لِي أَطْرَافٌ أَرْبَعَةٌ فَأَخَذْتُ وَاحِدًا وَأَبْقَيْتُ لِي ثَلَاثَةً ، فَكَانَ الْحَدُّ ، وَأَيْمُ اللَّهِ ، لَنْ أَخَذْتُ لَقَدْ أَبْقَيْتُ ، وَإِنْ أَبْتَلَيْتَ لَقَدْ عَافَيْتُ ... وَلَمَّا مَاتَ ابْنُهُ وَقُطِعَتْ رِجْلُهُ ، وَفَدَّ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ عَلَى الْوَلِيدِ قَوْمٌ مِنْ بَنِي عَبْسٍ فِيهِمْ رَجُلٌ ضَرِيرٌ ، فَسَأَلَهُ الْوَلِيدُ عَنْ عَيْنِيهِ ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، بَتُّ لَيْلَةً فِي بَطْنِ وَادٍ وَلَا أَعْلَمُ عَنِّي سِيًّا يَزِيدُ مَالَهُ عَلَى مَالِي ، فَطَرَقْنَا سَبِيلًا فَذَهَبَ بِمَا كَانَ لِي مِنْ أَهْلِ وَوَلَدٍ وَمَالٍ ، غَيْرَ بَعِيرٍ وَصَبِيٍّ مَوْلُودٍ ، وَكَانَ الْبَعِيرُ صَعْبًا ، فَتَدَّ ، فَوَضَعْتُ الصَّبِيَّ وَاتَّبَعْتُ الْبَعِيرَ فَلَمْ أَجَازِزْ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى سَمِعْتُ صَيْحَةَ ابْنِي وَرَأْسَهُ فِي فَمِ الذَّبِّ وَهُوَ يَا كَلَهُ ، فَلَحَقْتُ الْبَعِيرَ لِأَحْبِسَهُ فَنَفَخَنِي بِرِجْلِهِ « ضَرِبَهُ بِحَدِّ حُفَيْهِ » عَلَى وَجْهِهِ ، فَخَطَمَهُ وَذَهَبَ بِعَيْنِي ؛ فَأَصْبَحْتُ لَا مَالَ لِي وَلَا أَدْلَ وَلَا وَلَدًا وَلَا بَصَرَ ؛ فَقَالَ الْوَلِيدُ : انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى عُرْوَةَ لِيَعْلَمَ أَنَّ فِي النَّاسِ مِنْ هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ بِلَاءٌ ...

وَمِنْ عَزَى عُرْوَةَ : إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ طَاهِجَةَ قَالَ لَهُ : وَاللَّهِ مَا بَكَ حَاجَةٌ إِلَى الْمَشَى وَلَا أَرَبٌ فِي السَّعَى ؛ وَقَدْ تَقَدَّمَكَ عِضْوٌ مِنْ أَعْضَانِكَ وَإِنْ مِنْ أَبْنَائِكَ ؛ إِلَى الْجَنَّةِ ؛ وَالْكُلُّ تَبِعُ لِلْبَعْضِ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ؛ وَقَدْ أَبَقَ اللَّهُ لِنَامِكَ مَا كُنَّا إِلَيْهِ فَقَرَاءً ؛ وَعَنْهُ غَيْرُ أَغْنِيَاءَ ، مِنْ عَمَلِكَ وَرَأْيِكَ ؛ نَفَعَكَ اللَّهُ وَإِيَانًا بِهِ وَاللَّهُ وَلِيُّ ثَوَابِكَ ؛ وَالضَّمِينُ بِحَسَابِكَ ...

مطرح الهموم

وهذه كلمة طريفة في معنى ما نحن بصدده، كتبها الكاتب «أديسون»
ونقلها المرحوم محمد السباعي إلى مجلة البيان التي كان يقوم بإخراجها مؤلف
هذا الكتاب، قال أديسون :

«ما يُؤثِّرُ عن الحكيم سُقْرَاطُ أنه قال : إذا جُمِعَتْ مَصائبُ البشرِ كُلِّها في
وِعاءٍ ، ثم قَسِمَتْ على جميعِ الناسِ بالسَّواءِ لِاصْبِحَ من كان يَحْسِبُ نفسه أشقى الناسِ
وأخسَرَهُمْ يُفَضِّلُ أولىَ الحالِّينِ على الثانيةِ ، وجاء بعد سُقْرَاطُ الشاعرُ الرومانيُّ
«هوراس» فعدَّلَ هذا المعنى فقال : إنَّ ما يُكابِدُ أحَدنا من المصائبِ أخفُّ
عليه من مَصائبِ أيِّ إنسانٍ آخرٍ إذا وقعَ بينَ الرُّجُلَيْنِ تبادلٌ... فبينما أنا
ذاتَ يومٍ مُتَّكِنٌ في خَلَوَتِي أَفَكَّرُ في هاتينِ الحِكْمَتَيْنِ وقد أخذتني سِنَةٌ
من النومِ إذ نُحِيلُ إلى أَنَّهُ بِأَمْرِ إِلهِ الْإِلَهَةِ قد نودِي في الناسِ : أن يَحْمِلَ كُلُّ
أمرئٍ مَصائبَهُ فَيَأْتواها جميعاً فَيَطْرَحوها بَعْضُها فوقَ بَعْضٍ ، في سَهْلٍ فسيحٍ ،
فوقمتِ وَسَطَ ذلكِ السَّهْلِ ، وسرتني أن أرى الناسَ طُرّاً يأتونَ واحداً بعد
واحدٍ يُلْقونَ أثقالَهُمُ العَديداً ، حتى ارتفعَ من مجموعِها جَبَلٌ طالَتْ^(١) ذُؤابَتُهُ
السَّحابِ .

وكان هنالك امرأةٌ نحيلةٌ خفيفةٌ قد شَمَرَتْ عن ساعدِ الجِدِّ وَسَطَ هذه

(١) سميت فوق السحاب قال :

إنَّ الفِرْزَدَقَ صَخْرَةٌ عادِيَةٌ طالت - فليس تنالها - الأَجبالا

فليس تنالها جملة معترضة والأجبالا مفعول طالت والتقدير : طالت الأجبالا

فليس تنالها الأجبال .

الخلائق، تحمل في إحدى يديها مجهرًا، وعليها ثوبٌ فضفاضٌ هفهافٌ سابغٌ
الذليلٌ موشىٌ بعددٍ عديدٍ من تصاوير الجان والعمارات، كلما ضربت الريح
الجلبابَ تلوَّنتُ وتشكَّلت تلك التماويلُ أشكالًا وألوانًا؛ وكان في عينها وآهٌ
وتلهُفٌ وحيرةٌ، وكان اسمُها «الوهم» وهي التي كانت تسوقُ كلَّ فردٍ من
البشر إلى المكان المعين بعد إيعانتها إياه على ربط حُرْمَتِهِ وَحَبْكِيهَا وإلقائها على
عاتقِهِ، فأذاب قلبِي رُؤْيَةَ إِخْوَتِي وَأَبْنَاءِ أُمِّي وَأَبِي يَنوُونَ بِأَحْمَالِهِمْ. وَيَبْذُنُونَ
تحت أنْقَالِهِمْ؛ وَفَتَّتَ كَيْدِي أَنْ أُبْصَرَ ذَلِكَ الْجَبَلَ الْبَاذِخَ الَّذِي مِنْ أَحْزَانِهِمْ
تَسْكُونُ، وَمِنْ آلامِهِمْ تَأَلَّفَ، عَلَى أَنَّهُ أَلْهَانِي عِنْدَ ذَلِكَ، وَسَلَّانِي هُنَاكَ:
عِدَّةٌ مِنَ الْقَوْمِ، لِغَرِيبِ أَحْوَالِهِمْ وَعَجِيبِ هَيْئَاتِهِمْ؛ فَمِنْ بَيْنِ هَؤُلَاءِ رَجُلٌ فِي
حُلَّةٍ مُطْرَزَةٍ أَقْبَلَ يَسْعَى حَتَّى جَاءَ الْمَكَانَ، فَأَخْرَجَ مِنْ تَحْتِ حُلَّتِهِ الْمَوْشَاةَ
الْمَرْكُشَةَ حَمَلًا، فَأَلْقَاهُ فَحَدَجَتْ بِيَصْرِي أَتَبَيْتُهُ، فَإِذَا هُوَ: الْفَقْرُ؛ وَأَقْبَلَ
آخِرُ يَرْزُوحٌ تَحْتِ ثِقَلِهِ، وَبَعْدَ كَثِيرٍ مِنَ التَّنْفُسِ وَالزَّفِيرِ أَلْقَى حَمْلَهُ؛
فَنظَرْتُ؛ فَإِذَا هُوَ: زَوْجَتُهُ؛ وَرَأَيْتُ عِدَدًا عَدِيدًا مِنَ الْعُشَّاقِ عَلَى كِوَاهِلِهِمْ
أَنْقَالَ عَجِيبَةٍ مِنْ سِهَامٍ وَسَعْلٍ؛ وَلَكِنْ أَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ بَرَّغْمٌ مَا رَأَيْتُهُ يَكَادُ
يَمَزَّقُ قُلُوبَهُمْ مِنْ غُلُوِّ الْوَجْدِ وَبُرْحَاءِ الْكَمْدِ؛ وَبَرَّغْمٌ زَفْرَةٌ لَهُمْ تَرَقَّى؛
وَعَبْرَةٌ لَاتَرَقَّى^(١) كَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ مَطَاوِعَةَ عَقُولِهِمْ عَلَى إِلْقَاءِ تِلْكَ الْأَنْقَالِ
عِنْدَ مَا بَلَّغُوا الْكَثِيبَ؛ وَلَكِنَّهُمْ بَعْدَ قَلِيلٍ مِنَ الْمَحَاوَلَةِ - مَحَاوِلَةِ الْمَشَاوِلِ
الْمُتَمَكِّرَةِ - هَزُّوا رُؤْسَهُمْ وَرَجَعُوا بِأَنْقَالِهِمْ أَشَدَّ ثِقَلًا وَأَفْدَحَ
حَمَلًا، وَأَبْصَرْتُ كَثِيرًا مِنَ الْعَجَائِزِ يُلْقِينَ تَغَاضِينَ وَجُوهَهُنَّ

(١) أى: لا تفيض ولا تنجف وأصل ترقا: ترقا فخفف، وترقى الأولى: ترتفع

وكثيرا من الفتيات يلقين سُمرَ جلودهن . ورأيت كوماً^(١) من أنوف حمراء
وأَسنانِ قَلحاء^(٢) وشفاهِ فُلحاء^(٣) . والعَجَبُ العُجَابُ أني رأيت معظمَ الجبل
مؤلفاً من غاهاتٍ بدنية . وآفاتٍ جسدية ، ثم لمحتُ من بعيد رجلاً على ظهره
جملٌ لم أر في سائر الأَحمالِ ما يُدانيه عَظماً ، فأنعمتُ النظرَ فإذا هي حَدَبَةٌ ،
فألقتها - فرحاً بذلك - بين سائر البلايا الآدمية . ورأيت كذلك عِدلاً وأمراضاً
من كلِّ ضَرْبٍ وصِنْفٍ ، غير أني رأيت الوهميَّ من ذلك أكثرَ من الحقيقيِّ
وشاهدتُ بين هذه نَوْعا قد أُلِّفَ من جميعِ الأمراضِ والعِللِ يَحْمِلُهُ في الأَكْفِ
عَدَدٌ عَظِيمٌ من ذَوِي النعمةِ والرِّفاهيةِ ، واسمُ هذا الداءِ : المَلَلُ ، وأعظمُ
عَجْبِي وحَيْرَتِي أني لم أر أحداً قَطُّ أَلتقى بين هذه الآفاتِ والمصائبِ شيئاً مما
ابْتُلِيتُ به نفوسُ البَشَرِ من الرذائلِ والحماقاتِ والأضاليلِ والنقائصِ والسخافاتِ
والإباطيلِ ، فأدهشني ذلك أيّما دَهْشٍ ، إذ كنتُ قد ظننتُ أنها فرصةٌ لا يدعُها
أحدٌ حتى يطهَّرَ نفسه من أدرانِ الأهواءِ والشهواتِ . ويُخَلِّصَ طَبْعَهُ مِنْ
أكدارِ العيوبِ والعوراتِ . ورأيت في الجماعةِ رجلاً فاسقاً لم أشكُ في أنه جاء
مُثَقِّلاً بأوزارِهِ وآثامِهِ : فلما أقبلتُ على مارماه أفتَّشهُ أَلقيتُ أنه لم يَرِمِ شيئاً
من تلك الذنوبِ والآثامِ وإنما رَمَى ذاكِ كرتَهُ ، وتبعه رجلٌ ساطئٌ جاهلٌ ،
فَنظَرْتُهُ فإذا هو قد نبذَ حياهُ لا جَهْلَهُ ... ولما فرغَ الناسُ من طَرْجِ أَثقالِهِمْ
وفرغتِ الجَنِيَّةُ النجيلةُ الخفيفةُ^(٤) من عَمَلِهَا ، وكانت قد رأت مني رجلاً ينظرُ

(١) جمع كومة ، يقال : كوم كومة بالضم : إذا جمع قطعة من ترابٍ ورفع رأسها
ونظيره : الصبرة من الطعام

(٢) القلح : صفرة في الأسنان (٣) فلحاء : مشقوقة

(٤) الوهم كما يذكر التامري

ولا يعمل، دنت مني، فلم يرعني إلا رفعها المجهر إزاء عيني، وكنت أعرف في وجهي القصر، فإذا هو قد تناهى قصر أحتى عاد أبشع شيء، فساء في منظره، فألقيته كما يلقي القناع. وكنت قبل ذلك ببرهة أبصرت رجلا رمي بوجهه لفرط طوله، وكان أطول وجهه حتى لذقته وحدها تطول^(١) وجهي بأكمليه، فاستراح من مصيبته واسترحت، واستراح الخلق طرا؛ وأطلق لكل امرئ أن يستبدل ببلواه محنة غيره.

على أنه لم يبق في الجمع إلا متعجب من هذه المحن كيف عدها أهلها محنا وكيف كان قد غرّبها وخذع فيها، فحسبها نعمة وفوائد، وبيننا نحن نتأمل خليط المصائب، ومزيج النوائب، صدر أمر الإله الأكبر أن يستبدل كل امرئ بمصابه ويرجع إلى مثواه بحظه الجديد، عند ذلك تحركت «الوهم»، وقسمت الكتيب في أخف نشاط وأكمل سرعة، فأعطت كلاً نصيبه، - وكان باليراع يعجز أن ينعت ما حدث إذ ذلك من هرج ومرج^(٢)، ثم كانت أمور كثيرة أذكر الآن بعضها:

رعى شيخ كبير على كتيب المصائب علة كانت في بطنه، وكان عاقرا، يتمنى ولداً يكون عماد شيخوخته ووارث ثروته، فمد يده ليتعاض من دائه الذي طرحه فاختطف ولداً فاجراً عاقراً، كان آفة أب له، وكان ذلك الأب قد نبذته في النبأ^(٣) يريد به بديلاً، وقد أخذ بدله مرض البطن الذي رعى به الرجل الأول. فلم تمض إلا برهة حتى رأيت ذلك الغلام قد ناز بالشيخ الكبير فأخذ بلحيته وناصيته، وهم أن يفلق رأسه. فما هو إلا أن أبصر الأب

(١) تزيد عليه طولا (٢) اختلاط (٣) المنبذات، أي: الأشياء المنبوذة
يعني بها الآفات التي كان الناس يرمونها تخلصاً منها وليتقاضوا بدلها

الأصلي، وكان يسعى نحوه ممسكا بحشاه من وجع المعدة حتى صاح به :
 يرحمك الله وإيانا، أخذ ولدك بارك الله فيه وأعطني عِلتي، ولكن قضى
 الأمر، وكان مالا يكونُ تبديله، ولا يُستطاع تحويله ...

يا ابنَ بُورَانِ لا تفرَّ منَ الله ۝ ولا مِن قضاةِ المحتومِ

ورأيت أسيرا مقيداً خلع قيده، وقُلع صفده، فاعتاض منه النقرس^(١)
 ولكن أبدى من التأوه والتأقف والتلوى والتنزى ما دلّ على أنه لم يكن
 في تجارته تلك بالراجح الصفة .

ولقد كان من المُمْتَحِ اللَّاذَّ أن تُبَصِّرَ ما وقع إذ ذاك من المبادلات
 والمقايضات، من علة بخلة^(٢) وجوع يفقدان شهوة، وهمّ وتسويد، بأثر
 وتقييد . أما النساء فكانن من تبادل الأعضاء - أعضاء الوجه والجسم - في
 شغلٍ شاغلٍ، فواحدة تستعوض لمة شمطاء، من جلدة سمراء، وثانية تأخذ
 عنقا قصيرا، وتُعطي أنفا كبيرا، وثالثة ترمي عرضاً مفضوحا . وتلقطُ وجهها
 مقبوحا، وما منهن إلا من تُدركُ في الحال أنها اعتاضت من سيئ أسوأ،
 ومن ردىء أردأ، وكذلك حال سائر الجمع في كل بلية وآفة، لعلة لأن
 ما أصابنا به الله مناسبٌ لمقدار صبرنا واحتمالنا، أو لأن كل مصيبة تدلُّها
 العادة ...

فقلت لها : يا عَزُّ، كلُّ مصيبةٍ إذا وُطئتْ يوماً لها النفسُ ذلَّتْ
 ولقد رَحمتُ من صميمٍ مُهَجَّتْ ذلكَ الأحَدبَ الأنفَ الذَّكْرَ، إذ راح معتدلٌ
 القامةُ وافي الشَّطاطِ، لكن يَداءُ في كُلاه؛ وعلة في حشاه، كما رَحمتُ مُعاقِدَهُ
 ومبايعَهُ الذي راح مُحدِّدِ بَ الظَّهرِ يَطَّاعُ وَسَطِ يَرُبُّ مِنَ الفَتِياتِ كُنَّ قَبْلَهُ مَوَكَّعاتُ

(٢) داء في الرجلين يمنعهما من الحركة .

(١) من مرض بفقر

وفيه هائمات . ولست ناسياً ذَكَرَ شَأْنِي وشَأْنِ ذِي الوجهِ الطويلِ ، فإن ذلك الرفيقَ ما كَادَ يأخُذُ وجهي القصيرَ حتى أضحى فيه أعجوبةَ الأعاجيبِ ، فاستَلقيتُ ضاحِكاً من وجهي حتى أَخجلتُ وجهي ، وأدرك الرجلُ المسكينُ خطيئته وعَرَفَ غَلطته ، فحجِلَ واستَحْيَى ، غير أني ما لبثتُ أن فِئتُ ^(١) إلى نفسي فعلمتُ أنه ليس لي أن أزهَى وأختالَ وأسخرَ من الغيرِ وأنا سُخرَةٌ ، وأضحك منهم وأنا ضُحِكٌ ^(٢) ، وإن لي في غرابة هيتي لشُغلاً عن اللهو بهياتِ الناسِ ومدوْحَةٍ ، وذلك ، أيها القارئُ ، أني رفعتُ يدي أريدُ جَبْهتي فلم تقعِ لِطولِ وجهي إلا على الشَّفَةِ العليا ، وكذلك بينا أنا أُجِيلُ يدي في وجهي أريدُ إحدى عينيَّ صَكَتْ يدي أنفي ، لِبروزِهِ وضخامته ، مِراراً .

ثم نظرتُ ناحيةً مني فأبصرتُ رَجُلَيْنِ في مثلِ حالِنَا من السُّخريةِ قد أحَدنا تبادلاً في زوجين من الأَرَجُلِ ، زوج غليظِ أعوجِ قصيرِ ، وزوج طويلِ نحيلِ ، فكان صاحبُ الرَجُلَيْنِ النحيلتينِ كأنما قد رُفِعَ في الهواءِ على عمودي بيتِ ، فهائمه تدورُ مع الرِّيحِ حينما دارتِ ، وأما صاحبُ الرَجُلَيْنِ العُوجاوينِ القَصيرينِ فكلما حاولَ السَّيرَ دارَ في مكانه لا يبرُحُه . ولما رأيتُ على حُجَّاه سِيما الحِلْمِ والظَّرْفِ والفكاهةِ أقبلتُ عليه أمارحُه فقلتُ له : سأجعلُ لك كذا وكذا إنِ استطعتَ أن تبأعَ هذا ، ورسمتُ له خَطًّا على مسافةِ ذِراعينِ من مُرْسَى قَدَميه ، في مُدَّةِ نصفِ ساعةِ .

وأخيراً تمَّ توزيعُ كَثيبِ المِحَنِ والآفاتِ على أهلِها ، من ذَكَرِ وأنثى .

(١) رجعت (٢) يقال : فلان سخره كسفرة : يسخر منه ، وسخره كهمزة :

يسخر من الناس ، وضحكة بسكون الحاء : يضحك منه ويفتحها : كثير الضحك

وأقبلوا جميعاً تحت أُنْقَالِهَا الْجَدِيدَةِ رُزْحاً حَسْرَى . وَهَلْأَ حَيْرَى . وقد مَأْوَا
السَّهْلَ وَالْحَزْنَ صَجَّةً وَأَيْنَا . وَرَنَّةً وَحَيْنَا . ثم أدركتهم رحمةُ الله ، فأمرهم
بِطَرْحِ أُنْقَالِهِمْ كَرَّةً أُخْرَى ، فَأَلْقَوْهَا فَرِحِينَ بِأَلْقَائِهَا مَسْرُورِينَ . وَأَمَرَ « الوهم »
تلك الشيطانة التي غررت بهم وضللتهم ، أن تنصرف ، فانصرفت ، وأرسل
الإلهُ بَدَلَهَا مَلَكاً كَرِيماً ، جَدَّ مُخَالَفٍ لَهَا هَيْئَةً وَشَكْلاً . مُبَايِناً لَهَا خَلْقاً وَخُلُقاً ،
رَزِينَ الْحَرَكَاتِ ثَابِتَ الْجَنَانِ ، قد جمع في هَيْئَتِهِ بين الطَّلَاقِ وَالْجِدْوِ وَالْوَقَارِ وَالْبِشْرِ ،
لَا يَنْفَكُ مِنْ حِينٍ إِلَى آخِرٍ يَرْفَعُ نَحْوَ السَّمَاءِ طَرْفَهُ ، وَيَسْمُو إِلَى عَرْشِ اللَّهِ
بَأَمَلِهِ ؛ وَأَسْمُ هَذَا الْمَلِكِ . الصَّبْرُ ، وَأَعْجَبُ مَا رَأَيْتُ أَنْ هَذَا الْمَلِكُ مَا قَامَ بِجَانِبِ
جَبَلِ الْآلَامِ إِلَّا وَأَخَذَ الْجَبَلَ يَهْبِطُ وَيَضُولُ حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهُ أَكْثَرُ مِنْ رُبْعِهِ ،
ثُمَّ أَعَادَ مَلِكُ الصَّبْرِ إِلَى كُلِّ حَظَّةٍ الْأَوَّلِ ، وَأَلْهَمَهُ الصَّبْرَ الْجَمِيلَ ، وَأَشْرَعَ قَلْبَهُ
قُوَّةَ التَّجَلُّدِ وَنُورَ الْيَقِينِ ، فَرَأَحَ مُغْتَبِطاً سَعِيداً يَحْمَدُ اللَّهَ عَلَى كُلِّ مَا أَعْطَاهُ ، تَانِباً بِمَا
اقْتَرَفَهُ مِنَ الْجَهْلِ وَجَنَاهُ .

فَمَا أَفَدْتُ مِنْ هَذِهِ الْعِظَاتِ وَالْعِبَرِ أَنِّي لَسْتُ حَقِيقاً أَنْ أَتَبَرَّمَ بِشَيْءٍ مِنْهَا
بُصِيْبِي بِهِ اللَّهُ أَوْ أَنْفَسَ عَلَى امْرئِي هِبَةً أَوْ نِعْمَةً ، إِذْ كَانَ مُسْتَحِيلًا عَلَى امْرئِي
أَنْ يَعْلَمَ حَقِيقَةَ جَارِهِ وَيَعْرِفَ سِرَّ صَاحِبِهِ وَيَقِفَ عَلَى مَبَالِغِ أَحْزَانِهِ وَأَشْجَانِهِ
وَكُرْبِهِ ، وَنُوبِهِ ، وَبَلَايَاهُ ، وَرِزَايَاهُ ، فَكُلُّ لُكْلٍ سِرٌّ غَائِضٌ وَخِزَانَةٌ مُقْفَلَةٌ
وَسِقْفٌ مُطَبَّقٌ . وَلكِنِّي آلَيْتُ عَلَى نَفْسِي أَنْ أَخَذَ نَفْسِي بِثَلَاثِ : كِتَابَانَ الْعَالَةِ ،
وَكِتَابَانَ الْفَاقَةِ ، وَكِتَابَانَ الْمَصِيبَةِ ، مَعَ الصَّبْرِ عَلَيْهَا جَمِيعاً ، وَأَنْ لَا أَحْسَدَ امْرَأً عَلَى
شَيْءٍ ، وَأَنْ أَكُونَ أَبَدًا حَاضِرَ الصَّفْحِ لِلنَّاسِ ، وَاسِعَ الْعَفْوِ ، إِذْ كَانَ أَعْقَلُ
النَّاسِ أَعْذَرَهُمُ لِلنَّاسِ ...

عبقرياتهم في الدنيا

وأنها دارِ مَحَنٍ وأكدار

ولأن الدنيا التي أسماها سيدنا رسول الله : أمّ دَفْرٍ - والدَّفْرُ ، النَّتْنُ ، دَفْرًا دافراً لهذه الدنيا - أقول : لما كانت هذه الدنيا دارَ مَصَائِبٍ وَمَحَنٍ وأكدار ، وحسبك بهادِمِ الذَّاتِ - المِوتِ - الذي فَضَحَ هذه الدنيا وبَيَّدها أيّما فضيحة والذي هو نهاية كلِّ حيٍّ ، من مصيبة أي مصيبة - لأجل هذا قال الأوائل والأواخر في هذه الدنيا وأبدعوا وافتنوا كلَّ الافتنان ؛ ونحن فسوف نورد عليك أطيب ما قالوا في ذلك ، لما بينه وبين الصبر من واشجّة الرحم ، ولأنه كلامٌ خالد ، لأنه حقٌ وصدق ، لا يلبق بعاقِلٍ أن لا يكثر له ، وإنما الواجب أن يجعله دائماً نُصَبَ عينيه ، وأن ينظر إليه نظرة رجل ثاقب الرأى بعيد أفق الفكر . لانظرة رجل أحقُّ مُتَمَتِّعِ العقل أعمته أباطيل هذه الحياة وألهاة التكاثر وبهرجتها عن كُنْهها فارتطم في أوحالها وصار يَمَلِّحُ في لذاتها مَلْحًا ، لاهايا عن المنهاة المؤسسة التي تَنْظُرنا جميعا ، جالِبًا بنفسه على نفسه ما يضاعف آلامها ، لا ما يخفف أحزانها ويهون ما أمكن شدائدها وأكدارها . ونحن إذ نورد في هذا الكتاب ما قالوا في الدنيا فإننا لاندعو إلى الزهد فيها وفي تعميمها - كما سيمر عليك في هذا الفصل - ولكن مادام كِنَابَتنا في عبقریات الأوائل والأواخر ، في كلِّ شيء ، كان واجبا علينا أن نورد عبقرياتهم في الدنيا ، وفي المِوتِ ، كما نورد عبقرياتهم في سائر المعاني التي يعالجها الناس ويتداولونها فيما بينهم ، على أنهم إذ ذموا الدنيا إنما يتراقون بذلك «أولاً» إلى أن يصدّوا بالحقيقة قعره أن الدنيا في الواقع دارِ أحزان وأكدار ، و«ثانياً» إلى حثِّ الناس على الإجمال في الإقبال عليها ، والتعقل في

التهافت على شهواتها، والاعتبار بعبئها، والتزوّد فيها لما بعدها، ومن يُنكر أن ذلك جميل ونافع ١ ذمّ رجل الدنيا بحضرة علي بن أبي طالب رضى الله عنه فقال علي: آسكت، إن الدنيا دارُ صدق لمن صدّقها، ودار غنى لمن تزوّد منها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار موعظة لمن اتعظ بها، مهبط وحى الله، ومتجر أوليائه... إلى آخر ما قال. ومن كلامه أيضا رضوان الله عليه: الناس أبناء الدنيا ولا يُلام المرء على حُبّ أمه... وسيمر عليك كثير من أمثال هذا...

أسماء الدنيا

الدنيا: اسم لهذه الحياة، وتُكنى الدنيا: أمّ دُفْر، أسماها بذلك - كما أسلفنا - سيدنا رسول الله، والدُفْر: النَّثْنُ، وتُكنى كذلك: أمّ شملة، أنشد ابن الأعرابي:

مِنْ أُمَّ شَمْلَةَ تَرْمِينَا بِذَانِفِهَا غَرَارَ قَزِيذَتِهَا مِنَ التَّهَابِيلِ

وكذلك تُكنى: أمّ شملة. قال أبو عمرو بن العلاء: إنما سُمّيت الدنيا والخمر بذلك - كما سلفنا - لأنهما يشتملان على عقل الإنسان فيغيباه... أقول: ومن يُنكر أن أبناء الدنيا، من شدة تعلقهم بها وتكالبهم عليها، وضراوتهم بشهواتها، واقتنائهم بزینتها وخوضهم غمراتها، بحيث يُعدّون كأنهم مُسنزفون مُستلبو العقول حتى إذا رماهم هاذم الذات بسهامه صحّوا وأفاقوا... وصدق سيدنا رسول الله إذ يقول صلوات الله عليه: الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا... أما الدهر - وهو اسم لزمان متصل، والزمان اسم لدهر منفصل - فقد سمّوه أبا العجب قال:

❖ وما الدهر في فؤله إلا أبو العجب ❖

والنسبة إلى الدنيا: دُنياوى، ويقال: دُنيوى ودُنيى - وجمها دُنّى، وإنما

سميت دنيا : لِذُنُوهَا ، لِأَنَّهَا دَنَتْ وَقُرُبَتْ ، وتأخّرت الآخرة ، أما الدهر فالنسبة إليه دُهْرِيٌّ بضم الدال تقول : رجل دُهْرِيٌّ : أى قديم مُسِنٌ ، أما رجل دَهْرِيٌّ بفتح الدال فمعناه : ملحد لا يؤمن بالآخرة يقول ببقاء الدهر ، وقوله صلى الله عليه وسلم : لا تُسَبِّحُوا الدهر فإن الله هو الدهر ، فمعناه : أن العرب كان من شأنها أن تُدَمِّمَ الدهرَ وتُسَبِّبه عند الحوادث والنوازل تنزل بهم من موتٍ أو هرمٍ فيقولون : أصابهم توارع الدهر وحوادثه وأبادهم الدهر ، فيجدلون الدهر الذى يفعل ذلك فيذمونه ، وقد أخبر الله بذلك فى كتابه العزيز ثم كذبهم فقال : وقالوا ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، ثم قال الله : وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ، وجمع الدهر أدهر ودهور ، أما الدهارير فهى تصاريف الدهر ، وقيل جمع للدهر على غير قياس ، قال الشاعر القديم (١) :

فأستقْدِرِ الله خيراً وأَرْضَيْنَ به فبينما العُسْرُ إذ دارت مياسيرُ
وبينما المرءُ فى الأحياءِ مُغْتَبِطٌ إذا هو الرَّمْسُ تَعْفُوهُ الأعاصيرُ
يُسكى عليه غريبٌ ليس يَعْرِفُهُ وذو قرابته فى الحى مشرورُ
حتى كأن لم يكن إلا تَدَكَّرُهُ والدهر أَيْتَمًا حين دهاريرُ

« قوله : فاستقدر الله خيراً : أى اطلب منه أن يقدر لك خيراً ، وقوله :

بينما العسر ؛ فالعسر مبتدأ خبره محذوف تقديره فبينما العسر كائن أو حاضر ، إذ دارت مياسير : أى حدثت وحلت ، والمياسير جمع ميسور ، وغتبط أى فى غبطة : أى مسرة وحسن حال ، والرمس : القبر ، وتعفوه : تدرسه وتمحو أثره ،

(١) قال أبو عمرو بن العلاء : لرجل من أهل نجد . وقال ابن برتى : لعثير بن لييد العذرى ، قال : وقيل لحريث بن جبلة العذرى

والأعاصير جمع إعصار وهي: الريح تُهبُّ بشدَّةٍ، وقوله؛ كأن لم يكن إلا تذكره فيمكن تاءه وإلا تذكره فاعل بها واسم كأن مضمّر تقديره كأنه لم يكن إلا تذكره والهاء في تذكره عائدة على الهاء المقدّرة، والدهر مبتدأ ودهاير خبره وأيتها حال ظرف زمان والعامل فيه ما في دهاير من معنى الشدة، والدهاير قال الزمخشري: تصاريف الدهر ونوابه، مشتق من لفظ الدهر ليس له واحد من لفظه كعبايرد

قِلة لبث الإنسان في الدنيا

قال المصطفى صلوات الله عليه: فيمَ أنا من الدنيا؟ ومالي ولها! وإنما مثلي ومثلها كراكبٍ سار في يوم صائفٍ، فرُفِمت له شجرةٌ فقال تحتها ساعة من نهارٍ، ثم راح وتركها، قال: من القيلولة وهي الاستراحة نصف النهار وإن لم يكن معها نومٌ، يقال: قال يقيل قيلولة فهو قائلٌ،

وقال علي بن أبي طالب: الدنيا دارٌ يمرّ لا دارٌ مقرّ والناس فيها رجُلانٍ رجُلٌ باع نفسه فأوبقها ورجُلٌ ابتاع نفسه فأعتقها «أوبقها: أهلكتها بسبب تهاونه على الدنيا وإعراضه عن الآخرة، وابتاع: اشترى، وأعتقها أي من النار، بتجنبه المعاصي وشهوات الدنيا» وقيل لنوح عليه السلام - وهو الذي عاش ألف سنة إلا خمسين عاماً - كيف وجدت الدنيا؟ قال: كدار لها بابان دخلتُ من أحدهما وخرّجت من الآخر

قِلة متاع الدنيا

قال الله تعالى: «قلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى» «قليل: سريع النقص» وقال سبحانه: «لِنَمَّا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ

السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ
الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادُونَ عَلَيْهَا آتَاها أَمْرُنَا لَيْلًا
أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ،

« قوله سبحانه: إنما مثل الحياة الدنيا، أى فى سرعة تقضيها وذهاب نعيمها
بعد إقبالها واغترار الناس بها، وزخرفها: حسنها وبهجتها، وقادرون عليها: أى
متمكنون من حصدها، وأتاهأ أمرنا، أى نزل بزرعها ما يحتاجه لجعلها الله
كأنها حصدت من أصلها فصار زرعها كأنه لم يكن، وقال أبو جعفر المنصور
حين حضرته الوفاة: بعننا الآخرة بتومة... وقال شاعر:

أراها وإن كانت تُحَبُّ فإنها سحابة صيفٍ عن قليلٍ تَقشَعُ
وقال أعرابي: ما كانت الدنيا على بنى فلان إلا طيفاً لما اتدبهاوا ولّى
عنهم، وقال آخر:

مَرَرْتُ بِدُورِ بَنِي مُصْعَبٍ بِدُورِ السَّرُورِ وَدُورِ الفَرَحِ
فَشَبَّهْتُ سُرْعَةَ أَيَّامِهِمْ بِسُرْعَةِ قَرَيْسٍ يُسَمَّى قُرْحَ
تَلَوْنَ مُعْتَرِضًا فِي السَّمَاءِ فَلَمَّا تَمَسَّكَ مِنْهَا نَزْحَ

الماضى والحاضر والمستقبل

قال الحسن البصرى: أمس أجل، واليوم عمل، وغدا أمل...، وقال
حكيم: بينى وبين الملوك يومٌ واحد؛ أما أمس فلا يجدون لذته ولا أجد شدته
وأما غد فإني وإياهم منه على خطر، وما هو إلا اليوم، فما عسى أن يكون!

تحذيرهم من تضييع الأيام

قال حكيم: الليل والنهار يعملان فيك فأعمل فيهما

وقال الحسنُ البصريُّ: ما وَعَظَنِي شَيْءٌ مِثْلُ ما وَعَظَنِي كَلامُ الحِجْجِاجِ
 فِي حُطْبَتِهِ: إِنْ أَمَرَأَّ أَنْتَ عَلَيَّ سَاعَةً مِنْ عُمْرِهِ لَمْ يَذْكَرْ فِيهَا رَبَّهُ أَوْ
 يَسْتَغْفِرُ مِنْ ذَنْبِهِ أَوْ يُفَكِّرُ فِي مَعَادِهِ ، لَجَدِيدٍ أَنْ تَطُولَ حَسْرَتُهُ يَوْمَ
 الْقِيَامَةِ ... وكان الحجاج بليغاً ومن مصاقع الخطباء، ومن كلماته التي تشبه كلمات
 الحسن البصري، وهي مما قاله على ذؤابة المنبر: أيها الناس؛ ائدعوا هذه الأنفوس،
 فإنها أسألُ شَيْءَ إِذَا أُعْطِيَتْ، وَأَمْنَعُ شَيْءَ إِذَا سُبِّتْ، فَرَحِمَ اللهُ أَمْرَأً جَعَلَ
 لِنَفْسِهِ خِطَاماً وَزِمَاماً، فَعَادَهَا بِخِطَائِهَا فِي اللهِ، وَعَظَّفَهَا بِزِمَامِهَا عَنِ مَعْصِيَةِ
 اللهِ، فَإِنِّي رَأَيْتُ الصَّبْرَ عَنِ مَحَارِمِ اللهِ أَيْسَرَ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى عَذَابِهِ ... « ائدعوا:
 أى ائمنعوا، والخطام: حبل من ليف أو شعر أو كتان يُبْنَى طَرَفُهُ عَلَى
 مِخْطَمِ البعير ليقاد به، والزمام: حبلٌ دقيقٌ يُجْعَلُ فِي أَنْفِهِ »

الأيام تهدم الحياة

قال حكيم: مَنْ كَانَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ مَطِيئَةً، سَارَا بِهِ وَإِنْ لَمْ يَسِرْ، أَخَذَهُ
 الشاعِرُ فَقَالَ:

رَأَيْتُ أَخَا الدُّنْيَا وَإِنْ كَانَ خَائِضًا أَخَا سَفَرٍ يُسْرَى بِهِ وَهُوَ لَا يَدْرِي
 « خَائِضًا: يريد مقيماً في خفض ودعة »

وقالوا: أنفاس المرءِ حُطَّاهُ إِلَى أَجَلِهِ، وَأَمَلُهُ خَادَعُهُ عَنِ عَمَلِهِ؛
 وقال الشاعر:

مَا رَتَدَ طَرَفُ امْرِئٍ بِلَمَحْظَتِهِ إِلَّا وَشَيْءٌ يَمُوتُ مِنْ جَسَدِهِ
 وقال أبو العتاهية:

تَطَّلْتُ تَفَرُّحُ بِالْأَيَّامِ تَقْطَعُهَا وَكُلُّ يَوْمٍ مَضَى يُدْنِي مِنَ الْأَجْلِ

وقال عمرو بن قبيصة - شاعر قديم في الجاهلية - :

كَأَنِّي وَقَدْ جَاوَزْتُ تِسْعِينَ حِجَّةً خَلَعْتُ بِهَا عَنِّي عِذَارَ لِحَامِي
عَلَى الرَّاحَتَيْنِ مَرَّةً وَعَلَى الْعَصَا أَنْوَاءُ ثَلَاثًا بِمَدَّهِنَّ قِيَامِي
رَمْتَنِي بِنَاتِ الدَّهْرِ مِنْ حَيْثُ لَا أَرَى فَكَيْفَ بَمَنْ يُرْتَمَى وَلا يَسِ بَرَامِي
فَلَوْ أَنَّهُ نَبَلٌ لِإِذْنِ لَاتَّقِيَتْهَا وَلا كُنْتِي أُرْتَمَى بِغَيْرِ سِهَامِي

« قوله : خلعت بها عنى عذار لجامى : فالعرب تقول : خلع فلان العذار يريد : خلع الحياء ، مثل للشاب المنمك فى غيئه كما يخلع الفرس العذار فيجمع ويطمع لأن اللجام يمسكه ، والعذار : الذى يضم حبل الخظام إلى رأس البعير والياقة وعلى ذلك يكون معنى قوله : أنه أسام سرح اللهور حيث أسام الغواة فى هذا العمر المديد ، ولعله يريد بذلك عدم التماسك كما بينه فى البيت الثانى ، وقوله : « أنوء ثلاثا يعنى : أنه ينهض ثلاث مرات بانحناء ثم يستقيم ، وبنات الدهر : نوبه »

البقاء فى الدنيا سبب الفناء

قال سيدنا رسول الله : لو لم يكسب ابن آدم إلا الصحة والسلامة لكفى بهما داء « لأن السلامة تُسلبه إلى الهرم وما يستتبعه من الهم والسقم ، وقيل لأعرابى : كيف حالك ؟ فقال : ما حال من يفتنى ببقائه ، ويسقم بسلامته ، ويؤتى من مآتيه ، ! وقال حميد بن ثور الهلالى - وهو شاعر إسلامى ترجم له أبو الفرج فى الجزء الرابع من أغانيه - :

أَرَى بَصْرَى قَدْ رَابَى بَعْدَ صِحَّةٍ وَحَسْبُكَ دَاءٌ أَنْ تَصِحَّ وَتَسْلَمَا
وَلا يَلْبَثُ الْعَصْرَانُ يَوْمٌ وَلا لَيْلَةٌ إِذَا طَلَبَا أَنْ يُدْرِكَا مَا تَيْمَمَا

وقال أبو حية التميمي - من شعراء الدولتين - :

أَلَا حَى مِنْ أَجْلِ الْحَبِيبِ الْمَغَانِيَا لَبِئْسَ النَّبِيُّ بِمَا لَبِئْسَ اللَّيَالِيَا
إِذَا مَا تَقَاضَى الْمَرَّةَ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ تَقَاضَاهُ شَيْءٌ لَا يَمْلُ التَّقَاضِيَا

وقال بعض شعراء الجاهلية - وقيل : القائل عبدالرحمن بن سويد المرّي -

كَانَتْ قَنَاتِي لَا تَلِينُ لِغَازِمٍ فَأَلَانَهَا الْإِصْبَاحُ وَالْإِمْسَاءُ
وَدَعَوْتُ رَبِّي فِي السَّلَامَةِ جَاهِدًا لِيُصَحِّحَنِي إِذَا السَّلَامَةُ دَاءُ

« كانت قناتي لا تلين لغازم : من الغمز ، وهو العضر باليد وهو مثل
يريد : أنه كان صلب العود شديد القوة على من يشتد ويحترق عليه » وقال
النمر بن تواب - شاعر جاهلي إسلامي ، وقد على سيدنا رسول الله وحسن
إسلامه ، ومن قوله : صوم شهر الصبر ، وصوم ثلاثة أيام يذهبن كثيرا
من وحر الصدر - قال :

تَذَارِكُ مَا قَبْلَ الشَّبَابِ وَبَعْدَهُ حَوَادِثُ أَيَّامِ تَمَرٍ وَأَغْفَلُ
يَسُرُّ النَّفْسَ طُولُ السَّلَامَةِ وَالْبَقَا فَكَيْفَ يَرَى طُولَ السَّلَامَةِ يَفْعَلُ
يَرُدُّ النَّفْسَ بَعْدَ اعْتِدَالِ وَصْحَةِ يَبْرُءُ إِذَا رَامَ الْقِيَامَ وَيُجْمَلُ
« والبقاء مقصور لضرورة الشعر وتروى : والغنى »... وقال الصلتان

العبدى - شاعر إسلامي كان في زمن جرير والفرزدق - :

إِذَا لَيْلَةٌ هَرَمَتْ يَوْمَهَا أَتَى بَعْدَ ذَلِكَ يَوْمٌ قَتَى
وهذا البيت من أبيات جميلة للصلتان اختارها أبو تمام في حماسه

يقول فيها :

أَشَابَ الصَّغِيرَ وَأَقْنَى الْكَبِيرَ يَرَكُرُ الْغَدَاةَ وَمَرُّ الْقَسِي

إِذَا لَيْلَةٌ... الْبَيْتِ

زُوحٌ وتَعُدُّو لحاجَاتِنَا وحاجةٌ من عاش لا تَنْقِضِي
تَمُوتُ مع المرءِ حاجَاتُهُ وتَبْقَى له حاجةٌ ما بَقِيَ

فرح الدنيا مشوب بالترح مُعَقَّبٌ بالهموم

نَظَرَ كِسْرَى أُو شروان إلى مُلكه يوماً فأعجبه فقال : هذا مُلك إلا أنه
هَلِكٌ ، ونعيم إلا أنه عَدِيمٌ ، وغَنَاءٌ لولا أنه عَنَاءٌ ، وسُرورٌ لولا أنه سُرورٌ ،
ويومٌ لو كان يُوثِقُ له بِغَدٍ... وقال المُغيرةُ بنُ حَبْنَاءٍ - هو وأخراه صخر ويزيد
كانوا شعراءً ، وكان المُغيرةُ من رجال المهلب بن أبي صفرة توفي سنة ٩١ هـ :
وكذاك الدهرُ ما تَمَّمُهُ أَقْرَبُ الأَشْيَاءِ من عُرْسِهِ

الدنيا هموم وغموم

سَمِعَ حَكِيمٌ رجلاً يقولُ لِأَخَرَ : لا أراكَ اللهُ مَكْرُوها ، فقال : دَعَوْتُ
عليه بالموتِ ، مَنْ عاش لا بُدَّ له من مَكْرُوهٍ ، وقيل للنظام - إبراهيم بن سيار
المعزلى - وفي يَدِهِ قَدْحٌ دواء - : كيف حالك ؟ فقال :

أَصْبَحْتُ في دارِ بليّاتٍ أَدْفَعُ آفاتِ آفاتِ

وقال أبو الحسن علي بن محمد السهامي المتوفى سنة ٤١٦ هـ يصف الدنيا - :
طَيِّبَتِ عِل كَدْرٍ وَأَنْتِ تُرِيدُهَا صَفَوًا مِنَ الأَقْدَاءِ والأَكْدَارِ
وَمُكَلِّفِ الأَيَّامِ ضِدَّ طِبَاعِهَا مُتَطَلِّبٌ في المَاءِ جُذُودَ نارِ
وَإِذَا رَجَّوْتَ المُسْتَحِيلَ فَإِنَّمَا تَنبِي الرِّجَاءَ عَلى شَفِيرِ مارِ

«الجدوة: الجرة، والشفير: ناحية الوادي من أعلاه، وهار: يقال: هار الجرف والبناء: انهار وانهدم»

وقال شاعر:

أَمَرَ الزَّمَانَ لَنَا طَعْمَهُ فَمَا إِنْ تَرَى سَاعَةً عَذَبَهُ

وقال آخر:

أَفْ مِنْ الدُّنْيَا وَأَسْبَابِهَا فَإِنَّا لِلْحُزْنِ مَخْلُوقَةٌ
هُمُّومُهَا مَا تَنْقُضِي سَاعَةً عَنْ مَلِكٍ فِيهَا وَلَا سَوْقَةً

وقال آخر:

تَأْتِي الْمَكَارِهُ حِينَ تَأْتِي جُمْلَةٌ وَتَرَى الشُّرُورَ يَجِيءُ فِي الْفَلَتَاتِ
وقال ابن نباتة السعدي:

وَمَا خَيْرُ عَدِيسٍ نِصْفُهُ سِنَّةُ الْكَرَى وَنِصْفُ بِهِ تَعْتَلُّ أَوْ تَتَوَجَّعُ
مَعَ الْوَقْتِ يَمِضِي بُؤْسُهُ وَنَعِيمُهُ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ وَالْوَقْتُ عُمُرُكَ أَجْمَعُ
وقال الشريف الرضي:

يَا أَمِينَ الْأَقْدَارِ بَادِرُ صَرْفِهَا وَاعْلَمْ أَنَّ الطَّالِبِينَ حِثَّاتُ
تُحْذِرُ مِنْ ثَمَرَاتِكَ مَا اسْتَطَعْتَ فَإِنَّمَا شُرَكَاءُكَ الْأَيَّامُ وَالْوُرَاتُ
لَمْ يَقْضِ حَقَّ الْمَالِ إِلَّا مَعْشَرُ وَجَدُوا الزَّمَانَ يَغِيثُ فِيهِ فَعَانُوا
تَحْشُو عَلَى عَيْبِ الْغَنِيِّ يَدُ الْغَنِيِّ وَالْفَقْرُ عَنْ عَيْبِ الْفَقِيِّ بِحَاتُ
الْمَالُ مَالُ الْمَرْءِ مَا بَلَغَتْ بِهِ الشَّدَّ هَوَاتُ أَوْ دَفَعَتْ بِهِ الْأَحْدَاتُ
مَا كَانَ مِنْهُ فَاضِلًا عَنْ قُوَّتِهِ فَلْيَعْلَمَنَّ بِأَنَّهُ مَسِيرَاتُ
مَالِي إِلَى الدُّنْيَا الْغُرُورَةُ حَاجَةٌ فَلْيَخْرِزْ سَاحِرُ كَيْدِهَا النَّفَّاتُ
سَكَنَاتُهَا مَحْذُورَةٌ وَعَهْوُودُهَا مَنْقُوضَةٌ وَجِبَالُهَا أَنْكَاتُ

أُمُّ الْمَصَائِبِ لَا يَزَالُ يَرُوعُنَا مِنْهَا ذُكُورُ نَوَائِبٍ وَإِنَّا نَكُ
 إِنِّي لِأَعْجَبُ مِنْ رَجَالٍ أَمْسَكُوا بِجَبَائِلِ الدُّنْيَا وَهُنَّ رِثَاثُ
 كُنُوزِ السُّكُورِ وَأَغْفَلُوا شَهْوَاتِهِمْ فَالْأَرْضُ تَشْبَعُ وَالْبُطُونُ غَرَاثُ
 «صَرَفَهَا: حَدَّثَانَهَا وَنَوَائِبَهَا، وَحِثَاثُ: سِرَاعُ، وَحِثَا التُّرَابُ: صَبَّهُ، يَقُولُ
 فِي هَذَا الْبَيْتِ: إِنَّ الْغِنَى يَغْطِي عِيُوبَ الْأَغْنِيَاءِ أَمَا الْفَقْرُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ النَّاسَ عَلَى أَنْ
 يَفْتَشُوا عَنْ عِيُوبِ الْفُقَرَاءِ وَيُلْصِقُوا بِهِمُ الْعِيُوبَ الْإِصَافَا. وَنَكْتُ الْحَبْلِ:
 نَقْضُهُ، وَرِثَاثُ جَمْعُ رِثٍ: بَالٍ، وَغَرَاثُ: جَائِعَاتُ، ...»

النقصان بعد التمام

قَالُوا: مَنْ بَلَغَ غَايَةَ مَا يُحِبُّ فَلْيَتَوَقَّعْ غَايَةَ مَا يَكْرَهُ... وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ:
 وَجَدْتُ لِبَعْضِ الْعَرَبِ بَيْتَيْنِ كَأَنَّهُمَا أُخِذَا مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: حَتَّى إِذَا فَرِحُوا
 بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمُ بَغْتَةً، وَهِيَ:
 أَحْسَنْتَ ظَنِّكَ بِالْأَيَّامِ إِذْ حَسَلَتْ وَلَمْ تَخْفَ غِيبًا مَا يَأْتِي بِهِ الْقَدَرُ
 وَسَأَلْتَنِي اللَّيَالِي فَاعْتَرَزَتْ بِهَا وَعِنْدَ صَفْوِ اللَّيَالِي يَحْدُثُ الْكَدْرُ
 وَمِنْ دُعَاءِ بَعْضِهِمْ: صَرَفَ اللَّهُ عَنْكَ آفَاتِ التَّمَامِ...
 وَالْبَيْتُ الْمَشْهُورُ فِي هَذَا الْمَعْنَى:

إِذَا تَمَّ أَمْرٌ بَدَأَ نَقْضُهُ تَوَقَّعْ زَوَالًا إِذَا قِيلَ تَمَّ
 وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: عَرَّضَ الدُّنْيَا عَارِيَّةً، وَمَنْ فِيهَا ضَيْفٌ،
 وَالْعَارِيَّةُ مُؤَدَّاةٌ، وَالضَيْفُ مُرْتَحِلٌ «العارية: ما تستعيره من قريبك أو صديقك
 أو جارِك لتنتفع به حينئذ ثم تردّه إلى صاحبه، وعرض الدنيا: ما نزل منها
 من متاعها وحطامها»

وقال حكيم: الدنيا تُظَمِّمُ أولادها، وتَأْكُلُ أولادها. وقال الشاعر:
وما المالُ والأهلون إلا ودائعٌ ولا بُدُّ يوماً أن تُرَدَّ الودائعُ
وقال المتنبي:

أبدأ تَسْتَرِدُّ ماتمَبُ الدنيا فباليتَ جودَها كانَ بُخلاً
فكفَّتْ كَوْنُ فرحةٍ تُورِثُ النَمَّ وِخيلٌ يُغادِرُ الوجودَ خِلاً
ويقول المتنبي: شيمة الدنيا أن تستردَّ ماتمَبُ وتعطى، فليتها بخلت وما
جادت إذ لوبخلت ولم تعط لكففتنا الفرح بوجود شيء يُعقب لذقه الغم،
والفرح بوجود خليل يُؤنسُ بقرِّبه ثم نخترمه المنية فيغادرُ الهمَّ خليلاً للحازن
عليه، وفي هذه القصيدة يقول المتنبي:

ولذيذِ الحياةِ أنفُسُ في النَّفْسِ وأشهى من أن يَمَلَّ وأحلى
وإذا الشيوخُ قالَ أفِ فما مَلَّ حياةٍ وإنما الضَّعْفَ مَلَأَ
آتَةُ العيشِ مَحْمَةٌ وشبابُ فإذا وأيا عن المرءِ ولي

الدنيا لا يدوم فيها فرح ولا ترح

قال شاعر:

هل الدهر إلا ساعةٌ ثم تنقضي بما كان فيها من بلاءٍ ومن خفيضٍ
فهو نك لا تحفلُ إساءةٍ عارِضٍ ولا فرحةً تأتي فِكَلتَناهُما تمضي
والخفيض: الدعة ولين العيش وسعته، والهون: مصدر الهين في معنى

السكينة والتثبت والوقار والرفق قال:

فهو نك لا يرد الدهرُ ما فاتا لا تمليكا أسفا في إثر من ماتا

وقال آخر:

وما اکتأبتُ نفسُ فَدَامَ اکتأبُهَا ولا ایتبجتُ نفسٌ فَدَامَ ایتبأجُهَا
ودخل أعرابيٌّ عُمرَ مائةٍ وعشرين سنةً على معاويةَ رضى الله عنه ، فقال له :
صِفْ لنا الدنيا ، فقال : سُنيَاتُ بلاءٍ وَسُنيَاتُ رِخاءٍ ، يولدُ مولودٌ وبِملكٍ هالكٍ
ولولا المولودُ بادَ الخاقُ ، ولولا الهالكُ ضاقت الارضُ .

الدنيا غرارة

قال بعضهم : هذه الدنيا قَحَبَةٌ يوما عند عطار ، ويوما عند بيطار ...
وقال المتنبي :

فَدَى الدارُ اُنْحُونُ مِن مُومسٍ وأخدُعُ من كَفَّةِ الحايِلِ
تَفانى الرجالُ على حُبِّها وما يَحْصُلون على طائلِ

« الحايِلُ : الصائدُ ذو الجبالة ، وهى الشراك ، والطائلُ : ما كان له قدر .
يقول المتنبي : إن هذه الدنيا فاجرة خَوانة لبنيها كالومس مُخْلِيفٌ من وثيقِ بها ،
وهى كذلك اُخدُعُ من جبالة الصائد تصرُعُ من اطمأن اليها ، ثم قال فى البيت
الثانى : تفانى الناس على حُبِّها ومع ذلك لم يَحْصُلوا من أمرها على طائل لانها
تسترِدُ ما تعطيه وتهديم ما تبنيه ، وتمرُّ بعد حلاوتها وتعوج بعد استقامتها .
وقالوا : مثلُ الدنيا مثلُ الحيةِ اَيْنُ مَسَّها رَفَى جوفِها السَّمُ الناقعُ ، يَهْوَى اليها
الصبيُّ الجاهلُ ، ويحذرُها الحازمُ العاقلُ . » يَهْوَى اليها : يُسرِعُ وذلك كما تقول
رأيت فلانا يَهْوَى نحوك ، معناه : يريدك ، قال تعالى : فاجعل أفئدةً من الناس
تَهْوَى اليهم : أى تريدهم وتسرع . وقال أبو عمرو بن العلاء : كنتُ أدورُ فى
ضَيْعَتِي فى شِدَّةِ الحرِّ فسمعتُها تَفأ يقول :

ولانَّ امرأً دُنْياهُ أَكْبَرُ مِمِّهٍ لَمَسْتَمِسِكُ منها بِجَبَلِ غُرورِ
(١٧ - ١)

فَنَقَّشْتُ ذَلِكَ عَلَى خَاتَمِي . وَقَالَ الشَّاعِرُ :
وَمَنْ عَرَفَ الْأَيَّامَ لَمْ يَرِ خَفَضَهَا نَعِيمًا وَلَمْ يُعَدِّدْ تَصَرُّفَهَا بَلْوَى

حب الدنيا على الرغم من عيوبها

قال علي بن أبي طالب رضى الله عنه - وقد ذكِرَ له توأمٌ يُحِبُّونَ الدُّنْيَا - :
هُمُ أَبْنَاؤُهَا ، أَفِيلَامُ الرَّجُلِ عَلَى حُبِّ وَالِدَيْهِ ! وَقَالَ الشَّعْبِيُّ : مَا أَعْلَمُ لَنَا وَاللِّدْيَا
كَقَوْلِ كَثِيرٍ عَزَّةَ :

أَسِيْبِي بِنَاؤُ أَوْ أَحْسِنِي لَا مَلُومَةَ لَدَيْنَا وَلَا مَقْلِيْسَةَ إِنْ تَقَلَّتْ
« وقد تقدم » ، وقال شاعر :

يَذُمُّونَ دُنْيَا لَا يُرِيحُونَ دَرَّهَا وَلَمْ أَرَ كَالدُّنْيَا يُدَمُّ وَيُحْلَبُ
« لا يريحون درَّها فالدرُّ : اللبن يقول : إنهم مع ذمهم إياها يُلْحُونَ فِي
الإقبال عليها ويكلبون ويشرِّهون حتى ما يتركون دَرَّها يستريح ، وهذا على
المثل . . . »

وقال أبو العتاهية :

كُنَّا يُكْسِرُ الْمَذْمَةَ لِلدُّنْيَا وَكُلُّ بِحْبِهَا مُفْتُونُ

الدنيا تضر محبيها

قالوا في ذلك : الدُّنْيَا تُضِرُّ مُحِبِّيهَا ، وَمَا كُرِّمَتْ عَلَى أَحَدٍ نَفْسُهُ إِلَّا هَانَتْ
عَلَيْهِ الدُّنْيَا ، وَقَالُوا : أَوْحَى اللَّهُ إِلَى الدُّنْيَا : أَنْ آخِذِي مَنْ إِيْجَفَاكِ وَاسْتَحْدِي
مَنْ يَهْوَاكِ « وهذا تمثيلٌ جميلٌ وَحَقٌّ ، وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ : الدُّنْيَا
لَا تُضِرُّ إِلَّا مَنْ أَمِنَهَا وَلَا تَنْفَعُ إِلَّا مَنْ حَذَرَهَا . وَقَالَ الْفَارُوقُ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ : مَا كَانَتْ الدُّنْيَا بِهَمِّ امْرِئٍ إِلَّا لَزِمَ قَلْبُهُ خِصَالُ أَرْبَعٍ : قَفْرٌ لَا يَدْرُكُ

غِنَاهُ ، وَهَمْ لَا يَنْقِضِي مَدَاهُ ، وَشُغْلٌ لَا يَنْقَدُ أَوْلَاهُ ، وَأَمَلٌ لَا يُدْرِكُ مُنْتَهَاهُ .
وقال الشاعر :

أَرَى الدُّنْيَا لِمَنْ هِيَ فِي يَدَيْهِ عَذَابًا كُلَّمَا كَثُرَتْ لَدَيْهِ
مُهَيَّنُ الْمُكْرِمِينَ لَهَا بِصُغْرِ وَتُكْرِمُ كُلَّ مَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ
« الصَّغَرُ : الصَّغَارُ ، أَي الذَّلُّ وَالضَّمِيمُ ،

وقال المتنبي :

وَمَنْ لَمْ يَعْشَقِ الدُّنْيَا قَدِيمًا ؟ وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى الْوِصَالِ

« مَنْ : اسْتِفْهَامِيَّةٌ ، يَقُولُ الْمَتْنَبِيُّ : مَنْ ذَا الَّذِي لَمْ يَعْشَقِ الدُّنْيَا مِنْ قَدِيمٍ
الدَّهْرُ ؟ كُلُّ أَحَدٍ يَهْوَى الدُّنْيَا وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى دَوَامِ وَصَالِهَا ، أَي أَنْ
كَثِيرًا مِنْ عُشَّاقِهَا وَاصِلِهَا وَوَأَصْلَتِهِ وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى دَوَامِ الْوِصَالِ فَإِنَّ
وِصَالَهَا يَعْقِبُهُ الْهَجْرُ وَسُرُورُهَا يَعْقِبُهُ الْحُزْنُ وَأَيَادُهَا تَنْتَهِي بِالْمَوْتِ »

بنو الدنيا أغراض لضروب المحن

قِيلَ لِأَحْسَنِ الْبَصْرِيِّ : كَيْفَ أَصْبَحْتَ ؟ فَقَالَ : كَيْفَ يُصْبِحُ مَنْ دَوَّ
غَرَضٌ لثَلَاثَةِ أَسْهُمٍ : سَهْمُ رَزِيَّةٍ ، وَسَهْمُ بَلِيَّةٍ ، وَسَهْمُ مَنِيَّةٍ . وَقَالُوا : مَنْ
أَخْطَأَهُ سَهْمُ الْمَنِيَّةِ لَمْ يُخْطِئْهُ سَهْمُ الرِّزِيَّةِ ، وَقَالَ ابْنُ الْمُعْتَزِ :
الدَّهْرُ يَطْرِفُ بِالْعَنَاءِ وَالنَّاسُ بَيْنَ جُفُونِهِ

« يَقَالُ : طَرَفَ بَصْرَهُ يَطْرِفُهُ طَرْفًا : إِذَا أَطْبَقَ أَحَدٌ جَفْنَيْهِ عَلَى الْآخَرِ ؛

وَالْعَنَاءُ هُوَ الْعَنَاءُ أَي النَّصَبُ » وَقَالَ أَبُو الْعَتَاهِيَّةِ :

أَفِ لِدُنْيَا تَلَاعَبْتُ بِي تَلَاعَبَ الْمَوْجَ بِالْعَرِيْقِ

الأيام تمضى فى تراذلها

سمِعَ زيادُ بنَ أبيه امرأةً تقولُ : اللهم اعزِلْ عَنَّا زيادا ، فقال : زيدي فى دعائكِ : وأبدِلْنا خيرا منه ، فإنَّ الأخيرَ أبداً شرٌّ ... وقال أبو الدرداء (١) : معروفُ زماننا مُنكَّرُ زمانٍ قد فات ، ومُنكَّرُهُ معروفُ زمانٍ لم يأتِ ،

حمدهم ماضى الزمان وذمهم حاضره

كانت السيدة عائشة رضى الله عنها كثيرا ما تُنشدُ قولَ أبيد :
 ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْثَرِهِمْ وَيَبْقِيَتْ فِي خَلْفِ كَجَلْدِ الْأَجْرَبِ
 وتقول : رَحِمَ اللَّهُ كَيْدَا ، كيف لو عاش إلى زماننا ! وكان عبد الله بنُ الزبير يُنشدُ هذا البيت ويقول : رَحِمَ اللَّهُ عَائِشَةَ ، كيف لو عاشت إلى زماننا أو من كلام الحسن البصرى : كان الناسُ ورَقًا بلا شوكٍ فصاروا شوكًا بلا ورقٍ ... وقالوا :

رُبَّ يَوْمٍ بَكَيْتُ فِيهِ فَلَمَّا صِرْتُ فِي غَيْرِهِ بَكَيْتُ عَلَيْهِ
 وهناك مَنْ يذهب إلى أن ماضى الزمان كحاضره ، لا يفضّل قديمُ الزمان حديثه ، وإنما الأيام كلها ، أو الناس جميعا ، قدامهم ومحدثوهم وأولهم وآخرهم سواسيةً فى أنهم خلفُ كجلدِ الأجرَب ، ومن أحسن ما قيل فى ذلك تلك الكلمة التى كتبها بديعُ الزمانِ الهَمْدَانِيُّ فى رسالة له إلى أستاذه أبى الحسين ابن فارس صاحب المجل فى اللغة ، جوابا على رسالة كتبها ابن فارس إلى البديع

(١) هو عويمر بن قيس بن زيد الأنصارى ، الصحابى المشهور ، شهد مع سيدنا رسول الله وقعة أحد وما بعدها وتوفى فى آخر خلافة عثمان بن عفان

في ذمّ الزمان^(١)، قال البديع: نعم أطالَ اللهُ بقاءَ الشيخ الإمام، إنه الحَمَأُ
المَسُونُ^(٢)، وإن طُنَّتِ الظُّنون، والناسُ لآدم، وإن كان العهدُ قد تقدّم،
وارتبتك الأضداد، واختلط الميلاد؛ والشيخ يقول: فسَدَ الزّمان، أفلا
يقول: متى كان صالحاً؟ أفى الدّولة العباسية وقد رأينا آخرها وسَمِعنا أولها؛
أم المدّة المرؤانية وفي أخبارها « لا تَكْشَعِ الشَّوْلُ بِأَغْبَارِهَا »^(٣)... أم
السّنين الحرّية^(٤):

وَالسَّيْفُ يُعْمَلُ فِي الطَّلِيِّ وَالرَّمْحُ يُرَكَّزُ فِي السُّكْلِيِّ^(٥)

(١) قيل: ذكر الهمذاني في مجلس ابن فارس فقال مامعناه: إن البديع قد نسي حق
تعليمنا إياه، وعقنا وشمخ بأنفه عنا، فالحمد لله على فساد الزمان، وتغير نوع الإنسان،
فبلغ ذلك البديع، فكتب إلى ابن فارس هذه الرسالة.
(٢) الحما: الطين الأسود. والمسنون: المتغير المتين
(٣) هذا من قول الحارث بن حلزة:

لَا تَكْشَعِ الشَّوْلُ بِأَغْبَارِهَا إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَنِ النَّاتِجُ
وَاحْلُبْ لِأَضْيَافِكَ أَلْبَانَهَا فَإِنَّ شَرَّ اللَّسِينِ الْوَالِجُ

والكسع: ترك بقية من اللبن في خلف الناقة يراد بذلك تغزيرها، وهو أشد لها
والشول من النوق: مامضى على حملها أو وضعها سبعة أشهر فقلّ لبنها وخف ضرعها
والاغبار: جمع الغبر وهو بقية اللبن في الضرع، والوالج: الذي يلبج في ظهورها من
اللبن المكسوع يقول الحارث: لا تغزر إبلك تطلب بذلك قوة نسلها واحلبها لإضيافك
فأقل عدوا يغير عليها فيكون نتاجها له دونك. ولعل البديع يشير بهذا إلى بخل بني
مروان وقلة الخير في أيامهم

(٤) الحرية: نسبة إلى حرب بن أمية بن عبدشمس، يريد بذلك خلافة معاوية وبين يدايته
(٥) الطلي: الاعتاق واحده طلية بضم الطاء، وركز الرمح. دفعه وأنبته والكلبي:
جمع كلية وكلوة، والكلبتان أو الكلوتان معروفتان

وَمَبِيتُ حُجْرٍ فِي الْفَلَا وَالْحَرَّتَانِ وَكَرْبَلَا (١)

أُمُّ الْبَيْعَةِ الْهَاشِمِيَّةِ وَعَلَى يَقُولُ: لَيْتَ الْعَشْرَةَ مِنْكُمْ بِرَاسٍ، مِنْ بَنِي فِرَاسٍ؛
أُمُّ الْأَيَّامِ الْأُمَوِيَّةِ (٢) وَالزَّفِيرُ إِلَى الْحِجَازِ، وَالْعَيُونُ إِلَى الْأَعْجَازِ؛ أُمُّ الْإِمَارَةِ
الْعَدَوِيَّةِ (٣) وَصَاحِبُهَا يَقُولُ: وَهَلْ بَعْدَ الْبُزُولِ إِلَّا الْبُزُولُ؛ (٤) أُمُّ الْخِلَافَةِ التَّيْمِيَّةِ (٥)
وَهُوَ يَقُولُ: طُوبَى لِمَنْ مَاتَ فِي نَائِةِ الْإِسْلَامِ (٦) أُمُّ عَلَى عَهْدِ الرَّسَالَةِ
وَيَوْمَ الْفَتْحِ قِيلَ: أَسْكُنِي يَا قُلَانَةَ، فَقَدْ ذَهَبَتِ الْأَمَانَةُ؛ أُمُّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ
وَلَيْدٌ يَقُولُ:

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيَتْ فِي خَلْفٍ يَجْلِدُ الْأَجْرَبِ

(١) حجر: هو حجر بن عدى الكندى من أهل العراق وقد قتله معاوية بن أبي سفيان سنة إحدى وخمسين لإظهاره التشيع إلى علي ولعنه معاوية وأصحابه والبراءة منهم، وكان يجتمع عليه كل من وافقه في هذا الرأي من أهل المصرين حتى ولى زياد على العراق فكتب إلى معاوية في أمر حجر وأكثر فأمر معاوية زياداً أن يبعث به إليه مشدوداً بالحديد، ففعل، فلما قدم عليه أمر به معاوية فضربت عنقه، وكان حجر من أشرف العراق وخياره، انظر تاريخ الطبرى في حوادث سنة إحدى وخمسين، ويشير بقوله والحرتان إلى وقعة الحرة التي كانت بين جنود يزيد بن معاوية وأهل المدينة سنة ثلاث وستين وكانت هذه الوقعة في حرة واقم وهي شرقي المدينة وقد قتل فيها من أهل المدينة خلق كثير، وكربلاء موضع في طرف البرية عند الكوفة وهو الذى قتل فيه الحسين بن علي رضى الله عنه في خلافة يزيد بن معاوية

(٢) يزيد خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه لأن أمية رهطه

(٣) يزيد خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه، والعدوية نسبة إلى عدى بن كعب

ابن لؤى، وهم رهط عمر

(٤) البزول: تشقق ناب البعير، وذلك في السنة التاسعة، يزيد بهذا: وهل بعد

الوصول إلى الغاية إلا الأخذ في النقصان؟ (٥) يزيد خلافة أبي بكر رضى الله عنه.

والتيمية: نسبة إلى تيم بن مرة بن كعب بن لؤى، وهم رهط أبي بكر

(٦) النائاة: أول الإسلام قال الزنجشرى: ومعناها: الضعف قبل أن يقوى ويعز

أم قبل ذلك وأخو عاد يقول :

بلاَدُهَا كُنَّا وَكُنَّا نَحِبُّهَا إِذِ النَّاسُ نَاسٌ وَالزَّمَانُ زَمَانٌ

أم قبل ذلك ويُروى لآدم عليه السلام :

تَغَيَّرَتِ الْبِلَادُ وَمَنْ عَلَيْهَا فَوَجَّهْ الْأَرْضِ مُعَبَّرٌ قَبِيحٌ

أم قبل ذلك والملائكة تقول لبارئها : أُنَجِّعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدَّمَاءَ ؛ ^(١) ما فسد الناس ، ولكن أطرَدَ القياس ؛ ولا أظلمت الأيام ، وإنما امتدَّ الإِظلام ؛ وهل يفسدُ الشيءُ إلا عن صلاح ، ويمسي المرءُ إلا

عن صباح !

إنكار ذم الدهر

رَوَّانَاعِن سِيدِنَارَسُولِ اللَّهِ ، لَا نُسَبُّوا الدَّهْرَ فَإِنَّ الدَّهْرَ هُوَ اللَّهُ ، وَفِي رِوَايَةٍ : فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ ، يَقُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ : إِنْ مَا أَصَابَكَ مِنَ الدَّهْرِ فَانْتَهُ فاعلمه ليس الدهر ، فإذا شتمت الدهر فكأنك أردت به الله ؛ وكان من شأن العرب أن تذمَّ الدهرَ وتُسبِّه عند الحوادث والنوازل تنزل بهم من موت أو هَرَمَ ويقولون : أبادهم الدهرُ وأصابتهم قوارع الدهر وحوادثه ، فيجعلون الدهرَ الذي يفعل ذلك فيذمونه ، وقد ذكروا ذلك في أشعارهم وأخبر الله تعالى عنهم بذلك في كتابه العزيز ثم كذبهم فقال : وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، قال الله عز وجل : وما لهم

(١) قال الشيخ صلاح الدين الصفدي في شرحه على لامية العجم للطبراني : استدل بعضهم بهذه الآية الكريمة على أنه كان قبل خلق آدم خلق آخر في الأرض وأنهم أفسدوا فيها وأهلكهم الله تعالى ، لأن الملائكة قالت : أنجعل فيها من يفسد فيها !

بذلك من علم إن هم إلا يظنون ، والدهر : الزمان الطويل ومدة الحياة الدنيا فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا تسبوا الدهر ، على تأويل : لا تسبوا الذى يفعل بكم هذه الأشياء فإنكم إذا سببتم فاعلها وإنما يقع السب على الله تعالى لأنه الفاعل لها لا الدهر... « وقد تقدم ذلك »

وقال أبو بكر الخوارزمي قريبا من هذا المعنى الذى نعالجه :

وكم نكئى وكم نهجو الليالى وليس يخصمنا إلا القضاء^(١)

وقال رجل للأصمعي : فسد الزمان ، فقال :

إن الجديدين فى طول اختلافهما لا يفسدان ولكن يفسد الناس^(٢)

والبيت المشهور فى هذا هو قول بعضهم :

نعب زماننا والعب فينا ولو نطق الزمان بنا هجانا

وقال المتنبي :

ألا لأرى الأحداث حمدا ولا ذما فما بطشها جهلا ولا كفها حلما^(٣)

وقال بعض الصالحين لأبي العتاهية : أى خلق الله أصغر عنده ؟ قال :

الدنيا ، لا تساوى عند الله جناح بعوضة ، قال : أصغر منها مجبها ...

المسرة من حيث تخشى المضرة

قال أبو عمرو بن العلاء : طلب الحجاج بن يوسف الثقفي أبى ، فخرج

(١) يقال . كنى عن الأمر بغيره بكنى كناية وهو : أن تتكلم بشئ وتريد غيره

(٢) الجديدان : الليل والنهار وذلك لأنهما لا يبيان أبدا

(٣) يقول المتنبي ، لأحد الحوادث السارة ولا أذم الصارفة فإنها إذا بطشت بنا أو آذتنا لم يكن ذلك جهلا منها وإذا كفت عن البطش والضرر لم يكن ذلك حلما ،

يعنى : أن الفعل فى جميع ذلك ليس لها

منه هاربا إلى اليمن ، فإننا لَدَسِيرِ بَصْحَرَاءِ الْيَمَنِ إِذْ لَحِقْنَا لِأَحِقِّ يُبْشِدُ :
 رَبِّمَا تَكْرَهُ النَّفُوسُ مِنَ الْأُمْرِ لَهُ فَرْجَةٌ كَخَلِّ الْعِقَالِ
 فقال أبي : ما الخبر ؟ قال : مات الحجاج ، قال أبو عمرو . فانا بقوله :
 له فَرْجَةٌ أَشَدُّ سُورًا مِنْ بَيوتِ الْحِجَاكِج ، قال : فقال أبي : أَصْرَفَ رِكَابَنَا
 إِلَى الْبَصْرَةِ ، قال : وكنت يومئذ قد خَنَقْتُ بِضْعًا وَعِشْرِينَ سَنَةً ... « ربما
 تَكَرَّهُ النَّفُوسُ ... أَلْبَيْتُ هُوَ لِأَمِيَّةِ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ وَقَبْلَهُ :

لَا تَضِيقَنَّ فِي الْأَدْوَرِ فَقَدْ تَكْشَفُ غَمَّاؤُهَا بِغَيْرِ أَحْتِيَالِ
 ومن بديع هذه اللغة العربية الكريمة أنها تَفَرِّقُ بَيْنَ فَرْجَةٍ « بفتح الفاء »
 وبينها بِالضَّمِّ ، فالأولى : التَّفْصِيءُ مِنَ الْهَمِّ ، وَالْآخَرَى ، أَى الْفَرْجَةُ بِالضَّمِّ : كَلَّ
 مَنفَرَجٍ بَيْنَ جَبَلَيْنِ وَنَحْوَهُمَا . وَالْغَمَاءُ : الْكَرْبُ ، وَقَالُوا : خَفَّ الْمَضَارُّ مِنْ
 خَلَلِ الْمَسَارِ (١) ، وَارْجُ التَّفْعُ مِنْ مَوْضِعِ الْمَنْعِ ، فَأَكْثَرُ مَا يَأْتِي الْأَهْنُ مِنْ
 مَحَلِّ الْفَرْعِ ؛ وَقَالُوا : أَعْنَأَقُ الْأُمُورِ تَشَابَهُ ، فَرْبٌ مَحْبُوبٌ فِي مَكْرُوهِ وَمَكْرُوهُ
 فِي مَحْبُوبٍ وَمَغْبُوطٌ بِنِعْمَةٍ هِيَ دَائُوهُ وَمَرْحُومٌ مِنْ دَاءٍ فِيهِ شِفَاؤُهُ ... وَقَالُوا :
 رَبُّ سَلَامَةٍ تَكُونُ لِلتَّلْفِ سَبِيًّا ، وَمَكْرُوهُ يَكُونُ لِلنَّجَاةِ مِفْتَاحًا :
 وَقَدْ يَأْسَفُ الْمَرْءُ مِنْ قُوْتِ مَا لَعَلَّ السَّلَامَةَ فِي قُوْتِهِ

وقال حكيم : اللَّهُ مَصَالِحُ فِي مَكَارِهِ عِبَادِهِ ، وَقَالُوا : الْعَاقِلُ لَا يَجْزَعُ
 لِأَوَّلِ نَكْبَةٍ وَلَا يَفْرَحُ بِأَوَّلِ نِعْمَةٍ فَرْبَمَا أَقْلَعَ الْمَحْبُوبَ عَمَّا يُضُرُّ وَأَسْفَرَ
 الْمَكْرُوهُ عَمَّا يُسْرُ ... وَقَالَ سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ « اسْتَسَدَّى أَرْزَمَةُ تَنْفَرِجِي ،
 « الْأَرْزَمَةُ : الشَّدَّةُ وَالْفَحْطُ » وَيُقَالُ فِي ذَلِكَ : إِنَّ الشَّدَّةَ إِذَا تَبَاعَتِ انْفَرَجَتْ
 وَإِذَا تَوَالَّتْ تَوَلَّتْ ... وَالْأَصْلُ فِي هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ اللَّهِ جَلَّ شَأْنُهُ « فَتَمْسَى
 أَنْ تَكَرَّهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلُ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا »

(١) من خلال المسار : أى من خلالها .

الفرج بعد الشدة

أَبِي يَزِيدُ بَخَارِجِي، فَهَمَّ بِقَتْلِهِ فَقَالَ الْخَارِجِيُّ:

عَسَى قَرُوحٌ يَأْتِي بِهِ اللَّهُ إِنَّهُ لَهْ كُلَّ يَوْمٍ فِي خَلِيقَتِهِ أَسْرُ

فقال يزيد : والله ، لأضربنَّ عُنُقَكَ ، أقتلوه ، فدخل الهيثمُ بن الأسود النَّخَعِيُّ ، فقال : أَمْسِكُوهُ قَلِيلًا ، فدنا منه فقال : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، هَبْ مُجْرِمَ قَوْمٍ لَوْ أَفْدَيْتَهُمْ ، فقال : هُوَ لَكَ ، فخرج الخارِجِيُّ وهو يقول : تَأَبَّى عَلَى اللَّهِ فَأَبَى إِلَّا أَنْ يُكْذِبَهُ وَغَالِبَهُ فَأَبَى إِلَّا أَنْ يَغَابَهُ ... وَأَحْضَرَ رَجُلٌ أَمَامَ بَعْضِ الْمُلُوكِ ، فدعا بطعام فأخذ يأكلُ ويضحك ، فقيل له : تضحكُ وَأَنْتَ مَقْتُولٌ ؟ فقال : مِنْ السَّاعَةِ إِلَى السَّاعَةِ فَرَجٌ ، فُسِمِعْتَ صَيْحَةَ قَقِيلٍ : مات الملكُ ، فخلَّوا الرجل ... وشدَّ بعضُ العُمَّالِ - الوَلَاةِ - رُجُلًا إِلَى أَسْطُوَانَةِ - عَمُودٍ - يُرِيدُ ضَرْبَهُ ، فقال حُلَّتِي مِنْ هَذِهِ إِلَى هَذِهِ ، فخلَّه ، فراحَّلهُ إِلَّا وَقَدْ عُرِلَ وَشُدَّ إِلَى الْأَسْطُوَانَةِ بَعِينَهَا ...

من زال كربُه فَنَسِيَ صُنْعَ اللَّهِ

قالوا : ما صاحبُ البلاء الذي طال بلاؤه بأحقَّ بالدعاء من المُعَاتِقِ . وقيل : مَنْ سَبَّحَ فِي النَّهْرِ الَّذِي فِيهِ التَّمَسَّاحُ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلْهَلَاكِ . وشكا يوسف عليه السلامُ طُولَ الْحَبْسِ ، فأوحى اللهُ تعالى إليه : أَنْتَ حَبَسْتَ نَفْسَكَ حَيْثُ قَاتَ : السَّجْنَ أَحَبُّ إِلَيَّ . وقال اللهُ عزَّ وتقدَّسَ « وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » ... وقال سبحانه : قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَبِئْسَ أَنْجَانًا

من هذه لتسكونن من الشاكرين ، قُلِ اللهُ يُجِيبُكُمْ مِنْهَا وَمَنْ كُلَّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ .

لَا تُعْرِفُ النِّعْمَةَ إِلَّا عِنْدَ فَقْدِهَا

قالوا : كم من نعمة عرفت ببليّة نزلت ، ونعمة جهلت بسلامة لبثت .
وقالوا : شيان لا يعرف فضأهما إلا من فقدهما : الغنى والعافية ... وقال
الشاعر - :

فَالْوَجْهُ مِثْلُ الصُّبْحِ مُبِيبٌ وَالشَّعْرُ مِثْلُ اللَّيْلِ مُسَوِّدٌ
ضِدَانٍ لَمَّا اسْتَجْمَعَا حُسْنًا وَالضُّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَ الضُّدِّ

وقال المتنبي :

• وبضدّها تتبين الأشياء •

وقال أبو تمام :

وَلَيْسَ يَعْرِفُ طَيْبَ الْوَصْلِ صَاحِبُهُ حَتَّى يُصَابَ بِنَأْيٍ أَوْ بِهِجْرَانٍ
وقال المتنبي :

ولولا أيادي الدهر في الجمع بيننا غفلنا فلم نشعر له بذنوب
« يقول المتنبي : إن الدهر تارة يُحسِنُ وتارة يسىء فلولم يحسن إلينا
بالجمع بيننا لما شعرنا بذنوبه في تمزيقنا ، فإحسانه عرفنا إساءته »

فضل العافية وسلامة الدين

قال سيدنا رسول الله « مَنْ أَصْبَحَ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافٍ فِي بَدَنِهِ عِنْدَهُ قُوَّةٌ
يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حَبِزَتْ لَهُ الدُّنْيَا »

« قال ابن بَرِي : قال جماعة من أهل اللغة : السُّرْبُ : النفس قال : وأنكر

ابن دَرَسْتَوَيْهِ قولَ من قال في نَفْسِهِ قال : وإِنما المعنى : آمِنٌ في أهله وماله وولده ، ولو آمن على نفسه وحدها دون أهله وماله وولده لم يُقَلْ هو آمِنٌ في سِرِّهِ ، وإِنما السَّرْبُ هُهنا : ما للرجل من أهلٍ ومالٍ ، ولذلك سُمي قطع البقر والظباء والقطا والنساء سِرِّبا ، وكان الأصلُ في ذلك أن يكون الراعي آمناً في سِرِّهِ والفحلُ آمناً في سِرِّهِ ، ثم استُعْمِلَ في غير الرعاة استعارةً فيما شَبَّه به . وحيزت : جُمِعَتْ وُضِّمَتْ ، وبِحذافيرها : بأسرِّها «
وقال ابن الرومي :

إذا ما كسك الله سِرِّبالَ حِجَّةٍ ولم تَحُلْ من قوتِ يَمَلٍ وَيَعْدُبِ
فلا تَغِيظَنَّ الْمُتَرَفِينَ فَإِنَّهُمْ على حَسَبِ ما يُنْطِئُهُمُ الدَّهْرُ يَسْلُبُ

«السربال : القميص ، وحل : من الحلال مقابل الحرام ، والغبطة : أن تمنى مثل حال المغبوط - الحسن الحال - من غير أن تريد زوالها ، وعلى حسب : على قدر وعدد ، وقالوا : مَنْ أوتِيَ العافية فَظَنَّ أن أحداً أوتِيَ أكثرَ منه فَقَدَّ قَلِيلَ كثيراً وكَثُرَ قَلِيلاً » كَثُرَ قَلِيلاً ، لأن ما عدا العافية فهو قليل بالإضافة إليها ، ...»

عقريات شتى في الدنيا

قال أبو حازم : وما الدنيا ! أما ما ضى فحلمٌ وأما ما بقي فأمانٌ . وقال بكر بن عبد الله : المُسْتَعْنَى عن الدنيا بالدنيا كالمظن في النارِ بالنَّارِ . وقال ابن مسعود : الدنيا كُلُّها غموم ، فما كان فيها من سرور فهو رِجْج . وقال بعض الحكماء : مثلُ الدنيا والآخرة مثلُ رجلٍ له ضرتان إن أرضى إحداهما أَسَخَطَ الأخرى ... وقال سُفيان الثوري : تركَ الملوكَ لكم الحِكْمَةَ فاترُ كواهم الدنيا . وقال يحيى بن خالد البرمكي : دَخَلْنَا في الدنيا دُخولاً

أَخْرَجَنَا مِنْهَا . وَكَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ كَثِيرًا مَا يَتَمَثَّلُ كُلَّمَا جَرَى ذِكْرُ الدُّنْيَا - :

الْيَوْمَ عِنْدَكَ ذَلُّهَا وَحَدِيثُهَا وَغَدًا لَغَيْرِكَ كَفُّهَا وَالْمِعْصَمُ
وَهَذَا الْبَيْتُ كَذَلِكَ يُقَالُ فِي غَدْرِ الْمَرْأَةِ وَنَلَّةِ وَفَاتِهَا . وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدَمَ
الْعَجَلِيُّ يَقُولُ :

نُرَقِّعُ دُنْيَانَا بِتَمْرِيْقِ دِينِنَا فَلَا دِينُنَا بِيَقِي وَلَا مَا نُرَقِّعُ
وَقَالَ السَّيِّدُ الْمَسِيحُ : أَنَا الَّذِي كَفَأْتُ الدُّنْيَا عَلَى وَجْهِهَا ، فَلَيْسَتْ لِي زَوْجَةٌ
تَمُوتُ وَلَا بَيْتٌ يُحْرَبُ . وَقِيلَ لِمُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعٍ : إِنَّكَ لَتَرْضَى بِالْدُّونِ فَقَالَ :
إِنَّمَا رَضِيَ بِالْدُّونِ مَنْ رَضِيَ بِالدُّنْيَا ... وَقَالَتْ امْرَأَةٌ لِزَوْجِهَا وَرَأَتْهُ مَهْمُومًا :
مِمَّ هَمُّكَ ؟ أَلِالدُّنْيَا فَنَدَّ قَرَعَ اللَّهُ مِنْهَا أُمٌّ بِالْآخِرَةِ فَزَادَكَ اللَّهُ هَمًّا ؟ وَقَالَ السَّيِّدُ
الْمَسِيحُ : حُبُّ الدُّنْيَا أَضَلُّ كُلَّ خَطِيئَةٍ وَالْمَالُ فِيهَا دَاءٌ كَثِيرٌ ، قِيلَ : مَا دَاوُهُ ؟
قَالَ : لَا يَسْلَمُ صَاحِبُهُ مِنَ الْفَخْرِ وَالْكِبَرِ ، قِيلَ : وَإِنْ سَلِمَ ؟ قَالَ : يَشْغَلُهُ
إِصْلَاحُهُ عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ . وَقَالَ سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ : مَنْ أَصْبَحَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ
وَسَدَمَهُ ^(١) نَزَعَ اللَّهُ الْغِنَى مِنْ قَلْبِهِ ، وَصَيَّرَ الْفَقْرَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا
إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ ؛ وَمَنْ أَصْبَحَتْ الْآخِرَةُ هَمَّهُ وَسَدَمَهُ نَزَعَ اللَّهُ الْفَقْرَ مِنْ قَلْبِهِ
وَصَيَّرَ الْغِنَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ ... وَقَالَ سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ
لِلضَّحَّاكِ بْنِ سُفْيَانَ : مَا طَعَامُكَ ؟ قَالَ : اللَّحْمُ وَاللَّبَنُ قَالَ : نِمَّ يَصِيرُ إِلَى
مَاذَا ؟ قَالَ : نِمَّ يَصِيرُ إِلَى مَا قَدِ عَلِمْتَ ، قَالَ : فَإِنَّ اللَّهَ ضَرَبَ مَا يَخْرُجُ مِنْ
ابْنِ آدَمَ مِثْلًا لِلدُّنْيَا ... وَكَانَ بَشْرُ بْنُ كَعْبٍ يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ إِذَا قَرَعَ مِنْ
حَدِيثِهِ : انْطَلِقُوا حَتَّى أُرِيَكُمْ الدُّنْيَا ، فَيَجِيءُ فَيَقِفُ بِهِمْ عَلَى السُّوقِ ، وَهِيَ
يَوْمَئِذٍ مَزْبَلَةٌ ، فَيَقُولُ : انْظُرُوا إِلَى عَسَلِهِمْ وَسَمِّهِمْ وَإِلَى دَجَاجِهِمْ وَبَطْنِهِمْ

(١) السدم : الولوج بالشيء .

صارَ إلى ما تَرَوْنَ ...

وقال محمد بن وهيب: (١)

نُرَاعُ لِذِكْرِ الْمَوْتِ سَاعَةَ ذِكْرِهِ وَتَعْرِضُ الدُّنْيَا فَنَلَهُو وَنَلَعُبُ
وَنَحْنُ بَنُو الدُّنْيَا حُلِقْنَا لِغَيْرِهَا وَمَا كُنْتَ مِنْهُ فَهُوَ شَيْءٌ حَجَبٌ (٢)
يَقِينُ كَأَنَّ الشَّكَّ غَالِبُ أَمْرِهِ عَلَيْهِ وَعِرْفَانٌ إِلَى الْجَهْلِ يُنْسَبُ
أقول: لعله ينظر إلى قول جرير:

تُرَوُّعْنَا الْجَنَائِزُ مُقْبِلَاتٍ فَنَلَهُو حِينَ تَذْهَبُ مُدْبِرَاتٍ
كَرْوَعَةٍ ثَلَاثَةٌ لُمَغَارِ ذَنْبٍ فَلَمَّا غَابَ عَادَتْ رَاتِعَاتٍ (٣)
قال أبو عمرو بن العلاء: جلستُ إلى جرير وهو يُمْلِي:

• وَدَعَّ أَمَامَةَ حَانَ مِنْكَ رَحِيلُ •

ثم طلعت جنازة فأمسك وقال: شَيَّبَتْنِي هَذِهِ الْجَنَائِزُ، قلتُ: فَلِمَ تُسَابُ
النَّاسَ! قال: يبدؤونني ثم لا أعفو وأعتدى ولا أبتدى، ثم قال هـذين
البيتين... وقول محمد بن وهيب: يقين كأن الشك أغلب أمره... البيت
فأخوذ من قول الحسن البصري: ما رأيتُ يقيناً لا شكَّ فيه أشبهَ بِشِكِّ
لا يقين فيه، إلا الموت...

(١) شاعر بصرى من أهل بغداد مدح المأمون والمعتمد وبعد وسطاً في طبقة
دعبل وأبي سعيد الخزومي، وكان يتشيع ويستمع الناس بشعره، انظر ترجمته في
معاهد التنصيص

(٢) يقول: إننا أبناء الدنيا وما دمنا كذلك كانت الدنيا محبوبة لنا.

(٣) الثلاثة: بفتح الثاء. جماعة الغنم، أما الثلاثة بضم الثاء فالجماعة من الناس، وهذا
من غرائب هذه اللغة الكريمة.

وقال أحد الظُرَفَاءِ : إن الدنيا قَدِ اسْتَوَدَّعَتْ وَأَنْعَظَتْ النَّاسَ : « استودعت يقال : ودعت الفرس تَدُقُّ وَدَقًّا واستودعت : إذا طلبت الفحل » وقال حكيم : من أراد الدنيا فليتهيأ للذل . ومن كلمة لعلي بن أبي طالب : أهل الدنيا كَرَّ كَرَّبٍ يُسَارُّ بِهِمْ وَهَمَّ نِيَامٌ .. ومن كلامه رضى الله عنه - وقد قال له رجلٌ وهو فى حُطْبَةٍ : يا أمير المؤمنين ، صِفْ لَنَا الدُّنْيَا فَقَالَ : مَا أَصْفُ مِنْ دَارٍ أَوْ لَهَا عَنَاءٌ وَآخِرُهَا فَنَاءٌ ، فى حَلَالِهَا حِسَابٌ وَفى حَرَامِهَا عِقَابٌ ، مَنْ صَحَّ فيها مَا أَمِنَ ، وَمَنْ مَرِضَ نَدِمَ وَمَنْ اسْتَعْنَى فُتِنَ ، وَمَنْ افْتَقَرَ فيها حَزِنَ اوقال أيضاً : إنما المرءُ فى الدنيا عَرَضٌ تَلْتَضِلُ فِيهِ المَنَايَا ، وَتَهْبُؤُ لِلصَّائِبِ ، وَمَعَ كُلِّ جِرْعَةٍ شَرٌّ ، وَفى كُلِّ أَكْلَةٍ عَصَصٌ ، وَلا يَنَالُ العَبْدُ فيها نِعْمَةً إِلا بِفِرَاقٍ أُخْرَى ، وَلا يَسْتَقْبِلُ يَوْمًا مِنْ عَمْرِهِ إِلا بِهَدْمٍ آخَرَ مِنْ أَجَلِهِ ، فَنَحْنُ أَعْوَانُ الحُتُوفِ ، وَأَنْفُسُنَا تَسْوِقُنَا إِلَى الفَنَاءِ ، فَمَنْ أَيْنَ نَرْجُو البَقَاءَ اوهذا الليلُ والنهارُ لم يَرْفَعَا مِنْ شَيْءٍ شَرْفًا إِلا أَسْرَعَا السَّكْرَةَ فى هَدْمِ مَا بَيْنَا ، وَتَفْرِيقِ مَا جَمَعَا ، فَاطْلُبُوا الخَيْرَ وَأَهْلِهِ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرًا مِنَ الخَيْرِ مُعْطِيهِ ، وَشَرًّا مِنَ الشَّرِّ فَاعِلُهُ ... « الغرض : الهدف ، والنهب : المال المنهوب غنيمةً والجمع نهب وقد تقدم شرح الجرعة والشرق والغصص ، وقوله : فنحن أعوان الحتوف فالحتف : الموت ، ومعنى أننا أعوان الموت : أنا نأكل ونشرب ونجامع ونركب الخيل والسفن والطائرات ونحوها ونتصرف فى أسبابنا وحاجتنا وما رزقنا ، والموت إنما يكون بأحد هذه الأمور إما من أخلاط تُجَدِّدُهَا المَاءُ كُلُّ وَالمشارب ، أو من ساقطة يسقط الإنسان من دابةٍ هو راكمها أو من ضعف يلحقه من الجوع المفرط أو مصادمات واصطكاكات تصيبه عند تصرفه فى مآربه وحركته وسميه ونحو ذلك ،

فكأننا نحن أعنا الموت على أنفسنا»

وقال علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهم : مالك من عيشك إلا لذة تزدلف بك إلى حاملك وتقرّبك من يومك ، فأية أكلة ليس معها غصص أو شربة ليس معها شرق أفأمل أمرك فكأنك قد صرت الحبيب المفقود والخيال المحترم ، أهل الدنيا أهل سفر لا يحلون عقد رحاهم إلا في غيرها ، قوله : تزدلف بك إلى حاملك : أى تقرّبك إلى موتك ، والمحترم المستأصل والمقتطع .

وقال حكيم : من ذا الذى يبني على موج البحر داراً ، تلجم الدنيا ، فلا تتخذوها قراراً ... وقيل لبعض الرهبان : كيف ترى الدهر ؟ قال : يُخلق الأبدان ، ويُجدد الآمال ، ويُقرّب المنية ، ويُبعد الأمنية ، قيل : فما حال أهله ؟ قال : من ظفّر به تعب ، ومن فاته الكتاب ، وفي هذا المعنى يقول الشاعر :

ومن يحمّد الدنيا لِعَيْشِ يَسْرُهُ فسوف لِعَمْرِى عن قليل يَلْوُهُما
إذا أدبرت كانت على المرء حَسْرَةً وإن أقبلت كانت كثيراً همومها

قال حكيم : من عيب الدنيا أنها لا تعطى أحدا ما يستحق ، إما أن تزيد له وإما أن تنقص ... وقال أبو العتاهية :

تعالى الله يا سَلْمُ بنَ عمرو أدلّ الحِرْصُ أعناقَ الرجال
هَبِ الدنيا تُساقُ إِلَيْكَ عَفْواً أليس مَصيرُ ذاكَ إلى الزَّوالِ
وما دُنْيَاكَ إلا مِثْلُ قِيءٍ أَظْلَكَ ثمَّ آذَنُ بانْتِقَالِ
ولنجزئى هذا المقدار فَعَبقرِياتهم فى الدنيا لا يكاد يبلغها الإحصاء .

عقبرياتهم في الموت

أسماء الموت ووصفه

الموت: ضد الحياة، ويقال: مات يموت ويمت - لغة طائية - وقالوا: ميت تموت؛ قال ابن سيده؛ ولا نظير لها من المعتل، ورجلٌ ميت وميت، وقيل: الميت: الذي مات، والميت والمات: الذي لم يمُت بعد، يقال: هو ميتٌ غدا ومات ولا يقال: ميتٌ، قالوا: وهذا خطأ، وإنما ميتٌ يصلح لما قد مات ولما سيموت، وقد جمع بين اللغتين عدى بن الرعاء الغساني - والرعاء أمه - فقال:

ليس من مات فاستراح بميتٍ إنما الميتُ ميتُ الأحياءِ

إنما الميتُ من يعيش كثيراً كاسفاً بأله قليلَ الرجاءِ

فأناسٌ يمُصُّونَ ثَماداً^(١) وأناسٌ حلُّوهُم في الماءِ

فجعل الميتَ كلميت ... ويقال للموت: الهميع، وقيل: الهميع: الموت المعتجل: أقول: ولعله سُمي كذلك لأن الروح تميع: أى تسيل، من همع الدمع والماء: سال. ومن أسماء الموت أيضاً: النيط، روى عن علي رضي الله عنه أنه قال: لودَّ معاويةُ أنه مابق من بني هاشم نافخُ ضربةٍ إلا طعنَ في نيطه^(٢)، معناه: إلامات، قال ابن الأثير: والقياس: النوط، لأنه من ناط ينوط: إذا علق، وقيل: النيط: نياط القلب، وهو: العرق الذي يتعلق به القلب ... ومن أسماء الموت: الرمْدُ قال أبو وجرة السعدي:

صَبَبْتُ عَلَيْكُمْ حَاصِبِي فَرَكْتُمْ كَأَصْرَامِ عَادٍ حِينَ جَلَّلَهَا الرَّمْدُ

ه الحاصب. العذاب يكون بالريح الشديدة تحمل الحصباء، والأصرام: الجماعات

(١) الثماد: الماء القليل الذي لامادة له (٢) الضربة بتحريك الميم: الجرة أو الدار نفسها، ويقال ما بالدار نافخ ضربة: أى ماها أحد.

من الناس ، والرّمادة : الهلاك ؛ ومنه قيل : عام الرّمادة ؛ لأنّ الناس والأموال هلكت فيه كثيرا^(١) ومن أسماه : أمّ قشعم ، قال أبو عبيد : أمّ قشعم : المنية ، ويقال للشيخ الكبير والمسنّ من السور والرخم : قشعم ، إطول عمره . وأمّ قشعم في قول زهير في معلقته :

فَقَدَّ وَلَمْ يُفْرِغْ يُبِوتَا كَثِيرَةً لَدَى حَيْثُ أَلَقْتُ رَحْلَهَا أُمّ قَشَعَمِ

قيل : الحرب ، وقيل : المنية ، وقيل : الضُّبُع ، وقيل : العنكبوت ، وقيل : الذِّلَّة ... ومن أسماه : أمّ اللّهم . قال الخليل بن أحمد : أمّ اللّهم : المنية ، لأنها تلتهم كل شيء . ومن أسماه : شُوبُ ، قال ابن السكيت : شُوبُ : اسم المنية ، مؤنثة مَعْرُفَةٌ لاتصرف وأنشد :

❖ وَمَنْ تَدْعُ يَوْمًا شُوبٌ يُجِبُّهَا ❖

قال : وإنما سميت المنية شُوبٌ لأنها أشعَبُ — أى تُفَرِّقُ — يقال : شَعَبَ وأشعَبَ وأنشعبَ : هَلَكَ . . ومن أسماه : القَوْدُ ، فاد يفودُ فوداً : مات ، قال لبيد بن ربيعة يذكر الحارث بن أبي شمر الغساني ، وكان كل ملك منهم كلما مضت عليه سنة زاد في تاجه خرزة ، يراد بذلك أن يعلم عدد السنين التي ملكها ، فأراد أنه عمّر حتى صار في تاجه خرزات كثيرة :

رَعَى خَرْزَاتِ الْمَلِكِ سِتِّينَ حِجَّةً وَعِشْرِينَ حَتَّى فَادَ وَالشَّيْبُ شَامِلٌ
ومن أسماه : الحام . يقال نزل به حمامه : أى موته وقدره ، من حَمَّ كذا أى قَدَّر أنشد ابن برى لخطاب بن عزمي :

(١) عام الرّمادة كان سنة سبع عشرة أو ثمان عشرة من الهجرة أيام أمير المؤمنين

عمر بن الخطاب رضى الله عنه

وَأَرْبَىٰ بِنَفْسِي فِي فُرُوجِ كَثِيرَةٍ ۖ وَلَيْسَ لِأَمْرِ سَحْمَهُ اللَّهُ صَارِفٌ
وَمِنْ أَسْمَائِهِ : الْمُنُونُ ، قِيلَ : الْمُنُونُ تَكُونُ وَاحِدًا وَجَمْعًا ، قَالَ أَبُو ذُوَيْبٍ
الْهَدْلِيُّ ...

✽ أَمِنَ الْمُنُونِ وَرَئِيهِ تَتَوَجَّعُ ✽

وَمِنْ جَمْعِهِ قَوْلُ عَدِيِّ بْنِ زَيْدِ الْعِبَادِيِّ :

مَنْ رَأَيْتَ الْمُنُونَ خَلَدَنَّ أُمَّ مَنْ ذَا عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يُضَامَ خَفِيرُ
وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ : الْمُنُونُ وَاحِدٌ لِاجْتِمَاعِ لَهُ ، فَأَمَّا قَوْلُ عَدِيِّ بْنِ زَيْدٍ فَعَلِيَ
مَعْنَى الْعَمُومِ وَالكَثْرَةِ فِي الْمَوْتِ ، إِذْ كَانَ أَدَهَى الدَّوَاهِي ، وَقَالَ ابْنُ جَنِّي : مَنْ
أَنْتَ الْمُنُونُ ذَهَبَ إِلَى مَعْنَى الْمُنِيَّةِ وَمَنْ ذَكَرَ أَرَادَ الدَّهْرَ ، وَسُمِّيَ الدَّهْرُ مُنُونًا
لَأَنَّهُ يَذْهَبُ بِمُنَّةِ الْإِنْسَانِ : أَيُ قُوَّتِهِ ... وَمِنْ أَسْمَائِهِ : الْمَوْتَانُ وَالْمَوْتَانُ ، قَالَ
صَاحِبُ اللِّسَانِ : الْمَوْتَانُ وَالْمَوْتَانُ وَالْمَوَاتُ كُلَّهُ : الْمَوْتُ ؛ وَفِي الْحَدِيثِ :
يَكُونُ فِي النَّاسِ مَوْتَانٌ كَقُعَاصِ الْغَنَمِ ، فَالْمَوْتَانُ : الْمَوْتُ الْكَثِيرُ الْوَقُوعِ .

✽ ✽ ✽

وَمِنْ صِفَاتِ الْمَوْتِ : مَوْتُ زَوَامٍ : أَيُ كَرِيهِ ، وَقِيلَ : عَاجِلٌ ، وَقِيلَ :
سَرِيعٌ مُجْهِزٌ ، وَالْمَعْنَى الْأَوَّلُ هُوَ الْأَصَحُّ ؛ وَمِنْ أَوْصَافِهِ أَيْضًا : مَوْتُ زُعَافٍ
وَذُعَافٍ وَزُؤَافٍ وَجُحَافٍ وَجُحَافٌ : شَدِيدٌ يَذْهَبُ بِكُلِّ شَيْءٍ يُقَالُ : سَبِيلُ
جُحَافٍ وَجُرَافٍ : يَذْهَبُ بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَزُعَافٍ وَذُؤَافٍ وَذُعَافٍ : سَرِيعٌ
وَجَيٌّ ، وَقِيلَ : شَدِيدٌ ، وَمِنْهَا : مَاتَ قَهْصًا : أَيُ مَوْتًا وَحِيًّا ، وَيُقَالُ لِمَنْ مَاتَ
أَنْجَاءً : فَهَسَ يَفْهَسُ فَهَسًا ، وَفَطَسَ يَفْطَسُ فَطَسًا ، وَيُقَالُ لَعَقَى إِبْصَعَهُ
وَطَنَّ وَتَنْبَلَّ : أَيُ مَاتَ ، وَيُقَالُ أَطْلَى الرَّجُلُ : أَيُ مَالَتْ عُنُقَهُ عِنْدَ الْمَوْتِ ،
وَيُقَالُ : جَرِحَ بَرِيْقَهُ ، وَأَصْلُ الْجَرِحِ : الْعَصَّةُ ، وَالْمُرَادُ : عَانِي غَضَصِ الْمَوْتِ

ومن ذا المثلُ : حالَ الجريضُ دونَ القريضِ ، قاله عبيد بن الأبرص للنذر حين أراد قتله وقال له : أنشدني من قولك ، فقال عند ذلك : حال الجريض دون القريض ، والجريض : العَصُصُ واختلاف الفكين عند الموت ، والقريض : الجِرَّةُ^(١) - لأنه إذا غصص لم يقدر على قريض جِرتِه ، والقريض أيضاً : الشَّعرُ ، ويقال استأثر الله به ، وانحلت تركيبه ، وبصص لما خلق له ، وأناه ما كان يحذر ، وأكل الدهر عليهم وشرب ، وهذا مقلوب ، وإنما هو : أكلوا على الدهر وشربوا ؛ وصفر وطابه ، ومعناه : أن جسمه خلا من روحه ؛ وأجود وصف للوت قول سيدنا رسول الله : أكثروا من ذكر هاذم اللذات^(٢) ... ولنحتزى بهذا المقدار^(٣)

تعظيم أمر الموت

قال الحسن البصري : إن الموت قد فضح الدنيا ...
وكان كثيراً ما يقول : عند الموت يأتيك الخبر ... وقال له رجل يوماً
إن عشت تر مالم تره ، فقال : إن ميتاً تر مالم تره ... وفي الأثر : ما رأيتُ
منظراً فظيماً إلا والموتُ أعظم منه ...

(١) الجرة : ما يخرج البعير وكل ذي كرش ليضعه ثم ييامه

(٢) قرأ هادم بالبدال المهملة وبالذال المعجمة ومعناها مزيل الشيء من أصله والرواية

بالمعجمة .

(٣) إذا أردت التوسع في أوصاف الموت وأسمائه فإلى الجزء السادس من

المختص لابن سيده

حُثُّهُمْ عَلَى تَصَوُّرِ الْمَوْتِ

كَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ إِذَا خَوَّفَ مِنَ الْمَوْتِ يَقُولُ لِلشَّيْبِخِ : الزَّرْمُخُ إِذَا
بَلَغَ مَا يُصَنَعُ بِهِ ؟ قَالُوا : يُحْصَدُ ، وَيَقُولُ : لِلشُّبَّانِ : يَا مَعْشَرَ الشُّبَّانِ كَمْ
مِنْ زَرْعٍ لَمْ يُبْلَغْ أَدْرَكَتْهُ الْآلَةُ !

وَقَالَ بَعْضُ الْخُلَفَاءِ لِابْنِ السَّمَاكِ ^(١) : عِظْنِي وَأَوْجِزْ ، فَقَالَ : أَعْلَمُ أَنَّكَ أَوَّلُ
خَلِيفَةِ تَمُوتُ ؛ وَهَذَا كَمَا سَأَلَ أَرْدَشِيرُ بَعْضَ الْحِكَمَاءِ عَنْ دَارِ بِنَائِهَا وَقَالَ : هَلْ
تَرَى فِيهَا عَيْبًا ؟ قَالَ الْحَكِيمُ : نَعَمْ ، عَيْبًا لَا يُمْكِنُكَ إِصْلَاحُهُ ، فَقَالَ وَمَا هُوَ ؟
قَالَ : لَكَ مِنْهَا تَخْرُجَةٌ لَا عَوْدَ بَعْدَهَا أَوْ دَخَلَةٌ لَا خُرُوجَ بَعْدَهَا ... وَقَالُوا :
مَنْ ضَاقَ بِهِ أَمْرٌ فَلْيَتَذَكَّرِ الْمَوْتَ فَإِنَّهُ يَتَسَعُّ عَلَيْهِ ... وَنَحْوُهُ : مَنْ أَحْسَبَ أَنَّ
يَمُوتُ فَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يُعْتَمَّ لِأَمْرٍ صَعَبٍ يَنْزِلُ بِهِ .

وَشَكَرَ رَجُلٌ إِلَى سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ قَسَاوَةَ قَلْبِهِ فَقَالَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ :
أَكْبَرُ مِنْ ذِكْرِ هَازِمِ اللَّذَاتِ ، فَإِنَّهُ مَا ذَكَرَهُ أَحَدٌ فِي ضَيْقٍ إِلَّا وَسَّعَهُ عَلَيْهِ
وَلَا فِي سَعَةٍ إِلَّا ضَيَّقَهَا عَلَيْهِ ... وَقَالَ بَعْضُ الصَّالِحِينَ : نَعَمْ نَصِيحَةُ الْقَلْبِ
ذِكْرُ الْمَوْتِ ، يَطْرُقُ فَضُولُ الْأَمَلِ ، وَيُكْفِكِفُ غَرْبَ الْمُنَى وَيَهْوِي الْمَصَائِبَ ، وَيَجُولُ
بَيْنَ الْقَلْبِ وَبَيْنَ الطُّغْيَانِ ... وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ - وَقَدْ قَعَدَ عِنْدَ رَأْسِ
مَيِّتٍ : إِنْ أَمْرًا هَذَا آخِرُهُ لِأَهْلٍ أَنْ يُزَهَّدَ فِيهَا قَبْلَهُ ، وَإِنْ أَمْرًا هَذَا أَوَّلُهُ
لِأَهْلٍ أَنْ يُحْدَرَ مَا بَعْدَهُ ، وَنَظَرَ الْحَسَنُ إِلَى صَبِيَّةٍ بَيْنَ جِنَازَةِ أَبِيهَا فَقَالَ :
يَا أَبَتِ مِثْلَ يَوْمِكَ لَمْ أَرَهُ ، فَضَمَّهَا الْحَسَنُ وَقَالَ : أَيُّ بُرْقِيَّةٍ ، وَأَبُوكِ مِثْلَ
هَذَا الْيَوْمِ لَمْ يَرَهُ ؛ فَبَكَى النَّاسُ ... وَمرَّ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِمَقَابِرِ

(١) هُوَ أَبُو الْعَبَّاسِ مُحَمَّدُ بْنُ صَبِيحِ الْعَابِدِ الْمُحَدِّثِ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ١٨٣

الكوفة فقال: السلام عليكم أهل الديار الموحشة، والمحال المقفرة، أنتم لنا سلف ونحن لكم تبع، أما الأزواج فقد نسكحت، وأما الديار فقد سكنت، وأما الأموال فقد قسمت؛ هذا خبر ما عندنا، فما خبر ما عندكم؟ ثم انفت إلى أصحابه فقال: أما إنهم لو تكلموا لقالوا: إنا وجدنا خير الزاد التقوى.

استدلال الإنسان

على موته بمن مات من أهله

قال أبو نواس من آيات قد أوردناها عليك في باب التقوى :

ألا يا ابنَ الذين قنوا وماتوا أما والله ما ماتوا لتبقى
وقال بعض الصالحين: إن أمراً ما بينه وبين آدم أب إلا ميت لمعرق في
الموت ... وقال لييد:

فإن أنت لم تصدقك نفسك فانتسب لعلك تهديك القرون الأوائل
فإن لم تجد من دون عدنان باقيا ودون مَعْدٍ فلتزعك العوادل
وهذان البيتان من قصيدة يرثي بها النعمان بن المنذر ملك الحيرة وأولها:
ألا تسألن المرء ماذا يحاول أنحب فيقضى أم ضلال وباطل
وفيها يقول:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل
وكل أناس سوف تدخل بينهم دويهيمة تصفر منها الأنامل
وقوله: فإن أنت لم تصدقك... أبيت بقول: إن لم تصدقك نفسك عن
هذه الأخبار، بل كذبتك، فانتسب: أي قل: أين فلان بن فلان، فإنك
لا ترى أحدا بقي، واملك تهديك القرون وترشدك، وقوله: فإن لم تجد... أبيت

فَزَعَكُ : تَكْفُفُكَ ، وَالْعَوَازِلُ هُنَا : حَوَادِثُ الدَّهْرِ وَزَوَاجِرُهُ ، وَقَالَ
بَعْضُ الشَّرَاحِ : الْعَوَازِلُ : النِّسَاءُ ، يَقُولُ : لَمْ يَبْقَ لَكَ أَبٌ حَتَّىٰ إِلَىٰ عَدْنَانَ
فَكَفَّكَ عَنِ الطَّمَعِ فِي الْحَيَاةِ ، وَمَعْنَى الْبَيْتَيْنِ : إِنْ غَايَةَ كُلِّ حَتَّى الْمَوْتِ ، فَيَنْبَغِي
لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَعَظَّ : بِأَنْ يَلْتَسِبَ نَفْسَهُ إِلَىٰ عَدْنَانَ ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ مَنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ
مِنَ الْآبَاءِ بَاقِيًا فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ يَصِيرُ إِلَىٰ مَصِيرِهِمْ ، فَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنْزِعَ عَمَّا هُوَ عَلَيْهِ «
وَمِثْلُهُ قَوْلُ امْرِئِ الْقَيْسِ :

فَبِعِضِّ اللَّوْمِ عَادَلْتِي فَإِنِّي سَيِّكْفِينِي التَّجَارِبُ وَانْتِسَابِي
إِلَىٰ عِرْقِ السُّرْمَى وَسَجَّتْ عُرْوَتِي وَهَذَا الْمَوْتُ يَسْلُبُنِي شَبَابِي
وَسَجَّتْ : اشْتَبَكْتَ ، وَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ فِي قَصِيدَةٍ لَهُ يمدح مَالِكَ بْنَ طَوِيقٍ

ويعزيه عن أخيه القاسم :

تَأْمَلْ رُوَيْدًا هَلْ تَعُدَّنْ سَالِمًا إِلَىٰ آدِمِ أَمْ هَلْ تَعُدُّ ابْنَ سَالِمٍ
مَتَىٰ تُرْعِ هَذَا الْمَوْتَ عَيْنًا بَصِيرَةً تَجِدُ عَادِلًا مِنْهُ شَيْبًا بِظَالِمٍ

« قَوْلُهُ : مَتَىٰ تُرْعِ أَلْبَيْتِ يَقُولُ : مَتَىٰ أَنْعَمْتَ النَّظْرَ وَأَفَكَّرْتَ فِي أَمْرِ الْمَوْتِ
وَجَدْتَ مِنْهُ عَادِلًا أَشْبَهَ بِظَالِمٍ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ يَخْتَرِمُ مَنْ يَكُونُ اخْتِرَامُهُ أَصْلَحَ
لَهُ لَدَى الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ الَّذِي يَعْلَمُ مَصَالِحَ خَلْقِهِ وَقَدْ يَخْفَى عَلَيْكَ وَجْهُ الْحِكْمَةِ
فَتَنْظُنُّ الْعَدْلَ جَوْرًا ،

وَقَالَ الْبُحْتَرِيُّ

وَمَا أَهْلُ الْمَنَازِلِ غَيْرُ رَكْبٍ مَنَابِهْمِ رَوَاحٍ وَابْتِكَارُ
لَنَا فِي الدَّهْرِ آمَالٌ طَوَالُ نُزْجِيهَا وَأَعْمَارٌ قِصَارُ

وَالْبَيْتُ الثَّانِي مِثْلُهُ قَوْلُ ابْنِ هَانِئِ الْأَنْدَلُسِيِّ مِنْ أَيْاتِ يَرِثُنِي بِهَا وَالِدَةٌ

يَحْيَىٰ وَجَعْفَرُ ابْنِي عَلِيٍّ صَاحِبِ الْمَيْلَةِ بِالْمَغْرِبِ ، وَهَذِهِ هِيَ الْآيَاتُ :

صَدَقَ الْفَنَاءُ وَكُذِّبَ الْعُمُرُ وَجَلَا الْعِظَاتِ وَبَالَغَ التَّدْرُ
 إِنَّا ، وَفِي آمَالِ أَنْفُسِنَا طُولُ وَفِي أَعْمَارِنَا قِصْرُ
 لَنَرَى بِأَعْيُنِنَا مَصَارِعَنَا لَوْ كَانَتِ الْأَبَابُ تَعْتَبِرُ
 مَا دَهَانَا أَنْ حَاضِرَنَا أَجْفَانُنَا ، وَالغَائِبُ الْفَسْكَرُ
 وَإِذَا تَدَبَّرْنَا جَوَارِحِنَا فَأَكَلَهُنَّ الْعَيْنُ وَالنَّظْرُ
 لَوْ كَانَ لِلْأَبَابِ مُتَحَنُّنٌ مَا عُدَّ مِنْهَا السَّمْعُ وَالْبَصْرُ (١)
 أَى الْحَيَاةِ الَّتِي عَيْشَتَهَا مِنْ بَعْدِ عَلَمِي أَنِّي بَشَرُ
 تَحَرَّسْتُ لَعَمْرُ اللَّهِ أَلْسُنَا لَمَّا تَكَلَّمْنَا فَوْقَنَا الْقَدَرُ

الاعتبار بمن مات من الكبار

قال عدي بن زيد العبادي :

أَيُّهَا الشَّامِتُ الْمُعِيرُ بِالذَّهْرِ رَأَيْتِ الْمُسَبِّرَ الْمَوْفُورُ (٢)
 أَمْ لَدَيْكَ الْعَهْدُ الْوَبِيقُ مِنَ الْآيَا بِمِ بَلْ أَنْتَ جَاهِلٌ مَغْرُورُ
 مَنْ رَأَيْتَ الْمَذُونِ خَلْدُنَ أُمِّ مَنْ ذَا عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يُضَامَ حَفِيرُ (٣)
 ابْنَ كِسْرَى كِسْرَى الْمَلُوكِ أَنْوَشَرُ وَإِنَّ أُمَّ ابْنِ قَبْلَهُ سَابُورُ (٤)
 وَبَنُو الْأَضْفَرِ الْكِرَامُ مَلُوكُ الرُّو بِمِ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ مَذْكَورُ

(١) أى ما عُدَّ من الممتحنات : السمع والبصر ، لأن السمع يسمع المواعظ فلا يتعظ والبصر يبصر العبر فلا ينزجر

(٢) الموفور : يريد الذى لم تصبه نواب الدهر

(٣) المذون : المنية أو الدهر كما تقدم

(٤) هناك سابور الجنود وهو ابن أردشير ، وسابور ذو الأكتاف وهو سابور

ابن هرمز وكلاهما من ملوك العجم قبل كسرى أنوشروان

وأخو الحضِرِ إذُ بناه وإذِ دَجَّ لَمَّةٌ تُجْبِي إِلَيْهِ وَالخَابُورُ (١)
 شَادَهُ مَزْمَرًا وَجَلَّهَ كِأَنَّ سَا فَلَاطِيرٍ فِي ذُرَاهُ وَكُورُ (٢)
 لَمْ يَهْبَهُ رَبُّ الْمَذُونِ فَبَادَ الـ مُلْكُ عَنْهُ فَبَابَهُ مَهْجُورُ
 وَتَذَكَّرَ رَبَّ الْخَوْرَتِ إِذْ أُنْصَحَ بِحَ بَوْمَا وَلِلْهَدَى تَفْكِيرُ (٣)
 سَرَّهُ حَالَهُ وَكَثْرَةَ مَا يَمِينُ لَكَ وَالْبَحْرُ مُعْرِضًا وَالسِّدِيرُ (٤)
 فَارْعَوَى قَلْبَهُ فَقَالَ : وَمَا غَيْبُ طَهَّةٌ حَتَّى إِلَى الْمَمَاتِ يَصِيرُ
 ثُمَّ بَعْدَ الْفَلَاحِ وَالْمُلْكِ وَالنَّعْمَةِ مِثْرَةً وَارْتَهَمُ هُنَاكَ الْقُبُورُ
 ثُمَّ صَارُوا كَأَنَّهُمْ وَرَقٌّ بَجَ فَا لَوْتُ بِهِ الصَّبَا وَالذَّبُورُ (٥)

وما كان يصح أن يذكر في هذا الباب مرثية الوزير الشاعر الأندلسي عبد الحميد ابن عبدون التي يرثي بها بني الألفطس - من ملوك الطوائف بالأندلس - وذكر فيها عدة من مشاهير الملوك والخلفاء والأكابر ممن أبادهم الدهر بحوادثه ونكباته، ووثب عليهم الزمن فما وجدوا جنةً تقيمهم من وثباته، ودبت عليهم الأيام بصروفها، وسقطتهم

(١) الحضير : قصر كان بجبال تكريت بين دجلة والفرات ، وأخو الحضير كان صاحب تلك الناحية وسائر أرض الجزيرة : وله حديث طريف انظره في الأغاني ج ٢ في ترجمة عدى بن زيد طبع دار الكتب ، والخابور . اسم لنهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة

(٢) الكلس : الصاروج أى النورة وأخلاطها تطلي بها المنازل وغيرها، وذراه : أعاليه ، والوكور : جمع وكر : العش

(٣) صاحب الخورتنق - وهو القصر الذى بناه سنار - هو النعمان بن امرئ القيس عامل يزيد جرد بن سابور على أرض العرب وله قصة انظرها في الأغاني وهو الذى ساح على وجهه فلم يعرف له خبر

(٤) معروض بمعنى متسع ومنه أعرض الثوب أى اتسع وعرض ، والسدير : نهر

(٥) ألوت به : ذهب به

الْمَنِيَّةُ بِكَأْسٍ حُتَوْفِهَا، وَمَطْلَعُهَا :

الدَّهْرُ يَفْجَعُ بَعْدَ الْعَيْنِ بِالْأَثَرِ فَمَا الْبُكَاءُ عَلَى الْأَشْبَاحِ وَالْصُّورِ
يَدُ أَنَا لَطَوَّلَهَا رَأَيْنَا أَنْ نُضْرِبَ عَنْ إِرَادِهَا هُنَا صَفْحًا، وَتَرَاهَا فِي الْمَجْلَدِ
الْحَامِسِ مِنْ نِهَايَةِ الْأَرْبِ لِلزُّوَيْرِيِّ الَّذِي قَامَتْ بِطَبْعِهِ دَارُ الْمَكْتَبِ الْمِصْرِيَّةِ...
وَقَدْ شَرَحَهَا ابْنُ بَدْرُونَ، وَمِنْ أَيْبَاتِهَا :

فَمَا صِنَاعَةُ عَيْنِهَا سِوَى السَّهْرِ فَلَا تَعْرِفُكَ مِنْ دُنْيَاكَ نَوْمَتُهَا
مِنَ اللَّيَالِي وَخَاتَمَتُهَا يَدُ الْغَيْرِ مَا لِلَّيَالِي - أَقَالَ اللَّهُ عَشْرَتَنَا
مَنَاجِرَاحٍ وَإِنْ زَاغَتْ عَنِ الْبَصْرِ فِي كُلِّ حِينٍ لَهَا فِي كُلِّ جَارِحَةٍ
كَالْأَيْمِ^(١) نَارًا إِلَى الْجَانِي مِنَ الشَّمْرِ تَسْرُ بِالشَّيْءِ لَكِنَّ كَيْ تَعْرِفَ بِهِ
وَقَالَ الْمُتَنَبِّي :

أَبْنَى أَيْنَا نَحْنُ أَهْلُ مَنَازِلِ أَبْدَا غُرَابُ الْبَيْنِ فِيهَا يَنْعِنُ
تَبْكِي عَلَى الدُّنْيَا وَمَا مِنْ مَعْشِرِ جَمَعْتَهُمُ الدُّنْيَا فَلَمْ يَتَفَرَّقُوا
أَيْنَ الْإِكْأَسِرَةِ الْجِبَابِرَةِ الْأَثَلِي كَنَزُوا الْكُنُوزَ فَمَا بَقِينَ وَلَا بَقُوا
مِنْ كُلِّ مَنْ ضَاقَ الْفِضَاءُ بِجَيْشِهِ حَتَّى تَوَى فَحَوَاهُ لَحْدٌ ضَمِيْقُ
حُرْسٌ إِذَا نُودُوا كَأَنْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الْكَلَامَ لَهُمْ حَلَالٌ مُطْلَقُ
وَالْمَوْتُ آتٍ وَالنَّفُوسُ تَفَاسِدُ وَالْمُسْتَعْرِ بِمَا لَدَيْهِ الْأَحْمَقُ
وَالْمَرْءُ يَأْمَلُ، وَالْحَيَاةُ شَهِيَّةٌ وَالشَّيْبُ أَوْقَرُ، وَالشَّيْبَةُ أَنْزَقُ

« أَبْنَى أَيْنَا : يَا إِخْوَتَنَا ، يَا بَنِي آدَمَ ، وَأَرَادَ بِغُرَابِ الْبَيْنِ : دَاعِيَ الْمَوْتِ
يَقُولُ : نَحْنُ نَازِلُونَ فِي مَنَازِلٍ يَتَفَرَّقُ عَنْهَا أَهْلُهَا بِالْمَوْتِ ، فَقَوْلُهُ : تَبْكِي عَلَى

(١) الْاَيْمِ : الْاَلْفَعْيُ .

الدنيا... أبيت مثله قول جرير برثى امرأته :

لَا يَلْبَثُ الْقُرْنَاةُ أَنْ يَتَفَرَّقُوا لَيْلٌ يُكْرِعُهُمْ وَنَهَارٌ

وثوى - بالمثلثة : أقام في القبر؛ وبالمنثاة : هلك، وهذا البيت من قول أشجع :

وَأَصْبَحَ فِي لِحْدَيْنِ الْأَرْضِ ضَيْقٌ وَكَانَتْ بِهِ حَيًّا تَضِيقُ الصَّحَاصِحَ

« الصحاصح جمع صحصح : وأصله ما استوى من الأرض وكان أجرد »

والمستغر : المغرور، يقول في هذا البيت : النفوس يأتي عليها الموت وإن

كانت عزيزة نفيسة لا يمنعه ذلك من أخذها، واللاحق هو المغرور بالدنيا

وبما يجمعه فيها، أما العاقل فإنه لا يغير بما جمعه لعله أنه لا يبقى هو ولا ما جمعه،

وقوله : والمرء يأمل... أبيت يقول : المرء يرجو الحياة لطيبها لديه،

والشيب أكثر له وقاراً من الشباب، يعني : أن المرء يكره الشيب ويحب

الشباب والشيب خير له، لأنه يسكبه الحلم والأناة والوقار، والشباب شر

له، لأنه يحمله على الطيش والنزق والحُمق، وقال الشاعر :

رَبِّ قَوْمٍ عَبَرُوا مِنْ عَيْشِهِمْ فِي نَعِيمٍ وَسُرُورٍ وَعَدَقَ

سَكَتَ الدَّهْرُ زَمَانًا عَنْهُمْ ثُمَّ أَبْكَاهُمْ دَمًا حِينَ نَطَقَ

« الغدق المراد به الخصب والسعة، وقان مالك بن دينار :

أَتَيْتُ الْقُبُورَ فَنَادَيْتُهُنَّ أَيْنَ الْمَعْظَمِ وَالْمَحْتَقَرِ

وَأَيْنَ الْمُدِلِّ بِسُلْطَانِهِ وَأَيْنَ الْمُرَكِّي إِذَا مَا فَتَخَرُ

قال : فنوديت من بينها ولا أرى أحدا :

تَفَانَوْا جَمِيعًا فَمَا نُخْبِرُ وَمَاتُوا جَمِيعًا وَمَاتَ الْخَبِرُ

تَرُوحُ وَتَعْدُو بَنَاتُ السَّرَى وَتَمْخُجُو مَحَاسِنَ تِلْكَ الصُّورِ

فِي سَائِلِي عَنْ أَنَاسٍ مَضَوْا أَمَّا لَكَ فِيمَا تَرَى مُعْتَبَرًا

« بنات الثرى : الدود » ...

ونزل النعمان بن المنذر ومعه عدى بن زيد العبادى فى ظل شجرة عظيمة
ليتلها ، فقال له عدى : أتدرى ماتقول هذه الشجرة ؟ قال : لا ،
قال : تقول :

رُبَّ رَكْبٍ قَدْ أَنَاخُوا حَوْلَنَا يَمْزُجُونَ الْخَمْرَ بِالْمَاءِ الزُّلَالِ
نَمْ أَضْحَوْا عَصَفَ الدَّهْرِ بِهِمْ وَكَذَلِكَ الدَّهْرُ حَالًا بَعْدَ حَالٍ

ونظرت امرأة إلى جعفر بن يحيى البرمكى وزير الرشيد ، وهو مصلوب
فقال : لئن كنت فى الحياة غاية فلقد صرت فى الممات آية ... ولحامات
الإسكندر المقدونى وقف عليه أرسطو الفيلسوف فقال : طالما كان هذا
الشخص واعظا بليغا ، وما وعظ بموعظة فى حياته أبلغ من عظته فى مماته ،
أخذ هذا المعنى أبو العتاهية فقال :

وكانت فى حياتك لى عظات وأنت اليوم أو عظ منك حيا

من مات فقد تنهى فى البعد

قال النابغة الذبياني :

حَسْبُ الْخَالِئِينَ نَأَى الْأَرْضِ بَيْنَهُمَا هَذَا عَلَيْهَا وَهَذَا تَحْتَهَا بِالِ
وَقَالَ أَبُو حِيَّةَ النَّمِيرِيُّ :

فَلَا غَائِبٌ مِنْ كَانَ يُرْجَى إِيَابُهُ وَلَكِنَّهُ مِنْ ضَمِنَ اللَّحْدَ غَائِبٌ



غفلة الناس عن الموت

قال أبو العتاهية :

الناسُ في غَفَلَتِهِمْ وَرَحَى الْمَنِيَّةِ تَطْحَنُ
 وقال الحسن البصرى : مارأيتُ يَيقِنَا لاشكَّ فيه أشبهَ بشكِّ لايقين فيه
 مثلَ الموتِ ، وقد تقدم ، وقال عمرُ بنُ عبد العزيز في خطبة له : ما هذا
 التغافلُ عما أمرتُم به ، والتسرُّعُ إلى ما نهيتمُ عنه ، إن كنتم على يقين فأنتم
 حَقُّقٌ ، وإن كنتم على شكِّ فأنتم هَلَكى ...

وقال شاعر :

وناملُ من وعدِ المني غيرَ صادقٍ ونأمنُ من وعدِ المني غيرَ كاذبِ
 بُراعُ إذا ما شيكَ إحصُصَ بعضنا وأقدمنا ما بين شوكِ العقاربِ
 « المني : جمع المنيّة وهو ما يتمناه المرء ، والمني : الموت ، وأصله القدر
 تقول : منى الله لك ما يسرك : أى قدر الله لك ما يسرك . ويسمى الموت بالمنى
 لأنه قُدر علينا ، وقيل : من لم يرتدع بالموت وبالقرآن ثم تناطحت الجبال
 بين يديه لم يرتدع .

لا ينجو من الموت أحد

قيل : من لم يمت عاجلاً مات آجلاً ؛ وقال أمية بن أبى الصلت :
 من لم يمت عبطة يمت هرماً للذوت كآس والمرء ذاتها
 مالدّة النفس في الحياة وإن عاشت قليلاً فالموت لاحقها
 يقودها قائدٌ إليه ويخدوها خبيثاً إليه سائقها

« يقال : مات فلانُ عِبْطَةً : أى شاباً ، وقيل : شاباً صحيحاً ، وأصل العبيط من اللحم : ما كان سليماً من الآفات ويقال : عَبِطَ الشاةُ والناقةُ وكلُّ دَابَّةٍ : نَحَرها أو ذَبَحها من غير داءٍ وهى فِتْيَةٌ ،

وقيل لابن المقفع : قد كنتَ نُعَيْتَ لنا ! فقال : ما بعدُ كأن ولا قُرْبَ بآن ... وقال ابن المعتز :

ألا إنما جِسمي لِروحِي مَطِيَّةٌ ولا بدُّ يوماً أن يُعَرِّى مِنَ الرَّحْلِ

« الرحل : المنزل ، والسرج يوضع على ظهر الدابة ، وعُرِّى منه نُزِعَ عنه وهذا على المثل ، وقال محمود الوراق :

وما صاحبُ السَّبعينَ والعشرِ بعدها بأقربَ مِن حَنَكَتُهُ للقوايلِ

ولكنَّ آمالاً يُومئها الفتى وفيهنَّ للراجينَ حَقٌّ وباطلٌ

« القوايل جمع قابلة : المرأة تتلقى الولد لدى الولادة « المولدة » وحنكته

فالتحريك : أن تمضغَ التمرَ ثمَّ تدُلُّكهُ بِحَنَكِ الصبيِّ داخلَ فيه ، ...

وقال المتنبي :

وأوفى حَيَاةِ الغايرينَ لصاحبِ حَيَاةِ امرئٍ خاتتهُ بعدَ مشيبِ

« يريد المتنبي : أن الحياة وإن طالت فهي إلى انقضاء ، يقول : أوفى عمر

أن يبقى حتى المشيب ثم يخونهُ عُمرُهُ بعد ذلك ، وتصارُهُ الموت ، أو تقول : إذا

عاش المرءُ إلى بلوغِ المشيبِ ثم خاتته حَيَاته يومئذ فقد تناهت في الوفاء »

ومرَّ شيخ من العربِ بِنِغلامٍ فقال له الغلامُ : أَحَصَدْتَ يا عمَّاه ، فقال : يا بُنَيَّ ،

وَبُخَصَّرُونَ ، أَحَصَدْتَ : آن لك أن تُحَصِّدَ ، وتُخَصِّرُونَ : تموتون خُضْرًا في

شبابكم ،

الموت لا يتحرز منه بشيء

ولو كان الطَّبَّ

قال المتنبي :

يموتُ راعي الضأنِ في جهلهِ مَوْتَهُ جالينوسُ في طِبِّهِ
ورُبَّمَا زَادَ على عُمْرِهِ وزادَ في الأَمْنِ على سِرِّهِ ^(١)

وقبل هذين البيتين :

لا بُدَّ لِلإِنسَانِ مِنْ ضَجْمَةٍ لا تَقْلِبُ المُضْجَعِ عن جَنْبِهِ ^(٢)
يَنسَى بها ما كان مِنْ عُنْبِهِ وما أذاقَ المَوْتَ مِنْ كَرْبِهِ ^(٣)
نَحْنُ بنو المَوْتِ فما بَالُنَا نَعافُ ما لا بُدَّ مِنْ شُرْبِهِ ^(٤)
تَبْخَلُ أيدِينا بأرواحِنَا على زَمَانٍ هِيَ مِنْ كَسْبِهِ ^(٥)
فهذِهِ الأرواحُ مِنْ جَوْهٍ وهذِهِ الأَجسامُ مِنْ تُرْبِهِ ^(٦)

(١) السرب : النفس (٢) لا بد للإنسان من اضطجاع في القبر يبق بتلك

الضجعة لا يقبله ذلك الاضطجاع إلى يوم البعث .

(٣) إذ انزل القبر نسي الإعجاب وما ذاق من شدة الموت ، وهكذا الميت .

(٤) نحن بنو الأموات والموت كأس مدارة علينا ولا بد لنا من شربها فما بالنا نكرها !

فكما مات أبائنا فنحن على آثارهم . كتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض أصحابه يعزیه في أبيه : أما بعد ، فإنا أماس من أهل الآخرة سكننا في الدنيا ، أموات ، أباء أموات ، أبناء أموات ، فالحجب لميت يكتب إلى ميت يعزیه عن ميت ...

(٥) تبخل أيدينا بأرواحنا ونمسك بها بخلاها على الزمان والارواح مما أكسبه الزمان ! قال حكيم : إذا كان تماشى الارواح من كرور الايام فالنا نعا ف رجوعها إلى أما كنها !

(٦) الإنسان مركب : من جوهر لطيف وجوهر كثيف ، فالارواح من الجوق والهواء ، والاجسام من التراب ، وكل عنصر عائد إلى عنصره

لَوْ فَكَّرَ الْعَاشِقُ فِي مُنْتَهَى حُسْنِ الَّذِي يَسْبِيهِ لَمْ يَسْبِهِ (١)

لَمْ يُرَ قَرْنُ الشَّمْسِ فِي شَرْقِهِ فَشَسَّكَتِ الْأَنْفُسُ فِي غَرْبِهِ (٢)

إلى أن قال بعد البيتين المذكورين آنفا:

وَعَايَةُ الْمُفْرِطِ فِي سِئَلِهِ كَعَايَةُ الْمُفْرِطِ فِي حَرْبِهِ (٣)

فَلَا قَضَى حَاجَتَهُ طَالِبٌ فَوَادُهُ يَخْفِقُ مِنْ رُغْبِهِ (٤)

وقيل للربيع بن حُثَيْمٍ في مَرَضِهِ: أَلَا نَدْعُو لَكَ طَيِّبًا؟ قَالَ: أُنْظِرُونِي،
ثُمَّ فَكَّرَ فَقَالَ: وَعَادًا وَتَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا، لَقَدْ
كَانَ فِيهِمْ أَطْبَاءٌ، فَمَا أَرَى الْمُدَاوِيَ بَقِيَّ وَلَا الْمُدَاوِيَ صَلُحَ
وَدَخَلَ الْفَرَزْدَقُ عَلَى مَرِيضٍ يَعُودُهُ فَسَمِعَهُ يَطْلُبُ طَيِّبًا فَقَالَ:

يَا طَالِبَ الطَّبِّ مِنْ دَاءٍ نَخْوَنَهُ إِنَّ الطَّيِّبَ الَّذِي أَبْلَاكَ بِالْءَاءِ

هُوَ الطَّيِّبُ الَّذِي يُرْجَى لِعَاقِبَتِهِ لَأَمِنْ يَدُوفٍ لَكَ التَّرْيَاقَ بِالْمَاءِ

« الَّذِي أَبْلَى الْمَرِيضَ بِالْءَاءِ وَالَّذِي يُرْجَى لِعَاقِبَتِهِ: هُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ .
وَيَدُوفٌ: يَخَاطُ . وَنَخْوَنَهُ: غَيَّرَ حَالَهُ إِلَى أَسْوَأِهَا، وَيُرْوَى: تَخْوَنَهُ وَالتَّرْيَاقُ:
الدَّوَاءُ هُنَا، وَأَبْلَاهُ: صَنَعَ بِهِ مَا يَمْتَحِنُ بِهِ وَيَخْتَبِرُ

(١) العاشق للشئ المستهام به لو أفكر في منتهى حسن المعشوق وأنه يصير إلى
زوال لم يعشقه ولم يملك عشقه إياه عليه أمره . وهذا يطرد في كل شئ .
(٢) لا بد من الفناء فالشمس من رأها طالعة علم أنها غاربة لا محالة، كذلك كل شئ .
مصيره إلى الزوال .

(٣) إن الذي أفرط وجاوز الحد في السلم كالذي أفرط وجاوز الحد في الحرب،
الكل إلى فناء وإذن لا عذر لمن يجزع قال حكيم: آخر إفراط التوق أول موارد
الحتوف (٤) من خاف الموت لأدرك حاجته، بدعو المثني على الجبان - لأنه
إذا كان الهلاك متيقناً فلم يخاف الإنسان من الموت ويجزع فرعاً منه!

وقال ابن الرومي :

عَجَزْتُ مَوَارِدَهُ عَنِ الْإِصْدَارِ غَلِطَ الطَّيِّبُ عَلَى غَلْطَةِ مُورِدِ
غَلِطَ الطَّيِّبِ إِصَابَهُ الْمِقْدَارِ (١)

وقال أبو ذؤيب الهذلي :

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ
وقال علي بن الجهم :

كَمْ مِنْ عَلِيلٍ قَدْ تَخَطَّاهُ الرَّدَى فَتَجَا وَمَاتَ طَبِيبُهُ وَالْعُودُ

وقد أخذ هذا من قول عدى بن زيد :

أَيْنَ أَهْلُ الدِّيَارِ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ ثُمَّ عَادُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَتَمُودُ
بَيْنَمَا هُمْ عَلَى الْأَسِيرَةِ وَالْأَنْزِ مَا طِ أَفْضَتْ إِلَى الشُّرَابِ الْخُدُودُ
ثُمَّ لَمْ يَنْقُضِ الْحَدِيثُ وَالْكَيْنَ بَعْدَ ذَا الْوَعْدِ كُكَلُهُ وَالْوَعِيدُ
وَأَطْبَاءُ بَعْدَهُمْ لِجَمُوعِهِمْ ضَلَّ عَنْهُمْ سَعُوطُهُمْ وَاللَّدُودُ
وَصَحِيحٌ أَضْحَى يَعُودُ مَرِيضًا وَهُوَ أَذْنَى لِلْمَوْتِ مِنْ يَعُودُ

« السعوط : الدواء الذي يؤخذ من الأنف ، واللدود : ما يؤخذ من

الدواء بالمسعط ويصب في أحد شقي الفم » ، ويروى : أن عبد الملك بن مروان
هرب من الطاعون ، فركب ليلاً وأخرج غلاماً معه ؛ وكان ينأى على دابته ،
فقال للغلام : حدثني ، فاعل ومن أنا حتى أحدثك ، فقال : على كل حال حدث
حديثاً سمعته ، فقال : بلغني : أن ثعلباً يخدم أسداً ليحميه ويمنعه ممن يريد
فكان يحميه ، فرأى الثعلب عقاباً ، فنجأ إلى الأسد ، فأقعدته على ظهره ، فانقض
العقاب واختلسه ، فصاح الثعلب : يا أبا الحارث ، أغثنى وأذكر عهدك لي

(١) يلحون : يلومون ، والمقدار : القدر

فقال الأسد: إنما أقدّر على منعه من أهل الأرض، وأما أهل السماء فلا سبيل لي إليهم، فقال عبدُ الملك: وَعَظَّتَنِي وَأَحْسَنْتَ، انصرف ورضي بالقضاء...

ولمناسبة الحرب من الطاعون نورد هنا ما أوردنا نظيره في قولنا على التوكل، وهو أن عمر بن الخطاب رضوان الله عليه لما بلغه أن الطاعون وقع بالشام فانصرف بالناس: قال له أبو عبيدة بن الجراح: أفراراً من قدر الله يا أمير المؤمنين؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة! نعم ففر من قدر الله إلى قدر الله؛ أرأيت لو أن لك إبلا هبّطت بها وادياً له جهتان إحداهما خصية والأخرى جدية، أليس لو رعيت في الخصية رعيتها بقدر الله، ولو رعيت الجدية رعيتها بقدر الله؟ وكان عبد الرحمن بن عوف غائباً فأقبل، فقال: عندي في هذا علمٌ سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: إذا سمعتم به - بالطاعون - في أرض فلا تقدّموا عليها، وإذا وقع في أرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه، فحمد الله ثم انصرف بالناس...

وقال المتنبي:

نَعْدُ الْمَشْرِفِيَّةَ وَالْعَوَالِي وَتَقْتُلْنَا الْمُنُونَ بِلا قِتَالِ
وَنَرْتَبُطُ السَّوَابِقَ مُقْرَبَاتٍ وَمَا يُنْجِينَ مِنْ حَبِّ اللَّيَالِي
وَمَنْ لَمْ يَعِشْ فِي الدُّنْيَا قَدِيمًا؟ وَلَكِنْ لَسَبِيلٌ إِلَى الْوَصَالِ

«المشرفية: السيوف -، والعوالي: الرماح، والمنون: الموت، والسوابق جمع سابق وسابقة، والمقربات من الخيل هي الكرام التي ترتبط لكرامتها على أصحابها أو لفرط الحاجة إليها والخب: عدو لا يستفرغ الجهد؛ يقول المتنبي: نحن نعدُّ السيوف والرماح لمنازلة الأعداء ومدافعة الأقران: والموت يخترم نفوسنا

دُونِ قِتَالٍ أَوْ نِزَالٍ ، لَا يُمَكِّنُنَا حِذَارُهُ وَلَا يَتِيماً لَنَا دِفَاعُهُ ، ثُمَّ قَالَ فِي الْبَيْتِ
الثَّانِي : وَنَرْتَبِطُ الْحَيُولَ الْكَرِيمَةَ وَمَعَ هَذَا لَا تُنَجِّينَا مِنْ طَلَبِ الدَّهْرِ إِلَّا بِنَا
وَحَبَّ لِيَالِيهِ فِي آثَارِنَا :

كَأَنَّنَا فِي حُرُوبٍ مِنْ حَوَادِثِهِ فَتَنَحْنُ مِنْ بَيْنِ تَجْرُوحٍ وَمَطْعُونٍ
وَقَدْ تَقَدَّمَ مَعْنَى الْبَيْتِ الثَّلَاثِ .

موت الفجاءة والصحيح يموت

قِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ : مَاتَ فُلَانٌ أَصَحَّ مَا كَانَ ! فَقَالَ : أَوْ صَحِيحٌ مِّنَ الْمَوْتِ
فِي عُنُقِهِ ! وَكَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ : اللَّهُمَّ أَجْرْنِي مِنْ أَنْ أَكُونَ
مُخْتَلِسًا « أَيْ يَخْتَلِسُهُ الْمَوْتُ عَلَى غَفْلَةٍ ، وَفِي الْحَدِيثِ : بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ مَرَضًا
حَابِسًا أَوْ مَوْتًا خَالِسًا ، وَقِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ : كَيْفَ مَاتَ أَبُوكَ ؟ قَالَ : مَاتَ سِرًّا
« أَيْ جَفَاءً ، وَقَالَ الشَّاعِرُ :

وَرُبَّمَا غُوفِصَ ذُو غِرَّةٍ أَصَحَّ مَا كَانَ وَلَمْ يَسْلَمْ
« يُقَالُ : غَافَصَ الرَّجُلُ مُغَافِصَةً وَغِفَافًا . أَخَذَهُ عَلَى غِرَّةٍ فَرَكِبَهُ بِمَسَافَةٍ ،
وَقِيلَ لِرَجُلٍ : مَا كَانَ سَبَبُ مَوْتِ فُلَانٍ ؟ قَالَ : كَوْنُهُ « أَيْ وَجُودُهُ ، وَالْبَيْتُ
الْمَشْهُورُ فِي هَذَا :

مَنْ لَمْ يَمُتْ بِالسَّيْفِ مَاتَ بَعِيرِهِ تَنَوَّعَتِ الْأَسْبَابُ وَالْمَوْتُ وَاحِدٌ

كل إنسان مُعَرَّضٌ لموته أو موتِ أحبته

قَالَ حَكِيمٌ : مَنْ طَالَ عُمُرُهُ رَأَى الْمَصَائِبَ فِي إِخْوَانِهِ وَجِيرَانِهِ ، وَمَنْ قَصُرَ
عُمُرُهُ كَانَتْ مَصِيبَتُهُ فِي نَفْسِهِ ؛ وَقَالَ الشَّاعِرُ :

فَمَوْجَلٌ يَلْقَى الرَّدَى فِي أَهْلِهِ وَمُعْجَلٌ يَلْقَى الرَّدَى فِي نَفْسِهِ
وقال يزيد بن الحكم النقي :

كُلُّ امْرِيٍّ مَسْتَنِيمٌ مِّنْهُ الْعِرْسُ أَوْ مِنْهَا يَتِيمٌ
« العرس : الزوجة ، وآمت المرأة من زوجها تَتِيمٌ وتأيمت مات عنها
زوجها أو قتل وأقامت لا تزوج ، وكذلك الرجل »

جهل الإنسان بوقت موته

قال الله جل شأنه : وما تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وما تَدْرِي
نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ... وقيل لجعفر بن محمد بن علي رضي الله عنهم :
كيف يأتي الموت من وجه شتى ، على أحوال شتى ؟ فقال : إن الله أراد أن
لا يُؤْمَنَ في حال ... وقالوا : أمرٌ لا تَدْرِي متى يغشاك ألا تستعد له قبل
أن يفجأك ! وقال ديك الجن ^(١)

والناس قد علبوا أن لا بقاء لهم لو أنهم عَمِلُوا مِقْدَارَ مَا عَمِلُوا

الموت يسوي بين الأفاضل والأراذل

قال المتنبي في رثائه أبا شجاع فاتكا :

(١) هو أبو محمد عبد السلام بن رغبان الملقب بديك الجن من شعراء الدولة
العباسية ولد سنة ١٦١ هـ وتوفي سنة ٢٣٦ هـ ومن قوله في الخمر وقد أعجب به
أبو نواس :

ظَلَلْنَا بِأَيْدِينَا نَتَّبِعُ رُوحَهَا فَتَأْخُذُ مِنِ أَقْدَامِنَا الرَّاحُ نَارَهَا
مُورِدَةٌ مِنْ كَفِّ ظَبْيٍ كَأَنَّمَا تَنَاوَلَهَا مِنْ حُدِّهِ فَأُدَارَهَا

وَصَلَتْ إِلَيْكَ يَدٌ سَوَاءٌ عِنْدَهَا أَلْبَازُ الْأَشْهَبِ وَالْغُرَابُ الْأَبْقَعُ
«البازُ الأشهبُ : الذي غَلَبَ عليه البياض ، والأبقع : الذي في صدره
بياض يقول المنبئ : وصلت إليك يدٌ - يريد المنية - الشريف والوضيع لديها
سواء ، فعَلَمَها مع الباز الأشهب مع كرمه كفعلها بالغرَاب الأبقع مع قُبْحه
ودَمَامته ، وهذا على المثل » ... وَيُرْوَى أَنَّ الْإِسْكَندَرَ الْمُقْدُونِيَّ مَرَّ بِمَدِينَةٍ
قَدْ مَلَكَهَا غَيْرُهُ مِنَ الْمُلُوكِ ؛ فَقَالَ : انظروا هل يَقِيَّ بها أَحَدٌ مِنْ نَسْلِ
مُلُوكِهَا ؟ فَقَالُوا : رَجُلٌ يَسْكُنُ الْمَقَابِرَ ، فَأَحْضَرَهُ وَسَأَلَهُ عَنْ إِقَامَتِهِ هَذِهِ ؛
فَقَالَ : أَرَدْتُ أَنْ أُمَيِّزَ عِظَامَ الْمُلُوكِ مِنْ عِظَامِ عِبِيدِهِمْ فَوَجَدْتُهَا سَوَاءً ،
فَقَالَ : هَلْ تَدْبِغُنِي فَأُحْيِي لَكَ شَرَفَكَ إِنْ كَانَ لَكَ هِمَّةٌ ؟ فَقَالَ : هِمَّتِي عَظِيمَةٌ
إِنْ أَتَانِيهَا ، فَقَالَ : مَا هِيَ ؟ قَالَ : حَيَاةٌ لَا مَوْتَ مَعَهَا ، وَشَبَابٌ لَا هَرَمَ مَعَهُ ،
وَعِنِّي لَا فَقْرَ مَعَهُ ، وَسُرُورٌ لَا مَكْرُوهَ فِيهِ ، فَقَالَ : لَيْسَ عِنْدِي هَذَا ، فَقَالَ :
دَعْنِي أَلْتَمِسَهُ مَنْ هُوَ عِنْدَهُ ، فَقَالَ : مَا رَأَيْتُ مِثْلَهُ حَكِيمًا ؛ ... وَقَالَ مَالِكُ بْنُ
دِينَارٍ : قَدِمَ عَلَيْنَا بِشْرُ بْنُ مِرْوَانَ أَخُو الْخَافِقَةِ - عَبْدُ الْمَلِكِ بْنِ مِرْوَانَ -
فُطِنَ - أَصَابَهُ الطَّاعُونَ - فَمَاتَ فَأُخْرِجْنَاهُ إِلَى الْقَبْرِ ، فَلَمَّا صِرْنَا إِلَى الْجَبَانِ
- الْجَبَانَةِ - إِذَا نَحْنُ بِسُودَانٍ يَحْمِلُونَ صَاحِبًا لَهُمْ إِلَى الْقَبْرِ ، فَدَفَّنَاهُ وَدَفَّنُوا
صَاحِبَهُمْ ، فَعُدْتُ قَبْلَ الْأَسْبُوعِ فَلَمْ أَعْرِفْ قَبْرَ الْأَسْوَدِ مِنْ قَبْرِهِ ؛ وَفِي هَذَا
يقول الشاعر :

ولقد مررتُ على القبور فما ميزتُ بين العبدِ والمولى

وقال صالح بن عبد القدوس :

فيامنزلًا سوى البلى بين أهله فلم يستين فيه الملوك من السوق

انقضاء ناس بعد ناس

ورجوعهم إلى الموت

قال عليّ كرم الله وجهه : إنَّ الله في كلِّ يومٍ ثلاثَ عساکرٍ : عسکرٌ ينزلُ من الأضلاب إلى الأرحامِ ، وعسکرٌ ينزلُ من الأرحامِ إلى الأرضِ ، وعسکرٌ ينتقلون من الدنيا إلى الآخرة ؛ ^(١) وقال الشاعرُ :

وما نحنُ إلا رُفقةٌ غيرَ أتنا أقمنا قليلاً بعدم و نرُوحُ

وقال آخر :

إذا زرتُ أرضاً بعد طولِ اجتنابِها فقَدتُ صديقاً والبلاذُ كما هيّا

وقال : * أرى الأرضَ تَبقى والأخلاءُ تَذهبُ *
وقيلَ للبهلولِ ^(٢) - وقد أقبل من الجبَّانِ - : من أينَ ؟ فقال :

من عسکرِ الموتِ ، فقيلَ ما قلت وما قالوا ؟ فقال : سألتهم : متى يرحلون ؟ فقالوا : ننتظرُ قدومكم ثم نرتحل ... وررّوا : أن راهبين دخلوا البصرةَ من ناحية الشام فنظروا إلى الحسينِ البصرى ، فقال أحدهما : ميلُ بنا إلى هذا الذى كان سَمتهُ سَمْتُ المسيح ، فعدّلا إليه ، فألقياه مُفترشا يدقته ظاهرَ كَفِّه وهو يقول : يا عجباً ^(٣) لقوم قد أمرُوا بالزادِ وأذِنوا بالرحيلِ ، وأقام

(١) العسکر : الجماعة من كلِّ شيء . يقال : عسکر من رجال ومن خيل

(٢) كان البهلول هذا مجنوناً ممروراً وكان ظريفاً وكان يتشيع ، قال له قائل : أستم فاطمة وأعطيك درهماً فقال . بل أستم عائشة وأعطني نصف درهمٍ أو متر به بعضهم وهو يأكل خبيصاً ، فقال له : أطمعني ، فقال : ليس هو لي ، إنما هو لعائكة بنت الخليفة بعثته إلى لآكله لها ...

(٣) يا عجباً : لك أن تقرأه بالتورين وبدونه أما بدونه فإنه يريد : يا عجبى قلب يا المتكلم

أولهم على آخرهم ، فليت شعري ماذا ينتظرون ! وفي رواية أخرى هذه الزيادة بعد قوله : وأقام أولهم على آخرهم : وآخِرُهُم قُعود يلعبون « قوله : أمروا بالزاد يعنى زاد الآخرة ، وهو العمل الصالح ، وقوله : وأذنوا بالرحيل : أذنوا : أعلبوا ، والرحيل يريد به الموت ، وقوله : وأقام أولهم على آخرهم : لعله يريد : أن أولهم يرضى فعمل آخرهم فلم يُشكر عليه ، ولعله يريد أن موت أولهم كان يجب أن يكون عبرة لآخرهم ، ومن المشهور في هذا آيات قُس بن ساعدة الايادى :

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائرُ
لما رأيتُ مواردًا للموت ليس لها مصاديرُ
ورأيتُ قومي نحوها يمضي الأصاغرُ والأكابرُ
لا يرجعُ الماضي إلى ولا من الباقيينَ غايرُ
أيقنتُ أنى لاحما لة حيث صار القومُ صائرُ

« في الذاهبين : متعلق ببصائر في آخر البيت ، وبصائر : عبر ، والقرون جمع قرن والقرن من الناس : أهل كل زمان ، قال :

إذا ذهبَ القرنُ الذي أنتَ فيهِمُ وحُلُفتَ في قرنٍ فأنتَ غريبُ
ولعله مأخوذ من الاقتران ، فكأنه المقدار الذي يقترن فيه أهل ذلك الزمان في أعمارهم وأحوالهم ، ومن هنا اختلفوا في تحديد القرن من الزمان فقيل : أربعون سنة ، وقيل : ثمانون ، وقيل مائة سنة ، والموارد جمع مورد وهو :

ألغوا أما بالتونين فكأن تجعل عجا منادى منكر ، ولك أن تجعل «يا ، حرف تبييه وعجبا مصدر منصوب بفعل محذوف أى تعجبوا عجا وأن تجعل «يا ، حرف نداء والمنادى محذوف أى يا قوم ، وعجبا كذلك ...

محلُّ الورد ، أى الاتيان ، والمصادر جمع مصدر ، وهو : موضع الصدور ،
أى الانصراف والرجوع ، وغابر اسم فاعل من غَبَرَ بمعنى : مكثَ وبقي ،
وبمعنى : مضى أيضا ، فهو من الأضداد ،

من يخاف الموت ولا يستعد له

وحشهم على تعاطى ما يهون أمر الموت

جاء رجلٌ إلى سيدنا رسول الله فقال : يا ربِّ الله ، ما لى لأحِبُّ الموت ؟
فقال له : هل لك مالٌ ؟ قال : نعم ؛ قال : قدّمه بين يديك ؛ قال : لأطيقُ
ذلك ، فقال سيدنا رسول الله : إنّ المرء مع ماله إنّ قدّمه أحبّ أن يلحقَ به
وإنّ آخره أحبّ أن يتخلّف معه ... وقال الحسن البصرىُّ لشيخ في جنازة :^(١)
أُترى هذا الميت لورجع إلى الدنيا أكان يعمل صالحا ؟ قال : نعم ، قال :
إن لم يكن ذاك فكن أنت ذاك ... وقال القاضى أبو الحسن على بن عبد العزيز
الرجباني :

إذا قلت لم يبلغ بي السن مبلغا وعظمتُ بطفيلٍ صار قبلى إلى الترابِ
وقال على رضى الله عنه لرجل : كيف أنتم ؟ قال : نرجو ونخاف ، قال :
من رجّا شيئا طلبه ومن خاف شيئا هرب منه ... وقال أبو الدرداء : العجبُ

(١) قال علماء اللغة : الجنازة بكسر الجيم : السرير محمولا عليه الميت : أما بفتح
الجيم فالميت قال أبو على الفارسي : لا يسمى جنازة - بالكسر - حتى يكون عليه ميت وإلا
فهو نعش أو سرير قال الليث : وقد جرى في أفواه الناس جنازة بالفتح والنحارير
ينكرونها ، وقال بعضهم إن اللفظ نبطى وقال آخرون : إنه مشتق من جنز الشيء
يجزئه جنزا ستره وذكروا أن النوار امرأة الفرزدق لما احتضرت أوصت أن
يصلى عليها الحسن البصرى فقبل له في ذلك فقال : إذا جنزتموها فأذنوني

لمن يَكْرَهُ الموت لإِسَاءَتِهِ وَلَا يَكْرَهُ الإِسَاءَةَ فِي حَيَاتِهِ ! ... وقال رجل لأبي الدرداء : مَا بَالُنَا نَكْرَهُ الموت ؟ قال : لِأَنَّكُمْ أَخْرَبْتُمْ آخِرَ نَفْسِكُمْ وَعَمَّرْتُمْ دُنْيَاكُمْ فَكْرَهُمْ أَنْ تُنْقَلُوا مِنَ العُمُرَانِ إِلَى الخِرَابِ ... وقال أبو حازم : كُلُّ عَمَلٍ تَكْرَهُ الموت لِأَجْلِهِ فَدَعَهُ كَيْلًا تَخَافُ مِنْهُ مَتَى أَتَاكَ ...

من أمر ذويه بالبكاء عليه

رَوَى عَنْ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ : إِنْ المِيتَ لَيْعَدَبُ بِبِكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ ... « قال العلماء : أَرَادَ صَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْهِ إِذَا وَصَّى المِيتُ بِذَلِكَ وَأَمَرَ بِهِ عَلَى نَحْوِ مَا كَانَ يَفْعَلُ أَهْلُ الجَاهِلِيَّةِ ، كَقَوْلِ طَرْفَةَ بْنِ العَبْدِ :

إِذَا مِيتَ فَانْعَيْتَنِي بِمَا أَنَا أَهْلُهُ وَشَقَى عَلَى الجَيْبِ يَا ابْنَةَ مَعْبَدٍ ^(١)

وقول الفرزدق :

إِذَا مِيتَ فَانْعَيْتَنِي بِمَا أَنَا أَهْلُهُ فَكُلُّ جَمِيلٍ قُلْتِ فِيَّ مَصَدَّقٌ

وقول ابن المعتز :

إِذَا مِيتَ فَانْعَيْتَنِي بِمَا أَنَا أَهْلُهُ وَلَا تَذْخِرِي دَمْعًا إِذَا قَامَ نَائِحٌ
وَقَوْلِي : تَوَى طَوْدُ المِكَارِمِ وَالعُلَى وَعُطِّلَ مِيزَانٌ مِنَ الجِلمِ رَاجِحٌ
« تَوَى : هَلَكَ ، وَتَقْرَأُ : تَوَى وَطَوْدُ : الجِبَلِ العَظِيمِ ، وَالجِلمُ : الأَنَاءَةُ وَالعَقْلُ ،
وَقَالَ بَعْضُ العُلَمَاءِ : الأُولَى : أَنْ يُقَالَ فِي تَأْوِيلِ الحَدِيثِ : يَسْمَعُ صَوْتَ البِكَاءِ
هُوَ نَفْسُ العَذَابِ ، كَمَا أَنَّ نَعْدَبُ بِبِكَاءِ الأَطْفَالِ ، فَالحَدِيثُ عَلَى ظَاهِرِهِ »

(١) من معلقة طرفة، ومعبد أخوه يوصى ابنة أخيه بأن تشيع خبر هلاكه إذا هو مات - بالثناء الذي يستحقه وشق جيها عليه وبعد البيت :

وَلَا تَجْعَلِي كَأَمْرِئِي لَيْسَ هُمُهُ كَهَمِّي وَلَا يُغْنِي غَنَايَ وَمَشْهَدِي
هـ الهم : الهمّة والطموح إلى العلا، والغناء : الكفاية . والمشهد : الشهود أي ملابسة

من أظهر الندم عند الموت على ما فرط منه

لَمَّا اخْتَضِرَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ جَعَلَ يَدَهُ فِي وَضْعِ الْغُلِّ «القيء» من عنقه ثم قال : اللهم إِنَّكَ أَمَرْتَنَا فَفَرَّطْنَا ، وَنَهَيْتَنَا فَرَكَبْنَا ، اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَا يَسْعُنَا إِلَّا رَحْمَتُكَ ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ هِجِيرَاهُ حَتَّى قُبِضَ ... وقيل لبعض الملوك حين اخْتَضَرَ : ما حالك ؟ فقال : ما حالٌ مَنْ يُرِيدُ سَفَرًا بَعِيدًا بِلا زَادٍ ، وَيَنْزِلُ حُفْرَةً مِنَ الْأَرْضِ مُوَحِّشَةً بِلا مُؤْنِسٍ ، وَيَقْدَمُ عَلَى مَلِكٍ جَبَّارٍ قَدَّمَ إِلَيْهِ الْعُذْرَ بِلا حِجَّةٍ ، وَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مُرْوَانَ عِنْدَ مَوْتِهِ : وَدِدْتُ أَنْ كُنْتُ غَسَّالًا أَكُلُ كُلَّ يَوْمٍ كَسْبَ يَوْمِي لَا يَفْضُلُ عَنِّي ... فقيل ذلك لأبي حازم فقال : الحمد لله الذي جعلنا بحيث يتمنى الملوك حالنا عند الموت ولا تمنى حالهم ... ولَمَّا أَدْنَفَ^(١) الْمَأْمُونُ بْنُ الرَّشِيدِ أَمْرًا أَنْ يُفَرِّشَ لَهُ جِلًّا — بِسَاطًا — لِجَعَلِ يَتَمَرَّغُ فِيهِ وَيَقُولُ :

كُلُّ عَيْشٍ وَإِنْ تَطَاوَلَ دَهْرًا صَائِرٌ مَرَّةً إِلَى أَنْ يَزُولَا
لَيْتَنِي كُنْتُ قَبْلَ مَا قَدْ بَدَأَ فِي رُؤُوسِ الْجِبَالِ أُرْعَى الْوَعُولَا^(٢)
وَأُعْمَى عَلَيْهِ ثُمَّ أَفَاقَ وَهُوَ يَقُولُ :

لَيْسَ كَمَا لَيْسَ كَمَا هَا أَنَا ذَا لَدَيْكُمَا

اللهم لا بَرِيءة فأعْتَدِرْ ولا قوَى فأَتَصِرْ

ثم أُعْمِيَ عَلَيْهِ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ :

إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا وَأَيُّ عَبْدِكَ لَا أَلْمَا^(٣)

الحروب والوقائع (١) أدنف المريض : ثقل مرضه ودنا من الموت .

(٢) الشعر لامية بن أبي الصلت . والوعول : جمع وعل : تيس الجبل

(٣) لامية بن أبي الصلت كذلك وألم الرجل من اللغم وهو مادون الكبائر من

الذنوب قال سبحانه : الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللغم وقيل : اللغم :

أن يلم المرء بالمعصية ولم يصبر عليها

وقال أبو جعفر المنصور عند موته : اللهم إن كنت تعلم أني قد ارتكبتُ
الأمورَ العظامَ جرأةً مني عليك ؛ فإنك تعلم أني قد أطعمتك في أحبِّ الأشياءِ
إليك : شهادةً إن لا إله إلا أنت ، منَّا منك لا منَّا عليك ... وكان سببُ إحرامه
من الخضراء أنه كان يوماً نائماً فأتاه آت في منامه فقال :

كَأَنِّي بِهَذَا الْقَصْرِ قَدْ بَادَ أَهْلُهُ وَعُرِيَ مِنْهُ أَهْلُهُ وَمَنَازِلُهُ
وَصَارَ عَمِيدُ الْقَوْمِ مِنْ بَعْدِنِعْمَةٍ إِلَى جَدَّتْ تُشْنَى عَلَيْهِ جَنَادِلُهُ
فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا رَشْمُهُ وَحَدِيثُهُ تُبْكِي عَلَيْهِ مَعُولَاتِ حِلَالَتِهِ (١)
فاسدِّقْظَ مَرَعُو بَا مِمَّ نَامَ فَاتَاهُ الْآتِي فَقَالَ :

أَبَا جَعْفَرٍ حَانَتْ وَفَاتَكَ وَأَنْقَضَتْ سِنُوكَ وَأَمْرُ اللَّهِ لَا بَدَّ وَاقِعُ
فَهَلْ كَاهِنٌ أَعَدَّدَتْهُ أَوْ مَسْجُمٌ أَبَا جَعْفَرٍ عَنكَ الْمَنِيَّةَ دَافِعُ
فَقَالَ : يَارَبِّعُ اتَّقِنِي بِطُهورِي ، فَقَامَ وَانْغَسَلَ وَصَلَّى وَلَبَّى وَتَجَهَّزَ لِلْحَجِّ ،
فَلَمَّا صَارَ فِي الثَّلَاثِ الْأَوَّلِ اشْتَدَّتْ عَاتِيهِ ، فَجَعَلَ يَقُولُ : يَارَبِّعُ أَتَقِنِي فِي حَرَمِ
اللَّهِ ، فَسَاتَ يَبْسُرُ مِيمُونَ (٢) ... وَقَالُوا : لَقَنَّ مَيْتَكَ - أَيْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ - فِإِذَا
قَالَهَا فَدَعَاهُ يَتَكَلَّمُ بِغَيْرِهَا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَلَا تُضَجِّرْهُ .

من امتنع من التوبة عند موته

اعْتَلَّ أَعْرَابِيٌّ ، فَقِيلَ لَهُ : لَوْ تُبْتُ ، فَقَالَ : لَسْتُ مِنْ يُدْطَى عَلَى الذَّلِّ ،

(١) تبكى - بالتشديد - مثل تبكى بالتحفيف ، وحلالتة : زوجاته ، ومعولات : رافعات
أصواتهن بالبكاء .

(٢) بئر ميمون : بمكة منسوب إلى ميمون بن خالد بن عامر الحضرمي .

إن عافاني الله تُبْتُ وإلا مِت هكذا ... وقيل للحجاج : ألا تتوب ؟ فقال :
 إن كنتُ مسيئاً فليست هذه ساعة التَّوبَة ، وإن كنتُ مُحسناً فليست ساعة الفزع
 « الفزع : الاستغاثة والاستصراخ ، ولعله يريد : أن وقت الموت ليس وقت
 الحساب والمجازاة وإتمام ذلك يوم الفزع الأكبر - يوم البعث - ولعل المعنى :
 مادمت محسناً فليس نمت دافع للخوف ،

من يحبون الموت

قال عبد الله بن مسعود : ما من نفسٍ حيَّةٍ إلا والموتُ خيرٌ لها ، إن كان
 برا فإن الله تعالى يقول : وما عند الله خيرٌ للأبرار ، وإن كان فاجراً فإن الله
 تعالى يقول : ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خيرٌ لأنفسهم إنما نملي
 لهم ليزدادوا إثماً ، ولهم عذابٌ مهين ^(١) وحضر أحد الصالحين الموت ، ففرح
 فقيل له : تستبشرب الموت ؟ فقال : أتجدلون قدومي على خالق أرجوه كقمامي
 على مخلوقٍ أخافه ! وسئل حكيم عن الموت ، فقال : هو فزعُ الأغنياء وشهوةُ
 الفقراء ... وقال بعضهم : لا يكون الحكيم حكيماً حتى يعلم أن الحياة تسترُّهُ
 والموت يُعْتِقُهُ .. وقال المنبي :

تُغْرُ حَلَاوَاتُ النُّفُوسِ قَلُوبَنَا فَتَخْتَارُ بَعْضُ التَّيْشِ وَهُوَ حِمَامٌ
 « يقول المنبي : حُبُّ الحياة يغرُّ القلب حتى يختار عيشاً فيه ذل :

(١) قرئ : ولا تحسبن على أنه خطاب للرسول عليه السلام وقرئ ولا يحسبن
 فالذين فاعل ومافي إنما نملي لهم مصدرية وكان حقها أن تفصل في الخط ولكنها وقعت
 متصلة في الإمام - المصحف العثماني - فاتبع ، والإملاء : الإمهال وإطالة العمر ؛ وقيل -
 تخليتهم وشأنهم من أملى لفرسه إذا أرخى له الطول ليرعى كيف شاء ، واللام
 في قوله سبحانه ليزدادوا إثماً لام الإرادة وعند المعتزلة لام العاقبة

وَسَرَّ الْحَمَامِينَ الزُّوَامِينَ عَيْشَهُ يَذُلُّ الَّذِي يَخْتَارَهَا وَيَضَامُ»

وقال أيضا:

وما الدهرُ أهلٌ أن تُومَلَ عندهُ حياةٌ وأن يُشْتاقَ فيه إلى النَّسْلِ

«وقد تقدم»، وفي هذه القصيدة يقول المتنبي:

نُبِّكِي لِموتانا على غيرِ رَغْبَةٍ تَفُوتُ من الدنيا ولا مَوْهَبِ جَزَلِ
إذا ما تَأَمَّلْتَ الزمانَ وَصَرَفَهُ تَيَقَّنْتَ أن الموتَ ضَرْبٌ من القَتْلِ

«يقول: نحن نبكى على موتانا ونحزن لهم ونأسف لفراقهم ونحن على يقين من أنهم لا يفوتهم من الدنيا ما يُرغَبُ في مثله ولا يمتعون منها بما يصحُّ أن يتنافس في نيله؛ ثم قال في البيت التالي: وأنت إذا ما تأملت وأنعمت النظر في تصاريف الدهر وخطوبه تيقنت أن الموت المحتوم على المرء كالذي يتوقعه من القتل وإذن لا داعي للجبن والذعر ولا موجب لحب الحياة والتهافت عليها قال عنبرة:

فأجبتُها: إنَّ المنيَّةَ مَنهَلٌ لا بُدَّ أن أُسْقَى بِذاك المَنهَلِ

فاقَى حيايَاكَ لا أبالكِ وأعلبي أني امرؤُ سأموتُ إن لم أُقتلِ

«فاقى خبائك: فالزيميه واحفظيه واتخذيه قنية»، وقال الإمام الجنيدي:

مَن كان حيايَاته بنفسه يكون تَماتَه بذهابِ رُوحِه ، فَتَصعُبُ عليه ، ومن كان حيايَاته برَبِّه فإنه يَنْتَقِلُ من حيايَا الطبعِ إلى حيايَا الأصل ، وهى الحيايَا الحَقِيقِيَّةُ .

تمنى الموت

قال أعرابيٌّ: خيرٌ من الحيايَا ما إذا فَقَدْتَه أَلْبَغَضْتَ لِفَقْدِهِ الحيايَا ، وَسَرَّ

من الموت ما إذا نزل بك أَحَبَبْتَ لنزوله الموت ... وقال المتنبّي :
 كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَا فِيَا وَحَسْبُ الْمَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا
 تَمَنِّيَتَاهَا تَمَنِّيَتْ أَنْ تَرَى صَدِيقًا فَأَعْيَا أَوْ عَدُوًّا مُدَا جِيَا
 وَقَالَ الْمُهَلَّبِيُّ الْوَزِيرُ (١) :

أَلَا مَوْتُ يُبَاعُ فَأَشْتَرِيهِ فَهَذَا الْعَيْشُ مَا لَا خَيْرَ فِيهِ
 أَلَا مَوْتُ لَذِيذُ الطَّعْمِ يَأْتِي يُخَلِّصُنِي مِنَ الْعَيْشِ الْكَرِيهِ
 إِذَا أَبْصَرْتُ قَبْرًا مِنْ بَعِيدٍ وَدَدْتُ لَوْ أَنَّي مِمَّا يَلِيهِ
 أَلَا رَحِمَ الْمُهَيِّمِينَ نَفْسَ حُرٍّ تَصَدَّقَ بِالْوَفَاةِ عَلَى أَخِيهِ
 وَاعْتَلَّ الشَّبْلِيُّ ثُمَّ بَرَأَ ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ كَيْفَ أَنْتَ : فَقَالَ :
 كَمَا قُلْتُ : قَدْ دَنَا حَلَّ قَيْدِي قَدَّمُونِي وَأَوْثَقُوا الْمِسْمَارَا

الحياة لا تمل

قال حكيم : الحياة وإن طالّت لا تُتملّ ، وإنما يَمَلُّ المرءُ تكاليف الحياة ،

(١) كان وزير معز الدولة البويهى ، وكان أديباً فاضلاً محباً لاهله وكان قبل اتصاله بمعز الدولة فى ضيق شديد وكان قد سافر مرة ولقى فى سفره مشقة عظيمة واشتهى اللحم فلم يقدر عليه فقال هذه الايات ارتجالاً ، وكان معه رفيق يسمى عبدالله الصوفى فلما سمع الايات اشترى له بدرهم لحماً وطبخه وأطعمه وضرب الدهر من ضرباته وافترقا حتى تورى المهلبى الوزارة وضاعت الاحوال برفيقه هذا فقصده وكتب إليه :

أَلَا قُلْ لِلْوَزِيرِ فَدَتَهُ نَفْسِي مَقَالَةٌ مُذَكِّرٌ مَا قَد نَسِيهِ
 أَتَذَكَّرُ إِذْ تَقُولُ لُنْضِكَ عَيْشُ أَلَا مَوْتُ يُبَاعُ فَأَشْتَرِيهِ

فلما وقف على ذلك هزته أرباحية الكرم وأمر له فى الحال بسبعمائة درهم ووقع فى رقعته : مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبله مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء ، ثم دعا به فخلع عليه وقلده عملاً يرتفق به

ولهذا فَضَّلَ قولُ زُهَيْرِ بنِ أَبِي سُلَيمٍ :
 سَمِئْتُ تَكَالِيفَ الحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ ثَمَانِينَ حَوْلًا لَا أَبَالَكَ يَسَامٍ
 على قول لييد :

ولقد سَمِئْتُ من الحَيَاةِ وطولِهَا وَسُؤَالِ هذا النَّاسِ : كيفَ أَيْدُ
 « تَكَالِيفِ الحَيَاةِ : مَشَاقِهَا وَشِدَائِدِهَا ، أَمَا لِيِيدُ فَإِنَّهُ يَكَاذُ يَكُونُ مَعذُورًا إِذَا
 هُوَ مَلَّ الحَيَاةَ نَفْسَهَا وَلَمْ لَا وَقَدْ عُمِّرَ حَتَّى يَبْلُغَ ثَلَاثِينَ وَمِائَةَ سَنَةٍ ؟ » وَقَالَ المُنَبِّيُ :
 وَلِذِيذِ الحَيَاةِ أَنفُسُ فِي النَّفْسِ وَأَشْهَى مِنْ أَنْ يُمَلَّ وَأُحْلَى
 وَإِذَا الشَّيْخُ قَالَ أَفِ فَا مَ لِّ حَيَاةٍ وَإِنَّمَا الضَّعْفُ مَلًّا
 آلَةُ العَيْشِ صِحَّةٌ وَشَبَابٌ فَإِذَا وَلَّيَا عَيْنَ المَرِيءِ وَوَلَّى
 « وَقَدْ تَقَدَّمْتُ » وَدَخَلَ سُلَيْمَانُ بنُ عَبْدِ المَلِكِ مَسْجِدَ دِمَشْقَ ، فَرَأَى
 شَيْخًا ، فَقَالَ : يَا شَيْخُ ، أَيُسْرَكَ أَنْ تَمُوتَ ؟ فَقَالَ : لَا وَاللَّهِ ، قَالَ : وَلِمَ وَقَدْ
 بَلَغْتَ مِنَ السَّنِّ مَا أَرَى اِقَالَ : مَضَى الشَّبَابُ وَشَرُّهُ ، وَبَقِيَ الشَّيْبُ وَخَيْرُهُ ،
 فَأَنَا إِذَا قَعَدْتُ ذَكَرْتُ اللَّهَ ، وَإِذَا قَمْتُ حَمِدْتُ اللَّهَ ، فَأُحِبُّ أَنْ تَدُومَ لِي
 هَاتَانِ الحَالَتَانِ ...

تسلي الناس عن مآت

قالوا : إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَنْظَرَ النَّاسَ مِنْ بَعْدِكَ فَانظُرْ إِلَيْهِمْ بَعْدَ مَنْ مَاتَ
 قَبْلَكَ ... وَقَالَ أَبُو العَتَاهِيَةِ :
 سَيُعْرَضُ عَن ذِكْرِي وَتُنْسَى مَوَدَّتِي وَيَحْدُثُ بَعْدِي لِلخَلِيلِ خَلِيلُ
 وَقَالَ مَنْصُورُ الفَقِيهِ : (١)

(١) هُوَ أَبُو الحَسَنِ مَنْصُورُ بنِ إِسْمَاعِيلِ بنِ عَمْرِو التَّيْمِيِّ الفَقِيهِ المِصْرِيُّ الشَّافِعِيُّ

كلُّ مذكورٍ من النَّاسِ إِذَا مَا فَقَدُوهُ
صَارَ فِي حُكْمِ حَدِيثِ حَفِظُوهُ فَلَسُّوهُ

وقال آخر:

هَالُوا عَلَيْهِ الثَّرْبَ ثُمَّ انْتَنَوْا عَنْهُ وَخَلَّوْهُ وَأَعْمَالَهُ
لَمْ يَنْقُضِ النَّوْحُ مِنْ دَارِهِ عَلَيْهِ حَتَّى اقْتَسَمُوا مَالَهُ
سهم المنايا بالذخائر مولع

قال أبو تمام (١)

عليك سلامُ اللهِ وَقَفَا فَإِنِّي رَأَيْتُ الْكَرِيمَ الْحُرَّ لَيْسَ لَهُ عُمْرُ
وقال من أبيات يرثى بنى حميد أيضا:

إِنْ يَنْتَحِلْ حَدَنَانُ الْمَوْتِ أَنْفَسَكُمْ وَيَسْلُمُ النَّاسُ بَيْنَ الْحَوْضِ وَالْعَطَنِ
فَالْمَاءُ لَيْسَ عَجِيْبًا أَنْ أَعَذَبَهُ يَفْنَى وَيَمْتَدُّ عُمُرُ الْأَجْنِ الْأَسِينِ
وقال ابن النبية المِصْرِيُّ من أبيات مختارة نوردتها عليك:

النَّاسُ لِلْمَوْتِ كَحَيْلِ الطَّرَادِ فَالسَّابِقُ السَّابِقُ مِنْهَا الْجَوَادُ

الضرب، كان فقيهاً شافعيًا وكان أديبا شاعرا متقنا توفي بمصر سنة ٨٣٠٦هـ ومن شعره السائر:

لِي حَيْلَةٌ فِيمَنْ يَنْمُومُ وَلَيْسَ فِي الْكُذَّابِ حَيْلَةٌ
مَنْ كَانَ يَخْلُقُ مَا بَعْدَهُ وَلِخَيْلِي فِيهِ قَلِيلُهُ
ومنه: إِذَا تَخَلَّفْتَ عَنْ صَدِيقٍ وَلَمْ يُعَانِبْكَ فِي التَّخَلُّفِ
فَلَا تُعَدُّ بَعْدَهَا إِلَيْهِ فَإِنَّمَا وَدَّهَ تَكْلُفُهُ

(١) من مرثيته التي يرثى بها محمد بن حميد الطوسي وأولها:

كَذَا فَلْيَجَلَّ الْخُطْبُ وَلْيَفْدَحِ الْأَمْرُ فَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَفِضْ مَاؤُهَا عُدْرُ

والله لا يدعو إلى داره
والموت نفاذ على كفه
والمرء كالظل، ولا بد أن
لا تصلح الأرواح إلا إذا
أرغمت يا موت أنوف القنا
وقال شاعر:

فلا تجزعبن من موته وهو نائبي
فكل طويل المجد يقصر عمره
ولا ينكرن هذا من جرب الدهرا
كذلك سباع الطير أقصرها عمرا

إنكارهم الشماتة في الموت

قال عدى بن زيد العبادي :

أيها الشامت المعير بالدمه
أم لبيك العهد الوثيق من الأيا
ر أنت المبرأ الموفور
يم بل أنت جاهل مغرور
« وقد تقدمت هذه الآيات... » وقال شاعر:

تمنى رجال أن أموت وإن أمت
ولما مات الحسن بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهما دخل عبد الله
فتلك سبيل لست فيها بأوحد
ابن عباس على معاوية، فقال له معاوية: يا ابن عباس، مات الحسن بن علي؟
قال: نعم، وقد بلغتُ سجدك، أما والله: ما سدَّ جثمانه حفرتك، ولا زاد

= وقول أبي تمام: إن ينتحل البيتین. فينتحل: يأخذ النفوس نحلة أى عطية، ولك
أن تقرأها ينتحل، والعطن: مبرك الإبل حول الحوض، والآجن: الماء المتغير الطعم
واللون ومثله الآسن

انقضاء أَجَلِهِ فِي عُمْرِكَ ، قَالَ : أَحْسَبُهُ تَرَكَ صِغِيَّةً صِغَارًا وَلَمْ يَتْرُكْ عَلَيْهِمْ
كثِيرَ مَعَاشٍ ؟ فَقَالَ : إِنْ الَّذِي وَكَلَهُمْ إِلَيْهِ غَيْرُكَ ، ... وَقَالَ الْفَرَزْدَقُ :

فَقُلْ لِلشَّامِتِينَ بِنَا أَفِقُوا سَيَلَقَى الشَّامِتُونَ كَمَا لَقِينَا

وَحَكَى الْمَبْرَدُ عَنْ بَعْضِهِمْ : أَنَّهُ شَهِدَ رَجُلًا عَلَى قَبْرِ وَهْوِ يُكْثِرُ الْبِكَاةَ ،
فَقُلْتُ : أَعَلَى قَرِيبٍ أَوْ عَلَى صَدِيقٍ ؟ فَقَالَ : أَحْضُ مِنْهُمَا ، قَدْ كَانَ لِي عَدُوًّا ،
فَخَرَجَ إِلَى الصَّيْدِ ، فَرَأَى ظَبْيًا فَتَبِعَهُ ، فَعَمَّرَ بِالسَّهْمِ ، فَخَرَّ هُوَ وَالظَّبْيُ مَيِّتَيْنِ ،
فَدُفِنَ ، فَانْتَهَيْتُ إِلَى قَبْرِهِ شَامِتًا بِهِ ، فَإِذَا عَلَيْهِ مَكْتُوبٌ :

وَمَا نَحْنُ إِلَّا مِثْلَهُمْ غَيْرَ أَنَا أَقْمَنَا قَلِيلًا بَعْدَهُمْ وَتَرَحَّلُوا

فَهَا أَنَا ذَا وَقَفْتُ أَبْكَى عَلَى نَفْسِي... وَلِمَامَاتِ الْفَرَزْدَقِ بَكَى عَلَيْهِ جَرِيرُ وُورثَاهُ ،
فَقِيلَ لَهُ : أَبَعَدَ تِلْكَ الْعِدَاةُ فَقَالَ : لَمْ أَرَأْتَيْنِ بَلِغَا الْعَايَةَ وَمَاتَ أَحَدُهُمَا إِلَّا وَلِحَقِّهِ
الْآخَرَ عَنْ كَتَبِ ، فَكَانَ كَذَلِكَ... وَقَالَ سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ : لَا تَظْهَرِ الشَّمَاةَ لِأَخِيكَ
فِي مَا فِيهِ اللَّهُ وَيَبْتَلِيكَ - أَقُولُ : يَبْدُو أَنَّ الشَّمَاةَ - وَهِيَ أَنْ تَفْرَحَ بِالْبَلِيَّةِ نَزُولُ بَيْنَ
يُعَادِيكَ - مِنَ الْغَرَائِزِ الْإِنْسَانِيَةِ اللَّئِيمَةِ ، وَمَنْ نَمَّ لَمْ يَنْهَ سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ عَنْ
كُورِيهَا - وَجُودَهَا - وَإِنَّمَا نَهَى عَنْ إِظْهَارِهَا ، لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ الَّذِي فِي اسْتِطَاعَةِ الْمَرْءِ ،
مِثْلُهَا مِثْلُ الْحَسَدِ وَالظَّنِّ وَالطَّيْرَةِ ، وَلِذَلِكَ وَرَدَ فِي الْأَثَرِ أَيْضًا : إِذَا ظَنَنْتُمْ فَلَا
تَحْقُقُوا ، وَإِذَا حَسَدْتُمْ فَلَا تَبْغُوا ، وَإِذَا تَطَيَّرْتُمْ فَأُضُوا ، وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا...
يَقُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ : إِذَا حَسَدْتُمْ : أَى تَنْيَمُ زَوَالَ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى مَنْ
أَنْعَمَ عَلَيْهِ فَلَا تَعَدُّوا وَتَفْعَلُوا مَا يَقْتَضِيهِ ذَا الْحَقِّ الذِّهِيمِ ، وَإِذَا ظَنَنْتُمْ سُوءًا
بِمَنْ لَيْسَ مَحَلًّا لِسُوءِ الظَّنِّ بِهِ فَلَا تَحْقُقُوا ذَلِكَ بِاتِّبَاعِ ، وَارِدِهِ وَالْعَمَلِ عَلَى
مَقْتَضَاهُ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ،
وَالظَّنُّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ ، وَمَنْ أَسَاءَ الظَّنَّ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ دَلَّ عَلَى عَدَمِ

استقامته في نفسه كما قال المتنبي :

إِذَا سَاءَ فِعْلُ الْمَرْءِ سَاءَتْ ظَنُونُهُ وَصَدَقَ مَا بَعْتَدَهُ مِنْ تَوَهُّمِهِ
أَمَانٌ كَانَ مَقْظَنَةً لِلظَّنِّ ، بَأَن كَانَ رَجُلًا شَرِيرًا فَالْحَزْمُ سَوْءُ الظَّنِّ
وَالاحْتِرَاسُ وَالْحَذَرُ ، ثُمَّ قَالَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ : وَإِذَا تَشَاءَ مَتَمَّ بِشَيْءٍ فَأَمْضُوا
طَبَائِعِكُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ خَاطِرُكُمْ لِذَلِكَ وَسَيَمُرُ عَلَيْكُمْ كُلُّ هَوْلَاءٍ فِي دِكْتَابِ
طَبَائِعِ الْمَذْمُومَةِ ، ... وَمَا يَتَّصِلُ بِمَا نَحْنُ فِيهِ مِنَ الشِّمَاتِ بِالْمَيِّتِ مَا يُرْوَى :
أَنَّهُ لَمَّا أَتَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ خَبْرَ قَتْلِ مُصْعَبِ أَخِيهِ احْتَجَبَ أَيَّامًا ، فَخَبَرَ
بِمَجِيءِ قَوْمٍ لِلتَّعْزِيَةِ ، فَقَالَ : أَاكْرَهُمْ وَجُوهًا تُعْزِي أَلْسِنَتُهَا وَتَشْمَتُ قُلُوبُهَا .

لا عار بالموت

قالت ليل الأخيلية :

لَعَمْرُكَ مَا بِالْمَوْتِ عَارٌ عَلَى امْرِئٍ إِذَا لَمْ تُصِبه فِي الْحَيَاةِ الْمَعَارِ
« المعار : المعايير والمسائب يقال : عارَه : إذا عابه ، وتعاير القوم : عَيرَ
بعضهم بعضاً »

الموت نهاية كل حي

قال أبو بكر العنبري : كُنْتُ قَاعِدًا فِي الْجَامِعِ فَمَرَّ بِي مَعْتَوَةٌ فَأَقْبَلْتُ
عَلَيَّ وَقَالَ :

فَهَبْكَ مَلَكَتْ هَذَا النَّاسُ طُرَا وَدَانَ لَكَ الْعِبَادُ فَسَكَانَ مَاذَا
أَلَسْتَ تَصِيرُ فِي لَحْدٍ وَيَحْوِي تُرَاثِكَ عَنْكَ هَذَا نَمِّ هَذَا
وقال الشاعر :

هَبْكَ قَدْ نَلْتَ كُلَّ مَا تَحْمِلُ الْأَرْضُ ضُ قَهْلُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا التَّعْنِيَةَ

وقال القائل :

لِدُوا لِلْمَوْتِ وَأَبْنُوا لِلْخَرَابِ فَكُلُّكُمْ يَصِيرُ إِلَى ذَهَابٍ (١)

وصية الميت

قالوا : كُنْ وَصِيَّ نَفْسِكَ وَلَا تَجْعَلِ الرَّجَالَ أَوْصِيَاءَكَ ، وَأَعْلَمْ صَدَقَ

(١) جاء في الحزاة للإمام البغدادي ما خلاصته: هذا المصراع - لدوا للموت وابنو للخراب - هو من أبيات في الديوان المنسوب إلى علي بن أبي طالب وهي :

عَجِبْتُ لَجَازِعِ بَاكِ مُصَابٍ بِأَهْلِ أَوْ حَبِيبِ ذِي كِتَابٍ

شَقِيقِ الْجَبِيبِ دَاعِيِ الْوَبْلِ جَهْلًا كَأَنَّ الْمَوْتَ كَأَشْيَاءِ الْعُجَابِ

وَسَوَى اللَّهِ فِيهِ الْخَلْقَ حَتَّى نَبَى اللَّهُ عَنْهُ لَمْ يُحَابِ

لَهُ مَلِكٌ يُنَادِي كُلَّ يَوْمٍ لِدُوا لِلْمَوْتِ وَأَبْنُوا لِلْخَرَابِ

• نبي الله : مفعول مقدم ليحباب بمعنى يخص ، قال : ورأيت في جمهرة أشعار العرب أنه قد روى أن بعض الملائكة قال - وأورد البيت الذي أوردناه ، ثم قال :
ولسابق البربري في هذا المعنى :

فَلِلْمَوْتِ تَعْتَدُو الْوَالِدَاتِ نَحَالَهَا كَمَا لِلْخَرَابِ الدَّارُ تُتَبَّى الْمَسَاكِينُ

هذا : وأما اللام في قولهم للموت فقد سماها الكوفيون لام العاقبة ، مثلها مثل قوله تعالى : فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ، وأنكر البصريون لام العاقبة قال الزمخشري : والتحقيق أنها لام العلة وأن التعليل فيها وارد على طريق المجاز وذلك أنه لم يكن داعيهم إلى الالتقاط أن يكون لهم عدوا وحزنا بل المحبة والتبني غير أن ذلك لما كان نتيجة التقاطهم له وثمرته شبه بالداعي الذي يفعل الفعل لاجله واللام مستعارة لما يشبه التعليل كما استعير الأسد لمن يشبه الأسد . انتهى ... وسابق البربري : هو أبو سعيد سابق بن عبد الله من موالى بني أمية ، سكن الرقة ووفد على عمر بن عبد العزيز ، وله أشعار حسنة في الزهد وليس منسوبا إلى البربر وإنما البربري لقب له ، والسبخال في بيته المذكور : جمع سبخلة وهي ولد الشاة من الضأن والمعز ، وقد أقام الظاهر مقام الضمير في المصراع الثاني إلا أنه باللفظ المرادف إذ الأصل : كما تبني المساكن لخرابها .

الذى يقول :

ولا يُغْرُزُكَ مِنْ تُوْصِي إِلَيْهِ فَقَضَرُ وَصِيَّةِ الْمَرْءِ الضَّيَّاعِ
 « قَضَرُهُ وَقَصَارَاهُ أَنْ يَفْعَلَ كَذَا : أَى آخِرِ أَمْرِهِ وَغَايَةِ جَهْدِهِ هُوَ أَنْ يَفْعَلَ
 كَذَا » ... وَقَالَ مَالِكُ بْنُ ضَيْغَمٍ : لَمَّا أَحْتَضَرَ أَبِي قَلْنَا لَهُ : أَلَا تُوْصِي ؟ قَالَ :
 بَلَى ، أَوْصِيكُمْ بِمَا أَوْصَى بِهِ إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ : « يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى
 لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » ، وَأَوْصِيكُمْ بِصَلَةِ الرَّحْمِ وَحُسْنِ
 الْجَوَارِ وَفَنَالِ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنَ الْمَعْرُوفِ ، وَأَذِفُونِي مَعَ الْمَسَاكِينِ ...
 وَقِيلَ لِلْهَرَمِيِّ بْنِ جَبَّانَ : أَوْصِ ، فَقَالَ : قَدْ صَدَقْتَنِي نَفْسِي فِي الْحَيَاةِ ، مَا لِي
 شَيْءٌ أَوْصَى فِيهِ ، وَلَكِنْ أَوْصِيكُمْ بِخَوَاتِمِ سُورَةِ النَّحْلِ ^(١) ...

إنكارهم وصية الميت بما ليس له

عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : جَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ يَعُودُنِي وَأَنَا بِمَكَّةَ ، وَهُوَ يَكْرَهُ أَنْ يَمُوتَ بِالْأَرْضِ الَّتِي هَاجَرَ مِنْهَا ،
 قَالَ : يَرْحَمُ اللَّهُ ابْنَ عَفْرَاءَ ^(٢) ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ : أَوْصَى بِمَا لَيْسَ لَهُ ؟ قَالَ :
 لَا ، قُلْتُ : فَالْشُّطْرُ ؟ قَالَ : لَا ، قُلْتُ : أَلَيْسَ ؟ قَالَ : فَالْثَّلُكُ ؟ قَالَ : فَالْثَّلُكُ ، وَالثَّلُكُ
 كَثِيرٌ ، إِنَّكَ أَنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدْعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ فِي
 أَيْدِيهِمْ ، وَإِنَّكَ مَهْمَا أَنْفَقْتَ مِنْ نَفَقَةٍ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ ، حَتَّى اللَّقْمَةَ تَرْفَعُهَا إِلَى فِي
 امْرَأَتِكَ ، وَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَكَ فَيَلْتَفِعَ بِكَ نَاسٌ وَيُضِرَّ بِكَ آخَرُونَ ،

(١) راجع سورة النحل ، ومن آياتها الكريمة ، الآية الأخيرة : إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا

وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ .

(٢) هُوَ سَعْدُ بْنُ خَوْلَةَ وَعَفْرَاءُ أُمُّهُ ، وَيَلْحَظُ أَنْ قَوْلَ سَعْدٍ : وَهُوَ يَكْرَهُ الْخ

التفات من التكلم إلى الغيبة كما سيمر عليك

ولم يكن له يومئذ إلا ابنةٌ . . . رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن وغيرهم
 « وإليك شرح هذا الحديث الشريف : لما كان سيدنا رسول الله بمكة في
 حجة الوداع ذهب إلى سعد بن أبي وقاص - وهو الصحابي الجليل الذي
 هاجر إلى المدينة قبل أن يهاجر إليها الرسول صلوات الله عليه ، وقد شهد
 بدرًا والمشاهد كلها ، وبشره الرسول بالجنة ، وهو أحد رجال الثورى الستة
 الذين رشحهم الفاروق للخلافة : وهو قائد جيوش عمر في فتح العراق ،
 ثم مات بقصره في العقيق على مقربة من المدينة سنة ٥٥ هـ بعد أن كُفَّ بصره
 رضى الله عنه - أقول : لما كان الرسول بمكة ذهب إلى سعد يعود له لمرض
 اشتد به حتى أشقى على الموت ، وكان سعد يكره أن يموت بالأرض التي
 هاجر منها - مكة - كما مات سعد بن خولة^(١) فلما سمع الرسول اسم سعد
 ابن خولة من ابن أبي وقاص ترحم عليه ، وكان لسعد بن أبي وقاص إذ ذاك
 ابنة واحدة^(٢) ثم قال سعد لسيدنا رسول الله - كما جاء في بعض الروايات -
 إنه قد بلغ بي من الوجع ما ترى وأنا ذو مال ، ولى ابنة واحدة ، أفأوصي
 بمالى كله ؟ قال الرسول : لا ، قال : أفأوصي بالنصف ؟ قال : لا ، قال :
 أفأوصي بالثلث ؟ قال : فالثالثُ توصى به ، والثلث كثير ، ثم قال الرسول :
 - مَبِينَا عن الحكمة في ترك الوصية بالكثير إلى الوصية بالقليل : إنَّ تَرَكَ
 وَرَثَتِكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ تَرَكَهُمْ فَقَرَاءَ يَمُدُّونَ أَوْ كَفَّهْمَ إِلَى النَّاسِ مُسْتَجِدِينَ . .

(١) من المهاجرين الأولين الذين شهدوا بدرًا وقد توفي بمكة في حجة الوداع

وأمه عفراء كما تقدم

(٢) أما بعد أن برئ من هذا المرض بفضل دعوة الرسول فقد عاش كثيرًا كما

قلنا ورزقه الله من الذرية بضعة عشر ابنا واثنتا عشرة بنتا

ثم بين الرسول أن كل ما يُنفقه على زوجته أو ولده أو أقاربه أو خدّمه صدقةٌ ولو كان قليلاً، حتى اللقمة يرفعها إلى فم امرأته، يريد صلوات الله عليه: أن المرء إن استقل أمر الوصية بالثالث أو مادونه فليستكثره بالإنفاق، والأقربون أولى بالمعروف، فإن امتدت به الحياة فليستك هذا الطريق، ثم رجا له الرسول أن يبرأ وتطول حياته ويرتفع شأنه حتى يتفجع به أناس. ويستضرّ به آخرون، وقد تحقق هذا كله حتى عزّ به الإسلام. هذا الوصية بالثالث فأقل قد استقر عليه الإجماع إذا كان هناك ورثة واختلفوا فيمن ليس له وارث «راجع كتب الفقه»... وعن أبي هريرة: قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، أي الصدقة أفضل؟ قال: أن تصدق وأنت صحيحٌ حريصٌ تأملُ الغنى وتخشى الفقر ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا ولفلان كذا... وفي الأثر أيضاً: مثلُ الذي يُعتق ويتصدق عند موته، مثل الذي يهدي إذا شبع... وقال بعض الصالحين عن بعض المترفين: يعصون الله في أموالهم مرتين، يبخّلون بها وهي في أيديهم - يعني في الحياة - ويسرفون فيها إذا خرجت من أيديهم - يعني بعد الموت.

من أوصى بِشَرٍّ وكان قاسياً

لما حضرت الحطيمَةَ الوفاة اجتمع إليه قومه فقالوا: يا أبا مليكة: أوص؛ فقال: وَيْلٌ للشَّعْرِ مِنْ رَاوِيَةِ السُّوءِ؛ قالوا: أوص رحمك الله يا حطيمُ، قال: مَنْ الذي يقول:

إذا أنْبَصَ ^(١) الرامون عنها ترثمت ترثمت شكلي أو جعلتها الجنائزُ؟

(١) أنْبَصَ القوس وأنضها: جذب وترها لتصوت

قالوا : الشَّهَاحُ ؛ قال : أبلغوا عَظْمانَ أَنه أشعرُ العرب ؛ قالوا : وَيَحْكُ ا
أهذه وصية أُرْصِ بما ينفَعُك ا قال : أبلغوا أهلَ ضابني^(١) أَنه شاعرٌ
حيث يقول :

لِكُلِّ جَدِيدٍ لَذَّةٌ غَيْرَ أَنِّي رَأَيْتُ جَدِيدَ الْمَوْتِ غَيْرَ لَذِيدِ
قالوا : أُرْصِ وَيَحْكُ بما ينفَعُك ا قال : أبلغوا أهلَ آمريِّ القيسِ أَنه
أشعرُ العرب حيث يقول :

فِيالْكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نَجْمَهُ بِكُلِّ مُغَارِ الْفَتْلِ سُدَّتْ بِتَدْبِيلِ^(٢)
قالوا : اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ عَنْكَ هَذَا ؛ قال : أبلغوا الأَنْصارَ أَنَّ صاحِبَهُمْ^(٣)
أشعرُ العرب حيث يقول :

يُفْشَوْنَ حَتَّى مَاتَهُ كِلَابُهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ
قالوا : هذا لا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً ، فَقُلْ غَيْرَ مَا أَنْتَ فِيهِ ؛ فقال :
الشَّعْرُ صَعْبٌ وَطَوِيلٌ سَلَبُهُ إِذَا آرَتْ فِيهِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ
زَلَّتْ بِهِ إِلَى الْحَضِيضِ قَدَمُهُ يَرِيدُ أَنْ يُعْرِبَهُ فَيُعْجِمُهُ^(٤)
قالوا : هذا مثل الذي كنتَ فِيهِ ؛ فقال :

قَدْ كُنْتُ أَحْيَاناً شَدِيدَ الْمُعْتَمَدِ وَكُنْتُ ذَا غَرْبٍ^(٥) عَلَى النَّخْصِ أَلَدِ

(١) هو ضابني بن الحارثي البرجمي الشاعر من بني تميم

(٢) من معلقة ، ومغار الفتل : محكمه ، وهو اسم مفعول من أغار الجبل
إغارة : شد قتله ، ويدبيل : جبل

(٣) هو حسان بن ثابت الأنصاري شاعر سيدنا رسول الله وقد تقدم شرح هذا البيت

(٤) الفاء هنا للاستئناف ، والمعنى : فإذا هو يعجمه ولا يصح نصبه عطفاً على

قوله « يعربه »

(٥) الغرب : الحد ومنه غرب السيف : حده

لأحد الأم من حطية هجا بليبه وهجا المرية
* من لومه مات على قرية *

المرية : تصغير مرّة - امرأة - يريد : زوجته ، والفرية يريد القرا
أى الحمار ،

نهيهم عن الإفراط في البكاء وإظهار الجزع

دخلت أعرابية الحضرة فسمعت بكاء من دار فقالت : ما هذا ! أراهم من
ربهم يستغيثون ، ومن استرجاعه يتصجرون ، ومن جزيل ثوابه يتبرّون ...
وقال أبو سعيد البلخي . من أصابته مصيبة فأكثر الغم جعل الله عقوبته
غماً مثله ، قال الله تعالى : فأنا بكم غماً بغمٍ لكيلا تحزنوا ... الآية ..
وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه
وسلم : ليس منّا من لطم الحدود ، وشقّ الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية ...
« ودعا بدعوى الجاهلية : أى من نحو قولهم : والأتاه ، وأماه ، وأولداه ،
وامصبتاه ، ونحو ذلك من ضروب النياحة والثدبة ... ، أما البكاء والجزع
دون إفراط فرخص فيه ، حدث أنس بن مالك قال : دخلنا على أبي سيف
القين ^(١) - وكان ظنراً لإبراهيم عليه السلام ^(٢) ، فأخذ رسول الله صلى
الله عليه وسلم إبراهيم ، فقبّله وشّمّه ، ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم
يجود بنفسه ، فجمعت عينا رسول الله تذرّفان فقال له عبد الرحمن بن عوف

(١) هو البراء بن أوس زوج أم بردة خولة بنت المنذر مرضع إبراهيم بن سيدنا
رسول الله . والقين : الحداد

(٢) الظاهر : المرضع وأطلق عليه ذلك لأنه كان زوج المرضعة

❖ فَوَرَدَتْ نَفْسِي وَمَا كَادَتْ تَرِدُ (١) ❖

قالوا : يَا أَبَا مُلَيْكَةَ ، أَلَيْكَ حَاجَةٌ ؟ قَالَ : لَا وَاللَّهِ ، وَلَكِنْ أَجْزَعٌ عَلَيَّ الْمَدِيحُ الْجَيِّدُ يُمَدِّحُ بِهِ مَنْ لَيْسَ لَهُ أَهْلًا . قالوا : فَمَنْ أَشْعَرُ النَّاسِ ؟ فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ وَقَالَ : هَذَا الْجَحِيرُ إِذَا طَمِعَ فِي خَيْرٍ (بَعْنَى قَهْمٍ) وَأَسْتَعْبَرَ بِمَا كَيَا ؛ فَقَالُوا لَهُ : قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ؛ فَقَالَ :

قَالَتْ وَفِيهَا حَيِّدَةٌ وَذُعْرُ عَوْدُ رَبِّي مِنْكُمْ وَحَجْرُ (٢)

فَقَالُوا لَهُ : مَا تَقُولُ فِي عَيْدِكَ وَإِمَائِكَ ؟ فَقَالَ : هُمْ عَيْدٌ قِنٌّ مَاعَاقِبَ اللَّيْلِ النَّهَارَ ؛ قالوا : فَأَوْصِ لِلْفُقَرَاءِ بِشَيْءٍ ، قَالَ : أَوْصِيهِمْ بِالْإِلْحَاحِ فِي الْمَسْئَلَةِ فَإِنَّهَا تَجَارَةٌ لِأَنْبُورٍ ، وَأَسْتُ الْمَسْئُولِ أَضِيقُ (٣) . قالوا : فَمَا تَقُولُ فِي مَالِكَ ؟ قَالَ : لِلْأَثْنِيِّ مِنْ وَلَدِي مِثْلُ حِطِّ الذِّكْرِ . قالوا أَيْسَ هَكَذَا قَضَى اللَّهُ جَلًّا وَعِزًّا لَهْنًا ، قَالَ : لَكِنِّي هَكَذَا قَضَيْتُ . قالوا فَمَا تَوْصِي لِيَتَامَى ؟ قَالَ : كُلُّوْا أَمْوَالَهُمْ وَأَنْكَحُوا أُمَّهَاتِهِمْ ؛ قالوا : فَهَلْ شَيْءٌ تَعْتَهُدُ فِيهِ غَيْرُ هَذَا ؟ قَالَ : نَعَمْ ، تَحْمِلُونَنِي عَلَى أَتَانٍ وَتَتْرَكُونَنِي رَاكِبَهَا حَتَّى أَمُوتَ ، فَإِنَّ الْكَرِيمَ لَا يَمُوتُ عَلَى فَرَّاشِهِ ، وَالْأَتَانُ مَرَكَبٌ لَمْ يَمُتْ عَلَيْهِ كَرِيمٌ تَطُّ ؛ فَخَمَلُوهُ عَلَى أَتَانٍ وَجَعَلُوا يَنْدَهَبُونَ بِهِ وَيَجِيثُونَ عَلَيْهَا حَتَّى مَاتَ وَهُوَ يَقُولُ :

(١) وردت : أشرفت ، يقال : ورد فلان بلد كذا إذا أشرف عليه وإن لم يدخله

ولعله يريد من الورود : الإشراف على الموت

(٢) حيدة : من حاد عن الشيء إذا صد عنه أو تغير خوفًا منه ، وحجر : أى دفع

ومنع ، والعرب تقول عند الأمر تنكره : حجرًا له ، (بالضم) : أى دفعا

(٣) هذا كناية عن العجز ، يقال للرجل يستضعف : استك أضيق من أن تفعل

كذا ، ويقال للجماعة أتم أضيق أستاذها من أن تفعلوا كذا .

رضى الله عنه : وأنت يا رسول الله ! فقال : يا ابن عوف ، إنها رحمة ، ثم أتبعها بأخرى - أي أتبع الدمعة الأولى بأخرى - وقال صلوات الله عليه : إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى الله ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون ... قوله صلوات الله عليه : ولا نقول إلا ما يرضى الله وفي رواية : ولا نقول ما يسخط الرب : أي من النياحة والصرخ وما إلى ذلك مما يوجب سُخْطَ الله عز وجل ، وقيل لأعرابي : اصبر فالصبر أجر ، فقال : أعلى الله أتجدد أو الله : للجزع أحب إليه ، لأن الجزع استيكانة والصبر قساسة ... وقيل لفيلسوف : أخرج الحزن من قلبك فقال : لم يدخله ياذني فأخرجه ياذني ... وأقرط امرأة في الجزع على آبنها ، فعوتبت في ذلك ، فقالت : إذا وقع حكم الضروريات لم يقع عليها حكم المكتسبات ، فأما جزعي فليس في الطاقة صرفه ، ولا في القدرة منعه ، ولي عذرك للضرورة ، فإن الله تعالى يقول : فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه ...

في البكاء تخفيف من الحزن

قال ابن عباس رضي الله عنه : كنت إذا أصابني مصيبة وأنا شاب لا أبكي ، وكان يؤذيني ذلك ، حتى سمعت أعرابيا يبدؤ :
 لعل انحدار الدمع يعقب راحة من الوجد أو يشفي شجي البلابل
 فسألته لمن الشعر ؟ فقال : لذي الرمة ، فكنت إذا أصبت بكيت ،
 فاسترحت ...

ضعف بذية الإنسان

سئل جالينوس عن الانسان فقال : سراج ضعيف ، وكيف يدوم ضوءه

بين أربع رياح ا « يعنى بالسراج : رُوْحَه ، وبالرياح الأربَع : طبائِعُهُ (١) ،
وقال الشاعر كَيْبِد :

وما المرءُ إلا كالشهابِ وضوئِهِ يحورُ رَمَاداً بعد إذ هو ساطِعُ

« كل شيء تغير من حال إلى حال فقد حارَ يحور حورا ، وقال أفلاطون :
إذا كانت الطينة فاسدةً والبنية ضعيفةً ، والطبائع مُتَنافِيةً ، والعمرُ يسيراً ،
والمَنيَّةُ صادقةً ، فالثِقَّةُ باطلة

استنكافهم من أن يموت المرء حتف أنفه

قال خالد بن الوليد : لقد لقيت كذا وكذا زحفاً ، وما في جسدِي
مَوْضِعُ شِبْرٍ إلا وفيه طائنةٌ أو ضربةٌ أو رميةٌ ثم ها أنا ذا أموتُ على فراشِي
حَتَفَ أني ، فلا نامت أعينُ الجبناء . وقال الشنفرسي :

(١) قال وهب بن منبه : قرأت في التوراة : أن الله عز وجل حين خلق آدم
ركب جسده من أربعة أشياء ، ثم جعلها وراثته في ولده ، تمنى في أجسادهم وينمون
عليها إلى يوم القيامة : رطب ، ويابس ، وسخن ، وبارد ، قال : وذلك أن الله سبحانه
وتعالى خلقه من تراب وماء ، وجعل فيه نفساً وروحاً ، فيبوسة كل جسد من قبل
التراب ، ورطوبته من قبل الماء ، وحرارته من قبل النفس ، وبرودته من قبل الروح
ثم خلق للجسد بعد هذا الخلق الأول أربعة أنواع أخرى هي ملاك الجسد لا يقوم الجسد إلا بهن ،
ولا تقوم واحدة منهن إلا بالأخرى : المرة السوداء ، والمرة الصفراء ، والدم الرطب
الحار ، والبلغم البارد ، ثم أسكن بعض هذا الخلق في بعض ، فجعل مسكن اليبوسة
في المرة السوداء ، ومسكن الرطوبة في الدم ، ومسكن البرودة في البلغم ، ومسكن
الحرارة في المرة الصفراء ، فأما جسد اعتدلت فيه هذه الفطر الأربع وكانت كل
واحدة فيه وفقاً لا تزيد ولا تنقص ، كملت صحته واعتدلت بنيته . فإن زادت واحدة
منهن غلبت وقهرت من ومالت بهن ، دخل على أخواتها السقم من ناحيتها بقدر ما زادت
وإن كانت ناقصة عنهن . ملن بها وعلونها ودخلن عليها السقم من نواحيهن : لفتها
عنهن حتى تضعفن عن طاقتهن وتعجز عن مقاومتهم .

وَلَا تَقْبِرُونِي إِنَّ قَبْرِي مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ وَلَكِنْ أُبَشِّرُ أُمَّ عَائِشَةَ (١)
وقال السموأل أو غيره :

وما مات منا سيد حَتَفَ أنفه ولا طُلَّ منا - حيث كان - قتل

تسيل على حد السيوف نفوسنا وليس على غير السيوف تسيل

«طُلَّ»: أهدردمه، وقيل: أن لا يُثَارَ به وتقبل، بديته وقال أبو تمام:

لَوْلَمْ يَمُتْ تَحْتَ أَسْيَافِ الْعِدَا كَرَمًا لَمَاتَ - إِذْ لَمْ يَمُتْ - مِنْ شِدَّةِ الْحَزَنِ
وقال آخر:

إِنَّ مَوْتَ الْفَرَاشِ ذُلٌّ وَعَارٌ وَهُوَ تَحْتَ السَّيْفِ فَضْلٌ شَرِيفٌ

وقال: * وَأَتَعَبُ مَيِّتٍ مِنْ يَمُوتُ بِدَاهٍ *

وسيمر عليك كثير من عبقرياتهم في هذا المعنى، في «باب الشجاعة»

تم الجزء الأول

من الذخائر والعبقریات

(٢) أم عامر وأم عمرو: كنية الضبع، قال الراجز:

يَا أُمَّ عَمْرٍو أُبَشِّرُ بِالْبُشْرَى مَوْتٌ ذَرِيعٌ وَجَرَادٌ عَظْلَى

وهم يزعمون أن الضبع من أحق الدواب: لأنهم إذا أرادوا صيدها يجيء الرجل

إلى وجارها فيسد فمه بمد ما تدخله لئلا ترى الضوء فتحمل الضبع عليه فيقول لها:

أبشري يا أم عامر بجراد عظلي وكرر رجال قتلى. فتدل له حتى يلقمها ثم يجرها

ويخرجها جراد عظلي: ركب بعضها بعضها كثرة؛ وأصل العظام: الملازمة في

السفاد من الكلاب والسباع والجراد، وقولهم وكرر رجال قتلى، فإنهم يزعمون أن

الضبع إذا وجدت قتيلًا قد انتفخ غرموله ألقته على قفاه ثم ركبته قال عباس بن مرداس:

ولومات منهم من جرحنا لأصبحت ضباع بأعلى الرقتين عرائسا

فهرس

الجزء الأول من الذخائر والعبقریات

المقدمة

الكتاب الأول

فی الفضائل وصالح الأخلاق والمثل العالیا

الباب الأول فی البر والتقوی

البر وألوانه

معنى البر - عبقریاتهم فی البر مطلقا - من صفحة ۲ - ۱۴

بر الوالدين وصلة الرحم وعبقریاتهم فی الآباء والأبناء

والأقارب - من بابات شتی

بر الوالدين ۱۴ - ۱۸ - من أخوا البررة ۱۸ - العقوق وأحوال

العققة ۱۸ - من أقوالهم فی الأولاد المتخلفين ۲۵ - حق الولد علی الوالد ۲۵ -

احتجاج بعض العققة لعقوقهم ۲۶ - ذم الولد وقلة جدواه ۲۹ - الإشفاق

على الأولاد ۳۰ - صلة الرحم ۳۶ - معاملة الخلفاء الراشدين لذوی قرباهم

فی التولية ۳۷ - حث الأقارب على التعاون ۳۸ - العطف على القريب

والحمیله ۴۲ - الشكوى من الأقارب ۴۳ - مظاهره الاجنبی على القريب ۴۶ -

علاج العداة الذى بین الأقارب ۴۷ - كلامهم فی الإخوة ۴۷ و ۴۸ - قطیعة

الإخوة ۴۹ - الناس تجاه البنات ۴۹ - ۵۲ - الخال والخولة ۵۲ -

مدعو القرابة البعیده ۵۴ - تفاخرهم بالحسب وكرم المحتد ۵۵ - من يشبه أباه

فی علاة ابتناه ۵۶ - لا اعتداد بمن شرف أصله إذالم يشرف بنفسه ۵۷ - اعتذار

المتخلفين الإنذال عن تخلفهم عن آباءهم الاشراف ۵۸ - ذم من قصر عن

آبائه ۵۸ - من لا يعتد بأبيه ۵۹ - الابن يجارى أباه ۵۹ - الاسلام يعد

الشرف والحسب بالتقى ۶۰ - الدعوة - أى ادعاء الولد الدعى غیر أیه ۶۰ -

الولد ينسل من الأقارب فيخرج ضاویا ضعيفاً ۶۲ - الرضاة ۶۳

الإحسان

وعبقرياتهم في الجود واصطناع المعروف وقرى الأضياف

وذم البخل والسؤال

- تحفى الاسلام بالإحسان ٦٤ - الناس مجبولون على البخل ٦٥ - مدح الجود
وذم البخل ٦٨ - طرفة لجندى مع معن بن زائدة ٧٦ - حثهم على الجود حتى
في حالة العسر ٧٨ - واجبات ذوى الجاه ٨١ - عبقرية أحمد بن أبي دواد في
اصطناع المعروف ٨٥ - رسالة للجاحظ ينضح فيها عن الجود ٩٥ - كلمة علوية
لسيدنا رسول الله في الحث على الإحسان ١٠٦ - هيات أن أبيت مبطانا: لسيدنا
على ١٠٩ - كان الخلفاء الراشدون مثلا عليا في الرغبة عن شهوات الحياة
الدنيا ١١٠ - عظمة الفاروق في زهده وتقواه ١١٢ - عبقرياتهم في الجود من
بابات شتى ١١٣ - قرى الأضياف ١١٨ - وصية ببخيل لابنه ١٢٤ - ببخيل
بيدق القرى ١٢٨ - عبقرياتهم في قرى الأضياف ١٢٩ - محادثة الضيف
والحديث على الطعام ١٣٢

السؤال وعبقرياتهم فيه من جميع نواحيه

- ذم السؤال ١٣٥ - عبقرياتهم في آداب السؤال واستدجاج الحوائج ١٣٩ - المسئول
تجاه السائل ١٤٥ - طلب الكثير والرضا بالقليل ١٤٨ - من يسأل حاجة
يزعمها صغيرة ١٤٨ - الحث على الصبر والآناة في طلب الحاجات ١٤٨ -
العطية لا تجدى في غير وقتها ١٤٩ - التأسف على الحرمان ١٥٠ - تعريضهم بمن
خيبرهم ١٥٠ - الهدايا والرشى مدرجة للنجاح ١٥٠ - قطع العادة ١٥١ -
شكرى العافين من تفضيل بعضهم على بعض ١٥٢ - بلاغة المكدين ١٥٢ -

حسن الخلق

- حسن الخلق ١٥٤ - نهيهم عن سوء الخلق ١٥٧ - صعوبة تغيير الطباع ١٥٨ -
مداواة الناس ١٥٩

التقوى

- التقوى ١٦١ - معنى التقوى ١٦٢ - الحكمة ١٦٥ - عبقرياتهم
 في التقوى ١٧٠ - كليمه في التوكل ١٧١ - التقوى مع الجهل ١٧٧ -
 التمارت والإفراط في الخشوع ١٧٧ - قلة اليقين في الناس ١٧٨ - إصلاح
 الضمير ١٨٠ - احتمال المكاره في العاجل رجاء المسار في الآجل ١٨١ -
 مراعاة الدين والدنيا معاً ١٨٢ - الجمع بين الرجاء والخوف ١٨٣ - العبادة
 لاطلباً للثواب ولا خوفاً من العقاب ١٨٤ - الرياء ١٨٦ - التوبة ١٨٨ -
 الاستغفار ١٩٢ - عبقریات شتى في الخوف والتقوى ١٩٣

الباب الثاني

في الشكر والحمد والثناء

- معنى الشكر ١٩٨ - حثهم على الشكر ٢٠١ - المعجز عن الشكر ٢٠٤ -
 من لا تخفى أياديته ٢٠٦ - الشكر بقدر الاستحقاق ٢٠٦ - من لم يردعه خوفه
 عن الشكر ٢٠٧ - شكر من هم بإحسان ولم يفعل ٢٠٨ - نقل الشكر
 والحمد ٢٠٨ - تفضيلهم الثناء على العطاء ٢٠٨ - تسهيل القول على الشاكرين
 بتوافر ما يشكر عليه ٢١٠ - حب المنعم أن يرى أثر إنعامه ٢١١ - لا يمدحون
 إلا إذا أعطوا ٢١٣ - حثهم على الشكر ولو لمن ليس على دينهم ٢١٥ -
 استحياؤهم من المدح ٢١٥ - من يمدح نفسه ٢١٦ - نهيم عن المدح قبل
 الاختبار ٢١٧ - عبقریات شتى في الشكر ٢١٧

الباب الثالث

في الصبر وعبقرياتهم فيه وفي الدنيا وفي المرض وفي هاذم اللذات

- ماذا يراد بالصبر في هذا الباب ٢٢١ - عبقرياتهم في الصبر ٢٢٢ - عود
 إلى أسباب الحزن ٢٢٩ - حثهم على الاستعداد للصائب كي نخف وطأنا ٢٣٠ -
 الغم يورث السقم والحرم ٢٣١ - الحزن يبلى بتقادم العهد ٢٣٢ - التأسي بمن

- مصابه كصاحب المصاب وعكس ذلك ٢٣٤ - عروة بن الزبير مثل أعلى للصبر ٢٣٥
 مطرح الموم ٢٣٨ - عبقرياتهم في الدنيا وأنها دار محن ٢٤٥ - أسماء
 الدنيا ٢٤٦ - قلة لبث الإنسان في الدنيا ٢٤٨ - قلة متاع الدنيا ٢٤٨ - الماضي
 والحاضر والمستقبل ٢٤٩ - تحذيرهم من تضييع الأيام ٢٤٩ - الأيام تهدم
 الحياة ٢٥٠ - البقاء في الدنيا سبب الفناء ٢٥١ - فرح الدنيا مشوب بالترح ٢٥٣
 الدنيا موموم وغوموم ٢٥٣ - النقصان بعد التمام ٢٥٥ - الدنيا لا يدوم فيها فرح
 ولا ترح ٢٥٦ - الدنيا غزارة ٢٥٧ - حب الدنيا على الرغم من عيوبها ٢٥٨ -
 الدنيا تضر محبتها ٢٥٨ - بنو الدنيا أغراض لضروب المحن ٢٥٩ - الأيام تمضي
 في تراذلها ٢٦٥ - حدم ماضى الزمان وذتهم حاضره ٢٦٥ - إنكار ذم
 الدهر ٢٦٣ - المسرة من حيث تخفى المضرة ٢٦٤ - الفرج بعد الشدة ٢٦٦
 - من زال كربه فنسى صنع الله ٢٦٦ - لاتعرف النعمة إلا عند
 فقدها ٢٦٧ - فضل العافية وسلامة الدين ٢٦٧ - عبقریات شتى في
 الدنيا ٢٦٨ - عبقرياتهم في الموت ٢٧٣ - أسماء الموت ووصفه ٢٧٣ - تعظيم أمر
 الموت ٢٧٦ - حثهم على تصور الموت ٢٧٧ - استدلال الانسان على موته
 بمن مات قبله ٢٧٨ - الاعتبار بمن مات من الكبار ٢٨٠ - من مات فقد تنامى
 في البعد ٢٨٤ - غفلة الناس عن الموت ٢٨٥ - لا ينجو من الموت أحد ٢٨٥ -
 الموت لا يتحرز منه بشئ ٢٨٧ - موت الفجأة والصحيح يموت ٢٩١ - كل
 إنسان معرض لموته أو موت أحبته ٢٩١ - جهل الانسان بوقت موته ٢٩٢
 الموت يرقى بين الأفاضل والأراذل ٢٩٢ - انقضاء ناس بعد ناس ورجوعهم
 إلى الموت ٢٩٤ - من يخاف الموت ولا يستعد له ٢٩٦ - من أمر ذويه بالبكاء
 عليه ٢٩٧ - من أظهر الدم عند الموت على ما فرط منه ٢٩٨ - من امتنع من
 النبوة عند موته ٢٩٩ - من يحبون الموت ٣٠٠ - تمنى الموت ٣٠١ - الحياة
 لا تمل ٣٠٢ - تسلى الناس عن مات ٣٠٣ - سهم المنايا بالذخائر مولع ٣٠٤
 إنكارهم النسيئة في الموت ٣٠٥ - لا عار بالموت ٣٠٧ - الموت نهاية كل
 حى ٣٠٧ - وصية الميت ٣٠٩ - إنكارهم وصية الميت بما ليس له ٣٠٩ -
 من أوصى بشر وكان قاسياً حين احتضاره ٣١٢ - نهيم عن الافراط في الإكاء
 وإظهار الجوع على الأموات ٣١٤ - ضعف بنية الانسان ٣١٥ - استكناهم
 من أن يموت المرء حتف أنفه ٣١٥

تصحیحات واستدراكات

نرجو القارئ الكريم أن يبادر إلى تصحيح هذه الأخطاء

المطبعية التي نلته إليها هنا

سطر	صفحة	خطأ	صواب
٢٠	٤	فأما	فأما
٢٣	٣	الإفول خالد لأبي ذؤيب	« أنظر الأغانى فقد جاء فيها
			«ج ٦ ص ٢٧٥» أن البيت لأبي ذؤيب وهناك بقية
			الآيات وهي قصيدة جميلة
١	٣٣	مع الوضم	على الوضم
٥	٤٢	فزع	فزع
٤٩٣	٤٣	وقوله ولم تك منهم الخ	وقوله است منهم يروى
			« إذا كنت في قوم عدى ولم تك منهم »
٥	٤٣	فأما قوم عدى	فأما قوم عدى بمعنى أعداء
٦	٦٠	في الغبار	من الغبار
١١	٧٠	وقال آخر	وقال بشار بن برد
١٢	٧٠	وتلعل	وتفرق
٢	٧١	يئس	يئس
١٢	٧٤	مع غير	مع غير
١٤	٧٨	بعض الشعراء	عبيد الله بن عبد الله بن طاهر
١٥	٧٨	وأنفق إذا أنفقت	وأنفق إذا أيسرت غير مقتر

سطر	صفحة	خطاً	صواب
٧٨	» سقط في هذه الصفحة شرح لقول الشاعر سطر ١٦ :		
	على ماخيلت ، وهذا هو الشرح : على ماخيلت : أي		
	شَبَّهت ولونت ، يريد : على أي حال ،		
٦	٨٤	والجودَ	والجودِ
١٥	١١٩	تهدده	تُهدد
			» أي تصوت كما يهدد البعير ويهدر ،
٢١	١٤٧	عذرتها	عذرت
٧	١٥٩	صقيل	صَيْقِلُ
٥	١٩٥	بِخْوَيْصَةٍ	بِخْوَيْصَةٍ » ويوضع بعد كلمة تصغير
			خاصة في الشرح هذه الزيادة :
			قال الزمخشري : الخويصة
			تصغير خاعة بسكون الياء
			لأن ياء التصغير لا تكون إلا
			ساكنة وجوز التقاء الساكنين
			فيها أن الأول حرف لين
			والثاني مدغم ،
١٥	١٩٦	وكل شيء	وكل شيء
١٩	٢٠٣	مأوليتها	مأوليتها
٢٠	٢٠٠	قول البحري	قول إبراهيم بن العباس الثوري
١٩	٢٠٤	مُنكشِفًا	مُنكشِفًا

خطأ	صواب	صفحة	سطر
وفي هادم اللذات	وفي هادم اللذات وفي المرض	٢٢١	٢
ونضوا	ونضوا ونضوا	٢٢٢	٢٠
مُسْتَهْدَفٌ	مُسْتَهْدَفٌ	٢٢٩	١٣
والضيفُ مُرْتَحِلٌ	والضيفُ مُرْتَحِلٌ	٢٥٥	١٨
ثم ترده	ثم ترده	٢٥٥	١٩
أقول لعله	قوله زراع... أبيت لعله	٢٧٠	٦
لا يَلْبَثُ القُرْناءُ	لا يَلْبَثُ القُرْناءُ	٢٨٣	٢
ويروى تخونه	ويروى: تَخَوَّفَهُ	٢٨٨	١٣
خباءك	حياءك	٣٠١	١٥